رجال الفكر والدعوة

في الإسلام

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الجزء الثاني

شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

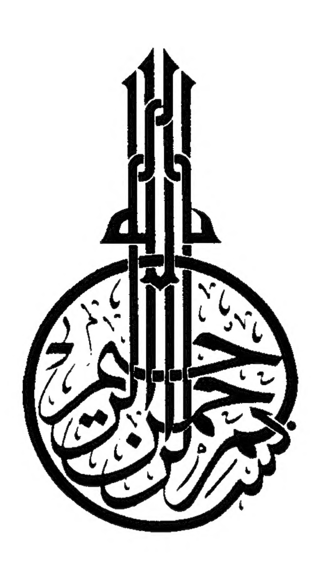
٦٦١ - ٧٢٨هـ

بقلم الداعية الحكيم
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

تعريب
سعيد الأعظمي الندوي

تقديم
الدكتور عدنان زرزور

دار القلم
دمشق



مع شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية

تقديم

الدكتور عدنان زرزور[1]

وضع السيد الأستاذ أبو الحسن السفر الخاص بشيخ الإسلام ابن تيمية باللغة الأوردية عام ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م وطُبع في الهند عام ١٣٧٧هـ ثم في عام ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، ونُقل إلى اللغة الإنكليزية عام ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م قبل أن ينقله إلى العربية الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي، ويعيد المؤلف (قراءته ويتناوله بالتنقيح والتهذيب والحذف والزيادة) ويقدم له عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

وهكذا جاءت النسخة العربية من الكتاب «أكمل وأجمل، وأوفق للذوق العربي السليم» كما يقول الأستاذ السيد أبو الحسن. قلت: وياليت المؤلف أسعفه الوقت ففعل ذلك بكتابيه الآخرين (الإمام السرهنديّ) و(الإمام الدهلويّ) اللذين نقلهما إلى العربية ـ عن الأوردية كذلك ـ الأستاذ السيد سلمان الحسيني الندوي.

وقد وصف الأستاذ المؤلف عملية الترجمة والتعريب هذه بأنها عسيرة دقيقة نظراً «لاختلاف نفسيتي اللغتين ومحيطهما» بالإضافة إلى دقة الموضوع، علماً بأنّ لغة الأردو في شبه القارة الهندية هي اللغة العلمية والتأليفية التي يفهمها أكثر من مئتي مليون في شبه القارة وخارجها، كما يقول الأستاذ السيد أبو الحسن رحمه الله.

وعلى الرغم من الكتب والبحوث والرسائل الكثيرة التي كُتبت عن ابن تيمية ـ والتي يأتي في مقدمتها كتاب أستاذنا العلاّمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ـ

---

(١) نشرنا هنا مايخص ابن تيمية، أما التقديم بتمامه فقد نشر في الجزء الأول من السلسلة.

فإنَّ كتاب الأستاذ السيد أبي الحسن يمتازُ بأنه كُتب من موقع التجديد والإصلاح، أو من زاوية (تاريخ الإسلام الدعوي والفكري)، ولهذا فإنَّ الأستاذ أبا الحسن ركّز على المهمّة التي نهض بها وأدّاها في هذا التاريخ ـ على خيرِ وجوه الأداء ـ المجدّد المصلح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقد لخّص الأستاذ أبو الحسن هذه المهمة الإصلاحية التجديديـة في النواحي الأربعة التالية:

١ ـ تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة.

٢ ـ نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتـاب والسنّـة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب.

٣ ـ الرد على الفرق والملل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٤ ـ تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي.

وقد كان لابن تيمية ـ فوق هذه الجوانب الرئيسة ـ جوانب علمية وعملية أخرى كثيرة، ليس أقلها قيامه بالجهاد بالنفس، وتغييره المنكر بيده.. على المعهود من سـيرته وحياته الحافلة. ويمكننا في هذا السياق وصف ابن تيمية رحمه الله بأنّه كان رائد التجديد والإصلاح و(النهضة السلفية) و(إعادة البناء) بعد سقوط دولة الخلافة.

ابن تيمية ـ ملامح العصر والشخصية:

ولد شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحرّاني الدمشقي عام ٦٦١هـ بعد سقوط حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) على يد التتر بخمسة أعوام، وواكبت حياتُـه ونشـأتُه في دمشق تأسيس دور القرآن والحديث، ومدارس المذاهب الفقهيـة السنيّة الأربعة، التي عرفتها دمشق بهذه الكثرة العجيبة بعد ذلك السقوط. ومعلوم أنَّ دمشق والقاهرة ورثتا بغداد، وقامتا مقامها في رعاية الثقافة الإسلامية وحضارة الإسلام، وأنَّ حظَّ دمشق من هذه الوراثة ـ وبخاصة في باب رعاية علوم الكتاب

والسنة ـ كان راجحاً بحكم قربها الجغرافي من ناحية، وبحكم عدم انقطاع مثل هذه الرعاية، أو عدم مناقضتها بعد زوال حكم بني أمية عام ١٣٢هـ من ناحية أخرى، على خلاف ما كانت عليه مصر في ظل الحكم الفاطمي، الذي لم يكن قد مضى على زوالـه قرنٌ واحدٌ عندما اجتاح (هولاكو) بغداد[١].

ويمكننا القول في هذا السياق: إنَّ العودة إلى الكتاب والسنة، وعدم الخروج عن دلالتهما الصحيحة كانت سنة العالم الإسلامي أمام التحديات الخطيرة التي كانت تعصف به في الداخل والخارج عبر تاريخه الطويل، وبخاصة حين تصل مثل هذه التحديات إلى الحد الفاصل بين البقاء والفناء، أو بين أن يكون أو لا يكون! . . كما حصل غداة سقوط الخلافة العباسية المشار إليه، وسقوط الخلافة العثمانية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري تقريباً!

وفي وسع الناظر في النواحي التجديدية المشارِ إليها عند ابن تيمية أن يلحظ أنها تمثّل هذه العودة بأبهى صورها وأبرز معانيها، وقد ساعده على ذلك: اشتغالُه بتفسير القرآن، ومعرفته الواسعة بالسنّة وعلومها، إلى جانب ما كان يتمتّع به من ذاكرة عبقرية، وشجاعة وجرأة أدبية، وملكة نقدية مكّنته من «الرد، والدرء والنقض. . والجواب الصحيح»[٢]!

لخَّص الأستاذ السيد أبو الحسن ملامحَ العصر الذي وُلد فيه ابن تيمية، وأشار إلى ما استقرّ في وعيه من حكايات الفظائع الوحشية التي قام بها التتر في كل مكان، قال: «وعندما كان ابن سبع سنين شنّ التتر حملة على مسقط رأسه (حَرّان) ـ في شمال سورية بين دجلة والفرات ـ وقد خرجت أسرتُه شأن الأسر الكثيرة من حرّان فراراً من فظائع التتر وظلمهم، وتوجهت إلى دمشق. . ».

ولكنّ ابن تيمية وعى بعد ذلك انتصار المسلمين في عين جالوت، الذي وقع قبل مولده بثلاث سنين، «كما أن فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديث

---

(١) سقطت الدولة الفاطمية في مصر عام ٥٦٨هـ.

(٢) من كتب ابن تيمية المشهورة: درء تعارض العقل والنقل. نقض المنطق. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح. الرد على المنطقيين.

صباه، وسمير المجالس في ذلك العهد»[1]، وهكذا وقف بذكائه الحادّ ومعارفه الدينية وثقافته الإسلامية على عوامل النصر وأسباب الهزيمة! ولهذا فإنَّه لما حرّض السلطان محمد بن قلاوون على القتال في المعركة الحاسمة مع التتر في الثاني من رمضان عام ٧٠٢هـ، وبشّره بالنصر، جعل يحلف بالله الذي لا إلـه إلا هو أنَّ المسلمين منصورون على التتر في هذه الكرّة ـ بعد الهزيمة التي حاقت بهم في المرة السابقة في آخر ربيع الأول عام ٦٩٩هـ ـ! ولمّا قال له الأمراء: قل (إن شاء الله)! أجابهم: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً! ونحن مظلومون والمظلوم منصور، ومن (بُغي عليه لينصرنّه الله) ولذلك فإنَّ النصر مؤكد، والفتح قريب، وإن وعد الله كان مفعولاً.

تحدَّث الأستاذ السيد أبو الحسن عن (نشأة ابن تيمية وحياته) في فصل خاص، فتحدّث عن بلده (حران) التي ظلّت مركزاً دينياً وعلمياً للصابئين من قديم، وعن أسرة ابن تيمية الحنبلية العقيدة والمذهب، وعن مولده وانتقاله إلى دمشق، وعن دراسته وطلبه العلم، وكيف أنه «أدهش العلماءَ وأساتذتَه بذاكرته القوية النادرة، وسرعة حفظه».

ثم فصّل القول في العلوم التي برع فيها ابنُ تيمية، وفي مقدّمتها اللغة، والنحو، والتفسير، والحديث والكلام، والعلوم العقلية. واستعرض بعد ذلك سيرته في إنكار البدع وتغيير المنكرات، وفي مناظراته وسجنه، وسائر شؤونه حتى وفاته رحمه الله بسجن القلعة بدمشق ليلة ٢٢ من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ وله من العمر سبع وستون سنة.

ثم عقد الأستاذ السيد أبو الحسن فصلاً تحدّثَ فيه عن (ميزات ابن تيمية البارزة وخصائصه) ووقف بشكل خاص عند (شجاعته واستقلاله الفكري) و(إخلاصه وانهماكه) وأتبعها بعد ذلك بخصائصه التأليفية رحمه الله.

أما حديث الأستاذ السيد أبي الحسن عن أسباب المعارضة التي قامت أو ثارت في وجه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من قِبَلِ بعضِ العلماء، ففيه إضافة

---

(١) وكذلك سيرة سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام. (الناشر)

مهمة في التحقيق العلمي وتاريخ شيخ الإسلام، وقد استشهد السيد الأستاذ في نهايـة هذا الفصل بكلامٍ للإمـام ولي الله الدهلـوي ـ مجدد القرن الثاني عشـر ـ دافعَ فيه بقوة عن شيخ الإسلام، وصرّحَ بأنه لم يكن عالماً سنيَّ العقيدة وسلفيَّ المذهب فحسب، بل كان شارحاً كبيراً ومناضلاً قوياً عن الشريعة، خادماً مخلصاً للكتاب والسنة، وعالماً جليلاً أتحفَ الله به الأمة المحمدية، وأن مثله عزيـزُ الوجودِ في العلم، قال: «والذين ضيّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى، وإن كان تضييقهم ذلك ناشئاً من اجتهاد، ومشاجرةُ العلماء في ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم، والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير».

شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله:

كتب السيد الأستاذ أبو الحسن تحت هذا العنوان ما عدَّه اكتشافاً جديداً في شخصية ابن تيمية رحمه الله، وهو أنَّه من العارفين ورجال الله في هذه الأمة، وأنّه كان «يتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسر ـ بوجه عام ـ إلا برياضات شاقة، ومجاهدات طويلة، وتربية أئمة الفن، ودوام الذكر والمراقبة، وذلك ما يعبّر عنه الصوفية المتأخرون بـ(النسبة مع الله)، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ويبدو أنَّ الذي حمل السيد الأستاذ أبا الحسن على عدّ هذا الجانب اكتشافاً جديداً في شخصية شيخ الإسلام أن الذين تناولوا حياته بالكتابة والتأريخ لم يسلّطوا الأضواء على هذا الجانب المهم من شخصيته، وبخاصة المُحْدَثين والمعاصرين منهم، وإن كان ما ذكره تلميذه وخليفته: الحافظ ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) في ترجمة شيخه، وكذلك العلاّمة الذهبيّ وغيره «من أخلاقه وأذواقه، وعاداته وشمائله، وأشغاله وأعماله...» يومئ إلى هذا الجانب في شخصية ابن تيمية رحمه الله، ويرتقي به من ثَمَّ إلى المقام المذكور.

وحين تحدّث السيد الأستاذ أبو الحسن عن «ميزان كمال الإنسان، وآية بلوغه درجة الولاية والتحقيق» قبل أن يستعرضَ حياة شيخ الإسلام في ضوء هذه الآية وذلك الميزان: وجد أنّه قد بلغ هذه الدرجة من خلال النقاط التالية التي أفرد كلَّ واحدة منها بطرفٍ من الشرح والشواهد:

١ ـ ذوقُه في العبودية والإنابة إلى الله تعالى.

٢ ـ تذوّقُ العبادة والانهماك فيها.

٣ ـ الزهدُ في الدنيا وازدراؤها.

٤ ـ السخاءُ والإيثارُ.

٥ ـ التواضعُ وهضمُ النفسِ.

٦ ـ السكينةُ والسرورُ.

٧ ـ الكمالُ في اتّباع السنة.

٨ ـ الفراسةُ والكرامةُ.

٩ ـ قبولُه في الصالحين، وشهادةُ علماء عصره له.

والإضافة المهمة التي قدّمها السيد الأستاذ أبو الحسن في هذا الفصل ـ أو في هذا الاكتشاف ـ قوله: إنّ المحققين لا يَقْصرون اكتساب درجة الولاية والتحقيق على طريقة واحدة، ويعنون بها الطريقة المدونة المنقحة التي تُعرف بنظام التصوف! ولكن تحقيقها يمكن أن يكون بوسائل أخرى غير هذا النظام. وفي النقاط السالفة التي ذكرها في حياة شيخ الإسلام، والتي ارتقت به إلى تلك الدرجة خيرُ شاهدٍ على ذلك.

ويشرح السيد الأستاذ أبو الحسن ذلك فيقول: «فإن الإيمان والاحتساب، ومحاسبة النفس، وتتبع السنّة، والاشتغال بكتب السنة والشمائل، درساً وتدريساً، وخدمةً ونشراً، مع الحبّ والإجلال، وكثرة الصلاة على النبيّ ﷺ، وخدمة الخلق، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة والتبليغ بصدق النية والاحتساب، كل ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبة التي يُخصّ بها بعض الأفراد ـ سببٌ للتقرّب إلى الله وحصول النسبة معه...».

وغني عن البيان أنّ هذا، ونحوه، من أخلاق الإسلام وشرائعه، وإن شئتَ قلتَ: هذا من (نظام الشريعة) إن صحّ التعبير.. بل هو الأصل في التزكية والتربية قبل التصوف، وقبل الرسوم والأشكال التي صاحبت هذا النظام.

إنَّ السيد الأستاذ أبا الحسـن أعاد الأمر إلى نصابه بهذه الملاحظة حين تحدّث عن هذا الجانب في شخصية الإمام ابن تيمية . وربما كانت هذه الملاحظة أو الإضاءة بعيدة عن متناول الكثيرين غير السيد الأستاذ أبي الحسن، الذي كان على قَدْرٍ كبير من تلك الصفات التي خُصَّ بها شيخُ الإسلام، أو تلك التي أشار إليها في هذا السياق، والتي أهّلته لمثل هذا الملاحظة المهمة .

على أننا لو لم نقف على هذا الجانب من شخصية ابن تيمية ـ من خلال أقوال تلامذته وزملائه فيه ومشاهدتهم لأحواله ـ لقدرنا أنَّ المحن التي تعرَّض لها، والأعمالَ الجليلةَ التي نهض بها، إلى جانب ما خلّفه من تراث ضخم يغلب عليه أو يحكمه الانتصار لمنهج القرآن الكريم، والانطلاق من الكتاب والسنة. . مع ما يشعّ منه من الحماسة والحُرقة وصدق العاطفة، لابدّ أن يكونَ وراءه: ذلك الزاد الروحي، وتلك الطاقة الإيمانية، التي تؤكد أنَّ شيخَ الإسلام رحمه الله كان من العارفين بربّهم، المعدودين في رجاله سبحانه وتعالى، ويكفي أن نشير فقط إلى **كمال اتّباعه للسنة، وحبّه العميق للرسول ﷺ** .

يقول العلاَّمة عماد الدين الواسطي: «ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهدُ القلبُ الصحيح أنَّ هذا هو الاتباعُ حقيقةً» .

ويقول الحافظ سراج الدين البزار: «لا والله ما رأيتُ أحداً أشدَّ تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أحرصَ على اتّباعه ونصرِ ما جاء به، منه» .

ويتبيّن لنا قيمة هذه الشهادات، ومدى أهميتها في الدلالة على هذا الجانب من شخصية ابن تيمية إذا علمنا أنّه كان يعدّ في عصره أميرَ المؤمنين في الحديث، وأنه ارتقى في المعرفة بالسنّة ورجالها وعلومها حتى قيل عنه: إن الحديث الذي لا يعرفه ابن تيمية ليس بحديث!

وإذا كانت (النسبة مع الله) ـ بحسب التعبير الصوفي ـ قد تحققت للصحابة الكرام من طول صحبتهم للنبيّ ﷺ، فمن الجائز أن يحقق نحوها أو قريباً منها من كان مثل شيخ الإسلام رحمه الله في إحاطته بالسيرة والسنة، وفي اتّباع النبيّ ﷺ هذا الاتّباع الذي يصحُّ أن يكونَ مضربَ الأمثال .

ابن تيمية ـ من ملامح التجديد:

لا يتّسع هذا التقديم للإشارة إلى معالم أركان الإصلاح والتجديد ـ الأربعة ـ في حياة ابن تيمية، والتي أشرنا إليها قبل قليل، فضلاً عن أية إضافة أو تعليق، ولهذا فإننا سوف نكتفي بالإشارة إلى بعض الأفكار أو النقاط التي بات العصرُ يتطلّبها من جديد. . وغنيٌّ عن البيان أن نذكر أنَّ حديثَ الأستاذ السيد أبي الحسن عن تلك الأركان الأربعة جاء مركّزاً وموجزاً ومرتّباً ترتيباً منطقياً، وأنَّ الشيخ على عادته رحمه الله كان دقيقاً وشديد التحري والإنصاف:

١ ـ **في نطاق تجديد عقيدة التوحيد وإبطال العقائد والتقاليد المشركة**. قال الأستاذ السيد أبو الحسن: إنَّ هذه العقائد والتقاليد نالت في عهد ابن تيمية رواجاً بين عامة المسلمين «باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم» وفي ظلّ نفوذ الباطنية والإسماعيلية، وانتشارِ تعليمات الجهلة والضُّلال من الصوفية، ورأى كذلك أنَّ كلَّ ما كان يجري حول قبور الأولياء والمشايخ ـ والذي وصل إلى حدِّ العبادة السافرة، وخشية أصحابها من دون الله ـ «إنما كان تقليداً للأعمال والتقاليد التي كانت تتم في معابد غير المسلمين وعند قبور قدّيسيهم» فضلاً عن فتنة المشاهد، أو بعبارة أدق: **فتنة الإعراض عن المساجد، والاهتمام بالمشاهد!**.

ويقول شيخ الإسلام: «إنَّ الروافض والباطنية هم الذين أحدثوا بدعة المشاهد، ووضعوا في ذلك الأحاديث التي تؤيّد مذهبهم فيها».

قال السيد الأستاذ أبو الحسن: «رفع ابنُ تيمية لواءَ الجهاد والتجديد، محارِباً لهذه الأعمال والأفكار والتقاليد المشركة الرائجة» غيرَ هيَّاب لسخط العامة وغضب الخاصة! «وضرب على جذور تلك العقائد والآراء».

٢ ـ **أما نقدُ ابن تيمية للفلسفة والمنطق وعلم الكلام، و(ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)** إذا استعرنا هذا العنوان من كتاب العلاَّمة ابن الوزير ـ الذي كان متأثّراً بابن تيمية دون ريب ـ فيمكن أن يشار إلى ابن تيمية كأبرز رجال التجديد والإصلاح بعد حجة الإسلام الغزاليّ.

لقد عاد للفلسفة اليونانية الكثير من الاعتبار مع ردود ابن رشد (ت٥٩٥هـ)

على الغزاليّ، هذه الردود التي كانت أقربَ للتأويل والتوفيق. بالإضافة إلى ما قام به ـ أي ابن رشد ـ من شرح لكتب أرسطو، وتأكيد على المكانة التي احتلّها هذا الفيلسوف وسائر فلاسفة اليونان في العالم الإسلامي منذ بدايات عصر الترجمة التي تمّت في القرن الثاني الهجري، وهكذا كان للفلسفة والمنطق اليونانيَّيْنِ غلبة وازدهار في القرن السابع الهجري، أو عادت هذه الغلبة التي كان لنصير الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ) كذلك دورٌ بارزٌ فيها، حتى عرفته حلقات المدارس الفلسفية في هذا القرن بـ(المحقق الطوسي)! على الرغم من ميله إلى الباطنية والإلحاد ـ وبغضّ النظر في هذا السياق عن فضائحه وتآمره على قتل الخليفة العباسي، ودوره في مجزرة بغداد الرهيبة عام ٦٥٦هـ ـ.

ولم يكن في وسع المحدِّثين والفقهاء أن يقفوا في وجه هذه الغلبة ـ والفلسفةُ والمنطق ليسا بضاعتهم ـ سوى بالفتاوى والأحكام التي تحرِّم الاشتغال بهذه العلوم، حتى جاء ابنُ تيمية فقام بنقد ونقض كلٍّ من الفلسفة والمنطق اليونانيَّيْن، ونبّه على مواضع الضعف العلمية فيهما «مؤيداً بحوثه بالأدلة والبراهين، وناظر أرسطو مناظرةً علمية وجهاً لوجه، ذاك الذي كان علماءُ الفلسفة يعدّونه شخصية فوق مستوى النقد والرد. . » كما يقول السيد الأستاذ أبو الحسن.

وقد فرّق ابن تيمية في نقده ونقضه هذا بين الطبعيات والرياضيات التي عدّها معارف مقبولة، بل «واجبة القبول، لا تنتقض ألبتّة» والإلـٰهيات التي رفضها، مؤكداً عجزَ فلاسفة اليونان عن إدراكها؛ لأنّهم ـ باعترافهم ـ لا يملكون وسائل اكتساب هذا العلم. . ومن ثَمَّ لا سبيلَ فيه عندهم إلى اليقين.

وقد أثبتَ ابنُ تيمية ـ الجدَليُّ الماهرُ المناظرُ ـ أنَّ الوصول إلى اليقين في علوم الإلـٰهيات، أو المعارف الإلـٰهية موقوفٌ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد سمح له ذلك ـ أو مكّنه ـ من أن يسخر من ابن سينا الذي قال: إنَّ النبوّة ذاتها من قوى النفس (موفِّقاً)! ـ أي ابن سينا ـ في ذلك بين إيمانِه بالنبوة من جهة، وبين (إلـٰهيات) الفلسفة اليونانية من جهة أخرى! أو كما قال ابن تيمية: إنَّ ابنَ سينا وضرباءَه من فلاسفة المسلمين «رأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء»!

وقد سمّى ابن تيمية هؤلاء الفلاسفة: متفلسفة! وضمَّ إليهم الباطنية والملاحدة في بُعدهم عن إدراك معنى (النبوّة) وفهم حقيقة الأنبياء.

الصفحات التي لخّص بها الأستاذ السيد أبو الحسن نقض ابن تيمية للمنطق اليوناني ولعلم الكلام، والتي بيّن فيها عجزَ أدلة المتكلّمين وقصورها، في مقابل الاستدلال القرآني.. صفحات ممتعة، ويصعب علينا المتابعة في عرضها والتعليق عليها أكثر من هذا.

٣ ـ وفي تجديد ابن تيمية وإصلاحه في مجال **(الردّ على الفرق والملل، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها)** وقف السيد الأستاذ أبو الحسن أمام كتابين اثنين من مؤلفات ابن تيمية، وهما كتاب: (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) وكتاب: (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية) وكلاهما كتاب موسوعيّ كبير، علماً بأنّ سائر مؤلفات ابن تيمية تكاد لا تخلو من البحوث والمناظرات العقدية والكلامية. ومن هنا جاء قول السيد الأستاذ أبي الحسن: إنَّ ابنَ تيمية قضى معظم حياته في هذا الجهاد العلمي. وإن كان أستاذنا العلاَّمة الشيخ محمد أبو زهرة عدَّ كتاب **(الجواب الصحيح)** «أهدأ ما كتبه ابن تيمية في الجدال» وقد قال في هذا الكتاب: «إنَّه وحدَه جديرٌ بأن يكتب ابن تيمية في سجلّ العلماء العاملين، والأئمة المجاهدين، والمفكّرين الخالدين».

ولعلَّ شيخنا الجليل رحمه الله أفاد منه في كتابه القيم (محاضرات في النصرانية) الذي حدّثني ذات يوم أنه يعتزّ به أكثر من سائر كتبه، وأنّه يحب أن يلقى وجه ربه، وهو الذي كتب هذا الكتاب رحمه الله رحمةً واسعة.

يقول الأستاذ السيد أبو الحسن: إنَّ كتاب ابن تيمية يدلّ على سعة نظره، وتنوّع دراسته، واطّلاعه الواسع العميق على تاريخ الديانات والصحف السابقة. وقال: «إنه لم يكتفِ فيه بأسلوب الدفاع والتزكية، بل إنه هاجم أسس المسيحية» أي أنه لم يكتبه من موقع الدفاع، بل من مواقع الهجوم والتحدّي. وأضاف الأستاذ أبو الحسن أنَّ ابن تيمية «لم يعتمد في إثبات النبوّة المحمّدية على الدلائل القديمة المصطلحة التي تتسم بها كتب علم الكلام ومناظرة الفرق، بل إنه جاء ببراهين جديدة تؤثر في النفس وتبعث الإيمان في القلوب، وتضطر كل رجل منصف إلى الاعتراف بالحقيقة..».

قلت: وهذه واحدة من مزايا التجديد والإصلاح في هذا الكتاب القيّم، بالإضافة إلى مزية الاستجابة لتحديات العصر، الذي شهد كثيراً من المناظرات بين أصحاب الديانات، **وبخاصة بين المسلمين والنصارى في أعقاب غزو الفرنجة الصليبي لبلاد الشام، وفي ظل بعض الإمارات اللاتينية التي أقامها هؤلاء الغزاة في ساحل هذه البلاد، وكانت واحدة منها ماتزال باقية أيام ابن تيمية رحمه الله**.

ونشير هنا إلى أنَّ التأليف في الرد على النصارى وسائر أصحاب الديانات كان يقتضي من علمائنا الحديثَ عن دلائل نبوّة سيدنا محمد ﷺ. وكذلك العكس، لأنّ من مقتضيات تثبيت هذه الدلائل مناقشة الخصم، أو الردّ على المسيحية في المقام الأول.

ونجدُ هذه الصورة الثانية في كتاب القاضي عبد الجبار: **(تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ)** الذي طبع في مجلدين تحت عنوان: (تثبيت دلائل النبوّة) وبحسبنا من المقارنة بين كتابي ابن تيمية وسلفه القاضي عبد الجبار ـ رحمهما الله تعالى ـ أنْ نذكرَ أنَّ ابن تيمية أوضح أنَّ المسيحية ـ التي يجري نقدها والحديث عنها ـ إنما هي مزيج من تعاليم سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام والوثنية الرومانية؛ قال رحمه الله: «ولكنّ النصارى ركّبوا ديناً من دينين: دين الأنبياء الموحّدين ودين المشركين، فصار في دينهم قِسْطٌ مما جاءت به الأنبياء، وقسط مما ابتدعوا من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم. . .».

وهو الموقف الذي أفاض في شرحه القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) وهو يتحدّث عن المسيحية، ويناقش عقائدها ويعرض لتاريخ انتشارها في الإمبراطورية الرومانية، ومدى تأثرها بوثنية الرومان. قبل أن يلخّصَ ذلك كله بعبارته الموجزة الجامعة: **إنَّ الروم لم يتنصّروا، ولكن النصرانية تروَّمت!!**

أما كتاب **(منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية)** ـ ونرجِّحُ أنَّ الصواب ـ (الشيعة القدرية) بدون حرف الواو. فقد وضعه شيخ الإسلام ردّاً على كتاب(منهاج الكرامة في معرفة الإمامة) لمعاصره الشيعي الكبير يوسف بن الحسن ابن المطَّهِّر الحِلِّي، ونقضاً عليه، وقد ضمّن ابنُ المطَّهر كتابَه شرحَ عقائد الشيعة، مع توجيه المطاعن إلى الخلفاء الثلاثة وسائر الصحابة رضي الله عنهم، محاولاً

التدليل على ذلك بالآيات والأحاديث والتاريخ والسير. وقد تناول ابن تيمية في ردوده ومناقشاته المطوَّلة، أو في ردّه ونقضه، تلك العقائد والمطاعن، كما تناول سائر ما تضمّنه الكتاب كذلك من مباحث العقيدة وعلم الكلام والفلسفة وغير ذلك، والمؤلف معتزلي كسائر الشيعة، والمتأخرين منهم على وجه الخصوص.

يقول الأستاذ السيد أبو الحسن: «ومما لا يخفى أنَّ للمؤلفين من الشيعة جرأة ومهارة في وضع الأحاديث واختراع الرواية..» فضلاً عن اختلاق وقائع وأحداث التاريخ! فكان أن قيّض الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية، بخبرته ومعرفته التي لا تضاهى في علم الحديث، وبتمكّنه من ناصية التفسير والعقيدة والفلسفة وعلم الكلام، وبملكته ومواهبه النقدية.. لينقض هذا البناء الذي أُسّس على شفا جرفٍ هار.

وقال السيد الأستاذ أبو الحسن: إنَّ من أرادَ أن يطَّلعَ على تبحّر ابن تيمية العلميّ، وسعة نظره، وحضور بديهته، وقوة حفظه، واستحضاره للمسائل، ونضجه وإتقانه، وذكائه وألمعيته؛ فليقرأ هذا الكتاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

لقد أظهر ابن تيمية ما في عقائد الشيعة من غلو ومناقضة، وما في نفوس الكثيرين منهم من غلٍّ على صحابة رسول الله ﷺ - كما تبدّى ذلك كله من كلام المطَهِّر الحلِّي - وبيّنَ أنَّ فضائل الصحابة ومناقبهم متواترة قطعية، وأنَّ المكانة التي ارتقوا إليها في التاريخ الإنساني لا يعلو عليهم فيها سوى الأنبياء والمرسلين.

وعلى الرّغم من أنَّ المجال هنا لا يتّسع لأي شرحٍ أو تعليقٍ يقصرُ أو يطول؛ فإنني أجد لزاماً عليَّ أن أعقِّبَ - في بضعة أسطر - على كتابي ابن تيمية هذين:

أما كتابه: (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) فإنّ العصر ما يزال يطلبه، ويطلب متابعة ما كتبه ابن تيمية فيه، والإضافة عليه، وذلك في ضوء التطور والتبديل والتعديل الذي لحق بالمسيحية بعد عصر ابن تيمية. وبخاصة في ظل التبشير النصراني المكثّف، الذي مازال قائماً في العالم الإسلامي منذ أكثر من قرنين، والذي مازالَ يلقَى الدعمَ والتأييد - المعنويّ والماديّ - حتى من الحكومات

الغربية (العلمانية)! بل الذي ينتظر أن يكون أشد وأنكى في ظلِّ العولمة في القرن الخامس عشر الهجري (الحادي والعشرين الميلادي).

أما كتاب: (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية) فإن الحاجة إليه لا تقل عن الحاجة إلى الكتاب السابق! ولكن لا مِنْ أجل إحياء الخلاف، وبعث الشقاق، وتحريك النفوس.. ولكن من أجل أن تكون الدعوة إلى التقريب التي يسعى إليها الطرفان السنّي والشيعي علمية وموضوعية، جادّة ومسؤولة، وبعيدة عن هدف (تقريب) السنة من الشيعة! أو محاولة تشييع المسلمين السنّة! وفي جوٍّ من الصراحة والصدق والنزاهة، بعيداً عن أي مصانعة أو تقية أو رياء، لأن هذا كله لم يعد مقبولاً في هذا العصر، الذي بات يرفض كل استخفاف بالعقول، من جهة، ولأن التحديات الكبيرة القائمة في وجه المسلمين، وتلك التي تنتظرهم، لا تفرق بين السنة والشيعة، من جهة أخرى.

إنَّ السنة والشيعة مدعوون اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، إلى الاتفاق على كلمة سواء تجبّ الإحن وسخائم النفوس وأحقاد التاريخ! ولا تعرف الكذب في أحاديث النبيِّ المعصوم، وفي روايات التاريخ.. وحين تبقى خلافات أساسية حول الغيبة والعصمة والإمامة، أو حول الشخصيات والأحداث والوقائع وقراءة التاريخ، أو غير ذلك من المسائل والأحكام ـ بعد الحسم الذي انتهى إليه الشيعة الإمامية حول تنزيه القرآن عن المطاعن وصيانته عن التحريف ـ فلا يجوز لهذه الخلافات أن تصرف أحداً عن الأخطار المحدقة بالإسلام والمسلمين.. والله أعلم.

* * *





كلمة المؤلّف

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، وخاتم النبيين، محمّد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، من أئمة المسلمين المجدّدين، الذين ينفون عن هذا الدّين تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين.

أما بعد: فيسرُّ المؤلفَ ويسعِدُه أنْ يقدّم للقّراء العرب الجزءَ الثاني من كتابه (رجال الفكر والدّعوة في الإسلام). وهو الجزء الخاص بحياة شيخ الإسلام (تقي الدّين أحمد ابن تيميّة الحرّاني الدمشقيّ) وقد سبقَ تأليفُه باللغة الأوردية سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م، وهي الحلقةُ الثانيةُ من سلسلة كتاب المؤلّف (تاريخ الدعوة والعزيمة).

وقد تولّى المؤلّف نقلَ الجزء الأول من هذا الكتاب إلى العربية، مع حذفٍ وزيادةٍ، وتحسينٍ وتعديلٍ، سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، وأفرغَه في قالب محاضرات ألقاها في المدرّج الكبير بجامعة دمشق، أمامَ طلبةِ كليّة الشريعةِ، وصفوةٍ من أساتذة الجامعة، وعلماء البلد وأعيانه، وقادة الفكر ورجال التعليم والتربية، في عاصمة (بني أميّة).

وصدرت لهذا الجزء عدّة طبعات، وقدّمَ له فقيدُ العلم والإسلام الدكتور (مصطفى السباعي) رحمه الله، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً في الأوساط العلمية، والدينية، والتربوية، واعترف كثير من أهل العلم ورجالِ التربية أنّه سَدَّ عَوزاً كبيراً، وملأ فراغاً في المكتبة الإسلامية العربية المعاصرة، وجاءَ في أوانه.

وقد صدر الجزء الثاني لكتاب (تاريخ الدعوة والعزيمة) بالأوردية سنة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م من المجمع الإسلامي الأكبر في الهند، والمعروف بـ(دار

المصنفين) في (أعظم كره) وصدرت له طبعة ثانية من المجمع الإسلامي العلمي في لكنو سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، ونُقِلَ إلى اللغة الإنكليزية سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

ورحّبت بالترجمة الإنكليزية الأوساط العلمية، والمشتغلون بالدراسات الإسلامية، والبحوث التاريخية ترحيباً كبيراً، وأبدى عددٌ من الباحثين والمعنيّين بالفكر الإسلامي، وحركات الإصلاح والتجديد في الإسلام، إعجابَهم الكبيرَ بهذا الكتاب، وكانَ أولَّ كتابٍ يصدرُ عن حياة (شيخ الإسلام ابن تيميّة) في اللغة الإنكليزية بهذا التفصيل والتحقيق.

كان كلُّ ذلك كافياً لانتهاز أوّل فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغة العربيـة، ويصحُّ أن يُقال: **إن هذا العصر عصرَ ابن تيميّة، وقد كانت لشخصيّته ودعوته ودورِه الإصلاحيّ ثورةٌ في هذا العصر، ولكتاباته واتجاهاته انتفاضَةٌ لم تكن لمصلح إسلاميّ، أو مؤلّف من المؤلفين القدامى، لأسباب يطّلع عليها القارئ في ثنايا هذا الكتاب وطواياه، فكان من المعقول والمنتظر أن يبادرَ المؤلّف إلى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربيّة، وإتحافِ المعجبين بشيخ الإسلام بهذا السِّفْر.**

ولكنّ المؤلّف كان يزهّده في القيام بهذا العمل، ويثنيه عنه صدورُ عدَّةِ كتبٍ لكبار علماء هذا العصر، وفي مقدّمتهم علاّمة مصر الجليل الشيخ محمّد أبو زهرة رحمه الله، وما كان يعلمه مِنْ أنَّ آثار ابن تيميّة في اللغة العربية، وقد قيّض الله المملكة العربية السعودية، علماءَ وأمراءَ، لإثارة هذه الكنوز ونشرها، وكان يخيّلُ للمؤلّف حين كان يحدِّثُ نفسَه بإصدار هذا الجزء بالعربية أنه كناقل التمر إلى (هَجَر)[1].

ولكنَّ الله شرح صدره لتحقيق هذه الأمنيّة، وقبولِ هذا الاقتراح من إخوانه، الذين عرفوا وجودَ هذا الكتاب باللغة الأوردية ـ وفي مقدّمتهم صديق المؤلّف الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد صاحب دار القلم الكويتية ـ واقتنع أخيراً بأنَّ لكلِّ

---

(١) اسم لجميع أرض البحرين وتشتهر بالتمر. (الناشر)

مولّف طابعاً، ولكلِّ كتابٍ شخصيةٌ ينفرِدُ بها، كشخصية الإنسان، ترجع إلى بيئة المؤلّف، وتجاربه الخاصة، وفهمه الخاصّ، فلا يكونُ إصدار هذا الكتاب من قبيلِ تحصيل الحاصل، ومن قبيل الجهادِ في غير طائل، وإلا كان كلُّ من ألف في موضوعٍ طُرِقَ وبُحِثَ واستُوْعِبَ من زمانٍ، من فضول الأعمال، وإضاعةِ الوقت.

هنالك عهد المؤلِّفُ بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربيّة إلى زميله العزيز الأستاذ (سعيد الأعظمي النّدْوي) أستاذ دار العلوم لندوة العلماء، ومحرّر مجلة (البعث الإسلامي) فقام به خيرَ قيام، وقرأه المؤلِّف حرفياً، وتناوله بالتنقيح والتهذيب، والحذفِ والزيادةِ، وعلّق عليه بعضَ تعليقاتٍ جديدةٍ مفيدةٍ، فجاء أكملَ وأجملَ، وأوفقَ للذوق العربيّ السّليم.

وها هو ذا الكتابُ بين أيدي القراء، والله المسؤول أن ينفع به الإسلامَ والمسلمين، ويرفعَ همّةَ الباحثين والمؤلفين، والعاملين في مجال الإصلاح والتربية وخدمة الدين، وهو الموفق والمعين.

يوم الخميس ٩/ ٥/ ١٣٩٥هـ
٢٢/ ٥/ ١٩٧٥م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

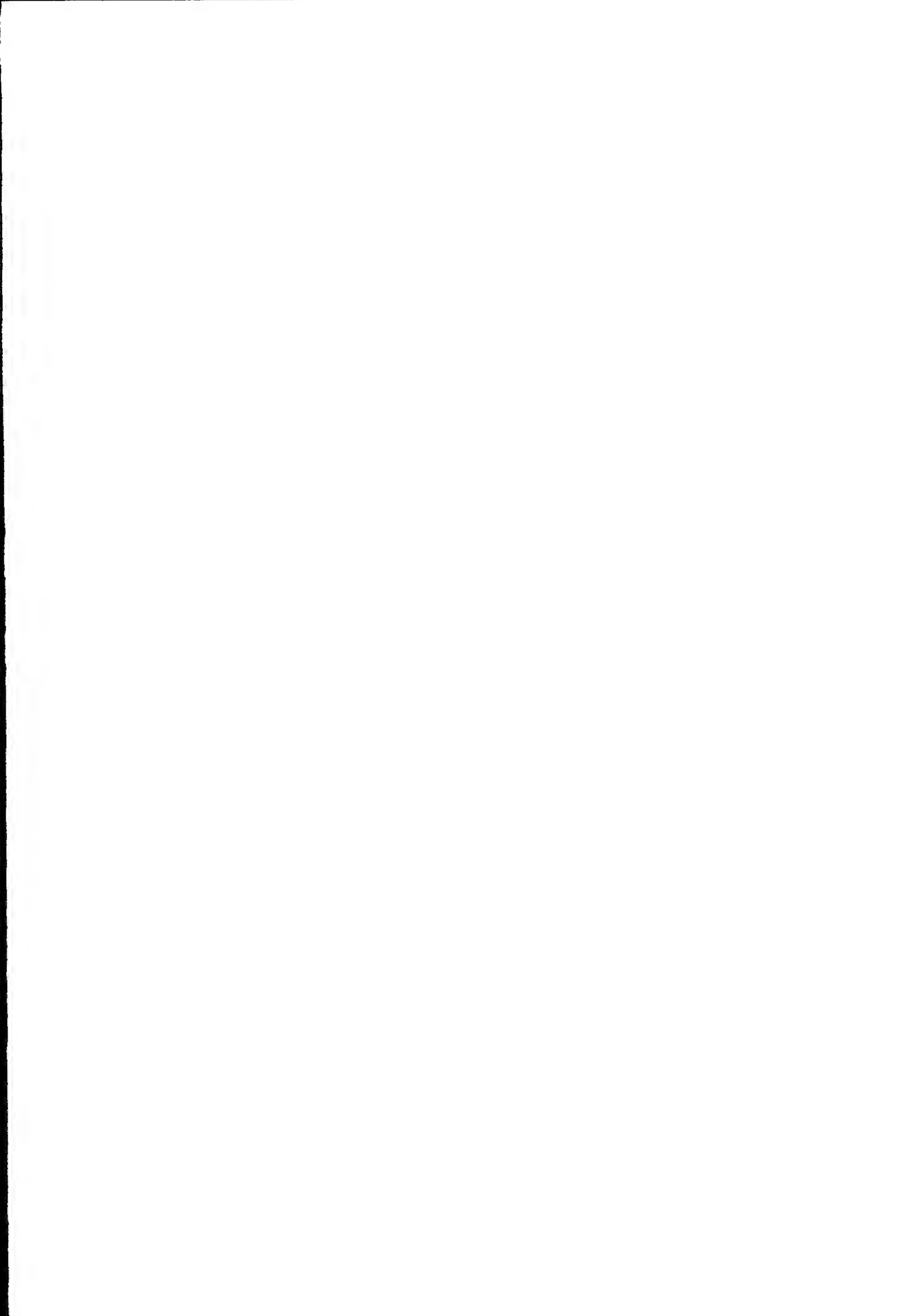


الباب الأوّل

سيرة شيخ الإسلام ابن تيميّة

ومَيّزاته وخصائصه

- الفصل الأول: الحاجة إلى ترجمان للشريعة، ومصلح شامل
- الفصل الثاني: العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية
- الفصل الثالث: نشأة ابن تيمية وحياته
- الفصل الرابع: ميزات ابن تيمية البارزة وخصائصه
- الفصل الخامس: خصائصه التأليفية
- الفصل السادس: أسباب معارضة ابن تيمية بين نقاده والمدافعين عنه
- الفصل السابع: شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ومحقق



الفصل الأوّل

الحاجة إلى ترجمان للشريعة ومصلح شامل

حدٌّ من حريّةِ الفلسفة، وإدالةٌ لتعاليم النبوة منها:

تزعّم مولانا جلال الدّين الروميّ تلك الثورة العقلية، التي كانت ردَّ فعل ضد الفلسفة اليونانية وعقلية المتكلّمين[1]، لقد كان ذلك نموذجاً لعقليّةٍ أسمى، وفكرةٍ أرسخ، وكان افتتاحَ عهدٍ جديدٍ لعلم كلامٍ جديدٍ، قام أساسُه على سموِّ العقل والقلب وطهارتهما، وعلى تجربةِ المتكلّم الشخصيّةِ.

كان مولانا جلال الدين الرومي عالماً متبحراً، ومتكلّماً نابغاً في عصره، أكرمه الله تعالى بالقلب العارف، وطبيعة الحب والحنان، وكان قد سئمت نفسُه من كلام الفلاسفة، وتقعير المتكلّمين، وقد بلغ بفضلِ تربيةِ رجلٍ مؤمنٍ حنون، ومن أجل المجاهدات والرياضات التي قام بها إلى حيثُ أدركَ فيه أنّ المعارك الكلامية التي تدورُ في زمنه إنّما تقومُ على أساس الذّكاء والخطابة أكثرَ منها على الحقيقة، وهنالك شرحَ الحقائقَ الدينية بلغته، واتّخذَ لإثباتها طريقاً كان أقربَ إلى الحقيقة، ومبنيّاً على التجربةِ والوجدانِ.

ولكنَّ الظّروف كانت تؤكّد الحاجةَ إلى ردّ فعل آخر ضد طغيان الفلسفة، وعدوان علم الكلام، لا يقلّ في خطورته من ردّ فعلٍ سبقَ ذكرُه، فقد كان البحثُ عن ذات الله وصفاته من رؤوس القضايا التي شغلت بحوثَ الفلسفة وعلمَ الكلام.

أما الشّريعةُ الإسلامية، فلم تترك موضوع العقائد غامضاً ملتوياً غير واضح للإنسان، بل إنّها جعلت هذه الناحيةَ موضعَ عنايةٍ بالغةٍ بالنسبة إلى الأديان

---

(١) كما مرَّ تفصيلُه وبَسْطُ القولِ فيه في المحاضرات الثلاث الأخيرة من الجزء الأول لكتاب (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، ص٣٨٧ ـ ٤٣١.

السابقة، لأنّها أساسُ المجتمع الفاضل، والمدنيّة المثلى، والفضائل من الأعمال والأخلاق.

إنَّ الشريعةَ الإسلاميّة وجهتْ إلى الإنسان توجيهات حاسمة، سهلة واضحةٍ، حول ذات الله وصفاته، لم تعدْ بعدَ ذلك أيُّ حاجة إلى تحقيق أو تدقيق أو قياس.

إنّ مصدر هذا العلَم والإيمان إنما هي تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنّ كلامهم أكبر برهان على أنهّم هم العارِفون بما وراء الكون من إلهٍ، وبصفاته النادرة الفذّة التي لا تقبل القياسَ والنهاية.

ما كان للفلسفة أن تتحدّثَ عن هذا الموضوع، أو تقومَ خصماً بإزائه، إذ لم تكن تمسك مبادئ هذا العلم الأساسية، ولا تلك المعلومات التي تتوصّل بترتيبها إلى مجهول، ولم تكن تصلحُ لإجراء اختبار أو تحليل، ولم يكن الفلاسفة أهلاً لذلك.

ولكنَّ الفلسفة على الرّغم من عجزها العلمي تخطَّتْ حدودَها، ولم تكتف بالتدخّل في هذا الموضوع فحسب، بل إنّها بحثت قضاياه وفروعه بثقة كبيرة، وتحكّمٍ بالغ، وبتفصيلٍ زائد، وتدقيقٍ شديدٍ، وقامت بتحليلٍ يختصُّ بالمعامل الكيماوية فقط.

ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين، وكان ذلك أمراً لازماً، غير أنّه تأثّر بالفلسفة، وتسرّبت إليه روحُها، حتى تكوّنت فلسفةٌ دينية، تنتهج نفسَ المنهج، وتبحثُ نفسَ الموضوع، وتتّبعُ نفسَ الأسلوب في البحث والاستدلال، وتعيدُ نفسَ الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا (ما وراء العقل)[1] أموراً عقليـة، يمكنُ إثباتها عن طريق العقل، وكذلك تسيطِرُ عليه روحُ عدم الاقتناع

---

(١) الصواب أن يقال عالم الغيب، ويقابله عالم الشهادة كما هو المصطلح القرآني، وفيه غنية عن مصطلح الطبيعة وما وراء الطبيعة وغير ذلك من المصطلحات اليونانية ونحوها. (الناشر)

بما جاء به الأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام من شرحٍ وتعبيرٍ في هذا الموضوع، واستخدام مصطلحات يونانية تقومُ على علم محدود ناقص، وتثير شبهات، الأمرُ الذي دعا إلى تعقّدِ القضايا، وتوسّعها، بلْهَ أن تنحلَّ أو تُختصر.

ووجدت (فلسفة إلـٰهية) وكتب ضخمة في شرح العقائد، إزاء أسـلوب مقنع مؤثّر، كان جديراً بشحن النفوس بالإيمان والإذعان، وإقناعِ العقول في كلِّ زمان، وكان مؤسّساً على نصوص الكتاب والسنة.

وكانت هذه الفلسفة الإلـٰهية الجديدة قد تأثّرت بالفكر اليوناني، رغم أنها ظهرت ضِدَّ الفلسفة اليونانية، فكانت روحُ الكتاب والسنة تحتجّ دائماً على هذا الموضـوع، ووُجدت طبقة كبيرة للأمـة الإسلامية معارضـةٌ لهذه التفاصيـل الفلسفية، والتآويل الكلامية.

غيرَ أنَّ الحاجـةَ إلى عالم كبير نافذ البصيرة، واسع العلم، قويِّ الإيمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة، والتعبير القوي المؤثّر عنهما.

ذلك العالم الذي يعتقد أجزمَ الاعتقاد أنَّ في نصوص الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفي تعبيراتهما عنها غنًى وكفاية تامة.

ذلك العالم الذي يتوصّل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة، ويطّلع على خباياها وكوامنها، ويتمكّن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي، بما عنده من علم بمواضع ضعفها الأساسية.

ذلك العالم الذي قد تعمّقَ بتفكيره، فوصلَ إلى أغوار علم الكلام، واطّلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الإسلامية، ولا يخفى عليه شيءٌ من تاريخ علم الكلام ونموِّه.

ذلك الـرّجل الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه، يفيضُ عزماً وحماسةً بنصرته وشـرحه، ويعيشُ على حسـك السَّعِدان[1]، لكي يثبتَ رجحان مذهب

---

(١) الشوك. (الناشر)

السّلف، وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية، كما يكونُ متمتّعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتطلّبها هذا العمل العظيم، ومتميّزاً في ذكائه وقوّة بيانه، واستدلاله، وسَعَةِ نظره، وعمق دراسته عن غيره، ويكون فوقَ مستوى عصره، وكفؤاً للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة.

في مواجهة المسيحيّة، ونقدها العلمي:

هذا وقد كان الإسلام هدفاً للهجمات الداخلية والخارجية من جانب آخر، وكان المسيحيّون قد تحمّسوا لإثبات أنَّ المسيحيّة هي الدين الحق، وتوجيه الإيرادات[1] على الإسلام، إنَّ الهجوم الصليبيّ المتتابع، ووجود عدد كبير من مسيحيِّي الغرب في الشّام وقبرص، شجّعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي، وعلى تأليف كتب تثبتُ فضلَ دينهم، وأخرى ترفضُ نبوّةَ محمّد ﷺ.

وللردّ على كلِّ ذلك كانت الحاجة ملحّةً إلى عالم كبير ومتكلّم، له دراسة عميقة في المسيحيّة والديانات الأخرى، وله اطلاع واسع على الصحف السماويّة، وما واجهته من تغيير وتحريف، ويستطيع أن يحسنَ المقارنة بين الديانات، ويثبتَ فضلَ الإسلام وخلودَه في أسلوب علمي مؤثّرٍ قويٍّ، ويتمكّنَ من دعوة أتباع الديانات الأخرى إلى الإسلام بحكمة وقوة.

فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدّامة:

وقد كان أشدّ وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملةٌ شنتها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام، وهي الفرقة الباطنية، التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعةً عجيبةً من العقائد المجوسيّة، والأفكار الأفلاطونية، والأغراض السياسيّة، وقد كانت هذه الفرقةُ وفروعُها المختلفةُ من الإسماعيليّة، والحشاشيّة، والدرزيّة، والنصيريّة، تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام. وهي التي مهدت الطريق، ودبرّت المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية، وساعدت الصليبيين في شنِّ هجومهم على الشّام.

---

(١) أي الاعتراضات. (الناشر)

وذلك ما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشّام أنْ قرّبوا رجال الفرقة الباطنيّة، وجعلوهم موضعَ ثقتهم ونجواهم، وأحسنوا إليهم، اعترافاً بمساعدتهم المخلصة.

وقد ظلَّ هؤلاء الباطنيّون مشتغلين بتبييت المؤمرات، وتدبير الثورات، في عهديّ (نور الدين) و(صلاح الدين)، فلما قصد وحوشُ التتر أرضَ الشام بهجماتهم العنيفة ساعدهم الباطنيون علناً وجهاراً، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ.

وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكري، وتشاؤم بالدين، وإلحاد وزيغ، وثورة على الدين، وكانوا كالطابور الخامس، في حصن المسلمين الدينيّ.

كلُّ ذلك كان يحتّم على المسلمين أن يقتلعوا جذورَ هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها، ليطّلع المسلمون على نواياها، ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائيّة، ومحاربتها للإسلام.

ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا مَنْ له اطلاعٌ تامُ على حقيقة هذه الفرقةِ وأسرارها وتاريخها، وله معرفةٌ بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها، ومع قدرته البالغة على تناولها بالردّ والنقد، مضافاً إلى ذلك حماسةُ الزائدُ للإسلام، ودافعه القويُّ للجهاد ضد أعداء الإسلام.

محاربة العقائد، والأعمال الشركيّة، والدعوة إلى الدّين الخالص:

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسةَ العقائد الباطلة وأعمالَ الشرك، بضغط عوامل عديدة، منها اختلاطهم بغير المسلمين، وتأثير العجم، وتهاون العلماء، وقد أصبح الدّينُ الخالص والتوحيدُ النقيُّ وراءَ حجابٍ وحجابٍ.

ونشأ الغلوُّ والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى، حتى بدأت عقيدة التوسّط والتقرّب بالأولياء ترسخُ، وينطبقُ عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وتنتشر هذه الفكرة الجاهلية في أوساط المسلمين، وأصبح كثيرٌ من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغير الله والاستعانة به، واتُّخذت قبورُ الأنبياء والصالحين مساجدَ، وتحقَّق الخطرُ الذي كان قد أنذر به النبيُّ ﷺ، وشدّدَ النهيَ عنه.

ولم يكن المسلمون يشعرون بأيِّ غضاضةٍ في التخلق بأخلاق الذميّين والكافرين! واتّخاذ شعائرهم وخصائصهم، والحضور في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم، واصطناع تقاليدهم وعاداتهم.

فكانت الحاجةُ ماسّةً إلى عالم مجاهدٍ، يتصدّى لمحاربة هذه الجاهلية المشركة، والدّعوة إلى التوحيد الخالص بكلّ قوة وإيضاح، ويكون عارفاً بالفرق بين التّوحيد والشّرك معرفةً دقيقةً، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنّعت وتنكّرت أو ظهرت في مظاهر إسلامية، ويكونُ قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنّة وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، لا من كتب المتأخرين، وتعامل المسلمين الجهلاء، وتقاليد الزمان وعادات النّاس.

ولا يبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات، وعداوة الناس، ومخالفة العلماء، ولا يخاف في ذلك لومة لائم، ويكون ذا نظر دقيق، وعلم واسع بالكتاب والسنة، ومصادر الدين الأولى الموثوق بها، وبأحوال القرون الأولى، وذا اطّلاع كامل على تاريخ اليهود والنصارى، وقصّة انحرافهم ومسخهم وتحريفهم، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسيّتهم، ويعيشُ في ألم وقلق، لكي يعيدَ المسلمين إلى تعاليم القرآن، وعقيدة الصدر الأول، ويراهم منتهجين طريقَ الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وأتباعهم.

محاربة الانحرافات والمغالطات في الطوائف الدينية، وتنقية الدين من الشوائب:

وقد تسرّب إلى المتصوّفين ـ لأسباب تاريخيّة وعلميّة عديدة ـ تأثيرُ الفلسفة الإشراقيّة التي جاءت من اليونان والهند، وامتزجت بالعقائد الإسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنّى لكلِّ واحد فصلها عنها.

إنَّ إشـراقيةَ الأفلاطونيـة الجديدة، أو تنسّكَ الهنود، وعقيدةَ الحلـول والاتّحاد، ومـذهب وحدة الوجود، وتقسيـمَ الظّاهـر والباطن، وفتنـةَ الرموز والأسرار، وعلم الباطن، وسقوطَ التكاليف الشرعيّة عن (الكاملين) و(الواصلين) واستثناءهم من الأحكام الشـرعية ـ كل ذلـك كانت معتقدات وأفكاراً نـالت إعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين.

وبالرغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كلّ زمان لهذه المعتقدات الفاسدة، كانت طبقةٌ من المتصوفين تلحُّ عليها، حتى انحطت بعض فروع التصوّف وطرقه إلى حَدِّ الشعوذة والتهويل، ولا سيّما بعض فـروع الطريقة الرفاعيـة، التي انحرفت في العهد الأخير عن أصلها، وتعاليم مؤسِّسـها الكبير، وآثر كثيـرٌ من رجالها ـ الذين لم ترسـخ أقدامهم في العلـوم الشرعية والعقائد الإسلامية ـ الأعمالَ البهلوانية، زاعمين أنّها تؤثّر في عقول المغـول والتتـر، وتـرغّبهم في الإسـلام، وكان لذلك ضررٌ عظيم على سـلامة العقيدة، ومكانة الشريعة.

وقد استفحلت هذه الفتنةُ في القرنين السابع والثامن، ووقع العامةُ وكثيرٌ من الخاصّة فريسةَ هذه المغالطات.

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضاً، والحفاظ على الشريعة، كانت الحاجةُ شديدةً إلى مؤمن قوي، ومصلحٍ جريءٍ، يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللاذع، ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكلِّ حريةٍ وجرأة، معرضاً عن صولتها وقوتها، وغير مبالٍ بعدد أتباعها ونفوذهم.

تجديد الفكر الإسلامي:

وكانت الحلقات العلميّة والتدريسيّة مصابةً بجمـود شديد، فكلُّ طائفـة تعتبرُ الخروجَ عن دائرتها الفقهية قيدَ شعرة جريمةً لا تُغْتَفَرُ، وكان مألوفاً لدى كلِّ طائفة أنْ تنظرَ إلى الكتاب والسنة بمنظارِ مذهبها الفقهيّ، وتحاول تطبيقَ الكتاب والسنة في الخلافات الفقهيّة على آرائها في كلِّ حال، فضلاً عن تحكيمها فيهما،

وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهيّة مغلقاً عملياً.

وكانت مشكلاتٌ حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغيّر الزّمان والأحوال، الأمر الذي كان يحتاجُ إلى إرشاد المسلمين فيها، والبحث عن حلولها؛ إلى رجل يجمع بين سعة النظر في ذخائر الفقه الإسلامي، والتعمق في الكتاب والسنّة، والاطّلاع على تعامل القرون الأولى، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه.

وقد كان يضيق مجالُ العلم والنظر والدراسة على مرّ الزمان، وتضمحل القوى الفكرية، ولم يكن عالم من علماء الإسلام يتجرأ على استنباط الأحكام الجديدة، وكان الفقه الإسلامي قد فقد جدارة النمو والتقدّم، ويعتبر من المستحيل أن يُزادَ إلى ثروة الفقه القديمة أيَّ زيادة.

فكذلك كان إصلاح هذا الوضع يحتاج إلى محدّث فقيه، وأصوليٍّ ضليع، يكون قد استعرضَ ذخائر المكتبة الإسلامية بأسرها، ويستحضرُ الكتاب والسنة، بحيث يُدهِشُ الناس، ويعرف الحديثَ وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفةً دقيقةً تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانته في صناعة الحديث، حتى يقولوا: «إنّ الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجل ليس بحديث»[1].

ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم في كلِّ حين.

كما يكون له اطلاع تامٌ على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها، والمنقطعين إليها من أهل المذهب، ولا يتعدى حدودَ السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقّهم، ومتطفلاً على موائد علمهم ودينهم، ويكون ذا قدم راسخةٍ في علوم اللغة، وباعٍ طويلٍ فيها، حتى تأهّلَ لذلك للنقد والصيرفة في مجالها.

يجمعُ إلى ذلك علوَّ الكعبِ ودقةَ النظرِ في النحو، حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءهم الفنية.

---

(١) من الأقوال التي قالها كبار علماء العصر في شيخ الإسلام كما سيأتي ص(١٢٦).

ويجدّدُ بقوة عارضته عهدَ المحدّثين الأوليّن، يُعتبر ذكاؤه آيةً من آيات الله، وعلمُه دليلاً على فضل الله، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الإسلاميّة، وغضارة دوحة الإسلام، ونضارة العلوم الإسلامية ونموها وازدهارها، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبيِّ ﷺ من كلمته الخالدة: «مثَلُ أُمَّتي مثَلُ المَطَرِ، لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أمْ آخِرُهُ»[1].

جامع بين العلم والعمل، والسيف والقلم:

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح، ويجمعُ بين القلم والسيف، جريئاً على الملوك في الصّدع بالحق، لا يحجم عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أضرى عدّوٍ مثل الوحوش التتر، ويعرفه كلٌّ من حِلَقِ الدروس، وزوايا المكتبات، وخَلَواتِ المساجدِ، ومجالسِ المناظرة، ومعتقلات السجون، وساحات الحرب كفارس عظيم، ورجل ذي شكيمة، مبجّلاً في كل عين، ومعترَفاً بإمامته في كل طبقة.

كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل، الذي يسعُ نشاطُه كلَّ مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهودُه وأعمالُه في زاوية واحدة، أو تتركّز على جانب واحد.

كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ (ابن تيميّة) الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاطٍ وحياةٍ، بحركاتٍ علميةٍ وعمليةٍ، لا تزالُ آثارُها خالدةً باقيةً على مرِّ القرون والأجيال.

* * *

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الفصل الثاني

العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية

العصر الذي ولد فيه ابن تيميـة:

يتَّسـم عصـرُ (ابن تيميّـة) بحوادثَ خطيرة، وقلاقل كثيـرة، وهـو عصرٌ ذو أهمية كبيرة من النواحي السياسيّة والاجتماعيّة والخُلقيّة والعلميّة والدينيّة، ولكي نطّلعَ على قيمة الجهود الإصلاحية التي قام بها شيخُ الإسلام (ابن تيميّة)، ونعرفَ طبيعته العلمية والدعوية، يجب أن نستعرض ذلك الوسط الذي نشأ فيه، وتركّزت عليه مهمته التجديدية والإصلاحية.

ولد ابن تيميّـة بعد تدمير (بغداد) بخمس سنوات، وبعد دخول (التتر) إلى (حلب) و(دمشق) بثلاثة سنوات، فمن البديهي أنّه يكونُ قد رأى منذ تعقّله آثار الدّمار لهذه المدن الإسلامية، وسمعَ قصّةَ مذابح المسلمين، وصدى حكايات الفظائع الـوحشية التي قام بها التتر في كل مكان، وتـردّدت على ألسـنة الناس جميعاً.

وعندما كان ابن سبع سنين شنَّ التتر حملةً على مسقط رأسه (حَرَّان) التي كانت تقع في شماليِّ الأرض المحتلة (العراق) بين دجلة والفرات.

وقد خرجت أسرتُه ـ شأن الأسر الكثيرة من حران ـ فراراً من فظائع التتر وظلمهم، وتوجّهت إلى دمشق.

وكانت هيبةُ التتر فاشيةً في الطرق كلِّها، فما عسى أن تمحى ذكرى هذه الفوضى والإرجاف والذعر من ذاكرته العظيمة، ولا بدّ أن يكون قد شاهد آثار هـذا الخراب والدمار بـأمّ عينيـه، وسمع تفاصيلَـه المؤلمة عمّن رأوا مناظره، وشهدوها وشاهدوها، فمن الطبيعيّ أن يتأثّر قلبُه الغيورُ المرهفُ بنكبة المسلمين

هذه وذلتهم، وتمتلئ نفسُه غيظاً وكراهية لأولئك الوحوش الضواري.

وكذلك ما حدث في (عين جالوت) من انتصار المسلمين الباهر، إنّما وقع قبل مولده بثلاث سنوات، كما أنَّ فتوح الملك (الظّاهر بيبرس) كانت أحاديثَ صباه، وسميرَ المجالس في ذلك العهد، فلا شكَّ أنَّ ذلك يكونُ قد بعثَ في قلبه سروراً وقوّة، وأثار في نفسه شجاعةً وحماسةً[1].

ملوك مصر المماليك:

كان المماليك يحكمون مصر والشّام من قبل مولد ابن تيميّة بثلاث عشرة سنة، وقد كان هؤلاء المماليك أتراكاً، أسكنهم الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوك أسرة (صلاح الدين الأيوبي) (المتوفى ٦٤٧هـ) اعترافاً بشجاعتهم ووفائهم في مصر، وعُرِفوا باسم (البحرية)[2]، وكان من بينهم رجلٌ عُرف باسم (عزّ الدين أَيْبَك التركماني) الذي اغتال (توران شاه) خليفة الملك الصالح سنة ٦٤٧هـ، واستولى على الحكم، وتلّقب بلقب الملك المعزّ، واغتيلَ هو في سنة ٦٥٥هـ، فخلفه ابنه نور الدين عليّ.

وفي سنة ٦٥٧هـ سيطر على عرش الحكم غلامُ عزِّ الدين أيبك (سيف الدين قطز)، كان رئيس إدارة الحكم، وهو الذي هزم التتر لأوّل مرة هزيمة نكراء في معركة (عين جالوت)، وما إن مضى على تربّعه عرشَ الحكومة سنةٌ واحدةٌ حتى قتله ركن الدين بيبرس (مملوك من مماليك الصّالح نجم الدين أيّوب) واستولى على الحكم، واتّخذ لنفسه لقب الملك الظاهر، واستمرّ في الحكم مدة ثمانية عشر عاماً في غاية من الأُبهة وعظمةِ الشأنِ، وانتصرَ على التتر والصليبيين مرات عديدة.

---

(١) من الشخصيات المؤثرة في حياة شيخ الإسلام شخصية الإمام المجاهد سلطان العلماء الفقيه أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الذي توفي قبل سبعة أشهر من ولادة ابن تيمية، وكانت سيرته حديث الناس في الشام ومصر. (الناشر)

(٢) كان مقرّهم على ضفة النيل: ولذلك اشتهروا بهذا الاسم؛ ومن عادة المصريين أنهم يسمون النيل بحراً.

ولد (ابن تيميّة) في أيّام الملك الظاهر بيبرس، الذي كان يحكم آنذاك مصر والشّام، إنه قضى أيامَ صباه في حكمه، فلمّا تُوفّي (بيبرس) كان (ابن تيميّة) شاباً بالغاً من العمر ١٥ عاماً.

وكان الملك الظّاهر بيبرس أولَ ملك قويٍّ مسـلمٍ بعد صلاح الدين، اعتنى بأمر الجهاد، وهزمَ أعداء الإسلامِ على التوالي، يتحدّث عنه ابن كثيرٍ فيقول:

«كان رحمه الله متيقّظاً، شهماً، شُجاعاً، لا يفتر عن الأعداء ليلاً ولانهاراً، بل هو مناجِزٌ لأعداء الإسلام وأهله، ولمّ شعثه، واجتماع شمله، وبالجملةِ أقامه الله في هذا الوقت المتأخِّر عوناً ونصراً للإسلام وأهله، وشجاً في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين، وأبطلَ الخمور، ونفى الفُسّاق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته»[١].

كانت رقعةُ حكومته واسعةً، ونظاماً متقناً، فقد امتدَّ حكمُه إلى نهر الفرات في الشرق، وإلى آخرِ حدود السّودان في الجُنوب.

وكانت مصرُ مركزَ الحكومة، والقاهرةُ مقرُّها الرئيسي التي تحوّلت إلى مركزٍ علميّ وسياسيّ وحضاريّ للعالم الإسلامي في ذلك الحين، بفضل الملك الظّاهر، وإقامة أحد الخلفاء العباسيّن فيها[٢].

وقد أقبلَ الملك الظّاهر على تأسيس عدد كبير من المدارس، حتى اجتمعَ أهلُ الفضل والعلم في القاهرة من أنحاء بعيدة.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/٢٧٦.

(٢) بقي المسلمون بعد شهادة الخليفة المستعصم بالله ثلاث سنوات من غير خليفة. يقول المؤرخون عند استهلال العام الجديد: «دخلت سنة ٦٥٧هـ والمسلمون بلا خليفة». وأخيراً بايع الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ بالخلافة أحدَ أفراد بني العباس واسمه المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر؛ وقرّرَ مصر قاعدة الخلافة، ولكنّ هذه المبايعة إنما كانت بالاسم والبركة فقط. إذ كان الملك الظاهر بيبرس هو الحاكم الفعلي في الحقيقة.

كان الملك الظاهر بيبرس على كفاءته الشخصية، ودوافعه الإسلامية، وحماسه للجهاد ـ حاكماً مستبداً برأيه، فلا غرابةَ إذا وجدتْ فيه بعض مواضع الضعف، مما يتّصفُ به الملوك المستبدّون، وإنّ تاريخه حينما يتجمَّلُ بمآثره الجليلة، وخدماته الإسلامية، يتسمُ بخصائص المملكة الشخصية، وأحداث الاستبداد، والعناد، والإصرار أيضاً، وما حدثَ للإمام النوويِّ معه من معاملة مؤسفة، لدليل على ذلك[1].

ومنذ نهاية حكومة الملك الظاهر، التي عاشت ثماني عشرة سنة، تداول عرش الحكم في مصر والشام ملوك كثيرون، ويمكن أن نقدّر ذلك بأنّ تسعة ملوك تربّعوا على عرش مصر في فترة ما بين ٦٧٦هـ (وهي السنة التي توفي فيها الملك الظاهر) إلى ٧٠٩هـ في خلال ٣٣ عاماً فقط.

وفي خلال هذه الفترة تمتعت الدولة الإسلامية في مصر والشام والحجاز بملك مجاهد قوي، منظم للأمور، اسمه الملك المنصور (سيف الدين قلاوون) الذي شنّ الغارة على التتر في سنة٦٧٨هـ وهزمهم هزيمة منكرة.

وكذلك فتح طرابلس الشام، التي كانت بيد الصليبيين منذ ١٨٥ سنة، إنه حكم بين فترة سنة ٦٧٨هـ ـ ٦٨٩هـ مدة اثني عشر عاماً بغايةٍ من الحكمة والدّقة.

ولما توفي المنصور قلاوون عاد عرش مصر لعبة بين ملوك وأشباههم، وأخيراً وفي سنة ٧٠٩هـ تقلّد زمام الحكم ابنه (الملك الناصر محمد بن قلاوون) ثلاث مرات، حتى استقر حكمه إلى ٣٢ سنة.

والحقيقة أنّ الملك الناصر هو المعاصر الأصيل للإمام ابن تيميّة، الذي يتصل به تاريخه الإصلاحي والتجديدي، إنه كان خليفةَ الملك الظّاهر بيبرس إلى حدٍّ كبيرٍ، ومشاركاً له في عديد من صفاته وخصائصه، وكان مثالاً لوالده العظيم (المنصور قلاوون)، وفي عصره نالت الدولة الإسلامية وحدةً وقوةً، وانتصر على

---

(١) اقرأ القصة بطولها في ترجمة الإمام النووي في (طبقات الشافعية الكبرى) للشيخ تاج الدين السبكي.

التتر انتصاراً باهراً شأنَ سلفه، وسبب ازدهار الحكومة الإسلامية، وانتشار سمعتها الطيبة.

ظلت خراسان وفارس والعراق تحت حكم التتر في هذه الفترة، ولم تَعُدْ بغداد إلى أيدي المسلمين ما لم يهتد حكامها التتر إلى الإسلام.

على أنَّ الخليفةَ العباسيَّ في مصر غزا العراق بنفسه، وأراد الملك الظاهر بيبرس غيرَ مرة أن يستردها من أيديهم، ولكن دون جدوى، وقد كانت مصر والسودان والشام والحجاز في حكم المماليك آنذاك.

نظام المملكة:

كان الإسلام دين الدولة الرسمي في مملكة المماليك، فقد كان الملك وأعيان المملكة كلهم يحبّون الإسلام، وتجيشُ في قلوبهم حميّةُ الإسلام، والحكومة كانت تتولّى نصبَ القضاة والأئمة وشيوخ الإسلام، ورجالَ المناصب الدينية، مع وجود قسم الحِسبة، واعتبار أحكام القضاة واجبةَ الامتثال، وكانت المدارس تقوم بتدريس العلوم الدينية الحرّة، ولكن العامل الأساسي في جميع شؤون المملكة ونظامها كان هو الملك ووزراءه الموثوق بهم، وأعضاء مملكته، وكان حكمهم وإرادتهم قانونَ المملكة الأصيل، ولذلك كانت مساحةُ تنفيذ القوانين الإسلامية محدودةً ضيقةً في مملكتهم الواسعة، وكان نظامُ الحكومةِ يشبه النظام العسكري، ولم يكن يعتمد على دستور مدوّنٍ، ولا نظامٍ معيّنٍ، ولا كان له مجلس استشاري.

ولكن الملك الظّاهر وخلفاءه من الملوك كانوا يحاولون أن تنال قوانينُ مملكتهم وأحكامهم واجراءاتهم تأييدَ العلماء المعاصرين، ولا ينفذوا أمراً إلا بعد استشارتهم واسترضائهم، وقد أُلغي في بعض الأحيان قانونٌ جديدٌ صدر من الملك إذا خالفه العلماء.

ولما أراد الملك الظّاهر بيبرس مصادرة الاقطاعات وأراضي الإقطاعيين في مصر والشّام خالفه الإمام (النوويّ) مخالفةً عنيفةً، ولو أنَّ بيبرس أبدى سخطه

على ذلك، واضطر الإمامُ النوويّ إلى مغادرة دمشق من جرّائه، ولكنّه لم يتشجّع على مصادرة الأراضي والاقطاعات كما أرادها، بل تركها على سابق حالها، ولم يُدْخِل فيها أي تغيير أو تعديل.

لقد كان أساسُ هذا النظام للمملكة قائماً على التوارث، غير أنّ الواقع كان على عكس ذلك، إلا أنه لم يكن مبنياً على أساس إسلامي، لا لأنّ روح الإسلام وتقاليدَه المتبعة تقتضي اختصاصَ الأمير بكفاءة شخصية، وكونه موضع ثقة الأمة، بل لأن أساس نظام المماليك كان يقوم على الكفاح الذّاتي، والشهامة الشخصية، والسعي الدائب، والعمل المتواصل، وأصبحت طبيعةُ هذه المملكة أن يتغلّبَ القوي الشجاعُ، ويتولّى الحكم.

ومعلومٌ أن مماليك الدولة الأيوبية إنما استولوا على مملكة ساداتهم بجهودهم الشخصية، وهمّتهم العالية، واستمرّت هذه السلسلة إلى آخر زمانهم، فقد ظلّ كلُّ ملك منهم يجتهد أن يولّي ابنه الخلافة، إلا أنّ الأقوى جرأةً من المماليك كان يتغلّبُ على غيره، ويتربّعُ على عرش المملكة، وإنّ فرصَ الحكم هذه وإمكانياته قد فتحت أمام الأقوياء وذوي الطموح منهم بابَ المنافسة، وبما يجري بينهم من مباراة وتنافس في الحصول على الحكم، فإذا شنّ عليهم هجوم من جهة، من التتر أو الأفرنج، اتّحدوا وتعاونوا فيما بينهم أكثر الأحيان.

الوضع الخلقي والاجتماعي للبلاد:

هذه الفئة الحاكمة التركية كانت تعيش في شعور بالأفضلية، وتمتاز في كل شيء عن المجتمع العام في الدولة، وتتكلم بلغتها الأم التركية، عدا مناسبات العبادة أو الخطاب مع العلماء، أو الحديث مع الجماهير (وقلّما كانت تحتاج إلى الحديث مع الجماهير مباشرة)، فإنها كانت تستخدم اللغة العربية، وقد كان بعضُ هؤلاء الملوك لا يعرفون من العربية إلا القدر الذي يؤدون به الواجب، وكانوا مع ذلك يقدّرون العلماء، ويحبون المشايخ والصُّلحاء، ويُقْبلون على بناء المساجد وتأسيس المدارس، لم يكونوا يتحيزون في تقسيم المناصب إلى فئة دون فئة، أو جنس دون جنس، إلا أنّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت تتحول إلى

الرؤساء الأتراك بحكم الطبيعة، وكان الأتراك والتتر هم أصحاب الحكم والإقطاعات الذين كانوا يستغلّون المزارعين والعمال.

وفي سنة ٦٩٧هـ حينما حاول الملك (حسام الدين لاجين) في أيام حكمه توزيعَ الأراضي بطريق ينفع المزارعين، ويصلحُ حالَهم، وتتقدم به الزراعة والإنتاج الزراعي، لم يرضَ به الحكام في مملكته وثاروا عليه.

كان التتر عنصراً مهماً في المجتمع، إنّهم كانوا من مخلّفات الحروب التي نشبت بين سيف الدين قطز والملك الظاهر وناصر الدين قلاوون من جهة وبين التتر من جهة أخرى، فقد أُسر فيها عددٌ كبيرٌ من التتر، وجيء بهم إلى مصر والشام حيث استوطنوا وسكنوا[1]، إنّهم كثروا في أيام الملك بيبرس، وملؤوا مصرَ والشام، وانتشرت عاداتهم وطرائقهم فيهما، كما تحدَّث عنهم المَقْرِيْزيّ في (خطط مصر)، وأنّهم على رغم إسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم، واستمروا على خصائصهم القوميّة.

وفي الحقيقة يتعذّر في التاريخ نظير المهتدين الجدد إلى الإسلام، الذين تحوّلوا إلى الإسلام كلياً، وتجرّدوا عن عقائدهم وأفكارهم السابقة، وخصائص حضاراتهم، وتأثير عقلياتهم تجرّداً كاملاً، إنّما كان ذلك من خصائص الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومعجزة النبي ﷺ، إذ إنَّ صراع الجاهلية والإسلام انتهى في حياتهم تماماً، كأنهم خلقوا في الإسلام من جديد.

ففي هذا المجتمع والعصر، إذا لم يكن للتعليم والتربية نظامٌ دقيق، وليس في المجتمع الإسلامي من قوةٍ لإذابةِ المهتدين الجدد، وصوْغهم في قالبه، لايصحُّ أن يرجى من التتر والأتراك العجم أن ينصاغوا في قالب العقائد والعبادات الإسلامية، ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم، ويتجرّدوا عنها مئة بالمئة، ولذلك فقد كانت حياة هؤلاء التتر المسلمين مزيجاً من الإسلام والتأثير الجاهليّ، يتحدّث عنهم المؤرخ المصري الشهير المَقْريزي في (خطط مصر) فيقول:

---

(١) كذلك سكن مصر كثير من التتر الذين أسلموا وهاجروا إلى مصر، وكانوا من رعايا بركة خان. انظر رجال الفكر: ١/ ٣٧٥. (الناشر)

«وكانوا إنَّما رُبُّوا بدار الإسلام، ولُقّنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملّة المحمديّة، فجمعوا بين الحقّ والباطل، وضموا الجيّد إلى الرديء، وفوّضوا لقاضي القضاة كلَّ ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظرَ في الأقضية الشرعية، كتداعي الزوجين، وأرباب الديون، ونحو ذلك.

واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة (جنكيز خان) والاقتداء بحكم (الياسق)، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم، والأخذ على يدِ قويهم، وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في (الياسق)، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الاقطاعات، لينفّذوا ما استقرت عليه أوضاعُ الديون وقواعدُ الحساب، وكانت من أجلّ القواعد وأفضلها، حتى تحكّم القِبْطُ في الأموال وخراج الأراضي»[1].

وكان لزاماً أنْ يتأثّر المجتمع الإسلامي والعرب القدامى بما حَمَلَ إليهم هؤلاء الأتراك العجم والتتر المهتدون من عادات وأخلاق، وحضارات وتقاليد واجتماع، حتى بما اتّصفوا به من عقائد وأفكار، لقد كان الشرق والغرب يختلطان فيما بينهما، ويجتمعان بهجوم التتر، وفي حالة انتصارهم وانهزامهم، كما اختلطت آسية وأوروبة في الحروب الصليبية، قد بدأ هذا الاختلاط والاجتماع من الاشتباكات في ساحة القتال، ولكنّه انتهى بالامتزاج الحضاري والفكري والخُلُقي، وتأثَّر كل واحد بصاحبه وأثّر فيه.

إن هذا الاختلاط أحدث مشكلات جديدة وعديدة، فقد نشأت حضارةٌ جديدةٌ واجتماع جديد، يصعبُ الحكم فيها، هل هي حضارة إسلامية أو اجتماع عربي؟!.

وفي مثل هذا الوضع تتضاعف مسؤولية مصلحٍ ومربٍّ لا يرضى بوجود أيّ عادةٍ من عادات جاهلية أو تأثير غير إسلاميٍّ في مجتمع المسلمين، ويريد أن يرى

---

(١) خطط مصر: ٢/ ٢٢١.

هذا المجتمع تابعاً للكتاب والسنة بأكمله، ومقتفياً آثار الصّدر الأول، وخير القرون من المسلمين، ويحبّ أن يراه تفسيراً عملياً لقول الله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الوضع العلمي:

نهض في أوساط هذا القرن أئمة كبار، كالعلامة (تقي الدّين أبي عمرو ابن الصّلاح) (٥٧٧ ـ ٦٤٣هـ) (وشيخ الإسلام عزّالدّين ابن عبد السّلام) (٥٧٨ ـ ٦٦٠هـ) (والإمام محيي الدّين النووي) (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار، مثل المحدّث الكبير شيخ الإسلام (تقيّ الدّين ابن دقيق العيد) (٦٢٥ ـ ٧٠٢هـ) والأصوليّ المتكلمّ العلاّمة (علاء الدين الباجي) (٦٣١ ـ ٧١٤هـ).

وقد كان من معاصري ابن تيميّة كبارُ المحدّثين والمؤرّخين كالعلامة (جمال الدين أبي الحجّاج المزّي) (٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ) والحافظ (علم الدّين البِرْزالي) (٦٦٥ ـ ٧٣٩هـ)، والعلاّمة (شمس الدّين الذّهبي) (٦٧٣ ـ ٧٤٧هـ) الذين كانوا يعدّون الأركان الأربعة للحديث والرّوايةِ في عصرهم، والذين يعتمدُ على كتبهم المتأخرون من العلماء.

كما نبغ في عصره أساتذة الفنِّ البارعون، وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية، كانوا مرجعَ الخلق، وطار صيتهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة (كمال الدين ابن الزملكاني) (٦٦٧ ـ ٧٢٧هـ)، وقاضي القضاة (جلال الدين القزويني) م٧٣٩هـ، وقاضي القضاة (تقي الدين السبكي) (٦٨٣ ـ ٧٥٦هـ)، والعلامة (أبي حيّان النَّحويّ) (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ).

لقد كان انتشار العلم في تقدّم مطرد، فقد وجدت في مصر والشام مدارس كبيرة، ودور الحديث، تلك التي أسسها الأيوبيون والمماليك، كان يؤمّها الطلاب من أنحاء العالم، لتلقّي العلوم الدينية والعقلية، وكانت مكتباتٌ كبيرةٌ تابعةٌ لهذه المدارس، وأخرى مستقلة بذاتها، تحتوي على ذخائر علمية، ونوادرَ من كلّ علم وفن، لا يُوصدُ بابُها لأي دارس، ولقد كانت المكتبة التابعة للمدرسة (الكاملية)

التي أسـسها (الكامل محمد الأيوبي) سـنة ٦٢١هـ تحتوي وحدها على مئة ألف كتاب.

وقد أُلِّفت في نفس هذا القرن كتب جليلة، تعتبر مرجعاً للمتأخرين من العلماء، مثل: (مقدمـة العلامة تقي الدين ابن الصلاح)، و(القواعد الكبرى) للشيخ عز الدين ابن عبد السّلام، و(المجموع شرح المهذب) و(شرح مسلم) للإمام النووي، وكتاب (الإمام)، و(إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام) لابن دقيق العيد، و(تهذيب الكمال) لأبي الحجّاج المزي، و(ميزان الاعتدال)، و(تاريخ الإسلام) للعلامة الذهبيّ.

كان يتسم العلم والتأليف في هذا القرن **بالسَّعة وقلّةِ التعمُّق، ويغلبُ طابعُ النقل والاقتبـاس على التفكير والدراسـة والتعمق في العلم**، باسـتثناء عدد من الشخصيات والمآثر العلمية.

وتكوّنت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، لا تتقبل المرونة والتسامح، وإن كان القول السائد أنَّ الحقَّ دائرٌ بين المذاهب الأربعة، ولكنَّ أتباع كلّ مذهب يحصرون الحقَّ في مذهبهم في الواقع، ولا يزيدون إذا توسّعوا كثيراً على أن يقولوا: «رأيُ إمامنا صوابٌ يحتمِل الخطأ، ورأيُ غيرِنا خطأ يحتمل الصواب».

لقد كان أتباع كل مذهب يرجّحون مذهبهم الفقهيّ على سائر المذاهب الفقهية، ويعتبرونه مقبولاً ومؤيَّداً من الله، كانوا يبذلون كلَّ ذكائهم وقوّة بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره.

أما النظرةُ التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم، والعقلية التي تسـودُ أهلها، فيمكن تقدير ذلك بأنّ الملك الظاهر بيبرس لما نصّبَ لكلِّ مذهب قاضي للقضاة خاصّاً به، خلافاً للعادة المتّبعة في زمنه، وهي ألا يكونَ قاضي القضاة إلا شافعياً، استنكرَ ذلك فقهاءُ الشّافعية، إذ كانوا لا يرضون إلا أن يروا مصرَ خاضعة للقاضي الشافعي، ظنّاً منهم أنَّ مصر أحقُّ بالمذهب الشّافعي لأنّها مدفنُ الإمام الشّافعيّ، ولما انتهى حكم الملك الظّاهر، وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيرها، رأى ذلك بعضُ الشافعية نقمةً إلـهيةً، وعقاباً لفعلته التي فعلها.

وقد كان التعصّب الكـلاميّ مع التحـزّب الفقهي بـالغاً مداه، كان أتباع المذاهب الأربعة تلاميذَ وشـيوخاً فيما بينهم، معترف بعضهم بفضل بعض، يتبادلون الحب والإكرام والزيارة، غير أنّ اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبه مستحيل، فبينما كانت المذاهب تختلف في الأفضلية والأولوية، كانت الأشعرية والحنبلية تختلفان في الكفر والإسلام[1]، كلُّ طائفة كانت تلحُّ على تكفير الطائفة الأخـرى، وكانت المباحث الاعتقاديـة وتقعّر المتكلّميـن تتغلّـب على جميـع المباحث الأخرى، وكان هذا الذوق فوق كلِّ ذوق، يسكر به العامة والخاصة جميعاً، وتبتلى به الحكومات أيضاً.

هذا، وكان التصـوّفُ في جانب آخر قـد بلغَ أوجه، ودخل فيه كثيـر من الأفكار والعناصـر غير الإسلامية، وانتمى إليـه كثيرٌ من الجهلاء والمحترفيـن والمبتدعين المارقين، وسبّبوا ضلال العامّة والخاصة، وازدهار الشِّرْك والبدع في المجتمع.

كما اشتغلت طائفةٌ من الفلاسفة بنشر تعاليمها جهراً وعلانية حيناً، وسِرّاً وخِفيةً بعض الأحيان، متحررة من قيود الدين وتعاليم الأنبياء، وطائفة أخرى كانت تعتبر الفلسفة مقياساً أصيلاً، وتريد ترقيعها بالأديان، وتحاول التوفيقَ بين العقل والنقل، وكانت الطائفتان كلتاهما من مقلّدي (أرسطاطاليس) و(أفلاطون) ومُقدّسي أفكارهما وآرائهما، ومن المعتقدين لصحّةِ علومهما وفضلهما، وكونها أمراً فوق الطاقة البشرية، فلم تكونا تعترفان بخطئهما في أيّ ناحية، ولا تحيدانَ في شيءٍ عن نتاج أفكارهما ودراستهما.

كان ذلك هو الوسط السياسيّ والاجتماعيّ والفكريّ والعلميّ الذي ترعرع فيه (ابن تيميّة) ورفعَ فيه لواء الإصلاح والتجديد.

* * *

---

(١) انظر (ملحة الاعتقاد) لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام. (الناشر)

الفصل الثالث

نشأة ابن تيميّة وحياته

مسقط رأس ابن تيميّـة:

تتوزّع بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) بين جزأين:

١ ـ الجزء الجنوبي الذي يسمّى العراق العربي، وهو يتضمّنُ بغداد والبصرة.

٢ ـ الجزء الشمالي ويسمّى في الأدب العربي القديم (ديـار بكر) و(ديـار مضر)، ويعبّر عنه الجغرافيون العرب باسم (الجزيرة)، ويقع في شمالها أرمينية، وفي جنوبها العراق العربي، وفي شرقها كردستان، وفي الغرب آسية الصغرى وبـادية الشام، وفي هذه المنطقـة تقع المَوْصل والرّقـة (البيضاء)، ونُصيبيـن والرّها[1].

وفي جنوب الرّها على بعد ثماني ساعات تقع (حرّان)، المدينة التاريخية الشهيرة، التي ظلت مركزاً دينياً وعلمياً للصابئين من قديم، كما يقول (ابن حَوْقل)، واشتهرت هذه المدينة، وامتازت بصفة خاصة بالفلسفة والعلوم اليونانية القديمة، تلك هي (حرّان) التي كانت موطن ابن تيميّة القديم، حيث كانت أسرتُه تسكن منذ قرون.

أسرة ابن تيميّـة:

أسرةُ ابن تيميّة[2] التي عُرفت بهذا الاسم من قديم، كانت أسرة حرّان

---

(١) وتعرف اليوم باسم (أورفة) وهي ضمن دولة تركية اليوم.

(٢) كانت بداية هذه النسبة منذ جدّه الأكبر محمد بن الخضر؛ واختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية، وقيل: إنّ اسم أم محمد بن الخضر التي كانت واعظة كان تيمية، ومن هنا انتسبت هذه الأسرة إليها.

المعروفة بالعلم والدين، وكانت هذه الأسرة ـ منذ أن عرف تاريخها ـ حنبليّةَ العقيدة والمذهب، تتزعم المذهبَ الحنبليَّ في تلك الديار، واشتغل رجالُها العلماء دائماً بالتدريس والإفتاء والتأليف.

كان جدُّ ابن تيميّة أبو البركات (مجد الدين) من أئمة المذهب الحنبلي، وكبار علمائه، وقد سمّاه بعضُ أهل العلم المجتهد المطلق[1]، يقول الحافظ الذّهبي إمامِ فنّ الرجال في كتابه (سير أعلام النبلاء):

«ولد مجد الدين ابن تيميّة حوالي سنة ٥٩٠هـ، وأخذ العلم أولاً عن عمّه الخطيب، والواعظِ الشهير فخر الدين ابن تيميّة، ثم تلقّى العلم من محدّثي وعلماء حران وبغداد، وتخرّجَ عليهم، وبرعَ في الفقه، وانتهت إليه الإمامة في الفقه. ولما وصل إلى بغداد في سنة ٦٥١هـ في رحلته إلى الحجّ قضى علماء بغداد العجبَ مما رأوه من ذكائه وبراعته في العلم».

يقول الإمام الذهبي: «حكى لي شيخُ الإسلام ابن تيميّة بنفسِه أنّ الشيخ ابن مالك[2] كان يقول: لقد ألانَ اللهُ الفقه لمجد الدين ابن تيميّة كما ألانَ الحديدَ لداود عليه السلام».

وكان يقول أيضاً: إنّ جدّنا (مجد الدين) كان فيه شيءٌ من السَّوْرَةِ والغضب.

وقد سأله أحد العلماء[3] مرّةً عن مسألة علمية، فقال له: إنّ الجواب عن هذه المسألة من ستين طريقاً، ثم عدّد عليه الطرق واحداً بعد الآخر، وقال له: حسْبُكَ أن تعيدها، فدُهِشَ لهذا الذكاء النادر وبُهتَ.

ويقول ابن تيمية أيضاً: إنّه كان فريد دهره في نقل المتون وحفظ المذهب، لم يكن يفتقرُ في ذلك إلى تكلّف أو اهتمام[4].

---

(١) راجع ترجمةَ صاحب منتقى الأخبار، بقلم العلامة محمد بن علي الشوكاني، صاحب (نيل الأوطار).

(٢) جمال الدين: أبو عبد الله محمد بن مالك الأندلسي النحوي صاحب الألفية. (الناشر)

(٣) هو برهان الدين المراغي كما في طبقات الحنابلة للشطي، ص٥٧. (الناشر)

(٤) وقد انتقلت هذه الخصائص كلُّها إلى حفيده العظيم.

توفّي سنة ٦٥٢هـ، ومن أشهر تصانيفه وآثاره العلميّة كتاب (منتقى الأخبار). استفاد منه العلماء، واعتنوا به في كلّ عصر، وقد اهتمّ المؤلف في هذا الكتاب بجمع الأحاديث حول الأبواب الفقهيّة، التي تعتبرُ دليلاً لأهل المذاهب ومرجعهم.

وقد تصدّى في العصر الأخير عالمُ اليمن المجتهدُ ومحدّثُها العلامة النابغةُ (محمد بن علي الشوكاني) المتوفّى سنة ١٢٥٥هـ لشرح هذا الكتاب، فشرحه في ثمانية مجلدات باسم (نيل الأوطار) الذي يحتل مكانةً مرموقةً في الأوساط العلمية والتدريسيّة، لما يحتوي عليه من حسن التلخيص، وجودة الترتيب، والبحوث المقنعة، وسعة نظر المؤلّف، ورحابة قلبه.

أما والد ابن تيميّة الشيخ شهاب الدين (عبد الحليم ابن تيميّة) فقد كان عالماً محدّثاً، وفقيهاً حنبلياً، وصاحبَ تدريس وإفتاء، ولما انتقل من حرّان إلى دمشق قام بالتدريس بصورة منتظمةٍ في الجامع الأمويّ، الذي كان يُعتبر مركزاً لكبار العلماء والمدرّسين، ولم يكن يسعُ كلَّ عالم أو مدرس أن يدرّس فيه، وقد كانت تمتازُ دروسُه بالارتجال والتكلّم عن ظهر القلب، من غير أن يستعينَ في أثناء التدريس بكتاب، إنّما كان يعتمِدُ على ذاكرته وحفظه، ووليَّ مع ذلك شياخة دار الحديث السكرية بالقصّاعين، وبها كان سكنه، توفي سنة ٦٨٢هـ ودُفِنَ بمقابر الصوفيّة رحمه الله[1].

مولده وانتقاله من حرّان إلى دمشق:

ولدَ تقيُّ الدين ابن تيميّة يوم الاثنين ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ في هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة، وسمّاه والده بأحمد تقي الدين، واكتنى بأبي العبّاس يافعاً، ولكنّه اشتُهر بابن تيميّة، وغلب لقبه النسبي على اسمه، وبذلك عُرِفَ بين الناس.

---

(١) راجع البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣.

وقد ذكرنا أنّ عصرَ ابن تيميّة كان مليئاً بالقلاقل وفظائع التتر، فقد كان العالم الإسلامي كلّه يرتجف خوفاً من التتر الوحوش، غير أنَّ أرض العراق والجزيرة كانت مجالهم بصفة خاصة، وما كاد ابنُ تيميّة يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغار التتر على حرّان، فالتجأت أسرتُه إلى الفرار منها بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة، وما كانت تملكه من الفضل والكرامة والشّرف والطهارة، شأن مئات من أسر العلماء والأشراف.

وبما أنَّ العراق كان مركز غارة التتر ونهبهم لم تفكّر هذه الأسرة في الهجرة إليه، وكانت الشام أقربَ بلد لم يصل إليه لهيب الفساد والدّمار، حيث كانت تحت حكم ملوك مصر الأقوياء، فاتجهت إليها أسرةُ ابن تيميّة، وقصدت دمشق فراراً من فتنة التتر وغاراتهم.

ولم تنس هذه الأسرة العظيمة في مثل هذه الحالة القلقة والوضع القاسي أن تنقل معها مكتبتها الثمينة التي كانت تراثها العلمي التليد الوحيد، ولم ترضَ بمفارقتها، على رغم ما ستقاسيه من جرائها من متاعب ومشاق شديدة، وحملت الكتب أغلى متاعها على مركبة، وخرجت ليلاً من غير أن يفارقها خوف التتر، ـ فقد كان الخوف يشمل كل مكان ـ ومعها النساء والولدان، وقد تزايدت الصعوبةُ والمشقّة في جرّ المركبة بالأيدي لعدم توفّر الدواب، وكان هذا الركب سائراً على قدم وساق، إذ كاد العدوُّ (التتر) يلحقهم لتوقّف المركبة عن السير، وهنالك تضرّعَ أعضاء الأسرةِ إلى الله واستعانوا به، حتى نصَرَهم الله، وأنجاهم من المهلكة.

في دمشق:

وما كادت هذه الأسرة العلميّة تصلُ إلى دمشق حتى شاع خبرُها في أوساط الناس، وقد كان أصحاب العلم عارفين باسم أبي البركات مجد الدين ابن تيميّة وأعماله، كما كان عبد الحليم ابن تيميّة معروفاً بينهم بعلمه وفضله، وما هي إلا بضعةُ أيام حتى بدأ عبد الحليم يدرّس في الجامع الأمويّ، وفي دار الحديث

السكّرية، وصار مرجعَ الطلبة وعلماء المذهب الحنبلي، وهكذا لم تشعر هذه الأسرة في هذا البلد بأيٍّ غربةٍ أو وحشةٍ.

وانتهى ابن تيميّة الصغير من حفظ القرآن الكريم في وقت مبكر، واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعلوم العربية، وكان يحضرُ خلال ذلك رغم صغر سِنّه مجالسَ التدريس والوعظ عند والده، وعند العلماء في حلقهم، ويشاركهم في المذاكرات العلمية، التي كانت سبباً لتوسّع عقله الأخّاذ، وتفتح ذهنه الفحّاص.

ذاكرة عبقرية:

عرفت أسرة ابن تيميّة بقوة الذاكرة، وكثرة الحفظ وسرعته، فقد كان أبوه وجدُّه قويّيَّ الذّاكرة، ولكنَّ تقي الدين ابن تيميّة سبقَ أسرتَه كلَّها في هذه النعمة، فقد أدهش العلماء وأساتذته بذاكرته القويّة النادرة، وسرعة حفظه، واشتُهر بذلك في دمشق، يتحدّث عن ذلك صاحب (العقود الدرية)[1] فيقول:

«اتفق أنَّ بعض المشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعتُ في البلاد بصبيٍّ يقال له أحمد ابن تيميّة، وأنّه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلّي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا السّاعةَ يجيءُ، فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمرّ صبيان، فقال الخياط للشيخ الحلبي: هذا الصبيُّ الذي معه اللوح الكبير هو أحمد ابن تيميّة، فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللّوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولد! امسح هذا حتّى أملي عليك شيئاً تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحدَ عشرَ أو ثلاثةَ عشرَ حديثاً فقال: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرّة بعد كتابته إياه، ثم رفعه إليه، وقال: اسمعه، فقرأ عليه عَرْضاً كأحسنِ ما أنت سامعٌ، فقال: يا ولدي امسحْ هذا، ففعل، فأملى عليه عِدّةَ أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أوّل مرّة، فقام الشيخُ وهو يقول: إنْ عاش هذا الصبيُّ ليكوننّ له شأنٌ عظيم، فإنَّ هذا لم يُرَ مثلُه»[2].

---

(١) ابن عبد الهادي. (الناشر)

(٢) ابن تيمية؛ لمحمد أبي زهرة، ص٢١.

وبالنسبة إلى حكايات سـرعة الحفظ، وقوة الذاكـرة التي تتضمنها كتب التاريخ الموثوق بها، وما نشاهده ونجرّبه في رواة وأئمة الأدب من أمثلةٍ عديمةِ النظير للذاكرة النادرة، ليست قصةُ ذاكرةِ ابن تيميّة هذه مستحيلةً ولا غريبةً، وإنما يصدق ما ظهر منه نفسُه في حياته الآتية من وقائع الحفظ والنقل أنه رزق ذاكرةً عبقريةً يتعذر نظيرها.

الدراسة والتخرج:

بدأ ابن تيميّة دراسةَ العلوم باهتمامٍ وعنايةٍ بالغين، يتحدّثُ عنه معاصروه ومـؤرخوه أنه رغم صغر سـنه لم يكن يتّجه إلى الملاعب والملاهي كمـا يفعل الأطفال، فلم يكن يضيّع فيها وقته، ولكن كان مع ذلك مطّلعاً على أمور الحياة والمجتمع في ذلك الوقت، وخبيراً بأحوال المدينة وعادات الناس وأخلاقهم، ويبدو من تـأليفاته أنّه كان واسـعَ النظرِ، عميقَ الدّراسةِ للحياةِ والمجتمعِ، ولم يكن يعيشُ في عزلةٍ عن الجماهير، قابعاً في ركن علمي فحسب.

درس ابن تيميّة العلوم المعروفة في عصره، وعُنيَ بالعربية عنايةً كبيرةً، وبرع في اللغة والنحو براعة تامة، وقد اعتنى بدراسة (الكتاب) لسيبويه بنظرٍ ناقد، وعقلٍ فاحصٍ، وهو كتـابٌ له أهميةٌ كبرى في النحو، (حتى إذا قيـل ـ الكتاب ـ مطلقاً يعنى به كتاب سيبويه) فخالفه في بعض مسائله، وانتقد مواضع ضعفه، وأخـذ على المؤلِّف أخطاءه، وكانت له ملكةٌ قويّـةٌ في العربية واللغـة والنحو، استخدمها في حياته العلمية، واعتمد عليها في أبحاثه وتأليفاته، وقد حفظ لذلك جزءاً كبيراً من منثور كلام العرب ومنظومه.

ودرس أحوال الجاهلية والعرب الأولين، وتوسّعَ في دراسة تاريخ العهد الإسلامي والدول الإسلامية، واستفاد من كلِّ هذه الدراسات المتنوعة الواسعة في مناحي حياته العلمية المختلفة فيما بعد، ولم يوجدْ ممنْ عاصروه وناظروه من العلماء أحدٌ يساويه في سَعةِ المعلومات، وعمق النظرِ، وكان ذلك سبباً كبيراً لتفوّقه العلمي، وكعبه العالي في العلم والتحقيق.

وعُني مع دراسته للعلوم بالخطّ والحساب والعلوم الرياضية، وتلقّاها من أساتذتها.

كما أنّه اعتنى بالغَ الاعتناء بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض والحديث والتفسير.

أمّا الفقه الحنبلي فقد ورثه من آبائه، وكان أبوه أستاذه العطوف، ومربّيه المخلص في هذه الناحية.

وكان سماعُ الحديث وحفظه وكتابته من عادات عصره المتبعة، وأول كتاب حفظه في الحديث (الجمع بين الصحيحين) للحُميدي، ثم استفاد من شيوخ عصره، وعلماء الشام، وأخذ عنهم الحديث ورواه، يقول ابن عبد الهادي:

«إنّ شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مئتي شيخ، ومن خواصّ شيوخه ابنُ عبد الدائم المقدسي ورجال طبقته، وسمع (مسند الإمام أحمد) مرّات، وكذلك سمع (الصحاح الستة) مرّات عديدة»[1].

أما التفسير فكان أحبَّ موضوعٍ لدى ابن تيميّة، وكان له شغف زائد بهذا الفنّ، يتحدَّث بنفسه أنّه درس أكثر من مئة كتابٍ في تفسير القرآن، وكانت له مناسبة طبعيّة بهذا الفن، وقد أفاض الله عليه علومَ القرآن بوجهٍ خاصّ، لكثرة تلاوته القرآن، والتدبّر في معانيه، ودراسته بتأمل وبصيرة، وكان لا يكتفي بدراسة القرآن فحسب، بل ينيبُ إلى ربه، ويسأله نعمةَ فهمِ القرآن وشرح الصدر.

إنّه يتحدّثُ عن طلبه لعلم القرآن وتدبّره فيه، يقول:

«ربما طالعتُ على الآية الواحدةِ مئةَ تفسير، ثم أسألُ الله الفهمَ، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علّمني. وكنتُ أذهبُ إلى المساجد المهجورة ونحوِها وأمرّغُ وجهي في التراب[2]، وأسألُ الله وأقولُ: يا معلّم إبراهيمَ فهّمني»[3].

---

(١) راجع (الكواكب الدرية).

(٢) أي يقصد هذه المساجد المهجورة فيعمرها بالصلاة، ويمرّغ وجهه في التراب وهو ساجد، ويكثر من الدعاء، لأن العبد أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد. (الناشر)

(٣) العقود الدرية، ص٢٦.

وكانت لعلم الكلام الذي حمل لواءه الأشاعرةُ كلمةٌ نافذةٌ في هذا العصر، ولا سيّما في مصر والشام، فقد كان السّلطان (صلاح الدين) نفسُه أشعريّاً، حافظاً لمتن قطب الدين أبي المعالي الأشعريّ (الذي كان قد ألفه في العقائد) منذ صغره، وكان يشرِفُ على تحفيظه لأولاد أسرته الصغار، وكان هو وخلفاؤه بنو أيوب قد جعلوا الناس ملتزمين بالعقيدة الأشعرية، فكانت (الأشعريةُ) تتمتّعُ بحماية الحكومة إلى عصره وعصر خلفائه مماليك مصر[1].

وكان الحنابلة يُعتبَرون خصماً معارضاً للأشاعرة، تحدثُ بينهم بعض المناوشات الكلامية[2] ويشتغل كلا الفريقين بالجدل والكلام، فقد كان كلامُ الأشاعرة وطريقُ إثباتهم مبنياً على الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي.

أمّا الحنابلة فكانوا يبحثون عن المعاني الظاهرة للنصوص والآيات والأحاديث، وكان يبدو في بعض الأحيان أنَّ كفّتهم تطيشُ في الجدال العلمي، لعدم تعمّقهم في علم الكلام، وانقطاعهم عن ممارسة العلوم العقلية، فكان يغلب على الظن، ويخيّل إلى الناس أنّ خبرتهم بالعلوم العقلية قليلة، أو عديمة، وأنّهم ليسوا متعمّقين في العلم.

ولعلّ ذلك ما حفز ابن تيميّة، ذلك الشابَّ الغيور، والعالم الذكي على التوسع والتعمّق في علم الكلام، والاطلاع على العلوم العقلية مباشرةً، فعكف على الدراسة العميقة لهذه العلوم، وتبحّر فيها، حتى أدرك مواضعَ الضعف فيها، وأخطاء مؤلفيها وأئمتها من حكماء اليونان، وتصدّى للردّ على هذه العلوم وانتقادها، وألّف كتباً عَجِزَتْ الأوساطُ الفلسفيّة كلُّها عن الردّ عليه.

والحاصل أنَّ ابنَ تيميّة شمّر عن ساعد الجد لشرح الكتاب والسنة في عصره، وإثبات تفوّق الدين وصِحته، وإزالة معالم الضلالات العلمية والعملية، وتسلّح له بأسلحة علمية، كان يتطلّبها ذلك العصر في خِضمِّ علومه، وفترة

---

(١) راجع خطط مصر؛ للمقريزي.
(٢) كالتي حدثت بين الحنابلة وبين العز بن عبد السلام؛ انظر ملحة الاعتقاد، للعز. (الناشر)

الفوضى العلمية والفكرية، إنّه تعلّم المحاربة بالأسلحة التي كان معارضوه من أعداء الإسلام من اليهود والنّصارى والفلاسفة والباطنيّة قد تسلّحوا بها، إنّه تبحّرَ في العلوم بما أدهش معاصريه، يعترف بفضله ونبوغه العلمي معاصرُه الشهير العلامة (كمال الدّين الزَّمَلْكاني) ويقول:

«قد ألان الله له العلومَ كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم ظنَّ الرائي والسّامعُ أنّه لا يعرِفُ غيرَ ذلك الفنّ، وحكمَ أنَّ أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاءُ من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرَفُ أنّه ناظر أحداً فانقطعُ منه، ولا تكلّم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشّرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليدُ الطولى في حسن التصنيف»[1].

درس ابن تيميّة الأول:

وماكاد ابنُ تيميّة يبلغُ من عمره ٢٢ سنة حتى تُوفّي والدُه العظيم عبد الحليم ابن تيميّة في سنة ٦٨٢هـ، وحدث فراغ كبير في مشيخة التدريس بدار الحديث السكّرية.

ولكن لم يطلْ على فراغه زمنٌ طويل، وخلفه في التدريس ابنُه النابغة في الثاني من محرم سنة ٦٨٣هـ، وسدَّ ذلك الفراغ، وألقى درسه الأول، وكان في ذلك الحين ابن ٢٢ سنة، وقد حضر درسه الأوّل هذا كبار علماء دمشق وفضلاؤها، فالشيخ قاضي القضاة (بهاء الدين بن الزكي) الشافعي كان حاضراً بنفسه علاوةً على الشيخ (تاج الدين الفزاري) شيخ الشافعية، والشيخ (زين الدين ابن المُنَجَّا) الحنبلي، من علماء الحنابلة وغيرهم من سراة العلماء وكبارهم، حضروا درسه الأول، الذي ترك في نفوسهم تأثيراً عميقاً، وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي، وسرعة بديهة العالم الشاب، وفصاحته وجرأته.

---

(١) الكواكب الدرية، ص٥.

يتحدث الحافظ ابن كثير تلميذُ ابن تيميّة ضمن أحداث سنة ٦٨٣هـ عن درسه هذا، ويصفه بما يأتي:

«وكان درساً هائلاً، وقد كتبه تاج الدين الفزاري بخطّه، لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون، وقد أطنبَ الحاضرون في شكره على حداثة سِنّه وصغرِه، فإنّه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وسنتين»[١].

«ثم جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأمويّ بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيِّءَ له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في التفسير، وكان يجتمعُ عنده الخلق الكثير، والجمّ الغفير، من كثرة ما كان يورِدُ من العلوم المتنوّعة المحرّرة، مع الديانة والزّهادة والعبادة، مما سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمرّ على ذلك مدّةَ سنين متطاولة»[٢].

رحلته إلى الحج:

«في سنة ٦٩٢هـ حَجَّ الشيخ تقي الدين ابن تيميّة رحمه الله مع الركب الشامي. وكان أميرهم الباسطي، ونالهم في (مَعَان) ريحٌ شديدة جداً، مات بسببها جماعة، وحملت الريحُ جِمالاً عن أماكنها، وطارت العمائم عن الرؤوس، واشتغل كلٌّ واحد بنفسه»[٣].

عقوبة شاتم الرسول ﷺ:

«في سنة ٦٩٣هـ حدث ماظهرت به حميّتُه الدينية، وعاطفتُه الإيمانية بشكل علمي، فقد كان في دمشق رجل اسمه (عسّاف النصراني) شهدَ عليه جماعةٌ أنّه سبَّ النبيَّ ﷺ، وقد استجار عسّافٌ هذا بابن أحمد بن حَجّي أمير آل علي، فاجتمع الشيخ تقي الدين ابن تيميّة والشيخ زين الدين الفارقي شيخَ دار الحديث، فدخلا على الأمير (عزّ الدين أيبك الحموي) نائبَ السلطنة، فكلّماه في أمره، فأجابهما

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

إلى ذلك، وأرسل ليحضرَه، فخرجا من عنده، ومعهما خلقٌ كثير من الناس، فرأى الناسُ عسّافاً حين قَدِمَ، ومعه رجلٌ من العرب[1]، فسبّوه وشتموه، فقال ذلك الرجل البدوي: إنّه خير منكم - يعني النصراني - فرجمهما الناس بالحجارة، وأصابت عسّافاً، ووقعت خبطة قوية، فأرسل النائب، فطلب الشيخين ابن تيميّة والفارقي، فضربهما بين يديه، ورسمَ عليهما في العذراوية، وقدم النصراني فأسلم، وعقد مجلس بسببه، وأثبت بينه وبين الشهود عداوةً، فحقن دمه، ثم استدعى الشيخين فأرضاهما وأطلقهما..

وصنّف الشيخ تقي الدين ابن تيميّة في هذه الواقعة كتابه الشهير (الصارمُ المسلول على شاتمِ الرسول)[2].

«وفي الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٥هـ توفي شيخ الحنابلة العلامة (زين الدين بن المنجا) فخلفه ابن تيميّة، وشغل شياخة التدريس في المدرسة الحنبلية»[3].

المعارضة الأولى:

وبينما كان ابن تيميّة مشغولاً بالدرس والتدريس، وكان إقبال الناس من الخاصّة والعامّة كبيراً عليه، إذ قامت الضَجّةُ لأولِ مرّةٍ في سنة ٦٩٨هـ، واستُهدفت شخصيتُه ومعتقداتُه بصفةٍ خاصةٍ.

وممّا يُحكى عن تفاصيل هذه القصة أنَّ بعض أهل(حماة) من الشام، وجّهوا إليه استفتاءً في سنة ٦٩٨هـ يسألونه فيه عن تحقيق العلماء في الصفات التي وصفَ الله بها نفسه في هذه الآيات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وما أشبههما. وعن تحقيقهم في هذه الأحاديث: «إنّ قلوبَ بني آدمَ بينَ أصبعين مِنْ أصابعِ الرّحمنِ» و«يَضَعُ الجبّارُ قَدَمَهُ في النّارِ» وما شاكلهما، وسألوه عمّا يذهبُ إليه أهل السنّة من العلماء في باب صفات الله تعالى.

---

(١) البدو. (الناشر)
(٢) المصدر السابق: ١٣/ ٣٣٥-٣٣٦.
(٣) راجع المصدر السابق: ١٣/ ٣٤٤.

فأجابهم شيخ الإسلام عن هذه الأسئلة بتفصيلٍ كبير، وإيضاحٍ كافٍ[1]، وتحدّث عن مذهب الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والمتكلّمين المتقدّمين من العلماء كالإمام أبي الحسن الأشعريّ، والقاضي أبي بكرٍ الباقّلانيّ، وإمام الحرمين الجويني، مستدلاً بأقوالهم وتأليفاتهم، وأثبتَ من مقتطفاتِ كتبهم أنَّ كلَّ هؤلاءِ العلماءِ إنّما كانوا يرونَ الإيمانَ بصفات الله تعالى من واجبات الدّين، وأنّهم يعترفون بحقيقتها التي تتّفق مع جلالِ الله تبارك وتعالى، وتجدُّرُ بذاته العلية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. مع التنزيه الكاملِ من كلِّ تشبيه أو تجسيم، ومن كلِّ نفي وتعطيل.

يعني أنّ هذه الصفات لا يقيسونها على صفات الخلق، ولا أنّهم ينكرونها وينفونها من شِدَّة المغالاة والإفراط في التنزيه والتقديس، ولا أنهم يؤوّلونها تأويلاً يُبْعِدُها عن الحقيقة، ويتركها مجرّدَ كنايةٍ ومجازٍ، بل إنّهم كما يؤمنون بذاته وصفاته السبع من: الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، يؤمنون كذلك بحقيقتها التي تتّفقُ وعظمة الألوهية.

كما أنّهم يؤمنون بالألفاظ المنصوصةِ[2] من الوَجْهِ واليد، والغضب، والرضا، وفي السماء، وفوق العرش، حقيقةً من غير تأويل أو مجاز، ويثبتون حقيقتها بما يليق بذاته المنزّهة المقدّسة، التي ليس كمثلها شيءٌ، والتي لا تحدُّ ولا تقاسُ.

إنّ مذهب هـؤلاء الرّجال من علماء أهل السنّة، ونظرتهم لا يختلفان في هذين النوعين من الصفات، وكما أنَّ الإيمان بالحياة، والعلم، والقدرة، وما إلى ذلك لا يستلزِمُ أنَّ المرادَ بذلك حياةُ المخلوقات والمُحْدَثات الضعيفة، وعلمُها المستعار المحدود، وقدرتُها الناقصة، ولا أنَّ الجماعة المؤمنة بحقيقةِ هذه الصفات تسمّى المجسمة.

---

(١) عُرفَ هذا الجواب باسم (العقيدة الحموية الكبرى)؛ رسالة تقع في ٥٠ صفحة، ضمن (مجموعة الرسائل الكبرى) طبع في مصر سنة ١٣٢٣هـ.

(٢) المذكورة في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة. (الناشر)

وكذلك الاعتقاد بما جاء في القرآن: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠]، و﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، و﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، و﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] من غيرِ تأويلٍ أو توجيهٍ، لايعني أنَّ المرادَ باليدِ والوجهِ كوجه المخلوق، ويد الحادث، وأنَّ القصد من الفوقية والمكانية كفوقية ومكانية المحدود بإزاء المحدود، والجسم مقابل الجسم، كما لا يصحُّ الطعنُ بالتشبيه والتجسيم لمن يؤمن بحقيقة هذه الصفات.

يؤيّدُ هذا المذهبَ ما استدلّ به ابنُ تيميّة من أقوال السلف الأولين، والمتكلّمين المتقدّمين وعباراتهم، إنّه يقول: «ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولا عن أحدٍ من سلف الأمّة، ولا من الصّحابة والتابعين، ولا عن الأئمةِ الذين أدركوا زمنَ الأهواء والاختلاف ـ حرفٌ واحدٌ يخالِفُ ذلك، لا نصّاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحدٌ منهم قط: إنَّ الله ليسَ في السّماءِ، ولا أنّه ليس على العرش، ولا أنّه في كلِّ مكانٍ، ولا أنَّ جميعَ الأمكنة بالنسبة إليه سواءٌ، ولا أنّه لا داخلُ العالم ولا خارجه، ولا متصلٌ ولا منفصلٌ، ولا أنّه لا تجوزُ الإشارةُ الحسيّةُ إليه بالأصابعِ ونحوِها..

فلئن كانَ الحقُّ ما يقوله هؤلاء السالبون النافون من هذه العبارات ونحوها دونَ ما يُفهم من الكتاب والسنة إمّا نصّاً وإما ظاهراً، كيف يجوزُ على الله؛ ثم على رسوله ﷺ؛ ثم على خيرالأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ في خلاف الحقِّ؟.

ثم الحقُّ الذي يجب اعتقادُه لا يبوحون به قطّ، ولا يدلّون عليه نصّاً ولا ظاهراً حتى يجيءَ أنباطُ الفرس والروم وفروخُ اليهود والفلاسفة يبيّنون للأمة العقيدَةَ الصحيحة، التي يجب على كل فاضلٍ أن يعتقدها»[1].

ثم إنّه أثبت بالدلائل أنَّ المتكلمين المتأخرين اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشيءٍ من المغالاة في التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً بعيداً عن

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى، ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

حقيقة اللغة، وفهم الصّحابة، ونصوص الحديث ـ بُعْداً شائناً، مسَّ حدود النفي والتعطيل.

إنهم ابتعدوا في ذلك عن مذهب السّلف من العلماء، وأئمة السنّة، والمتكلمين المتقدمين أنفسهم، حتى جعلوا يتكلمون عن السَّلفِ ما يُزري بعلمهم، أمّا مَنْ يأخذُ بالحَيْطَة البالغة منهم فيقول: إنَّ طريقةَ السلف أسلم، وطريقة الخلفِ أعلم.

ولا شكَّ أنَّ هذا الكلام مبنيٌّ على الجهل بمكانة السلف وحقيقتهم، ودليلٌ على قلة علمهم، فإنَّ السلف إنّما كانوا على علمٍ جمّ بالشريعة، وأين فروخُ فلاسفة اليونان، والملتقطون من فتات مائدة الهنود والفرس من ورثة الأنبياء المتقدمين وخلفاءِ الرسل وحملةِ الكتاب والسنة في المعرفة الإلـٰهية وتفُّهم الأسماء والصفات؟!.

إنَّ أقوال الفلاسفة والمتكلمين عند رحيلهم من الدنيا تشهدُ على أنّهم كانوا نادمين على تقعيراتهم، هائمين على وجوههم، وباكين على خيبتهم[1]، حتى قال بعضهم: «إنّني لم أدخر طول حياتي سوى القيل والقال»[2].

وقال آخر: «لقد ضيعتُ الحياة في خوضِ بحرٍ لا ساحل له، نقّبت في الصحارى معرضاً عن علوم الإسلام، ولا أدري ماذا سيكون مصيري إذا لم يأخذ الله بيدي، أشهد أنني أموت على عقيدة أمي»[3].

---

(١) قال كما في (الحموية)، ص٤٢٨:

لعمريَ قد طفت المعاهد كلها ... وسيّرت طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أر إلا واضعاً كفّ حائرٍ ... على ذقنه أو قارعاً سنَّ نادمِ

(٢) هو الفخر الرازي محمد بن عمر كما في الوفيات: ٤١/ ٢٥٠ قال:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ ... وأكثرُ سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصلُ دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى جمعنا منه قيل وقالوا

(٣) قال في (الحموية)، ص٤٢٨: ويقول الآخر منهم: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته=

هذه الفتوى رسالة علمية مستقلة، تتجلّى فيها خصائص شيخ الإسلام العلمية والتأليفية بوضوح، فإنَّ **السهولة، وقوة الاستدلال، والخطابة، وحُسنَ الاستشهاد بالكتاب والسنة، وجِدّة الأسلوب، والخطاب إلى العقل، والارتجال، وعدم التكلف، والمعلومات التاريخية، والنقد اللاذع للمتكلمين والفلاسفة**، كل ذلك خصائص تتميَّزُ بها هذه الرسالة، بينما خلت منها عامة الكتب التي ألفت في ذلك العهد، ولا سيما كتب الفتاوى التي كانت تؤلَّف باللغة الفقهية ومصطلحاتها.

لأول مرة ظهر شيخ الإسلام ابن تيميّة في هذه الفتوى كمدافع قويٍّ عن العقيدة التي كانت عقيدة السلف، واعتقادَ أهل السنة في نظره، وعقيدةَ (التجسم) والحنبليّةَ المشوَّهة عند معارضيه.

إنَّ الأسلوب الذي احتوت عليه هذه الفتوى والتحدّي السافر الذي تضمنته، ثم الاستقبال الرائع الذي لقيته من الأوساط الحنبلية، كان من النتائج الطبيعية لكلِّ ذلك أن يعمَّ بذلك سخطٌ واستنكارٌ عامٌّ في وسط الأشاعرة والمتكلِّمين، الذي يتمتعُ بتأييد الحكومة والجماهير، والذي كان رجاله متبوّئين مناصبَ القضاء والإفتاء الرسميّةِ، ومسيطرين على مراكز التدريس والتأليف.

يتحدّث عن ذلك ابن كثير ضمن الأحداث التي وقعت في سنة ٦٩٨هـ يقول: «قام عليه جماعةٌ من الفقهاء، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهلُ حماة المسماة (الحموية) فانتصر له الأمير سيف الدين جاغان، وأرسل يطلب الذين قاموا عنده، فاختفى كثيرٌ منهم، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة، فسكت الباقون، فلمّا كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي الدين الميعاد بالجامع على عادته، وفسر فيه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ثم اجتمع بالقاضي (إمام الدين) يوم السبت، واجتمع عنده جماعة من الفضلاء، وبحثوا في (الحموية)، وناقشوه في أماكن فيها، فأجاب عنها بما

= فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي. (الناشر)

أسكتهم بعد كلام كثير، ثم ذهب الشيخ تقي الدين وقد تمهّدت الأمور، وسكنت الأحوال»[1].

وكان من المتوقع جداً أن تكون هذه القصة قد امتدّت، وثارت هناك ضجة أخرى، ولكن حدث في الوقت نفسه من الأحوال ما لم يسمح بالخوض في الخلافات والمناقشات العقائدية، أعني بذلك غارة التتر، التي برز فيها ابن تيميّة كمجاهدٍ عظيم، وقائد عام.

توجه التتر إلى دمشق:

وما أن استهلت سنة ٦٩٩هـ حتى تتابعت الأخبار بأنّ (قازان) حاكم التتر في العراق وفارس ينوي الغارة على الشام، وأنّ عساكره متوجّهة إلى دمشق، لقد أثار هذا النبأ دهشةً في بلاد الشام كلها، نظراً إلى ما جرّبته الأقطار الإسلامية من شدائد غاراتهم، وما خلّفته هذه الغارات من حكايات النهب والقتل الشنيعة، وهنالك جعل الناس يخرجون من حلب وحماة متوجّهين إلى العاصمة، حتى غلت الأسعار والأجور، وارتفعت أجرة السفر من حماة إلى دمشق إلى مئتي درهم بالفرس، ولكن سرعان مااطمأن الناس إلى أنَّ سلطان مصر (الملك الناصر محمد بن قلاوون) قادمٌ مع العساكر الملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتر ومقاومتهم.

في ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ دخلت الجيوش المصرية دمشق، فاستقبل الناس السلطان وجيوشه استقبالاً رائعاً، رغم شدة المطر، وكثرة الوحل في الطرق، وزُيّنت المدينة، واهتمَّ الناس بالدعاء لانتصار السلطان والمسلمين على التتر، وخرج السلطان بعساكره لمبارزة التتر في ١٧ ربيع الأول، وخرج معه قاضي القضاة الحنفي، وأعيان البلد وعلماؤه، وساند الجيشَ جماعةٌ من المجاهدين، وعددٌ من المحاربين، وعُني الناس بالدعاء والقنوت في المساجد عنايةً خاصة.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٤.

انهزام السلطان، والوضع في دمشق:

في ٢٧ ربيع الأول قامت المبارزة بين قازان والسلطان، فحاربَ المسلمون بشجاعةٍ نادرةٍ، ولكنهم هُزموا، فتوجهت عساكرُ السلطان إلى مصر راجعةً، والتجأ أهل دمشق إلى دمشق، وقد عمَّ الخوفُ في البلد من انسحاب الجيوش المصرية، وخطر اقتحام التتر في دمشق منتصرين غالبين، فكان كبار العلماء وأعيان الناس يغادرون دمشق إلى مصر، فالقاضي الشافعي، والقاضي المالكي، وبعض العلماء المشهورين، ووالي البلد، والمحتسب، وغيرهم من التجار والعامة ـ كانوا قد غادروا البلد، كما أنَّ الحكام كانوا قد خرجوا من دمشق، سوى نائب القلعة، فقد كان لا يزال مقيماً، أما سائر الحكام المسؤولين عن الإدارة والنظام فلم يستطيعوا البقاء في المدينة، وكانت الأسعار قد غلت إلى حدٍّ مخيف، وأُغلقت الحدود.

والذي زاد الطين بلةً أنَّ المسجونين في سجن المدينة هدموه، وخرجوا ينهبون المتاجر والبضائع، واستغلَّ الوضعَ أوباشُ الناس، وعاثوا في ظاهر البلد، وكسروا أبواب البساتين (وعليها معظم الاعتماد في معاش أهل دمشق) وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً، وباعوها بأرخص الأثمان.

وبينما كانت دمشق تعيش في هذا الوضع المرعب إذ طار الخبرُ في الناس بقصدِ قازان إلى دمشق، فزادوا فزعاً على فزع، وعمّ الخوف والارتجاف في طول المدينة وعرضها.

لقاء ابن تيميّة مع قازان:

اجتمع ابن تيميّة بأعيان البلد للتفكير في الوضع الحاضر، واتفقوا على المسير إلى قازان للقائه في وفد من العلماء وأصحابهم، وذلك لأخذ الأمان منه لأهل دمشق.

ففي يوم الإثنين الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ اجتمع ممثل أهلِ

دمشق وسفير الإسلام ابن تيميّة بقازان طاغيةِ التتر في بلدة (النبك)[1]. ولنترك الشيخ كمال الدين ابن المُنَجَّا الذي رافق ابن تيميّة، وحضر معه إلى قازان يتحدّث عن هذا اللقاء:

«كنت حاضراً مع الشيخ، فجعل يحدِّثُ السلطان بقول الله تعالى ورسوله ﷺ في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان، ويقربُ منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تلاصقَ ركبتُه ركبةَ السلطان، والسلطان مع ذلك مقبلٌ عليه بكليةٍ، مصغٍ لما يقول، شاخص إليه لا يعرضُ عنه، وإنَّ السلطان من شدّةِ ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة، سأل: من هذا الشيخ؟ فإنّي لم أرَ مثله، ولا أثبتَ قلباً منه، ولا أوقعَ من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحدٍ منه، فأُخْبرَ بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان، قل للقازان: «أنت تزعمُ أنّك مسلم، ومعك قاضٍ وإمامٍ وشيخٍ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدُّك كانا كافرين، وما عملا الذي عملتَ، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدتَ فغدرتَ، وقلت فما وفيتَ، وجُرْتَ».

ثم خرج من بين يديه مكرّماً معزّزاً بحسن نيته الصالحة من بذلِ نفسِه في طلب حقنِ دماءِ المسلمين، وبلّغه الله تعالى ما أراده، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسرى المسلمين من أيديهم، وردّهم على أهلهم، وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات، وقوة التجاسُرِ.

وكان يقول: «لن يخاف الرجلُ غيرَ الله إلا لمرضٍ في قلبه، فإنّ رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعضِ الولاة فقال: لو صَحَحْتَ لم تخف أحداً»، أي خوفك من أجلِ زوالِ الصحة من قلبك.

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنهّم لما حضروا مجلس غازان، قدّم لهم طعام فأكلوا منه، إلا ابنَ تيمية، فقيل: لِمَ لا تأكل؟.

فقال: كيف آكل من طعامك، وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه

---

(١) يقع هذا البلد بين دمشق وحمص، معروف بمائـه بصفة خاصة، وهو مُتنـزّه في الوقت الحاضر.

بما قطعتم من أشجار الناس؟!! .

ثم إن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: «اللهم إنْ كنتَ تعلمُ أنّه إنَّما قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وجاهدَ في سبيلِك، فأن تؤيّده وتنصره، وإن كان للملك والدنيا، والتكاثُرِ فأنْ تفعل به، وتصنع. . . » فكان يدعو عليه، وغازان يؤمِّنُ على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يُقتل فنطرطش بدمه.

ثم لما خرجنا قلتُ له: كدتَ تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا، فقال: وأنا لا أصحبكم، فانطلقنا عصبةً. وتأخّرَ، فتسامعت به الخواتين والأمراء، فأتوه من كلِّ فجٍّ عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبرّكوا برؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه، وأمّانحنُ فخرجَ علينا جماعةٌ فشلّحونا[1] .

وحشية التتر في دمشق:

وإن كان أهل دمشق قد حصلوا على وثيقة الأمان من سلطان التتر، وأعلن ذلك في دمشق، غير أنّ التتر كانوا مستمرين في السلب والنهب، ونقضِ القانون، والوحشية في نواحي دمشق وضواحيها، وكان الوضعُ شبه ثورة خارج سور البلد، وغلت الأسعار غلاءً فاحشاً أزعج الناس.

ومما زاد في هلع الناس أن التتر طالبوا أهل دمشق بتسليم جميع ما عند الناس من الخيول والسلاح والأموال المخبأة من جهة الدولة السابقة إلى التتر، وقد عين التتر (سيف الدين قبجق) حاكم الشام من قبلهم، فبدأ يشدد على سكانها، وكانت سيطرة التتر قد تمّت على البلد، إلا القلعة، فإنّ نائب القلعة (أرجواش) امتنع عن تسليمها إليهم أشد الامتناع، وكان ذلك بإشارةٍ من الشيخ تقي الدين ابن تيميّة، كما يقول ابن كثير: «فإنّ الشيخ تقي الدين ابن تيميّة أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبق فيها إلا حجرٌ واحدٌ، فلا تسلّمهم ذلك إن استطعتَ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإنَّ الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل،

---

(١) الكواكب الدرية، ص٢٥ ـ ٢٦.

الذي جعله حرزاً لأهل الشام، التي لا تزالُ دار إيمان وسنة»[1].

عاث التتر فساداً في البلد، وما تركوا شيئاً إلا غيّروه بالنهب والسلب، وسجنوا عدداً كبيراً من المسلمين رجالاً ونساءً واسترقّوهم، ففي محلة (الصالحية) وحدهَا قُتِلَ نحو أربعمئة، وأُسر نحو من أربعة آلاف أسير، وسبوا كثيراً من الفتيان والفتيات من أسر شريفة، وبيوتات فضل وعلم، واستباحوا حرمات المسلمين بوجه عام، ونُهبت كتبٌ كثيرة من المكتبات الكبرى، ومن الوقف، وباعوها بأبخس ثمن.

رأى ابن تيمية هذه الأحوال من النهب والقتل والأسر، فلم يصبر عليها، وخرج في جماعة من أصحابه يوم الخامس والعشرين من ربيع الآخر للاجتماع بملك التتر (قازان) مرة أخرى، وانتظره يومين، ولكن لم يتحْ له اللقاء[2]، وحجبه عنه وزيره، واشتهر في البلد أن التتر يريدون دخول دمشق، فانزعج الناس بهذا الخبر، وخافوا خوفاً شديداً، وأرادوا الخروج منها، والهرب على وجوههم، ولكنْ أين المفر، ولات حين مناص؟.

وبدأ التتر بعمل مجانيق بالجامع، ليرموا بها القلعة من صحنه، ويحفرون الخنادق، وقعد الناس في بيوتهم خوفاً من أن يؤخذوا بالسخرة، يقول ابن كثير: «وكانت الطرقات لا يرى بها أحد إلا القليل، والجامع لا يصلّي فيه أحد إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيهم، ثم يعود سريعاً، ويظنّ أنه لا يعود إلى أهله»[3].

في التاسع عشر من جمادى الأولى توجّه (قازان) إلى بلاد العراق، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل، وأعلن عند رحيله من الشام: «إنّا قد تركنا نوابنا

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/٧ـ٨. (الناشر)

(٢) حجبه عنه الوزير سعد الدين؛ والرشيد مشير الدولة المسلماني ابن اليهودي؛ كما في البداية: ١٤/٨.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٩.

بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليه في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها».

وبالرغم من أنّ قازان كان قد ارتحل من الشام، ولكن أميراً آخر من التتر اسمه (بولاي) ظلّ مستمراً في النهب والسلب في نواحي دمشق، وقد خرّب قرًى كثيرة، وسبى عدداً كبيراً من أطفال المسلمين، وجبى من دمشق نفسها أموالاً طائلةً.

وفي الثالث من رجب نودي في البلد من جهة نائب القلعة بأنَّ العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية اليوم التالي رحل (بولاي) وأصحابه من التتر، وانشمروا عن دمشق، وقد خلت دمشق ونواحيها من التتر، وظلت كذلك حتى السابع من رجب، وأزاحَ الله عز وجل شرّهم عن العباد والبلاد.

وفي الثامن من رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم الأمير بولاي، فاجتمع به في فكاك مَنْ كان معه من أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم، وكان مِنْ بين هؤلاء الناجين مسلمون وغيرهم من الذميين الشاميين.

وفي التاسع من رجب وصل الخبر بخروج الجيوش المصرية والسلطان (محمد بن قلاوون) إلى الشام لإنقاذها من أيدي التتر، ولم يكن بالبلد أحد في ذلك الوقت من الحكام والمسؤولين، وكانت أسوار البلد متهدمة من غارة التتر، فنادى (أرجواش) نائب القلعة: احفظوا الأسوارَ والأبوابَ، لا يبيتنَّ أحدٌ إلا أن يحرس السور مسلحاً، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ ابن تيمية يدور كلّ ليلة على الأسوار، يحرّضُ الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط[1].

أعماله الإصلاحية:

ولما سمع المسلمون بقدوم الجيش المصري وسلطان مصر، وأنّ التتر قد

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١١.

تراجعوا، فرحوا بذلك كثيراً، وارتفعت هممهم، وصمموا على إزالة آثار الفساد، الذي كان قد انتشر في ظلِّ هذه الأمة الجاهلية، وحكامها المفسدين، وكان ابن تيمية قد تولَّى قيادة المحاربة لهذا الفساد، وكان نائب الشام (سيف الدين قبجق) هو الذي انتشرتِ الحانات في أيام حكمه القصير، وشاع شربُ الخمر في الناس، وكانت هذه الحانات مورداً كبيراً من موارده المالية، ولم يعد الآن أيّ مبررَ لبقائها، ولم يكن في دمشق أيّ حاكم ولا مسؤول من الحكام، فتولّى ابن تيمية قطع دابر هذا الفساد، وتجوَّل في طول البلد مع تلاميذه وأنصاره، وحيثما رأوْا حانةً أو خمارةً كسروا أواني الخمور فيها، وشقوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزَّروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك.

إصلاح عقائد السكان في الجبال:

وفي عام ٦٩٩هـ عندما كان قد دخل الجيش التتري في دمشق، وعاثوا فيها فساداً وقتلاً، كانت هناك جماعةٌ ساكنةٌ في الجبال من المسيحيين والباطنيين والإسماعليين، قد لاذت بالتتر، وآزرتهم، وآذت المسلمين معهم، ولما كان جيش المسلمين يرجعُ منهزماً، ومرَّ بمنطقتهم، حالت هذه الجماعة دون طريقهم، ووثبت عليهم، وسلبت ما كان معهم من الأسلحة والخيول، وقتلت كثيراً من المسلمين، ولم تكن هذه الجماعة قبل ذلك داخلة في طاعة الجند، ولا ملتزمة أحكام الملة، ولا متدينة بدين الحق، ولا محرَّمة ما حرَّم الله ورسوله ﷺ.

ولما استقرت الأحوال في دمشق، وانقشع السحاب المكفهرُّ، فكر ابن تيميةُ في تأديب هؤلاء المفسدين وإصلاح أحوالهم، ومن حُسنِ المصادفة خرج نائب السلطنة (جمال الدين آقوش الأفرم) في جيش دمشق إلى جبال الجُرْدِ وكسروان، وانتهز هذه الفرصة الشيخ ابن تيمية، وخرج معه في خلقٍ كثيرٍ من المتطوعة والحوارنة إلى أهل تلك الناحية، فلما وصلوا إلى بلادهم، جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية، فاستتابهم، وبيّنَ للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خيرٌ كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا بردِّ ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرّرَ عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وعاد

نائب السلطنة مع ابن تيمية، وكُلِّلتْ مساعيهم بالنجاح[1].

عودة التتر إلى بلاد الشام وإعلان ابن تيمية الجهاد:

وفي مستهل عام ٧٠٠هـ وردت الأخبار إلى دمشق بقصد التتر بلاد الشام، فمادت الأرض بالناس، وطاشتْ عقولهم وألبابهم، وبدؤوا يتهرّبون إلى مصر والبلدان الأخرى والحصون المنيعة، مما كان بنجوةٍ عن معرّةِ التتر وغائلتهم، وبيعت الأمتعةُ والثيابُ والمغلاتُ بأرخص الأثمان، فارتفعت أجرةُ الحمارة والنقل إلى آخر نقطة، وأسعار الجمل والحمار من خمسمئة إلى ألف .

واستعدَّ الشيخ ابن تيمية لإلقاء المواعظ والدروس في الجامع بنشاطٍ بالغ، وحرّض الناس على القتال، ونهاهم عن الإسراع في الفرار، وذمَّ هذه الخصلة، ورغّبهم في إنفاق الأموال في الذبِّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأنَّ ما ينفَقُ في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً، وأوجَب جهادَ التتر حتماً في هذه الكَرّة.

وسكنت الأحوالُ بمجالسه المتتابعة في ذلك، ونودي في البلاد: لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة، فتوقّف الناس عن السير والفرار، وسكن جأشُهم، وتحدّث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر، ودقّت البشائر لخروجه.

الرحلة إلى مصر:

وفي شهر ربيع الآخر قوي الإرجافُ بأمر التتر، وجاء الخبر بأنّهم قد وصلوا إلى (البيرة)، ونُودي في البلد بالجهاد العام، وكانت الأنباء تتوالى بتقدُّم التتر إلى الشام، ونودي في البلد بتطييب قلوب الناس، وإقبالهم على معايشهم، وأنّ السلطان والعساكر واصلة، ثم فوجىء الناس بأنَّ سلطان مصر رجعَ عائداً إلى مصر بعد أن خرجَ منها قاصداً إلى الشام، فكثر الخوفُ، واشتد الحال، وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً، يتحمّلون بأهليهم وأولادهم، وجعلوا يحملون الصغار على الدوابّ والرقاب.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٢.

وخرج الشيخ ابن تيمية إلى نائب الشام في المرج، وكان مرابطاً خارج دمشق، لمقاومة التتر، وسدّ سيولهم، فثبّته، وقوّى جأشه، وطيّبَ قلبه، ووعده بالنصر، والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وسأله النّائبُ والأمراء أن يركب على البريد إلى مِصْرَ، ويستحثّ السلطانَ على المجيءِ، فسار وراءَ السلطان، وكان قد وصل إلى السّاحلِ، فلم يدركْه إلا وقد دخل القاهرةَ، وتفارَطَ الحالُ، فاستثار غَيْرته، وقال له فيما قال: «لو قُدِّرَ أنّكم لستم حُكامَ الشام ولا ملوكه، واستنصرَكم أهله، وجبَ عليكم النَّصرُ، فكيف وأنتم حكّامه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم».

وقال أيضاً: «إنْ كنتم أعرضتم عن الشام وحمايتِه، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه، ويستغلّه في زمنِ الأمن».

وقوّى الشيخُ ابن تيمية جأشَ السلطان، وأكّد له أنَّ النصر حليفَه في هذه الكرّة، وظلَّ الشيخ مقيماً في حصن مصر إلى ثمانية أيام، يحرّضُ الناس على الجهاد، ومقاومة التتر.

واستعدّ السلطان للخروج إلى الشام مرّةً أخرى، نتيجة لجهود ابن تيمية المخلصة، التي بذلها في هذا السبيل، وتوجهت العساكر إلى الشام لجهاد التتر، ولمّا سمع الناس بذلك فرحوا أشدّ الفرح، بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

ثم قويت الأراجيفُ بوصول التتر، وتحقّق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحّاس متولي البلد في الناس: «مَنْ قدر على السفر فلا يقعد بدمشق». وهنالك ارتفعت الأصوات، وتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلةٌ عظيمةٌ وخمدة، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وغلّقت الأسواق، وتيقّنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل، ويقولون: «ما بقي أهلُ دمشق إلا طعمة للعدو».

ودخل كثير من الناس إلى البراري والقِفار والمُغر بأهاليهم من الكبار

والصغار، ولم يبقَ بدمشق من أكابرها إلا القليلُ، ونُوديَ بالناس: مَنْ كانت نيتُه الجهادُ فليلحق بالجيش، فقد اقتربَ وصولُ التتر، وخرجَ العلماء، ومن بينهم شرف الدين ابن تيمية أخو ابن تيمية إلى نائب السلطنة الأفرم، وقوَّوا عزمه على لقاء العدو، واجتمعوا بـ (مهنا) أمير العرب، فحرّضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة.

ورجع ابن تيمية من مصر، وبشّر الناسُ باستعداد سلطان مصرَ وأعيان الدولـة لجهاد العدو، ثم جاءت الأخبـارُ بأنَّ ملك التتر قد خاض الفرات راجعاً عامَهُ ذلك، فطابـت النفوسُ لذلكَ وسـكنتْ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنينَ[1]. كما قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

الحرب الحاسمة مع التتر، وصنيعة ابن تيمية:

وفي رجب سنة ٧٠٢هـ قويت الأخبارُ بعزم التتر عل دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتدَّ خوفُهم جداً، وقنتَ الخطيبُ في الصلوات، وقُرِئ (صحيح البخاري) وشرع الناس في الجفل[2] إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخّر مجيءُ العساكر المصرية عن إبّانها، فاشتد لذلك الخوف.

وفي الثامن عشر من رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة الأمراء الأتراك المشهورين، وتلتها طائفةٌ أخرى، فقويتِ القلوبُ، واطمأنّ كثير من الناس، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي، وتحدّث الناس بالأراجيفِ، فاجتمع الأمراء بالميدان، وتحالفوا على لقاء العدوّ وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد أنْ لا يرحل أحدٌ منه.

وتوجَّه ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في (القُطَيْفَة)[3] فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوه إلى ذلك، وحلفوا معهم، وكان الشيخ يحلف للأمراء والناس: إنّكم في هذه الكرَّة منصورون،

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٦.

(٢) الهرب. (الناشر)

(٣) بلدة شمال شرق دمشق على طريق السالك من دمشق إلى حمص. (الناشر)

فيقول له الأمراء: قل: إنْ شاء الله، فيقول: إنْ شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، ويقول: نحنُ مظلومون، والمظلوم منصور، ومن بُغي عليه لينصرنه الله، ولذلك فإنّ النصرَ مؤكدٌ، والفتحَ قريبٌ، وإنَّ وعد الله كان مفعولاً[1].

وقد تكلَّم الناس في حكم قتال هؤلاء التتر من أيِّ قبيلٍ هو، فإنّهم يُظهرون الإسلامَ، وليسوا بغاةً على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعتِه في وقتٍ ثم خالفوه، فكيف يجوزُ القتالُ ضدَّهم، وقد ارتبك العلماءُ في ذلك، فقال ابن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج، الذين خرجوا عل سيدنا علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ورأوْا أنَّهم أحقُّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنّهم أحقُ بإقامة الحقِّ من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبِّسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعافٍ مضاعفةٍ، فتفطّنَ العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: «إذا رأيتموني في صفِّ التتر موالياً لهم، وعلى رأسي مصحف فاقتلوني». فتشجّعَ الناسُ في قتال التتر، وقويت قلوبهم ونيّاتهم.

كانت دمشق كلّها تعيش في قلق وانزعاج شديدين، لم يصل أيُّ خبرٍ بقدوم السلطان، ولم يكن الناس متأكدين أنّ العساكر المصرية والشامية ستحارب التتر، وقد وصلت التترُ إلى (قارة)[2] وقيل: إنهم وصلوا إلى (القطيفة)، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً، ولم يبقَ حول القرى والحواضر أحد، وامتلأت القلعة والبلد، وازدحمت المنازلُ والطرقات، واضطربَ الناس، وخرج ابن تيمية من باب النصر[3] بمشقة كبيرة، وصحبته جماعةٌ ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنّه إنَّما خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس، وقالوا: أنت منعتنا من الجفل، وها أنتَ هاربٌ من البلد، فلم يردّ عليهم، وبقي البلدُ ليس فيه حاكم، وجاس اللصوصُ والحرافيشُ فيه يخرِّبون وينتهبون ما قدروا عليه.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٣.

(٢) بلدة في القلمون على الطريق السالك من دمشق إلى حمص. (الناشر)

(٣) أحد أبواب دمشق من الجهة الغربية شمال باب الجابية؛ بجانب القلعة ويقع موقعه الآن على مدخل سوق الحميدية. (الناشر)

ولم يعد للناس شغلٌ غير الصعود إلى المآذن، ينظرونَ يميناً وشمالاً، فتارةً يقولـون: رأينا غبرةً، فيخافـونَ أن تكون من التتـر، ويتعجّبـون من الجيش مع كثرتهم وجَوْدَةِ عدتهم وعددهم أين ذهبوا؟ فلا يـدرون ما فعل الله بهم، وكـلُّ شخصٍ كان ينتظرُ حكم القضاء فيه، ويفكِّر فيما إذا وقعت الحرب أم لا؟ وإذا وقعت فمن ينتصر، وإذا انهزم الجيش ـ لا قدر الله ـ فماذا سيكون مصيرَهم؟ ومن يحمي أنفسـهم وأعراضهم وأموالهم، وكـان كما صوّر القرآنُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

ووصل ابن تيمية إلى العسكر الشامي، فطلب منه أمراء الجيش أن يسيرَ إلى السـلطان، يستحثّه على السـير إلى دمشق، فسـار إليه، فحثّه على المجيء إلى دمشق، بعد أن كادَ يرجعُ إلى مصر، فجاء هو وإيّاه جميعاً، فسـأله السـلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السـنّةُ أن يقفَ الرجل تحت رايـة قومه، ونحن مع جيش الشام، لا نقفُ إلا معهم، وحرّض السلطانَ على القتال، وبشّره بالنصر، وجعل يحلفُ بالله الذي لا إلـه إلا هو إنّكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل: إن شـاء الله، فيقول: إن شـاء الله تحقيقـاً لا تعليقاً.

وفي ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شعبان ثبتت رؤية هلال رمضان، فبدأ الناس يستعدون لصلاة التراويح، وقد استبشروا بشهر رمضان وبركته، وأصبحوا يوم الجمعة في همٍّ شديدٍ، وخوفٍ أكيدٍ، ورأوا يوم السبت من المآذن سواداً وغبرةً من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون أنّ الوقعةَ اليوم، فابتهلوا إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء في المساجد والبلد، وطلعَ النساء والصغار على الأسطحة، وكشفوا رؤوسهم، وضجَّ البلدُ ضجةً عظيمةً، فلمّا كان بعد الظهر قرئت بطاقةٌ بالجامع، تتضمن أنّه في الساعة الثانية من نهار السبت هذا، اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان، وفيها طُلبَ الدُّعاءُ من الناس والأمر بحفظ القلعة.

وفي الثاني من رمضان اصطف الجيشان في ساحة (شقْحَب)[1] وأفتى ابن تيمية بالفطر مدةَ قتالهم، وأفطرَ هو أيضاً، وكان يدورُ على الأجناد والأمراء، فيأكل من شيءٍ في يدِه، ليُعْلمَهم أنّ إفطارهم ليتقووا على القتال أفضلُ، وكان يقرأُ لهم حديثَ رسول الله ﷺ: «إنّكم ملاقو العدوِّ غداً، والفطْرُ أقوى لكم».

ولما ابتدأتِ الحربُ والتحم الفريقان ثبتَ السلطانُ ثباتاً عظيماً، وكان الخليفةُ العباس أبو الربيع سليمان في صحبته، وأمر السلطانُ بجواده فقيّدَ حتى لا يهرب، وبايعَ اللهَ تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوبٌ عظيمة، وقُتلَ جماعة من سادات الأمراء يومئذٍ، ولكنْ نزلَ النَّصْرُ على المسلمين، واستظهروا على التتر، فلمّا جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاطَ بهم المسلمون، يحرسونهم من الهروب، ويرمونهم عن قوسٍ واحدةٍ إلى وقت الفجر، فقُتِلَ منهم ما لايعلمُ عدده إلا الله، وجعلوا يجيئون بهم في الحبالِ، فتضرَبُ أعناقُهم، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، وغرِقَ منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام.

وفي يوم الإثنين الرابع من رمضان دخل ابن تيمية في دمشق ففرحَ به الناسُ، ودعوا له، وهنّؤوه بما يسّر الله على يديه من الخير، ودخل السلطانُ إلى دمشق يوم الثلاثاء الخامس من رمضان، ومعه الخليفةُ والعساكر منتصرين فرحين، واستقرّت الخواطرُ، وذهبَ اليأسُ، وطابت قلوب الناس.

إنكار البدع وتغيير المنكرات:

وما إنْ فرغ ابن تيمية من قضية التتر وقد عكف على إلقاء دروسه ومواعظه، ونشر السنة ورد البدع، كسابق عهده بذلك، واشتغل بجهادِ الشرك والجاهلية بكل نشاط وهمة، وكان أحبَّ عملٍ لديه، وأسمى غايةٍ في حياته.

وكان قد دخل في ذلك العهد إلى مجتمع المسلمين كثيرٌ من أعمالٍ كانت

---

(١) قرية جنوب غرب دمشق.

بقيــة عهد بالجاهلية، وشـعار المشركين والوثنيين، بحكم اختلاطهم بـاليهود والنصارى، وتعاليم الزعماء الجاهلين، وفاسدي العقائد.

كانت بنهر قلوط[1] في ضواحي دمشــق صخرةٌ تزارُ وينـذَرُ لها النذور، قد اشـتُهرت عنهـا قصص وروايـات عديدة، فعادت فتنـة كبيرة لضعاف العقيدة من المسـلمين، إذ كانوا يزورونها، ويقدّمون لها النذور، فذهب إليها ابن تيمية مع جماعة من الحجّارين في رجب عام ٧٠٤هـ وقطّعها، وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، وأزاح عنهم شبهةً كان شرُّها عظيماً[2].

لم يكن ابن تيمية يصبر على أمور تخالف الشريعة والسنة، فإذا رآها قام بتغييرها بيده، من غير تأخيرٍ، إذ كان ذلك هو الدرجة العليا للإيمان، والحاجة الأولى للحميّـة الدينية، كما قال رسـول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمَنْ لم يستطع فبلسانه، فمنْ لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

أمّـا الحكام، فكانـوا في شُـغْلٍ شاغلٍ عن أمور الدين، وكـان العلمـاءُ لا يعيرون الأمورَ المخالفةَ للشّرع أهميةً في بعض الأحيان، كما كانوا يخافون من المعارضة والإنكار في حين آخر، ولذلك كان ابنُ تيميّة يتولّى هذه المسؤولية بنفسه في أكثر الأحيان، وكانت معه جماعةٌ من تلاميذه ومُحبّيه، يؤازرونه في هذه الأمور، ويساعدونه، ولذلك فإنّه كان قد أقامَ حُسبةً شرعيّةً وخُلقية ابتغاءَ وَجْهِ الله، فإنْ كان المُنكَرُ يفلت من عِقابِ الحُكّام الذين كان أكثرهُم من أهلِ البدع ومعارضين لابن تيمية، ومن غضب العلماء، لم يكن ليفلتَ من رقابة (البوليس) الشرعي، الذين كان على رأسهم ابنُ تيمية.

وفي رجب هذا العام أُحْضِرَ إلى ابن تيمية شيخٌ كان يلبسُ دلقاً كبيراً متّسعاً جـداً، يسـمّى المجاهد (إبراهيم القطّان) وكـان ذا شعر طويل، وأظافر طوال، وشارب مسبل، يكثِرُ من كلام الفحش، وأكل ما يغيِّرُ العقلَ من الحشيشـة وما لا يجوز من المحرمات، فأمرَ ابنُ تيمية بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبَه الناس من

---

(١) ويسمى الآن نهر قليط. (الناشر)

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٤.

كل جانب، وقطعوه، حتى لم يدعوا فيه شيئاً، وأمر بحلقِ رأسه وشاربه، وتقليم أظفاره، واستتابه من كلام الفحش واستعمال الحرام[1].

وكذلك كان شخص اسمه (محمد الخباز البلاسي) يكثِرُ من أكل المحرّمات ويجالس اليهود والنصارى، ويتكلّم في تأويل الرؤى، ويتدخّلُ في العلوم والمسائل، التي لم يكن له بها علم، فاستحضره ابنُ تيمية، واستتابه عن أكل المحرمات، يقول ابن كثير: «وبهذا وأمثالِهِ حسدوه، وأبرزوا له العداوة».

جهاده الملحدينَ والمفسدين:

وعلى ما قام به ابن تيمية من الإصلاح في الداخل لم يكن في شغلٍ عن أولئك المفسدين، الذين لم يألوا جهداً في الإضرار بالمسلمين، والمؤامرة مع أعداء الإسلام، كلّما حزبهم أمر، أو أحاطت بهم مصيبة، ولو أنّه كان قد قام بإصلاح القبائل الساكنة في جبال (الجرد) و(كسروان) ومعه نائبُ السلطة (الأفرم) في عام ٦٩٨هـ، وقد تاب منهم كثير، ووَعدوا باتّباع أحكام الإسلام، واحترام نظام السلطنة، ولكنّ التجارب أثبتت أنهم لم يمتنعوا عن تخابُثِهم، وأنّهم لا يزالون بحاجة ماسة إلى مزيد من الإصلاح والتنبيه، ولا يزال الخطرُ موجوداً من قِبَلِهم كلّما سنحت لهم بذلك فرصة.

وفي مستهل ذي الحجة ركب ابنُ تيمية، ومعه جماعة من أصحابه إلى جبال (الجرد) و(كسروان) ومعه نقيبُ الأشراف (زين الدين ابن عدنان)، فقام فيهم بالتبليغ، واستتابَ خلقاً منهم، وألزمهم بشرائع الإسلام.

إنّ قبائل الرّوافض في جبال الجرد من الباطنية، والإسماعيلية، والحاكمية، والنصيرية، أصابوا المسلمين بأضرار، وجاهروا في إيذائهم ومعارضتهم، وهم الذين دعوا الصليبيين والتتر للعدوان على البلاد الإسلامية، ووفّروا لهم كلَّ نوعٍ من التسهيلات، واستباحوا كلَّ فرصةٍ لاستغلالِ ضعفِ المسلمين؛ وقِلّة وسائلهم؛ ونالوا من أعراضهم وأموالهم، وأذلّوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣.

لقد شاهد ابنُ تيمية كلَّ ذلك، فكان يعيشُ في تألّم شديد، وقلق عظيم جداً، وكان قلبُه الغيورُ يشعرُ بشدّة هذا التألم، إنّه لم يكن ليعفوَ عن هؤلاء الخِساس الأشرار، ولم يكن ليرضَى بالتغاضي عن هؤلاء المنافقين، الذين أصابوا المسلمين بالذلّة والتضييق في ساعة حرجة جداً، وساعدوا أعداءَهم ونصروهم، وقد أراد ابنُ تيميّة ألاَّ يتركَ المجرمين إلا ويذيقهم عقابَ أعمالهم، وأن يسدَّ في وجوههم كلَّ طريقٍ يتسللون منه إلى المسلمين بإيلام أو إيذاءٍ عند أيِّ حرب أو ساعة حرجة، إنّه استلفتَ نظر السلطان الناصر (سلطان مصر والشام) إلى هذه المهمة، وأخبرَه بخطرِهم ونواياهم الفاسدة، وقد قال في رسالة وجهها إلى السلطان:

«ولمّا قدمَ التترُ إلى البلادِ، وفعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يحُصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهلِ (قبرص) فملكوا بعضَ الساحل، وحملوا راية الصّليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدَدَه إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيلَ والسّلاحَ على أهل قبرص (أي الصليبيين المحاربين للمسلمين) وفرحوا بمجيء التتر.

ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان، كان بينهم شبيهٌ بالعزاء.. كلُّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة، كان من أسباب خروج (جنكيز خان) إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء (هولاكو) على بغداد، وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب (الصالحية)[1] وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله».

ويقول فيها أيضاً: «ولقد كان جيرانهم من أهل (البقاع)[2] وغيرها منهم في أمرٍ لا يضبَط شرُّه، كلَّ ليلة تنزل منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه

---

(١) ضاحية لدمشق آنئذٍ على سفح قاسيون، كانت عامرة بالعلم والعلماء، وفيها مسجد جامع وسوق ومحكمة؛ أما الآن فهي حي من أحياء دمشق. (الناشر)

(٢) سهل في لبنان عامر بالقرى، والنسبة إليه بقاعي. (الناشر)

إلا رب العباد، كانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عـرفت من أهل الجنايـات، يَـرِدُ إليهم النصارى من أهـل قبرص، فيضيّفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعـون بالرجل الصالح من المسـلمين، فإما أن يقتلوه، وإما أن يسلبوه، وقليل منهم من يفلتُ بالحيلة»[1].

وفي الثاني من محرم عام ٧٠٥هـ توجّه ابن تيمية في طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين، وسار إلى بلاد (الجرد) و(الرفض) و(والتيامنة)[2] فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم، وأبادوا خلقاً كثيراً منهم، ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من صقع بـلادهم، وقد أفتى ابن تيميـة أنّه يجوز قطع أشـجارهم ونخيلهم كبني النضير، لأنَّهم يتخذونها كميناً يستترون فيه، ويجعلونها قواعدَ للحرب والمؤامرة على المسلمين، وقد حصلَ بسببِ شهودِ الشيخ هذه الغزوة خيرٌ كثيرٌ، وأبانَ الشيخُ علماً وشجاعة فيها، وقد امتلأتْ قلوب أعدائه حسداً له وغماً[3].

مناظرته مع الأحمدية:

وفي يوم السبت التاسع من جمادى الأولى عام ٧٠٥هـ حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية[4] إلى نائب السلطنة بالقصر (الأبلق)[5]، وحضر الشـيخ

---

(١) ابن تيمية للشيخ محمد أو زهرة، ص٤٥.

(٢) نسبة إلى وادي التيم. (الناشر)

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٥

(٤) تدرج كثيرٌ من المنتمين إلى الطريقة الرفاعية، التي قد تسمَّى الأحمدية، عزواً إلى مؤسسها السيد أحمد الرفاعي الكبير رحمه الله إلى أعمال ومظاهر، تبدو أنها كرامات وخوارق، ويقولون: نقيم بها برهاناً على فضل الإسلام، ونسـتدرجُ بها الجهّـال من حكام التتـر والمغول إلى الإسلام، وتورّط كثيرٌ منهم مع الزمان ـ وتأثير الجهل وافتتان الناس بالعجائب والشعوذة ـ فيما لا يصحّ من الاعتقاد ولا يجوز من العملِ، والإسلامُ منه بريء، وقد أنكرَ عليهم كثيرٌ من علمائهم، ومن رسخت قدمُه في علوم الشريعة، وفهم الدين والتمسـك بتعاليم إمامهم الشيخ أحمد الرفاعي وسيرته في التزام الأحكام الدينية والتأدبِ بآدابِ الشرع. المؤلف.

(٥) قصر بناه السلطان الظاهر بيبرس بدمشق، مكانه الآن التكية السليمانية. (الناشر)

تقي الدين ابن تيمية، فسألوا نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكفَّ الشيخ تقي الدين إمارته عنهم، وأن يسلّم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن، ولا بدَّ لكلِّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة، قولاً وفعلاً، ومن خرجَ عنهما وجبَ الإنكار عليه.

قال ابن كثير: «فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ: تلك أحوالٌ شيطانيةٌ باطلةٌ، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبُهتان، ومن أرادَ منهم أن يدخلَ النارَ فليدخلْ أولاً إلى الحمّام، وليغسل جسده غسلاً جيداً، ويدلكه بالخلِّ والأشنانِ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إنْ كان صادقاً.

ولو فُرِضَ أنَّ أحداً من أهل البدع دخلَ النار بعد أن يغتسل، فإنَّ ذلك لا يدلُّ على صلاحه ولا على كرامته، بل حالُه من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة، فما الظنُّ بخلاف ذلك.

فابتدر شيخ المنيبع الشيخ (صالح) وقال: نحن أحوالنا إنّما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة، وكثرَ الإنكار عليهم من كل أحدٍ، ثم اتفق للحال على أنّهم يخلعون الأطواقَ الحديدية من رقابهم، وأنَّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربتْ عنقُه، وصنّفَ الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبين فيه أحوالَهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبولٍ ومردودٍ بالكتاب، وأظهرَ الله السنة على يديه، وأخمد بدعتهم»[1].

موافقة العلماء على العقيدة الواسطية:

وفي الثامن من رجب قرئت رسالة ابن تيمية (العقيدة الواسطية) في مجلس من العلماء كان قد انعقدَ عند نائب السلطنة، وتباحثَ معه العلماء، ووجهوا إليه الأسئلة، وقرروا أخيراً أنها مقبولة ومتفقة مع عقيدة أهل السنة، وعادَ الشيخُ

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٦.

إلى منزله بغاية من الحفاوة والإكرام، وقد حمل له العامّةُ شموعاً طول طريقه، على جاري عادتهم لإبداء الحبِّ والإعجاب في ذلك الزمان.

ابن تيمية يواجهُ المعارضة، ويُطْلَبُ إلى مصر:

كـان ابن تيمية يتمتع بنـوع من السـيادة الدينيـة في دمشق، فكلّما رأى أنّ الحكومـة تتساهل في منع بـدعة، أو تغييـر منكر، وأنَّ العلمـاء صامتـون، لا يعارضون الوضعَ، رأى نفسه مسؤولاً عن ذلك، فلم ينتظر إصدار حكم من الحكومة، ونفذَ الأحكام الشرعية بنفسه، وقد كانتْ معه جماعةٌ كبيرةٌ من تلاميذه المحبين له، والجماهير المتمسـكة بالعقيدة الدينية الصحيحة، ولم يزلْ نطاقُ عمله يتوسـع، حتى كرهت طبقـةٌ من أهل العلم سـموَّ مكانته الدينية، وتـأثيره الشخصي، ورأت في ذلك تفرّده واحتكاره لأمر الدين، ونشأت من هنا جماعةٌ من حسّـاده، كانت تتمنى زوالَ نعمتـه، وتحاول النيل من شخصيته، يقول ابن كثير:

«وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعةٌ يحسدونه، لتقدّمه عند الدولة، وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له، ومحبتهم له، وكثرة أتباعه، وقيامه في الحق، وعلمه وعمله»[1].

ردُّه على عقيدةِ وحدة الوجود:

وقد أثـارت بعضُ الأحداثُ النقاشَ حول العقائد، وانعقدت له مجالـس عديدة، وكان مِنْ أعظمِ ما فعله ابن تيمية أنّه كان يردُّ مذهب الشيخ (محيي الدين ابن عربي) في وحدة الوجود بكلِّ صراحة وإعلان، وقد كان له[2] جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار في مصر والشام، كما كانت طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ كانوا يعتبرونه عارفاً كبيراً، ومحققاً جليلاً، وإمام مشرب التوحيد والشيخ الأكبر الذي لا يدانيه أحدٌ في ذلك العصر.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٣٧.

(٢) لابن عربي.

وكـان يرى ابن تيميـة أنَّ تحقيقاته وإلهاماته تعارضُ تماماً تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتخالفُ تعاليمَ التوحيد الذي جاءَ به كلُّ نبي في عصره، وقامَ بتفسـيره الأخير وإكماله نبينـا محمد ﷺ، والذي يستفادُ بكلِّ إيضاح من الكتاب والسنّة، وبلغنا بالتواتر اللفظي والمعنوي.

وكان الشيخ (محيي الدين ابن عربي) قد توفي عام ٦٣٨هـ (قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة) وكانت مؤلّفاته متداولةً بين الناس، بخاصة (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم) اللذين نالا إعجابَ الأوساط العلمية.

أما ابنُ تيميّة فكان قد درسَ الفلسـفةَ والتصوّف والإشـراق بتأمُّلٍ ودقة، ومن بين ما قـرأ من الكتب كان هذان الكتابان أيضاً، إنه يقتطِفُ في مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويردّ عليهما، الأمر الذي يدلّ على أنَّ دراستَه لمثلِ هذه الكتب كانت مباشـرةً وعميقةً، وكان قد توصَّلَ بها إلى نتيجةٍ أنَّ التوفيقَ بين ما جاء في هذه الكتب مِن أفكار وآراء، وبين تعاليم النبـوة مستحيلٌ، إنه يقول وهو يتحدّثُ عن مـذهب الشيخ ابن عربي[1]:

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشيخ محيي الدين أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسـي؛ المشهور بابن عربي، ولد سنة ٥٦٠هـ بمرسية بالأندلس؛ وتوفي سنة ٦٣٨هـ بدمشق؛ اقرأ ترجمته في (ميزان الاعتدال) للذهبي: ٢/ ٤٢٤؛ وفي كتب التراجم والتاريخ.
ولا تزال شخصيته وآراؤه الشاذة موضعَ نزاعٍ وخلافٍ من العهد القديم، وحارت الأذهانُ في تأويلها، ويرجِّحُ بعضُ أهل العلمِ أن كثيّراً من ذلك مدسوس عليه، ومما لا شكَّ فيه أنها موحشة، وفُتن بها كثيرٌ من الناس، وتضرّروا بها، وشغل قسطاً من ذكائهم ووقتهم، لو صُرِفَ في محله لعاد على الإسلام والمسلمين بخير كثير، ويعجبُني ما قاله العلامة شمس الدين الذهبي وهو يترجمه في كتابه المشهور (ميزان الاعتدال): ٢/ ٤٢٤، قال: **فوالله لئنْ يعيشَ المسلمُ جاهلاً خلفَ البقرِ، لا يعرفُ من العلمِ شيئاً سوى سورةٍ من القرآن، يصلّي بها في الصلوات، ويـؤمن بالله وبـاليوم الآخر، خيـرٌ له بكثيرٍ من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مئة كتاب وعمل مئة خلوة. اهـ.**
وقـد حمل لواءَ المعارضـة له وتصدى لنقده اثنان من أعلام هذه الأمة، أحدهما شيخ الإسلام ابن تيمية من رجال القرن الثامن، والثاني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي من رجال القرن الحادي عشر، كلٌّ بأسلوبه الخاصّ، وفي ضوء تجاربه الشخصية، =

«يقولـون (ابن عربي وأتباعه): إنّ الوجـودَ واحدٌ، ويقولون: إنّ وجودَ المخلـوقِ هو وجودُ الخالقِ، لا يثبتـون موجوديـن خلقَ أحدُهما الآخـر، بـل يقولون: الخالقُ هو المخلوقُ، والمخلوق هو الخالق. . فأمّا الوجود فلا يتصوّر أن يكونَ فيه ربٌّ وعبد وخالقٌ ومخلوقٌ، وداع ومجيبٌ، وإنما الوجود لمّا فاضَ على الأعيـان، فظهر فيها، حصل التفـرّق من جهة الأعيـان، كتفرّق النور في الزجاج، لاختلاف ألوانه.

ويقولون: إنّ عُبّاد العجل ما عبدوا إلا الله، وإنّ موسى أنكر على هارون لكونِ هارون أنكر عليهم عبادةَ العجل، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين، الذين يَرَوْنَ الحقَّ في كلِّ شيء، بل يرونَه عينَ كلِّ شيءٍ، وأنّ فرعونَ كان صادقاً في قوله: «أنا ربكم الأعلى» بل هو عينُ الحق[1].

وهم يعظمون فرعون، ويقولـون ما قاله صاحبُ الفصوص (ابن عربـي) قال: ولمّا كان فرعونُ في منصب التحكّم صاحب الوقت، وإن جاز في العرف الناموسيِّ، لذلك قال: (أنا ربكم الأعلى) أي: وإن كان الكلُّ أرباباً بنسبةٍ ما، فأنا الأعلى منهم بما أُعطيتُه في الظاهر من الحكم فيكم، قال: ولما علمتِ السحرةُ صدْقَ فرعون فيما قاله لم ينكروه، وأقروا له بذلك، وقالوا له: «اقضِ ما أنت قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا». قال: فصحَّ قولُ فرعون (أنا ربكم الأعلى) وإن كان فرعونُ عينُ الحق.

ولهذا عابَ ابن عربي نوحاً. . وعظمّ قومَه الكفار الذين عبدوا الأصنام، وأنهم ما عبدوا إلا الله، وأن خطاياهم خطت بهم، فغرقوا في بحار العلم بالله»[2].

= ولهما موافقات والتقاءات لا تدل إلا على أنَّ الحقَّ واحدٌ، وعلى رسوخ قدمهما وعلو كعبهما في العلـوم الصحيحـة والأذواق الصادقة. (انظر سـيرته وتصديه لانحرافات الصوفية في الجزء الثالث من هذه السلسلة) (المؤلف)

(١) الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم، ص١١.

(٢) الفرقان بين الحق والباطل، ص١٤٧ ـ ١٤٩.

يبدو أنّ الناس غالوا كثيراً في الاعتقاد بوحدة الوجود في عصر ابن تيمية، حتى تخطوا حدود الشرع والعقل والأخلاق في هذه العقيدة، وحدثتْ أزمة اعتقادية في هذا الموضوع، إنّه يقول:

«وقد ضلَّ في هذا جماعة، ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك، كابن سبعينْ، والصدر القونوي تلميذ ابن عربي، والبلياني والتلمساني، وهو من حُذّاقهم علماً ومعرفة، وكان يظهِرُ المذهبَ بالفعل، فيشربُ الخمرَ، ويأتي المحرمات.

وحدثني الثقةُ أنه قرأ عليه (فصوص الحكم) لابن عربي، وكان يظنّه من كلام أولياء الله العارفين، فلما قرأه رآه يخالف القرآن، قال: فقلت له: هذا الكلامُ يخالفُ القرآن.

فقال: القرآن كلُّه شركٌ، وإنما التوحيد في كلامنا.

وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريحَ المعقول.

وحدثني مَنْ كان معه ومع آخر نظير له فمرّا على كلب أجربٍ ميتٍ بالطريق عند دار الطعم، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله، فقال: وهل ثمّ شيءٌ خارجٌ عنها، نعم الجميع في ذاته»[1].

وقيل لبعضهم: «إذا كان الوجود واحداً، فلم كانت الزوجةُ حلالاً والأم حراماً؟».

فقال: «الكلُّ عندنا واحد، ولكنَّ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرامٌ عليكم»[2].

ولقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالةً مفصّلةً في سنة ٧٠٤هـ إلى الشيخ أبي الفتح نصر المنبجي وذكر له فيها: «لولا أنّي أرى دفَع ضرر هؤلاء عن أهل

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل، ص١٤٥.

(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم، ص٤٢.

طريق الله تعالى، السالكين إليه من أعظم الواجبات، وهو شبيهٌ بدفع التتر عن المؤمنين، لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشفَ أسرار الطريق، ويهتك أستارها، ولكنَّ الشيخَ أحسن الله تعالى إليه يعلم أنَّ مقصودَ الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل، أنْ يكونَ الدينُ كلُّه لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم.

وهؤلاء موّهوا على السالكين التوحيد، الذي أنزل الله تعالى به الكتبَ، وبعث الرسل بالاتحاد، الذي سمّوه توحيداً، وحقيقتُه تعطيلُ الصانع، وجحود الخالق، وإنّما كنتُ قديماً مِمَّنْ يحسِنُ الظنَّ بابن عربي وتعظيمه، لما رأيتُ في كتبه من الفوائد، مثل كلامه في كثير من (الفتوحات) و(كنه الحكم المربوط) و(الدُّرة الفاخرة) و(مطالع النجوم) ونحو ذلك، ولم نكن بعدُ قد اطَّلعنا على حقيقةِ مقصودِه، ولم نطالِعْ (الفصوصَ) ونحوه، وكنّا نجتمعُ مع إخواننا في الله، نطلبُ الحقَّ ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبيّنَ الأمرُ، عرفنا نحن ما يجبُ علينا.

فلمّا قدمَ من المشرقِ مشايخٌ معتبرون، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي، وحقيقة حال هؤلاء، فوجبَ البيانُ.

وكذلك كتب إلينا من أطراف الشام رجالٌ سالكون، أهل صدق وطلب، أن أذكُرَ النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم، والشيخ أيده الله تعالى بنور قلبه، وذكاء نفسه، وحق قصده، من نصحه للإسلام وأهله، ولإخوانه السالكين، يفعل في ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته في الدنيا والآخرة».

وهو بعد ذلك يستعرِضُ بشرحٍ وتفصيلٍ تلك العقائد والنظريات والمذاهب، التي كانت شائعةً حول الاتحاد والحلول بين الفرق المسيحية، كاليعقوبية، والنسطورية، والملكانية، وبين بعض الفرق التي كانت تُنْسَبُ إلى المسلمين، كالروافض والجهمية.

كما أنّه يشرَحُ بتفصيلٍ (الاتحاد المعيّنَ) و(الاتحاد المطلَقَ) و(الحلول المعين) و(الحلولَ المطلَقَ) ويذكر القائلين بذلك، مما يدلُّ على سعة نظره،

واطلاعه على المذاهب السابقة، ثم إنّه يقوم بشرح مذهب ابن عربي بغاية من التحقيق والدقة والحيطة، مما يدلّ على أنّه كان قد درس كتبَه (كالفتوحات) و(فصوص الحكم) بتأمّل بالغ.

وكان قد أدرك مفتاح كلامه الذي سهل عليه فتح مغاليق علومه وحقائقه، ومن ثَمَّ يتضحُ الفرقُ بينه وبين دعاة وحدة الوجود الآخرين، وتنكشِفُ حقيقةُ قول ابن عربي، وهو عندما يتكلّم عن جميع هذا يتصدّى لشرح نتائجه والتزاماته الفاسدة، ويمنحه حق الشك والاحتمال بغاية من الإخلاص والانشراح، ويفرّق بينه وبين الاتحاديين الآخرين، يقول في الرسالة نفسها:

«لكن ابن عربي أقربُهم إلى الإسلام، وأحسنُ كلاماً في مواضع كثيرة، فإنّه يفرّقُ بين المظاهر والظاهر، فيقرُّ الأمرَ والنهيَ والشرائعَ على ما هي عليه، ويأمرُ بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثير من العبّاد يأخذون من كلامه سلوكهم، فينتفعون بذلك، وإن كانوا لا يفقهون حقائقه، ومن فهمه منهم وفَقِهَ فقد تبيّنَ قوله»[1].

ويقول في موضع آخر: **«وهذه المعاني كلها هي قولُ صاحب (الفصوص) والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات. كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]**.

ثم إنه يتحدّث عن مذهب صدر الدين القونوي فيقول: هو أبعدُ عن الشريعة والإسلام.

ويردُّ بعد ذلك على التلمساني وابن سبعين رداً قوياً، ولكنّه يبغضُ التلمسانيَّ بغضاً شديداً، فلا يلبثُ أن تبعثه الحمية الدينية على أن يقول:

---

(١) جلاء العينين، ص٥٨.

«وأمّا الفاجِرُ التلمسانيُّ[1] فهو أخبثُ القومِ، وأعمقُهم في الكفر، فإنهّ لا يفرّقُ بين الوجود والثبوت كما يفرِّقُ ابن عربي، ولا يَفْرقُ بين المطلق والمعين، كما يفرّق الرومي، ولكن عنده ما ثَمَّ غيره، ولا سوى بوجه من الوجوه، وإنّ العبد إنما يشهَدُ السوى ما دامَ محجوباً، فإذا انكشفَ حجابُه رأى أنَّه ما ثَمَّ غير يبين له الأمر، ولهذا كان يستحِلُّ جميع المحرمات»[2].

وفي الأخير يشير إلى نكتة مهمة ويقول: «متكلِّمة الجهمية لا يعبدون شيئاً، ومتعبّدة الجهمية يعبدون كلَّ شيء، وذلك لأنَّ متكلِّمهم ليس في قلبه تأله ولا تعبد، فهو يصفُ ربه بصفات العدم والموات.

وأما المتعبد ففي قلبه تألهٌ وتعبّدٌ، والقلبُ لا يقصد إلا موجوداً لامعدوماً، فيحتاج أن يعبدَ المخلوقات إمَّا الوجود المطلق وإمّا بعضُ المظاهر: كالشمس والقمر، والبشر والأوثان، وغير ذلك، فإنَّ قولَ الاتحادية يجمعُ كلَّ شركٍ في العالم، وهم لا يوحدون الله سبحانه وتعالى، وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات، فهم بربهم يعدلون.

ولهذا حدّثني أنّ ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند، وقال: إنّ أرضَ الإسلام لا تسعه، لأنّ الهند مشركون[3]، يعبدون كلَّ شيء حتى النبات والحيوان.

وهذا حقيقة قول الاتحادية، فإذا أخذوا يصفون الرب ـ سبحانه وتعالى ـ بالكلام قالوا: ليس بكذا، ليس بكذا، ووصفوه بأنه ليس هو رب المخلوقات كما يقوله المسلمون، لكن يجحدون صفات الخالق، التي جاءت بها الرسل عليهم السلام.

وإذا صار لأحدهم ذوقٌ ووجدٌ، تألّه وسلك طريق الاتحادية، وقال: إنّه هو الموجودات كلها، فإذا قيل له: أين ذلك النفي من هذا الإثبات؟.

---

(١) يعرف التلمساني لدى أتباعه بالعفيف التلمساني.

(٢) جلاء العينين، ص٥٨.

(٣) سكان الهند الأصليون.

قال: ذلك وجدي وهذا ذوقي.

فيقال لهذا الضالّ: كلُّ ذوقٍ ووجدٍ لا يطابقُ الاعتقاد، فأحدهما أو كلاهما باطل، وإنّما الأذواقُ والمواجيدُ نتائج المعارف والاعتقادات، فإنّ علم القلب وحاله متلازمان، فعلى قدر العلم والمعرفة يكونُ الوجدُ والمحبةُ والحالُ.

ولو سلك هؤلاء طريقَ الأنبياء عليهم السلام ـ الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحدهُ لا شريك له، ووصفوه بما وصفَ به نفسه، وبما وصفتْه به رسلُه، واتبعوا طريقَ السابقين الأولين ـ لسلكوا طريقَ الهدى، ووجدوا بردَ اليقين، وقرة العين، فإنَّ الأمرَ كما قال بعضُ الناس[1]: إنَّ الرسلَ جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ ونفي مجملٍ، والصابئةُ المعطِّلة جاؤوا بنفي مفصلٍ وإثباتٍ مجملٍ، فالقرآن مملوءٌ من قوله تعالى في الإثبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وفي النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨١]»[2].

ويتحدّث عن الفوضى الخُلقية التي نشرتها هذه العقيدةُ، واتخذها الفُسّاقُ وأهلُ الهَوَسِ حِجاباً لشهواتهم، فيقول:

«إنّ دعاةَ هذه العقيدة يجمعون بين شهوات النَّفس والهَوَس وفساد الاعتقاد، مما أنتج في بعض البلدان أنّ بعض الناس يصابُوْنَ بهوى المُرْدان، ويقولون: إنّهم مظهر الله تعالى ومظهر جماله، وبعضهم يقبّلون المحبوب ويقولون له: أنتَ الله، وبعضُهم يعتدي على أولاده، ويدّعي الألوهية وما إلى ذلك».

---

(١) الإمام نفسه صرح بذلك في موضع كثيرة من مؤلفاته.

(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم، ص٥٢.

ذلك هو الـزّمنُ الذي كان فيه الملك الناصـر (محمد بن قلاوون) ملكـاً رمزاً[1]، ليس له من الأمر شيء، كان الأمير ركن الدين (بيبرس الجاشنكير) هو الذي يأمرُ وينهى، ويتصرّف في المملكة تصرّفاً مطلقاً، وكان (جاشنكير) هذا من المُعْجَبين بالشيخ (نصر المنبجي) الذي كان ممّنْ يحبُّ الشيخَ (ابن عربي) حبّاً شديداً، ولقد كان الشيخ (نصر المنبجي) لا يزال يطّلع في مصرَ على آراء الشيخ ابن تيميّة في ابن عربي، التي كان يبديها من حين لآخر كتابةً وكلاماً، ويكفي ذلك لإثارة سخطه على الشـيخ ابن تيميّة، وكان (جاشـنكير) ضعيفَ الثقافة، شـأن الأمراء الأتراك، متمتعاً بتدبير الأمور العسكرية والإدارية، ولكنّه كان متأثراً برأي شيخه، ويرى ابنَ تيميّة كما يراه شيخه.

أما الشام فكان ولايةً للمملكة المصرية، وتابعاً لها بالكليّة، فكان سلطانُها يتمتع بامتيازاتٍ واسـعةٍ، وله الحقُّ أن يطلبَ أيَّ شخص إلى البلاط يُخشى منه أن يسـبب ضرراً بالأمن العام، أو يثيرَ فتنةً وخصاماً، وكانت أهواءُ رجال البلاط أو الاتجاهات الشخصية تعملُ في مثل هذه المواقف بوجه عام، وكان الوضعُ إذ ذاك أنّ الشيخ (نصر المنبجي) الذي كان يعظّمه نائبُ السلطنة، ويقتدي به، كان يبغضُ ابن تيمية، ويريد أن يحطَّ من شأنه، ويحبط مساعيه.

وعلى كلٍّ فقد وصلَ كتابُ السلطان إلى ابن تيميّة في الخامس من رمضان عام ٧٠٥هـ يطلبه إلى مصر، وقد أقلقَ ذلك أصحابَه وتلاميذَه، وأشار عليه نائبُ السلطنة ـ وكان من المعجَبين به ـ بترك الذهاب إلى مصر، وقال له: أنا أكاتِبُ السلطان في ذلك، وأزيلُ الوحشةَ، وألُمُّ الشّعْثَ، ولكنَّ الشيخَ ابنَ تيميّة امتنع عن ذلك، وقال له: إنَّ في توجُّهِهِ إلى مصرَ مصالح كثيرة، فازدحمَ النّاسُ لوداعِه ورؤيتهِ، وشيّعوه إلى بعضِ الطريق، وهم فيما بين باكٍ وحزين.

ودخل الشيخُ غزّةَ في طريقه إلى مصر، فعمل في جامعها مجلساً عظيماً، وألقى فيه درساً، ووصل إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان، وعُقدَ مجلسٌ

---

(١) أي صورياً.

بالقلعة يوم الجمعة بعد الصلاة، حضره القضاةُ وأكابر الدولة، وأرادَ أن يتكلّم على عادته، فلم يتمكن من البحث والكلام، وانْتدبَ له الشَّمسُ بن عدنان خصماً، وأورد عليه بعضُ الحاضرين في عقائده ومسائله[1] فسأله القاضي عن الجواب عليه، فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه فقيل به: أجبْ، ما جئنا بك لتخطبَ.

فقال: ومن الحاكمُ فيَّ؟.

فقيل له: القاضي ابن مخلوف المالكي[2].

فقال له الشيخ: كيف تحكمُ فيَّ وأنتَ خصمي؟.

فغضب غضباً شديداً، وانزعج، وأصدرحكمه عليه[3] وحُبِسَ في برجٍ أياماً، ثم نُقِلَ منه ليلةَ العيد إلى الحبس المعروف بالجُبِّ، هو وأخوه شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن[4].

وفي ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦هـ أحضر الأمير (سيف الدين سلار) نائب مصر القضاة والفقهاء الذين تكلموا في إخراج الشيخ ابن تيمية من الحبس، فاشترط بعضُ الحاضرين عليه شروطاً بذلك، منها أن يلتزمَ بالرجوع عن بعض العقيدة، وأرسلوا إليه ليحضرَ ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور وصمّم، وتكرّرتِ الرّسلُ إليه ستَّ مرات، فصمم على عدم الحضور، ولم يلتفت إليهم، ولم يَعِدْهم شيئاً، وكان جوابُه دائماً هو: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [يوسف: ٣٣][5].

---

(١) هذه العقائد والمسائل هي تلك البحوث الكلامية القديمة التي نوقشت في دمشق مراراً، وكان ابن تيمية قد ألف في موضوعها رسائل وكتباً مستقلة، مثلاً حقيقة الاستواء على العرش وحقيقة كلام الله، وبحث الحرف والصوت.

(٢) كان خصماً لابن تيمية ومن معارضيه في مصر.

(٣) وقد تحدث الشيخ عن ما جرى له في هذا المجلس في رسالة له، صدرت باسم (المحنة) حديثاً.

(٤) ابن كثير: ٣٨/١٤.

(٥) المصدر السابق، ص٤٢.

ابن تيمية يتحدّثُ عن سبب الخلاف، ويوضّحُ مذهبه:

ومن حُسْن الحظِّ أنَّ رسالةً مستقلةً لابن تيمية صدرت جديداً حكى فيها عن مجلس النقاش الذي أُقيم في مصر للنظر في قضيته، وسردَ بنفسه قصة الحبس والأسر، ثم كلامَ الناس للإفراج عنه، وإنكاره وإيضاحه لمذهبه، وهذه الرسالة تضيءُ كثيراً من الجوانب المهمة والأحوال الجديدة، وهنا أقدّم نتفاً من مقتطفاتها[1]:

فجاء الفتاح (ذات يوم) فقال: يسلّم عليك النائب، وقال: إلى متى يكونُ المقام في الحبس أما تخرج؟ هل أنتَ مقيمٌ على تلك الكلمة أم لا؟.

وعلمتُ أنَّ الفتاح ليس في استقلاله بالرسالة مصلحة، لأمور لا تخفى، فقلت: سلّم على النائب وقل له: أنا لا أدري ما هذه الكلمة؟ وإلى الساعة لم أدرِ على أي شيء حُبستُ؟ ولا علمتُ ذنبي؟ وإنّ جواب هذه الرسالة لا يكونُ مع خدمك، بل يُرسلُ من ثقاته الذين يفهمون ويصدقون أربعة أمراء، ليكونَ الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان، فأنا قد علمت ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب.

فجاء بعد ذلك الفتّاح، ومعه شخصٌ ما عرفته، ولكنْ ذكر لي أنّه يقال له: علاء الدين الطبرسي، ورأيتُ الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً، وذكروه بالحسنى، ولكنّه لم يقلْ ابتداءً من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى، فلم يقل: الكلمة التي أنكرت! كيت وكيت، ولا استفهم! [بل قال]: هل أنت مجيبٌ إلى كيت وكيت؟ ولو قال ما قال من الكذب عليَّ والكفر والمجادلة على الوجه الذي يقتضي الجواب بالحسنى لفعلتُ ذلك، **فإنَّ الناس يعلمون أني من أطول**

---

(١) وَجِدَتْ نسخة من هذه الرسالة في المكتبة الظاهرية بدمشق بخطِّ شقيقه ورفيقه في السجن الشيخ شرف الدين ابن تيمية، وقد صدرت باسم (مجموعة علمية) تحتوي على بعض رسائل الشيخ ابن تيمية الأخرى كذلك، اهتّم بطبعها وإخراجها فضيلة الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي سابقاً، وفضيلة الشيخ محمد نصيف رحمه الله.

الناس روحاً وصبراً على مُرِّ الكلام، وأعظم الناس عدلاً في المخاطبة لأقلِّ الناس، دع ولاة الأمور، لكنّه جاء مجيء المكرِه على أنْ أوافقَ إلى ما دعا إليه، أخرج درجاً فيه من الكذبِ والظلم، والدعاءُ إلى معصية الله، والنهي عن طاعته ماالله به عليم، وجعلتُ كلّما أردتُ أن أجيبه وأحمّله رسالةً يبلّغها: لا يريدُ أن يسمعَ شيئاً من ذلك ويبلّغه، بل لا يريدُ إلا ما مضمونهُ الإقرارُ بما ذكر، والتزامُ عدم العودة إليه، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فمتى ظلم المخاطِب لم نكن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن.

فقلتُ له في ضمن الكلام: **الحقُّ في هذه القضية ليسَ لي، لكن لله ولرسوله، ولسائر المسلمين من شرق الأرض إلى غربها، وأنا لا أستطيع تبديل الدين وتغييره، وليس لأجلك أو أجلِ غيرك أرتدُّ عن دين الإسلام، وأقرُّ بالكفر والكذب والبهتان، راجعاً عنه أو موافقاً عليه.**

لما رأيتُه يلحُّ في الأمر بذلك، أغلظتُ عليه في الكلام، وقلتُ: دَعْ هذا الفشار، وقم رُحْ في شغلك، فأنا ما طلبتُ منكم أن تخرجوني، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذي يدخلُ منه إلى الباب المطبق، فقلت أنا: افتحوا لي الباب حتى أنزل، يعني فرغ الكلام.

وقلت له: أنا لم يصدرْ منِّي قطُّ إلا جواب مسائل افتاء مستفت، ما كاتبتُ أحداً ابتداءً، ولا خاطبتُه في شيءٍ من هذا، بل يجيءُ الرجلُ المسترشدُ المستفتي عما أنزل الله على رسوله ﷺ، فيسألني مرّةً بعد مرةٍ، وهو متحرّقٌ على طلب الهدى، أفيسعني في ديني أن أكتمه العلمَ؟ وقد قال النبي ﷺ: «منْ سُئلَ عنْ علم يعلمُه فكتَمَهُ ألجمَهُ الله يومَ القيامةِ بلجامٍ من نار». وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]. أفعلى أمرك أمتنعُ من جواب المسترشدِ، لأكونَ كذلك؟ وهل يأمرُني بهذا السلطان أو غيره من المسلمين؟ ولكن أنتم ما كان مقصودُكم إلا دفع أمر الملك لما بلغتكم من الأكاذيب.

فقال: يا مولانا دع أمرَ الملك: ما أحـدٌ يتكلم في الملك؟

فقلت: إيه، الساعة ما بقي أحدٌ يتكلّم في الملك، وهل قامت هذه الفتنةُ إلا لأجل ذلك؟ نحن سمعنا بهذا ونحنُ بالشام: أنّ التهمةَ المثير لها الملك، لكن ما اعتقدنا أنَّ أحداً يصدّقُ هذا.

وذكرتُ له أنّ هذه القضية ليس ضررها عليَّ، فإنّي أنا من أيِّ شيءٍ أخافُ؟ إنْ قُتِلْتُ كنتُ مِن أفضلِ الشهداءِ، وكان ذلك سعادةً في حقِّي، يُتَرَضَّى بها عليَّ إلى يوم القيامة، ويُلْعَنُ الساعي في ذلك إلى يومِ القيامة، فإنّ جميع أمةِ محمّدٍ ﷺ يعلمون أني أقتلُ على الحق، الذي بعثَ الله به رسوله ﷺ، وإنْ حُبِسْتُ: فواللهِ إنَّ حبسي لمن أعظمِ نعم اللهِ عليَّ، وليسَ لي ما أخافُ الناسَ عليه، ولا مدرسة ولا إقطاع، ولا مال، ولا رئاسة، ولا شيء من الأشياء، ولكنّ هذه القضيـة ضررُها يعودُ عليكم، فإنّ الذين سَعَوْا فيها من الشّام، أنا أعلم أنَّ قصدَهم فيها كيدُكم وفسادُ ملّتِكم ودولتِكم، وقد ذهبَ بعضُهم إلى بلاد التتر، وبعضهم مقيم هناك، فهم الذين قصدوا إفسادَ دينكم ودنياكم، وجعلوني أنا ما انستر لعلمكم بأني أواليكم، وأنصح لكم، وأريد لكم خير الدنيا والآخرة، والقضية لها أسرار، كلّما جاءت تنكشف، وإلا فأنا لم يكنْ بيني وبينَ أحدٍ بمصرَ عداوةٌ ولا بغضاءُ، وما زلتُ محباً لهم، موالياً لهم، أمراءهم ومشايخهم وقضاتهم.

فقال لي: فما الذي أقوله لنائب السلطان.

فقلت: سلّم عليه، وبلّغه كلَّ ما سمعتَ.

فقال: هذا كثير.

فقلت: ملخصه أنَّ الذي في هذا الدرج أكثـرُه كذبٌ.

أمّا هذه الكلمة (استوى حقيقة).

و(يعني قلتها حقاً) فهذه قد ذكر واحد من علماء الطوائف المالكية وغير المالكية: أنّه أجمع عليها أهلُ السُنَّة والجماعة، وما أنكرَ ذلك أحدٌ من سلف الأمة، ولا أئمتها، بل ما علمتُ عالماً أنكرَ ذلك، فكيف أتركُ ما أجمعَ عليه أهلُ السُنَّة، ولم ينكرْه أحدٌ من العلماء.

قال أبو عمر ابن عبد البر: أهلُ السُّنَّةِ مجمعونَ على الإقرار بالصفات الواردة كلّها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة، لا على المجاز، إلا أنّهم لا يكيّفون شيئاً من ذلك، ولا يحدّون فيه صفةً محصورةً.

وأمّا أهلُ البدعِ الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلّهم ينكرُها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أنّ مَنْ أقرَّ بها [مشبهٌ]، وهم عند من أقرَّ بها نافون للمعبود.

والحقّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة.

وقال الشيخ العارف أبو محمّد عبد القادر بن صالح الكيلاني في كتاب (الغُنية): «وهو بجهة العلو، مستوٍ على العرش، محتوٍ على الملك، محيطٌ عليه بالأشياء».

قال: «ولا يجوزُ وصفُه بأنّه في كلِّ مكانٍ، بل يقال: إنّه في السماء على العرش، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وذكر الآيات والأحاديث، إلى أن قال: وينبغي إطلاقُ صِفةِ الاستواء، مِنْ غيرِ تأويلٍ، وأنّه استواءُ الذّاتِ على العرش»[١]، فلو كان الذي حكم به ابنُ مخلوف وهو مذهب مالك أو الأشعري: لم يكن له أن يُلْزِمَ جميعَ الناس به، ويعاقبَ مَنْ لم يوافقه عليه باتفاق الأمة، فكيف والقولُ الذي يقولُه، ويلْزِمُ به، هو خلافُ نصِّ مالك وأئمة أصحابه، وخلافُ النصِّ الأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر، وأبي الحسن الطبري، وأبي بكر ابن فَوْرَك، وأبي القاسم القُشيري، وأبي بكر البيهقي، وغير هؤلاء، وكلُّهم مصرّحون بمثل ما قلناه، وبنقيضِ ما قاله!.

ولهذا اصطلحتِ الحنبليّةُ والأشعرّيةُ، واتفقَ النّاسُ كلُّهم، لمّا رأى الحنابلةُ كلامَ أبي الحسن الأشعري قالوا: هذا خيرٌ من كلام الشيخ الموفّق، وزالَ

(١) لقد تصدى الشيخ في هذه المناسبة لذكرِ كثيرٍ من آراءِ أكابرِ العلماءِ للمذاهب الأربعةِ نكتفي هنا بذكر هذين الرأيين فقط.

ما كانَ في القلوب من الأضغان، وصار الفقهاءُ من الشافعيّةِ وغيرِهم يقولون: الحمدُ للهِ على اتفاقِ كلمةِ المسلمين.

فقال لي: نعم هو مستوٍ على العرش حقيقة بذاته بلا تكييف ولا تشبيه؟.

قلت: نعم، وهكذا هي العقيدة، فقال: فاكتبْ هذه الساعة، وقال: التزمه أو نحو هذا.

فقلت: هذا هو مكتوبٌ بهذا اللفظ في العقيدة التي عندكم، التي بُحثتْ بدمشق، واتفق عليها المسلمون، فأيُّ شيءٍ هو الذي أزيدُه؟.

قلتُ له: أنا أحضرتُ أكثر من خمسين كتاباً من كتبِ أهلِ الحديثِ والتصوّفِ والمتكلمين والفقهاءِ الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، يوافقُ ما قلتُه.

قلت: أنا أمْهِلُ من خالفني ثلاثَ سنين، أن يجيءَ بحرفٍ واحدٍ عن أئمة الإسلام يخالفُ ما قلته، فما الذي أصنعه؟.

فلما خرج الطبرسي والفتّاح عاد الفتّاح بعد ساعة، فقال: يسلِّمُ عليك نائب السلطان، وقال: فاكتب لنا الآن عقيدةً بخطك.

فقلت: سلّم على نائب السلطان، وقل له: لو كتبتُ الساعة شيئاً لقال القائل: قد زادَ ونقصَ أو غيّرَ الاعتقاد، وهكذا بدمشق، لمّا طلبوا الاعتقاد، لم آتهم إلا بشيءٍ قد كُتِبَ مقدَّماً.

قلت: وهذا الاعتقادُ هو الذي قُرئَ بالشام في المجالس الثلاثة، قد أرسله إليكم نائبكم مع البريد، والجميعُ عندكم، ثم أرسل إليكم مع العمري ثانياً، لمّا جاء الكتاب الثاني ما قاله القضاة والعلماء والمحضر وكتاب البخاري الذي قرأه المزّي، **والاعتقاد ليس هو شيئاً أبتدعه من عندي، حتى يكونَ كلَّ يوم لي اعتقادٌ**، وذلك الاعتقادُ بعينه، والنسخة بعينها، فانظروا فيها.

فراح، ثم عاد، وطلب أن أكتبَ بخطي أيَّ شيءٍ كان.

فقلت: فما الذي أكتبُه؟.

قال: مثل العفو، وألا تتعرض لأحدٍ.

فقلت: نعم هذا أنا مجيبٌ إليه، ليس غرضي في إيذاء أحدٍ، ولا الانتقام منه، ولا مؤاخذته، وأنا عافٍ عمّن ظلمني، وأردتُ أن أكتب هذا، ثم قلتُ: مثل هذا ما جرت العادة بكتابته، فإنَّ عفوَ الإنسان عن حقِّه لا يحتاجُ إلى هذا.

فينبغي أن يعرف الشيخ نصر بحقيقة الأمر وباطن القضيّة، ليطبَّها بتدبيره، فأنا ليس مرادي إلا في طاعة الله ورسوله ﷺ، وما يخاف على جميع المصريين إلا من بعضهم في بعض، كما جرت به العادةُ، قد سمعتم ما جرى بدمشق (مع أنَّ أولئك أقربُ إلى الاتفاق) من تجديد القاضي المذكور إسلامه عند القاضي الآخر، وأنا لما كنتُ هناك كان هذا الأذرعي الحنفي قد ذهب إلى القاضي تقي الدين الحنبلي وجدَّد إسلامه، وحكم بحقن دمه، لمّا قام عليه بعضُ أصحابهم في أشياء.

وكان من مدةٍ لما كان القاضي حسام الدين الحنفي مباشراً لقضاء الشام، أراد أن يحلقَ لحية هذا الأذرعي، وأحضر الموسى والحمارَ ليُرْكِبَه، ويطوفَ به، فجاء أخوه عرَّفني ذلك، فقمتُ إليه، ولم أزل به حتى كفَّ عن ذلك.

وجرت أمورٌ لم أزل له فيها مُحْسناً إليهم، وهذه أمورٌ ليست من فعلي، ولا فعل أمثالي، نحن إنما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون، ليس لنا غرضٌ من أحدٍ، بل نجزي بالسيئة الحسنة ونعفو ونغفر.

وهذه القضية قد انتشرت، وظهر ما فُعلَ فيها، وعلمه الخاصّ والعامّ، فلو تغيّرت الأحوال، حتى جاء أميرٌ أو وزيرٌ [وزيّن] له في نقل مِلْكٍ قد أثبته أو حكم به لكان هذا عند المصريين من أسهل ما يكون، فيثبتون رِدَّته، والمرتدُّ أحكامه مردودةٌ باتفاق العلماء، ويعودُ ضررهُ على الذين أعانوه ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم، وهذا أمرٌ كبيرٌ لا ينبغي إهماله، فالشيخُ خبيرٌ يعرف عواقبَ الأمور.

وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كلِّ شرٍّ فيها وفي غيرها، وإقامةٍ لكلِّ خيرٍ.

و(ابن مخلوف) ولو عمل مهما عمل، والله ما أقـدرُ على خير إلا وأعملـه معه، ولا أعينُ عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإنّي أعلم أنّ الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجاً لكنت أعلمُ بماذا أعاونه.

لكنّ هذه قد جعلوها مسألة دور، والله يخيرُ للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدّورُ وتزولَ الحيْرةُ إلا بالإنابة إلى الله، والاستغفار والتوبـة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أمّا ما يتعلق بالاستغاثة بالنبي ﷺ، فإنّ المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ العبدَ لا يجوز له أن يعبدَ ولا يدعوَ ولا يستغيثَ، ولا يتوكل إلا على الله، وأنَّ من عبدَ ملكـاً مقرباً، أو نبيـاً مرسلاً، أو دعاه، أو استغاث به فهو مشـركٌ، فلا يجـوزُ عندَ أحدٍ من المسـلمين أن يقـول القائـل: يا جبرائيل، أو يا ميكائيل، أو يا إبراهيم، أو يا موسى، أو يا رسول الله، اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو انصرني، أو أغثني، أو أجرني من عدوّي، أو نحو ذلك، بل هذا كلُّه من خصائص الألوهية، وهذه مسائل شـريفة معروفة قد بينها العلماء.

وأنت لما ذكرتَ لي ذلك اليوم هذا، قلتُ لكَ: هذا من أصول الإسـلام، فإذا كان القاضي لا يفرّق بين دين الإسلام ودين النصارى، الذين يدعون المسيح وأمه فكيف أصنعُ أنا؟ ولكن من يتخذ نفيسةَ[1] رباً، ويقول: إنّها تجيرُ الخائفَ، وتغيثُ الملهوف، [وهو] والهٌ في حبّها، ويسجدُ لها، ويتضرعُ في دعائها، مثل ما يتضرع في دعـاء ربِّ الأرض والسـماوات، ويتوكلُ على مَنْ قد مات، ولا يتوكلُ على الحيِّ الذي لا يموت، فلا ريب أنَّ إشراكَه بِمَنْ هو أفضلُ منها يكون أقوى، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

---

(١) السيدة نُفيسة من أهل بيت الرسول ﷺ، وقبرها معروف بالقاهرة، يعظّمه العامة.

عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩].

وحديث معاذ لما رجع من الشام فسجدَ للنبي ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ».

فقال: رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم.

فقال: «يا معاذ! أرأيت لو مررت بقبري أكنتَ ساجداً له؟».

قال: لا.

قال: «فلا تسجدْ لي، فلو كنتُ آمراً أحداً أنْ يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجُدَ لزوجها».

فمن لا ينهى الضالين من مثل هذا الشرك المحرّم بإجماع المسلمين، كيف ينهى عما هو أقل منه؟!

ومن دعا رجلاً أو امرأةً من دون الله، فهو مضاهٍ لمن اتخذ المسيحَ وأمَّه إلـٰهين من دون الله.

وفي (الصحيح) عن النبي ﷺ أنّه قال: «لا تُطْروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله».

بل من سوّغَ أن يُدْعى المخلوقُ، ومنعَ دعاءَ الخالقِ، الذي فيه تحقيقُ صمديتهِ وإلـٰهيته، فقد ناقضَ الإسلام في النفي والإثبات، وهو شهادة أن لا إلـٰه إلا الله.

وأما حقوق رسول الله ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ مثل تقديم محبته على النفس والأهل والمال، وتعزيره وتوقيره، وإجلاله وطاعته، واتباع سنته، وغير ذلك فعظيمةٌ جداً.

وكذلك ما يشرع التوسل به في الدعاء، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه: أنَّ النبي ﷺ علّم شخصاً أن يقول: «اللهم إنّي أسألك وأتوسَّلُ إليك بنبيِّك محمد نبيِّ الرحمة، يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجة لتقضيها، اللهم فشفعْهُ فيَّ» فهذا التوسلُ به حسنٌ، وأما دعاؤه والاستغاثة به فحرامٌ.

وأنـا قد صنفتُ كتابـاً كبيراً سـميته (الصارمَ المسلولَ على شاتمِ الرسول) وذكرت فيه في هذه المسألة ما لم أعرفْ أحداً سبقَ إليه، وكذلك هذه القواعد الإيمانية، قد كتبتُ فيها فصولاً هي من أنفع الأشياء في أمر الدين[1].

ومما ينبغي أن يعرف به الشيخ أني أخافُ أنَّ القضية تخرج عن أمره بالكلية، ويكون فيها ما فيه ضررٌ عليه، وعلى (ابن مخلوف) ونحوهما، فإنّه قد طلب مني ما يجعل سبباً لذلك، ولم أجب إليه، فإني إنما أنا لون واحد، والله ما غششتهما قط، ولو غششتهما ما كتمتُ ذلك، وأنا مساعدٌ لهما على كلِّ برٍّ وتقوى.

وتعرِّفه، أن الأصل الذي تصلح عليه الأمور: «رجوع كلِّ شخص إلى الله، وتوبته إليه في هذا العشر المبارك، فإذا حسنتِ السرائر أصلح الله الظواهر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قيامه بالإصلاح والتعليم في السجن وتأثير ذلك:

يتحدثُ الشيخ (مرعي بن يوسف الكرمي) صاحبُ (الكواكب الدرية) عن معاصر الشيخ ابن تيمية وزميله في الدراسة الشيخ (علم الدين البرزالي) يقول:

«ولمّا دخل الحبس! وجدَ المحابيسَ مشغولين بأنواعِ من اللّعب، يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد، مع تضييع الصلوات، فأنكرَ الشيخُ ذلك عليهم، وأمرَهم بملازمة الصلاة، والتوجُّهِ إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، والتسـبيح والاسـتغفار والدعاء، وعلّمهم من السُّنَّة ما يحتاجونَ إليه، ورغّبهم في أعمال الخيرِ، وحضّهم على ذلك، حتى صار الحبسُ بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والرُّبُطِ والخوانق والمدارس، وصارَ خَلقٌ من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده»[2].

وفي الرابع عشـر من صفر عام ٧٠٧هـ بعد أربعـة أشهر، استُؤنفت جهودٌ للإفراج عنه، ولقيه قاضي القضاة (بدر الدين ابن جماعة) نفسه، وتكلّم معه في

---

(١) مجموعة علمية، ص٦٥.

(٢) الكواكب الدرية، ص١٨١.

الموضوع طويلاً، ولكنّه لم يرض بالخروج من السجن.

وأخيراً في الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول ذهب إليه الأمير (حسام الدين مهنا بن عيسى) ملك العرب[1] في السجن، وناشده الله، وجاء به إلى منزل نائب السلطنة، وكان الأمير حسام الدين يريدُ أن يذهبَ به إلى دمشق، ولكنَّ النائبَ أشار عليه بالإقامة في مصر لمدةٍ، حتى يعرفَ الناس بمكانتهِ العلميّة والدينيّة، ويتمكّنوا من الاستفادةِ منه.

سمو أخلاق ابن تيمية:

وتجلّى سموُّ أخلاقِ ابن تيميّة في هذه الفترة أكثر مما كان عليه، فإنّه لم يطأطئ رأسَه أمامَ أيِّ قوةٍ، ولا راودتْهُ رغبةٌ دنيويّةٌ أو منفعةٌ ماليةٌ، إنّه رفض بصراحةٍ أن يقبل أي خلعةٍ سلطانيّةٍ أو عطايا ملوكية.

وكانت مأثرتُه الأخرى أنّه عفا عن جميع مَنْ حاولوا إيذاءه، أو عارضوه فور خروجه من السجن من غير استثناءٍ وتلكؤٍ، وأعلنَ مدوّياً أنه لا مؤاخذةَ ولا عتابَ على أحدٍ، يقولُ في رسالتِه التي وجهها إلى الشام بعد الإفراج عنه:

«تعلمون رضي الله عنكم أنّي لا أحبُّ أن يؤذَى أحدٌ من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشيءٍ أصلاً، لا ظاهراً أو باطناً، ولا عندي عَتَبٌ على أحدٍ منهم، ولا لومَ أصلاً، بل لهم عندي مِنَ الكرامةِ والإجلالِ والمحبّةِ أضعافُ ما كان، كلٌّ بحسبه، ولا يخلو الرّجلُ إما أن يكونَ مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً، فالأول مأجورٌ مشكورٌ، والثاني مع أجره على الاجتهاد معفوٌ عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين، لا أحبُّ أن ينتصر من أحدٍ بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللتُ كلَّ مسلم، وأنا أحبُّ الخير لكل المسلمين،

---

(١) وكان الأمير حسام الدين أحدَ أفراد أسرة الأمراء العرب، ومن سراةِ الشام ورؤسائها الأقوياء، وكانَ أكثر اطلاعاً على مآثر ابن تيمية وجهوده الإصلاحية بالنسبة إلى المصريين، وقد بذل اهتمامه بصفةٍ خاصة في الإفراج عنه، وتأثر ابن تيمية بإخلاصه، وعلوّ نسبه، وحبهّ للحرية، فقبل اقتراحَه، ورضي بالخروج من السجن.

وأريدُ لكلِّ مؤمنٍ من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حلٍّ من جهتي[1].

التدريس والإفادة:

اشتغل ابنُ تيميّة بعدَ خروجه من السّجنِ بالتدريسِ والإفادةِ، ولم يكن الجوُّ في مصرَ ملائماً له بعدُ، وكـان العلماء والقضاة قد أذاعـوا عنه في الناس أنـواعاً عديـدةً من سـوءِ الظنِّ، فقد كانت جماعة الصوفيّـةِ ـ التي كانت تتّسم بالتوحيد الوجودي ـ مسيئةً الظنَّ به، ومتألمـةً منه، ولم تكن هناك شـخصيةٌ قويّةٌ تمثل المذهبَ الحنبلي وحده من بين المذاهب الأربعة، كما تمثّل عقيدة السلف من بين العقائد[2]، بينما وُجِدَ كبارُ العلماء والقضاة للمذاهب الأخرى هناك.

وعلى ذلك فقد عزم ابن تيميّة على الإقامة في مصر مدةً يقوم فيها بإلقاء الدروس، والإفادة العامة، وابتدأت دروسُه ومجالسُه منظّمة وغيرَ منظمة، وقد ألقى عِـدّةَ دروس عن القضايـا العلميـة والكلامية الخالصـة في مدارس القاهرة الشـهيرة، وبخاصة في الصّالحية، اسـتفادَ منها الخاصّةُ، واطلعـوا على أفكار وعقائد الأصيلة.

اسـتمرّت هذه الدروسُ والمجالـس إلى سِـتّة أشهر، اسـتفادَ منها العامة والخاصة كلُّهم فوائد علمية ودينية، وشُغِفَ النّاسُ بوجهٍ عام بإخلاصه، وذكائه النادر، وعقله الكبير، ونبوغه العلمي.

رسالة ابن تيمية إلى أمه:

لقد كان قدومُ ابن تيميّة إلى مصر! على غفلةٍ منه، وما كان يعرِفُ أنّه يمكُثُ هناك هذه المدةَ الطويلةَ، وكانت أُمُّه وأسرتُه كلُّها في الشّام تنتظِرُ عودتهَ بسلامةٍ، ولمّا أرادَ ابنُ تيميّة أن يقضي بعضَ المدّة في مصر، أخبر أُمَّه بهذه النيّة، واستأذنها

(١) ابن تيمية، محمد أبو زهرة، ص١٦٢م.

(٢) كان القاضي الحنبلي آنذاك قليل العلم ومحدود الذكاء، فكان الحنابلة ضعيفي الجانب لذلك.

في ذلك برسالةٍ تحتوي على عواطِفَ لطيفةٍ، وحُبٍّ بريءٍ، وبِرٍّ مع الأم، وطموحٍ ورجولةٍ وعزمٍ، كما أن أسلوبَها سهلٌ مطبوع، وهي جديرةٌ بأن أنقلَ جميعَها إلى القراءِ الكرام:

«من أحمد ابن تيميّة إلى الوالدةِ السعيدةِ أقرَّ الله عينيها بنعمِه، وأسبغَ عليها جزيلَ كرمِه، وجعلَها من إمائِه وخَدَمِه.

سلامٌ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه:

إنّا نحمدُ إليكم اللهَ الذي لا إلـه إلا هو، وهو للحمدِ أهلٌ، وهو على كلِّ شـيءٍ قديرٌ، ونسألُه أن يصلّي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمدٍ عبدِه ورسولهِ ﷺ، وعلى آله وسلّم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعمٍ مِنَ الله عظيمةٍ، ومنّنٍ كريمةٍ، وآلاء جسيمةٍ، نشكرُ الله عليها، ونسألُه المزيدَ من فضلِه، ونِعمُ اللهِ كلّما جاءت في نموٍّ وازديادٍ، وأياديه جَلّتْ عن التعدادِ، وتعلمـونَ أنَّ مقامنـا السّاعةَ في هذه البـلاد إنما هـو لأمـورٍ ضروريّةٍ، متى أهملناها فسدَ علينا أمرُ الدّين والدنيا، ولسنا واللهِ مختارين للبُعْدِ عنكم، ولو حملتنا الطيورُ لَسِرْنا إليكم، ولكنَّ الغائبَ عذرُه معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمورِ فإنّكم ـ وللهِ الحمد ـ ما تختارون السّاعةَ إلا ذلك، ولم نعزم على المقامِ والاستيطانِ شهراً واحداً، بل كلَّ يوم نستخيرُ الله لنـا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسألُ اللهَ العظيمَ أن يخيرَ لنا وللمسلمين ما فيه خيرٍ وعافيةٍ.

وقد فتحَ اللهُ من أبوابِ الخيرِ والرحمةِ والهداية والبركةِ ما لم يكن يخطُرُ بالبال، ولا يدورُ في الخيال، ونحنُ في كلِّ وقتٍ مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظنُّ الظانّ أنَّا نؤثِرُ على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل لا نؤثِرُ من أمورِ الدينِ ما يكونُ قرُبكم أرجحَ منه، ولكن ثَمَّ أمور كبار نخاف ضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائِبُ.

والمطلوبُ كثرةُ الدعاءِ بالخير، فإن الله يعلمُ ولا نعلمُ، ويقدّرُ ولا نقدّر، وهو عـلاّم الغيوبُ، وقال النبي ﷺ: «مِنْ سعادةِ ابنِ آدمَ استخارتُه اللهَ، ورضاهُ

بما يقسم الله له، ومن شَقَاوَةِ ابن آدمَ تركُ استخارتِه الله، وسخطِه بما يقسم الله له».

والتاجر يكونُ مسافراً، ويخاف ضياعَ ماله، فيحتاجُ أن يقيمَ حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمرٌ يجلُّ عن الوصفِ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً، وعلى سائرِ مَنْ في البيتِ من الكِبار والصِّغار والأهل والأصحاب واحداً واحداً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً».

اعتقال ابن تيميّة مرّةً أخرى:

لقد كانت مصرُ مركزاً مستقلاً لعقيدة وحدة الوجود ونظرتها، ويبدو أنّ الشاعِرَ المتصوّفَ الشهيرَ (ابنَ الفارضِ) الذي توفي عام ٦٣٢ هـ كانَ من أصحاب هذا المشرب، وفي شعرِه إشاراتٌ يُستدَلُّ منها على هذا الاتجاه، وكان ابنُ تيميّة يردُّ على هذه العقيدة جهاراً، ويعترض على هذه الأقوال والأعمال في دروسِه ومجالسه، التي كان يعتبرها فيما يرى ضد الكتاب والسنّة، ومن زيادات المتأخرين من الصوفية، إنه يذكرُ في مواضعَ كثيرةٍ من كتبه ومؤلّفاته المحققين من الصوفية، والراسخين منهم، أمثال الإمام عبد القادر الجيلاني، والشيخ عدي بن مسافر الأموي في غايةٍ من الاحترام والتأدُّبِ، ولكنّه لا يتلكأ في انتقاد معاصريه من المتصوفين والمشايخ، الذين كانوا مُعجبين فيما يعتقد بفلسفة اليونان وفلسفة الإشراق بمصر والهند.

وكان من الطبيعيِّ أن تثيرَ انتقاداتُه هذه استنكاراً في أوساط التصوف، ونهض شيخُ الطريقة في مصر المعروف بابن عطاء الله الإسكندري (صاحب الحكم) واشتكى إلى الحكام ضدَّ ابن تيمية، نيابةً عن جماعة الصوفية، كما ذهبتْ طائفة من الصوفية إلى القلعة، تشكو ابن تيمية، فلّما سمع السلطان بهذه الشكاوى أمر بعقد المجلس في دار العدل، وتحقيق هذا الأمر، وحضر ابن تيمية إلى المجلس، وتولى قضيته بنفسه، وأسكت الناسَ بدلائله وقوةِ كلامه، وأمسك السلطانُ عن إصدار أيِّ مرسوم ضِدَّه.

غير أنَّ الثورة التي قامت عليه لم تنتهِ، وكان مِنْ بين ما اتُّهِمَ به أنَّه يُعلنُ

جهاراً أنَّه لا يُستغاث إلا بالله، وحتى لا تصحُّ الاستغاثةُ بالنبي ﷺ، ولما عُرِضَتْ هذه الشكاة قال بعض العلماء: ليس عليه في هذا شيءٌ، ورأى قاضي القضاة أنَّ هذا فيه قِلّةُ أدبٍ، أمّا أن يؤدي هذا إلى الكفر، فلم يقلْ به أحدٌ، ولذلك لم يعدْ للشكوى أي أثر.

ولكن الحكومة تضجّرت من هذه الإثارات والشكاوي التي استمرت في غير انقطاع، فخيرت ابن تيمية بين ثلاثة أمور؛ إمّا أن يسيرَ إلى دمشق، أو يقيمَ في الإسكندرية بشروطٍ[1] يستوفيها، أو يختار الحبسَ، فاختارَ الحبسَ، فألح عليه جماعةٌ من تلاميذه وأنصاره أن يسافر إلى دمشق، فأجابهم جبراً لخواطرهم، وتوجَّه إليها ليلة ١٨ من شوال سنة ٧٠٧هـ، ولكنّه ردَّ في نفس اليوم إلى مصر، وقيل له: إنّ الدولة ما ترضى إلا بالحبس، غير أنَّ القضاة والعلماء كانوا مرتبكين في حبسه، إذ لم يثبتْ عليه شيءٌ، وقد صاح القاضي المالكي شمس الدين التونسي، وقال: لم يثبتْ عليه شيءٌ يبرِّرُ حبْسَهُ، وكان نور الدين المالكي متردِّداً في هذا الأمر فسكت.

ولما رأى الشيخ ابن تيمية صراع العلماء والقضاة الفكري حكم لنفسه بالحبس، فقال نور الدين الزواوي: يكونُ في موضعٍ يصلحُ لمثله، فقيل له: الدولةُ لا ترضى إلا بمسمى الحبس، فأُرسل إلى حبس القضاةِ، وأُذنَ له أن يكون عنده من يخدمه.

واستمرّ الشيخُ ابن تيميّة في الحبس يُستفتى، ويقصده الناس، ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلةُ، التي لا يستطيعها الفقهاء، من الأمراء وأعيان الناس، فيكتب عليها بما يحيّرُ العقولَ من الكتاب والسنة.

وبعْدَ مُدةٍ عُقدَ مجلسٌ للشيخ في الصالحية، وأفرجَ عنه نزولاً على رغبة الفقهاء والقضاة، فاستقبله الناسُ بحماسٍ وحرارةٍ، وأكبّوا على الاجتماع به ليلاً ونهاراً[2].

---

(١) ولعلّ مِنْ أهمّ الشروط: ألا يدعو الناسَ إلى اعتناقِ معتقداته بوجهٍ عام.
(٢) اقرأ التفاصيل في البداية والنهاية: ١٤/ ٤٦.

التطوراتُ السياسيةُ، وابن تيمية يواجهُ الشدائدَ:

فوجئتْ مصر بتطوّرات وتغييراتٍ سياسيةٍ أحدثتْ لابن تيمية مشكلاتٍ جديدة، وانتهز المعارضون هذه الفرصة للتآمرِ عليه، بحريةٍ تامةٍ، وكان (الناصر ابن قلاوون) لا يزال سلطان مصر والشام، وهو الذي كان مُعْجباً بعلمه وإخلاصه يعطف عليه، فإنّ ابن تيمية هو الذي كان قد حمله على مقاومة التتر، فكان قد شاهدَ بنفسه شجاعتَه، وقوّةَ إيمانه واستقامتَه.

وفي سنة ٧٠٨هـ اعتزل السلطانُ السلطنة لأسبابٍ كثيرةٍ بعثت فيه التشاؤم، واقتنع بالإقامة في الكرك ورقعة مملكته المحدودة فيها.

وتخلّى عن عرش مصر لركن الدين (بيبرس الجاشنكير)، فأعلن بسلطنته المستقلة، ومن ثمّ أصبح ركن الدين الحاكمُ المستقل لمصر والشام، وصار الشيخ (نصر المنبجي) المربيّ الروحي لهذه المملكة الكبيرة، ومستشارها الخاص.

أما ابن تيمية فكان يُعتَبرُ من أنصار السلطان (ناصر بن قلاوون) عدا ما اشتُهر به من عقائد وتحقيقات دينيّة تضادّ اتجاهات الشيخ نصر المنبجي تماماً، ولذلك فقد اجتمعتِ العواملُ الدينية والسياسية لتنفيذ الأحكام ضده.

وفور هذا التغيير الذي حدثَ في سياسية الدولة صدر مرسوم ملكيٌ لنفي (ابن تيمية) إلى الإسكندرية، وحبسه هناك، فقد أُرسِلَ إلى الإسكندرية في اليوم الأخير من صفر سنة ٧٠٩هـ ويقال: إنّ الغرضَ من توجيهه إلى هذه المدينة الجديدة التي كانت تُعْتبرُ مركزَ التصوّف والصوفية القديم، أن يتصدى له بعضُ من يغتاله، وتنجو الدولةُ من هذا الصُّداع المتكرّر من غير اتهامٍ أو سوءِ سمعةٍ.

ولكن سُرعان ما اجتمع لديه حلقة من تلاميذه والمعجبين به، وتزايدَ إقبالُ العامّةِ عليه، فلم يؤثر الصمتَ والتعطيلَ على الكلام والعمل، وشغلَه نشرُ تعاليم الكتاب والسنة، والردّ على البدع والمنكرات عن كل شيء، وبدأ الناس يحبونّه ويكرمونه، حتى أحرزَ قبولاً عاماً بينهم، يقولُ شقيقه شرف الدين ابن تيمية، الذي كان رفيقَه ومشاركه في الحبس في رسالةٍ بعث بها إلى أهل دمشق:

«وانقلب أهلُ الثغر أجمعون إلى الأخ، مقبلين عليه، مكرّمين له، وفي كلّ وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما تقرُّ به عينُ المؤمنين، وذلك شجىً في حلوق الأعداء.. واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أميرٍ وقاضٍ وفقيهٍ ومفتٍ وشيخٍ وجماعة المجتهدين ـ إلا من شذّ من الأغمار الجهال، مع الذلّة والصغار ـ محبة الشيخ وتعظيمه، وقبول كلامه، والرجوع إلى أمره ونهيه»[1].

ووُجِدَ بالإسكندرية في ذلك الحين غلبةٌ لأفكارِ (فرقة السبعينية) ووحدة الوجود، وكان هناكَ بعضُ دعاتها المتحمّسين، حتى نالت هذه الأفكار قبولاً في أوساط العامّةِ أيضاً، فكان لها تأثيرٌ سيءٌ في أخلاقِهم وأعمالِهم، وأنتجت فيهم انطلاقاً في أمور الشريعة وحرية فيها، فقاوم ابنُ تيميّة هذا الاتجاه بشدة وحماس، وردَّ أفكار هؤلاء الدعاة، ومزّقَ كلمتهَم، فشتت جمعَهم، وفرّقَ شملهم، وذلك في فترة إقامته فيها، التي لا تجاوِزُ ثمانيةَ أشهر، وأعرضَ عنهم العامة والخاصة، واستتابَ جماعةً كثيرة منهم، وتاب رئيسٌ من رؤسائهم كبير.

وكان مقرُّ ابنُ تيميّة في الإسكندرية متّسِعاً نظيفاً مليحاً، له شباكان، أحدُهما إلى جهةِ البحر، والآخر إلى جهة المدينة، وكان يدخل عليه من شاء، ويتردّدُ إليه الأكابر والأعيان والفقهاء، يقرؤون عليه، ويستفيدون منه[2].

انقراض أمر ركن الدين الجاشنكير:

كان الشيخ ابنُ تيميّة يتنبأ أحياناً عن نهاية أيام (الجاشنكير) وشيخِه (نصر المنبجي) ويقول: «زالت أيامه، وانتهت رئاسته، وقرب انقضاء أجله» وما كان قد مرَّ على حكمه عام واحد، إذ قرّر السلطان (ناصر بن قلاوون) العودة إلى الحكم، فتوجّه إلى دمشق في ١٣ من شعبان سنة ٧٠٩هـ، واستقبله أهل دمشقَ ـ الذين كانوا يحبّونه ـ بحماس بالغ، ودخل دمشق في ١٧ من شعبان في أبهة عظيمة، وتوجّه من دمشق إلى مصر، حيث أعدَّ أهلُها إعدادات كبيرة لاستقباله.

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ولمّا رأى ركن الدين (الجاشنكير) أنّ الأحوال تنقلبُ، استقالَ عن الحكم، ودخل ركبَ السلطان في مصر.

وفي ٧ من ذي القعدة قبض عليه الأمير سيف الدين نائب الشام وقُتل في مصر.

والمؤرّخون متفقون على أنّ (الجاشنكير) كان مقبولاً لدى الناس أيام نيابته، كما كان راجحَ الجانب، ذا هيبة ووقار، وقد بدأت سلطنته المستقلة وخذلانه في وقت واحد، فقد انتهت هيبته، وزالَ نجمُه الطالع منذ إعلانه بالسلطنة، وابتدأ زوال دولته، وظل يتفاقم أمره فساداً، وحكمه اضطراباً، تحدّث عنه مؤرخ مصر الكبير (المقريزي) فقال:

«وكان رحمه الله خيّراً عفيفاً كثير الحياءِ وافرَ الحرمةِ، جليل القدرِ، مُهابَ السطوة، في أيام إمارته، فلمّا تلقّب بالسلطنة، ورسم باسم الملك اتضع قدره، واستضعف جانبه، وطمع فيه، وتغلّب عليه الأمراء والمماليك، ولم تنجحْ مقاصِدُه، ولا سعد في شيء من تدبيره إلى أن انقضتْ أيامُه، وأناخَ به حِمامُه»[1].

ولا عجبَ أن يكونَ انقراضُ دولةِ (الجاشنكير) من غير أسباب مسبقة نتيجة إيذائه لرجلٍ مخلصٍ كبيرٍ، ومعارضته له، وتفسيراً لما قاله الشاعر الفارسي، ومعناه:

«كم جرّبنا في عالم المكافأة أنّ من حاربَ عبداً مخلصاً لله تعالى تفانَى في دعوته، وهجرَ فيها راحتَهَ ولذّتَه، انطمسَ وقُضِيَ عليه بالزوال».

الإفراج عن ابن تيمية، والحفاوة الملكية:

يقولُ الشيخ (علم الدين البرزالي) معاصر الشيخ ابن تيمية: إنّ السلطان لمّا دخلَ إلى مصر يومَ العيد لم يكن له همٌّ إلا أن يفرّجَ عن ابنِ تيميّة، ويؤتى به مصرَ معزّزاً مكرّماً مبّجلاً، فوجَّه إليه في الثاني من شوال ٧٠٩هـ يطلبه إلى مصر.

---

(١) خطط مصر: ٤١٨/٢.

في ٨ من شوال [غادر ابن تيمية الإسكندرية] وودّعه خلقٌ كثيرٌ في إجلالٍ كبيرٍ واحتفاءٍ بالغ، ولما وصل إلى البلاط الملكي مشى إليه السلطان خطوات، واستقبله في مجلسٍ حافلٍ، فيه كبارُ علماءِ مصرَ والشام وقضاتهما، يتحدّث عن هذا القدوم، واستقبال السلطان إيّاه القاضي جمال الدين ابن القلانسي قاضي الجيش الذي كان حاضراً في المجلس يومَ ذاك، وشاهدَ الأمورَ بنفسه، يقول:

«إنّ السّلطانَ لما قَدَمَ عليه الشيخُ تقيُّ الدين ابن تيميّة نهضَ قائماً للشيخ أوّلَ ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان، واعتنقا هناك هنيهةً، ثم أخذَه معه ساعةً إلى طبقةٍ فيها شبّاك إلى بستان، فجلسا ساعةً يتحدّثان.

ثم جاء ويدُ الشيخِ في يدِ السلطان، فجلسَ السلطانُ وعن يمينه (ابنُ جماعة) قاضي مصر، وعن يساره (ابن الخليلي) الوزير، وتحته (ابن صصري)، ثم (صدر الدين علي الحنفي)، وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية بين يدي السلطان على طرف طرّاحته، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم[1]، وأنّهم قد التزموا الديوان بسبعمئة ألف في كلِّ سنةٍ زيادةً على الحالية، فسكتَ النّاسُ، وكان فيهم قضاة مصر والشام، وكبار العلماء من أهل مصر والشام، من جملتهم ابن الزملكاني، قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلّم أحدٌ من العلماء ولا من القضاة، فقال لهم السلطان:

---

(١) توصّلَ علماءُ الإسلام في ضوءِ بعض التجارب الماضية إلى أنّه لا بدَّ من وجودِ علائم في لباس الرّعيةِ غيرِ المسلمة في المملكة الإسلامية، فقد بقيَ في مِصْرَ والشام بعد الحروب الصليبية عددٌ لا بأسَ به من المسيحيين، الذين كانوا قد قدموا من الخارج، ويعملون كجواسيسَ للأجانب تطوّعاً، كما أنّهم كانوا ينشرون عدوى تقاليدِهم في المجتمع المسلم، وكتبَ ابنُ كثير في أحداث ٧٢١هـ: «وقع حريقٌ عظيمٌ في ٦ جمادى الأولى في القاهرة، في الدور الحسنة، والأماكن المحلية المرتفقة وبعض المساجد، وحصل للناس مشقةٌ عظيمةٌ من ذلك، وقنتوا في الصلوات، ثم كشفوا عن القضية، فإذا هو مِنْ قِبَلِ النصارى.. فقتل السلطانُ بعضَهم، وألزمَ النصارى أن يلبسوا الزرقاءَ على رؤوسهم وثيابِهم كلها»، ولما عاد السلطان الناصر حاول النصارى أن ينسخوا هذا القانون.

ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يجبْ أحدٌ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه، وتكلّم مع السلطان في ذلك بكلام غليظٍ، وردَّ على الوزير ما قاله رداً عنيفاً، وجعلَ يرفَعُ صوتَه والسلطان يتلافاه، ويسكته برفق وتؤدة وتوقير، وبالغَ الشيخُ في الكلام، وقال ما لا يستطيعُ أحدٌ أن يقولَ مثلهِ، ولا بقريبٍ منه، وبالغ في التشنيع على من يوافق في ذلك، وقال للسلطان: «حاشاك أن يكونَ أول مجلسٍ جلستَه في أُبّهة الملك تَنْصُرُ فيه أهلَ الذِّمـةِ لأجلِ حطام الدنيا الفانيـة، فاذكرْ نعمةَ الله عليك إذ ردَّ ملكك إليكَ، وكبتَ عدوَّك، ونصركَ على أعدائك».

فذكر أنّ (الجاشـنكير) هـو الذي جدد عليهم ذلك، فقال: «والذي فعلـه الجاشنكير كان من مراسيمك، لأنّه إنّما كان نائباً لك» فأعجبَ السلطان ذلك، واستمرّ بهم على ذلك»[1].

اتّباعُ سنَّةِ يوسفَ عليه السلام في مصر:

يقول ابن القلانسي: إنّ ابن تيميَّةَ حدّثه قال: إنّ السلطان استفتاه في قتل بعضِ القضاةِ، بسبب ماكانوا تكلّموا فيه، وأخرج فتاوى بعضِهم بعزله من الملك، ومبايعة (الجاشنكير) وأنّهم قاموا عليك، وآذوك أنت أيضاً، وأخذَ يحثُّه بذلك على أن يفتيه في قَتْلِ بعضهم، ففهمتُ قصدَه بذلك، فأخذتُ في تعظيم أولئك العلماء والقضاة، وأُنكِرُ أن يُنالَ أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلتَ هؤلاءِ لا تجدُ بعدَهم مثلهم.

فقال: إنّهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً.

فقلت له: مَنْ آذاني فهو في حِلٍّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقمُ منه، وأنا لا أنتصرُ لنفسي، وما زلتُ به حتى حلمَ عنهم السلطانُ وصفحَ.

ويقول ابن كثير: «كان قاضي المالكية ابنُ مخلوف يقول: ما رأينا مثلَ ابن تيميّـة، حرّضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدرَ علينا، فصفحَ عنّا وحاججَ عنّا»[2].

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

(٢) المصدر السابق.

ثم إنّ الشيخ بعد اجتماعِه بالسلطان نزلَ إلى القاهرة، وعاد إلى بَثِّ العلم ونشره، وأقبلتِ الخلقُ عليه، ورحلوا إليه يشتغلون عليه، ويستفتونه، ويجيبهم بالكتابة والقول، وجاءَ الفقهاء يعتذِرون مما وقع منهم في حقه، فقال: قد جعلتُ الكلَّ في حِلٍّ.

ولمّا اطمأنّ الشيخُ، واستقرت به الحال، بعثَ كتاباً إلى أهلِه يذكرُ فيه ما هو فيه من نِعَمِ الله، ويطلبُ منهم جملةً من كُتُبِ العلم.

ولمّا رأى خصومُ ابنِ تيميّة أن مكانتَه ارتفعتْ، وصفتْ حياتهُ أكثر من ذي قبلُ، وعجزوا عن تحريض النّاس عليه في مسألة علمية، اتجهوا إلى العامة يحرّضونهم، ولقد كان تحريضهُم عليه في مصر - حيثُ لم يكن الناسُ عارفين بمكانته - أسهلَ شيءٍ، فحدث في الرابع من رجب سنة ٧١١هـ أن انفردَت به جماعةٌ بتحريضِ خصومه، فامتدت أيديهم الأثيمة إليه بالضَّرْبِ، ولكنَّ سُكّانَ الحسينية (حيث رأس سيدنا الحسين مدفون كما هو المشهور لدى العامة) تجمّعوا ليثأروا للشيخ، فردَّهم، ولم يأذنْ لهم بذلك، وقال لهم:

«إمّا أنْ يكونَ الحقُّ لي أولكم أو لله، فإنْ كانَ الحقُّ لي فهم في حِلٍّ منه، وإن كانَ لكم، فإن لم تسمعوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإنْ كانَ الحقُّ للهِ، فاللهُ يأخذُ حقَّه إن شاء الله».

وفي أثناءِ هذه المناقشة حضرَ وقتُ العصرِ، فذهب ليصلّي في الجامع، فنهوه عن ذلك حتى لا يؤذَى ثانية، فلم يلتفت إلى قولهم، ومضى إلى المسجد، وتبعته جماعة كبيرة من الغاضبين له.

وحدث له بعد ذلك أنْ أساءَ إليه بعضُ الفقهاء بالقولِ، ثم اعتذرَ إليه، ولعلّه اعتذرَ خوفاً من بطش السلطان أو الناس، ولكنَّ الشيخ على أي حال عفا وقال: لا أنتصرُ لنفسي[1].

---

(١) ابن تيمية، محمد أبو زهرة، ص٧٤.

ولـم يكتفِ الشيخُ ابنُ تيميّة خلال إقامته في مصر بالبحث والتدريس ونشر الكتاب والسنة، بل انتهزَ فرصة اتصالِه بالسلطان، فأشارَ عليه في بعض الأمور، وأصدرَ منه بعضَ الأوامر، مما كان له تأثيرٌ حَسَنٌ، وفائدةٌ كبيرةٌ، يقول ابنُ كثير:

«وفيها ـ سنة ٧١٢هـ ـ قدم كتابٌ من السلطان إلى دمشق، أن لا يولّى أحدٌ بمالٍ ولا رشوة، فإنَّ ذلك يفضي إلى ولايةِ مَنْ لا يستحق الولاية، وإلى ولايـة غير الأهل، وكان سببُ ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله.

وكذلك جاء كتاب السلطان أنَّ مَنْ قتل لا يجني أحد عليه، بل يتبع القاتل حتى يقتصَّ منه بحكم الشرع الشريف، وكان سببُه ابن تيمية أيضاً.

العودةُ إلى دمشق:

وفي شوال سنة ٧١٢هـ كانت الأخبار تتواردُ عن عزم التتر على الهجوم، وأخيراً قضى السـلطانُ بخروجه عن مصرَ، ومقاوتهم بنفسه، وفي ٨ من شـوال توجَّه إلى دمشق، دخل فيها في ٢٣ من شوال، وكان ابن تيمية يصحبُ السلطان في هذه الرحلة، وكان يعودُ فيها إلى وطنه الحبيب بعدَ سبع سنين كاملة، فاستقبله الناسُ بحماس زائد، وأبدوا سرورهم بقدومه، وقد خرج عدد كثير من النساء فضلاً عن الرجال لرؤيته، وكانت رحلتُه هذه بنية الجهاد، ولكنه علم بعدَ مقدمِه إلى دمشق، أنَّ التتر عادوا راجعين، فنوى الشيخ زيارة بيتِ المقدس من دمشق، وبعد ما مكث هناك مدةً من الزمان، عاد إلى دمشق زائراً بعضَ البلدان الأخرى، وانهمك في عمله، وعكف عليه كاملَ العكوف.

شغفُ شيخ الإسلام بالأحكام الفقهية:

ولـو أنَّ ابن تيميـة بعد رجوعه إلى دمشـق في هذه المرة كان قد عاد إلى وظيفته القديمة من الأشغال العلمية والدينية والتربوية، وبدأ بالتدريس والإفتاء والتأليف كما هي عادته، غير أنّه انصرف في هذه المرة إلى دراسة الأحكام الفقهية وفروعها بوجهٍ خاصٍّ، بينما كانتِ العقائد والأصول والمسائلُ الكلامية مجالـهُ الأول، تلك التي كانت موضع خلافٍ بين الأشاعرةِ والحنابلةِ.

ويبدو أنَّ الشيخَ أدرك أنَّ الموضوع الأول قد أشبعه وفرة معلومات ودلائل، وأنَّ الحقَّ اتضحَ كالشمسِ في رابعة النهار بمواعظه ودروسه وتأليفاته، فلا بدَّ من الالتفاتِ إلى جانبٍ مهمٍّ آخر، حيثُ يمكنُ استخدامُ خصائصِه العلمية ومواهبِه الطبيعية، وهو الفقه الإسلامي من غيرِ شكٍّ.

لقد كانتْ أسرةُ ابن تيميّة متمسّكةً بالمذهب الحنبلي، ولذلك فإنّ معظمَ فتاويه تُبتنَى على المذهب الحنبليّ(1)، إلا أنّه لم يتقيّدْ بالمذهب الحنبلي مئة في المئة، إذ كانَ من الصّعبِ جداً أن يفعل ذلك بعد ما أوسعه الله اطلاعاً على ذخائر الكتاب والسنّة واستحضاراً للمذاهب الفقهية وأصولها ودلائلها، فكان يرجِّحُ بعض الأحيان المذهبَ الذي يراه أقوى دليلاً من الكتاب والسنة، وأقرب إليهما بالنسبة إلى المذاهب الأخرى، ويجدُ أنّه يَنَالُ تأييدَ الجمع الكبير من الصحابة والتابعين.

إنَّ شيخ الإسلام كان شديدَ الاعترافِ بعلوِّ مكانة الأئمةِ الأربعةِ، وحُسْنِ اجتهادِهم ودينهم وورعهم، وتفوّقهم العلمي ـ على تبحره في العلم وقوة استنباطه واستقلال فكره ـ كان يعتبرهم طلاب الحق، ومتبعي السنة، وراسخي العلم، الذين كان مصدر اجتهادهم الكتاب والسنة ونصوصهما، والإجماع والقياس الشرعي، وقد كانوا في ذلك متبعين لا مبتدعين.

ولذلك فقد كان ابنُ تيميّة يكرَهُ الذي يتناوَلُ هؤلاء الأئمة الأعلام بالنقد والطعن، وقد ركّزَ عنايته بالإشادة بذكرهم، والانتصارِ لهم، والحدِّ مِنْ ألسنة المعترضين المنتقدين، فألف رسالتَه الشهيرة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) التي تُعتبرُ من أحسنِ ما أُلِّفَ في هذا الموضوع؛ إنّه يقول في فاتحة الرسالة:

«يجبُ على المسلمين بعدَ موالاةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، موالاةُ المؤمنين، كما نطق به القرآنُ، وخصوصاً العلماء، الذين هم ورثةُ الأنبياءِ، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدَى بهم في ظلماتِ البرّ والبحر، وقد أجمعَ المسلمون على

---

(1) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١ ـ ٥.

هدايتهم ودرايتهم، إذ كلُّ أمةٍ قبلَ مبعثِ محمّدٍ ﷺ علماؤها شرارُها إلا المسلمين، فإنّ علماءَهم خيارُهم، فإنّهم خلفاءُ الرّسول ﷺ في أمتِه، والمحيون لما ماتَ من سُنَّتِه، بهم قام الكتابُ وبه قاموا، وبهم نطقَ الكتابُ وبه نطقوا.

وليعلم أنّه ليس أحدٌ من الأئمّةِ المقبولين عندَ الأمةِ قبولاً عاماً يَعْتَمِدُ مخالفةَ رسولِ الله ﷺ في شيءٍ من سنةٍ دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنّهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوبِ اتباع الرّسول ﷺ، وعلى أنَّ كلّ أحدٍ من الناس يؤخَذُ من قولِه ويتركُ إلا رسول الله ﷺ، وإذا وُجِدَ لواحدٍ منهم قولٌ قد جاءَ حديثٌ صحيحٌ بخلافِه، فلا بدَّ له من عذرٍ في تركه، وجميعُ الأعذارِ ثلاثةُ أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أنّ النبيَّ ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقادُه أنَّ ذلك الحكم منسوخ.

مسألة الطلقات الثلاث:

وعلى ذلك كلّه، فإنّه كمارجّحَ المذاهبَ الأخرى على المذهب الحنبلي، وخرج عن نطاقه بعض الأحيان، وخالفَ الأئمة الأربعة كذلك في بعضِ المسائلِ أحياناً، وأفتى مخالِفاً لهم، واتّبَعَ فيها نصوصَ الكتاب والسنة ودلائلهما، ولكن هذه المسائل التي خالفَ الأئمة الأربعة فيها لا تعدو عِدّةَ مسائل، ولكنَّ أشهرَها مسألةُ الطلقات الثلاث في مجلسٍ واحدٍ.

مسألة: إذا طلّقَ أحدٌ زوجتَه ثلاثَ طلقاتٍ في مجلسٍ واحدٍ(سواءٌ بلفظٍ واحدٍ أو بألفاظ متعددةٍ) فما ارتكبَ المطلِّقُ بدعةٌ باتفاق الأئمة وجمهور الأمة، وخالف الشرع وأثم، ولكن ما حكُم هذه الطلقات؟ هل وقعتْ وبانتِ المرأةُ، واستحالتِ الرّجعةُ بحكم الشريعة ما لم تتزوّجْ رجلاً آخرَ يتمتّعُ بها ويطلِّقُها؟ أو أنّ هذه الطلقاتِ الثلاث تعتبَرُ واحدة، وتمكنُ الرجعةُ.

فمذهب الأئمة الأربعة وأئمة الفقه والحديث (الأوزاعيّ، والنخعيّ، والثوريّ، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والبخاريّ) وجمهور الصحابة

والتابعين، أنَّ هذه الطلقات تقعُ، غير أنَّ المطلِّقَ ارتكبَ بفعلهِ هذا بدعةً ومعصيةً، يقول الإمامُ النووي في (شرح مسلم):

«وقد اختلفَ العلماءُ فيمنْ قالَ لامرأتهِ: أنتِ طالقٌ ثلاثاً، فقال الشافعيُّ ومالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء من السلف والخلف: يقعُ الثلاث».

ويقول العلامة ابن رشدٍ في (بداية المجتهد): «جمهورُ فقهاء الأمصار على أنَّ الطلاقَ بلفظِ الثلاث حكمه حكمُ الطلقة الثالثة».

كما يقول العلامة ابن قيم الجوزيّة تلميذ ابن تيمية في كتابه (زاد المعاد): «وهذا قولُ الأئمة الأربعة وجمهور التابعين وكثير من الصحابة».

إنّ أقوالَ هؤلاء الأعلام، تستندُ إلى عدَّةِ أحاديثَ مرفوعة تثبت أنَّ النبيَّ ﷺ اعتبرَ هذه الطلقات الثلاث، أو أكثر، ثلاث طلقات وأفتى ببينونة المرأة[1].

أما مذهبُ شيخُ الإسلام ابن تيمية، وبعض أصحابه وتلاميذه، فهو أنَّ هذه الطلقات الثلاث إنّما تعتبرُ واحدةً، ويمكنُ معها الرّجعة، مثلما يمكن الرّجل أن يرجعَ إلى زوجته التي طلقها طلقةً واحدةً، إنه يقول: «وهذا القول منقولٌ عن طائفة من السلّفِ من أصحابِ رسول الله ﷺ مثل الزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، ويُروى عن علي، وعن ابن مسعود، وابن عباس، وهذا قول داود وأكثر أصحابه، ويروى عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين وابنه جعفر الصادق، ولهذا ذهبَ إلى ذلك مَنْ ذهب من الشيعة[2].

ويستدلُّ شيخ الإسلام لتأييد مذهبهِ وإثباتهِ بالقرآن والسنة والقياس[3].

وفي الحقيقة إنّ شيخ الإسلام كان السبب في ظهور هذه المسألة واشتهارها،

---

(١) تكلّم الفريقُ الثاني في إسنادِ ومتونِ هذه الأحاديث، ولكنَّ الفريق الأول ردَّ على ذلك على أسلوب المحدّثين.

(٢) فتاوى ابن تيمية: ٣/ ٦٢.

(٣) وللاطلاع على البحث والاستدلال بتفصيلٍ راجع (زادَ المعاد) للحافظ ابن القيم، مبحث (من طلّقَ ثلاثاً بكلمةٍ واحدةٍ) ج ٤، و(إغاثة اللهفان).

وإليه يرجعُ الفضلُ في ذلك، سواءٌ تفرّدَ هو بذلك، أم كان من السلف مَنْ يرى فيها هذا الرأي، إنّه هو الذي حملَ رايتها، ولمّا أبدى رأيه وتحقيقه فيها أثار ذلك استغراباً واضطراباً في الأوساط الفقهية.

مسألة الحلف بالطلاق واعتقاله:

وعلى كلٍّ فإنَّ مسألة الطلقات الثلاث إنّما كانت مسألةً فقهيةً خالصةً، تختصُّ بحياةِ الرَّجلِ المنزلية، وكانت تؤثر على حياة أسرة واحدة، ولكنَّ المسألة الثانيةَ التي خالفَ فيها المذاهب الأربعة والمذهبَ المشهور، والتي كان يتعدّى تأثيرها إلى المعاملات والسياسة، وعلاقات الدولة والرعية كانت مسألة الحلف بالطلاق.

وقد كان الحلف بالطلاق عاماً بين الناس في ذلك الحين، إذ كانوا يستندون إلى الحلف بالطلاق للتأكيد على كلامٍ، أو إبداءِ عزمٍ، أو صدقٍ من غير تردُّدٍ ولا تكلُّفٍ، فمثلاً كانوا يقولون: «عليّ الطلاق لأفعلنَّ كذا»، «عليّ الطلاق لأمتنعنّ عن كذا»، «علي الطلاق لتفعلنَّ كذا»، «عليّ الطلاقُ اشتريتُها بكذا»!.

كان ابن تيمية يرى أنَّ هذا أسلوبٌ من القسمِ أو التأكيد، ولكنَّ الناس إنّما يطلقون كلمة الطلاق لزيادةِ التأكيدِ واليقينِ، من غير أن يريدوا بها الطّلاقَ في أيِّ حالٍ، ولذلك فإنّ هذا نوع من القسم، ولكنّه تنفّذُ عليه أحكامُ الطلاق من أجلِ اعتبارهم ذلك الطلاق بالتعليق، وذلك ما يسببُ خرابَ مئات من الأسرِ والبيوتات، واضطرابِ الحبل في الحياة المنزلية.

وقد أدخلت في صيغة البيعةِ كلماتُ الطلاقِ لتثبيت البيعة وتأكيدها منذ عهدِ الحجّاج بن يوسف، حتى إنّ هذه الكلمات صارتْ جزءاً من البيعة، وذلك كأنْ يقول: «لو أنني خرجت عن بيعةِ فلانٍ فزوجتي طالق».

تأمّلَ ابن تيمية في هذه المسألة، وبدأ يفتي بأنّ هذا نوعٌ من الحلف، وأنَّ القائل يحنثُ إذا خالفَ قولَه وعملَ بخلافه، وتلزمُ عليه كفّارةُ اليمين من غير أن يقع الطلاقُ.

وليت أنَّ ابن تيمية قدّم أقوال بعضٍ من الأئمة الأربعة وأصحابهم لتأييد

فتواه[1]، ولكن الحقيقة أنَّ هذه الفتوى إنّما كانت تعارضُ القولَ المشهور والمفتى به لهذه المذاهب، وكان يبدو ذلك تحقيقاً جديراً، واجتهاداً صريحاً، ولذلك فإنّها أثارت اضطراباً عاماً، ورأى العلماءُ والقضاةُ أن يمنعوه عن هذه الفتوى، لكيلا يشتدَّ الاضطراب، يقول ابن كثير ضمن أحداث عام ٧١٨هـ:

«وفي يوم الخميس منتصف شهر ربيع الأول اجتمعَ قاضي القضاة شمس الدين ابن مسلم الحنبلي بالشيخ الإمام العلاّمة تقي الدين ابن تيمية، وأشار عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فقبِلَ الشيخُ نصيحتَه، وأجاب إلى ما أشار به رعايةً لخاطره وخواطرِ الجماعةِ المفتين.

ثم وردَ البريدُ في مستهل جمادى الأولى بكتابٍ من السلطان فيه منعُ الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، وانعقدَ بذلك مجلس، وانفصلَ الحال على ما رسم به السلطانُ، ونوديَ به في البلد، وكان قبلَ قدومِ المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعةٌ من المفتين الكبار، وقالوا له: أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق، فقبل الشيخ نصيحتَه، وإنه إنّما قصد بذلك ترك ثوران فتنةٍ وشرٍّ»[2].

ويبدو أنّه بعد صدور المرسوم ازداد ثقة وطمأنينة في هذه المسألة، وبدأ يفتي فيها حسبَ ما تحقّقَ له من غير أن يبالي بأي منع من قبل الحكومة، ظنّاً منه أنَّ الحكومة ليس لها حقُّ التدخل في هذه المسألة، ولا يجوز لأيِّ عالمٍ أن يخفي عقيدته وعلمه خوفاً من الحكومة، يتحدث ابنُ كثير في أحداث عام ٧٢٠هـ فيقول:

«وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب عقد مجلس بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة، وحضر فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ، وعاتبوه على العودة إلى الإفتاء بمسألة الطلاق، ثمّ

---

(١) راجع كتاب ابن تيمية للشيخ محمد أبي زهرة، مبحث الحلف بالطلاق، ص٤٣٦ـ٤٣٧.
(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٨٧.

حُبسَ في القلعة»[1].

ولكنّ مُدّةَ الحبسِ هذه لم تَطُلْ كثيراً، وورد مرسومٌ من السلطان من مصر بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء من عام ٧٢١هـ بعد ما مكث فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.

مسألة زيارة قبر النبيّ ﷺ واعتقاله الأخير:

اشتغل ابن تيمية من عام ٧٢١ ـ ٧٢٦هـ خمس سنين بالتدريس والإفتاء والتأليف والوعظ بكلِّ حرية وانهماك بالغ، فكثيراً ما كان يدرّس خلال هذه المدة في المدرسة الحنبلية، أو مدرسته الخاصة به[2] الواقعة في القصاعين، كما أنّه أعاد النظرَ خلال ذلك في مؤلفاته ورسائله القديمة، وقام بتأليفات جديدة.

ولعلّه كان يتمكّنُ من إنجاز أعمالٍ مفيدةٍ جداً في هذه المدة، وإخراج مؤلفاتٍ كبيرةِ القيمة في موضاعات مهمة، غيرَ أنَّ تفوّقَه العلمي، وتفرُّده في بعض المسائل سبّبَ له ولمعاصريه امتحاناً يدفعُ ثمنَه وغرامته بين فينة وأخرى، وعلى ذلك ما كان يتيسر له الهدوء إلى مدة طويلة، فما كاد يمضي إلا مدة قليلة إذ عرضتْ مسألةٌ أخرى كانتْ موضعَ بحثٍ وجدالٍ بين الخاصّةِ والعامة على السواء، وهي لم تكنْ مسألةً فقهيةً خالصةً كمسألة الطلاق، بل كانت تحتوي على العنصر العاطفيّ، وتكفي لإثارة الاضطراب في النفوس، وهي مسألة زيارة قبر النبي ﷺ.

وقد كان ابن تيمية أفتى قبل سبعةَ عشرَ عاماً بأنَّه لا يجوزُ شدُّ الرِّحالِ لزيارة القبور بما فيها قبر النبيِّ ﷺ، وذلك لأنّه جاءَ في الحديث الشريف: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجدَ، المسجدِ الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»، ثم إنّه يفيضُ حسبَ عادته في بيان الحكم الشرعيّة في ذلك، وما في خلاف ذلك من المضار والمفاسد، إنَّ كلامه يتلخّص في أنّ الاهتمام الشديد

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٩٧.

(٢) المدرسة السكرية. (الناشر)

بالسفر لزيارة القبورِ يفتحُ الأبوابَ والأعمال التي قد تفضي إلى الشركِ، ويعتقد كثيـرٌ من الناس أنَّ مثل هذه الزيـارة عبادةٌ وذريعةٌ إلى التقرّب إلى الله، وعندما يفعلون ذلك يتعدون حدودَ الشريعة، وينفلتُ منهم حبْلُ التوحيدِ[1].

وقـد كـان النبيُّ ﷺ شـديدَ الاهتمام بحفظِ قبـره من العادات والتقاليـد الجاهلية، التي كانتْ شائعةً منتشرةً بين اليهود والنصارى، حتى قال:

«لعنَ اللهُ اليهودَ والنّصارَى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»[2]، وابتهلَ إلى اللهِ تعالى فقال: «اللهمَّ لا تجعلْ قبري وَثناً يُعْبَدُ، اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»[3]، وقال أيضاً: «لا تتخِذوا قبري عيداً، وصَلّوا عليَّ فإنّ صلاتكم حيثما كنتم تبلغُني»[4].

ولذلـك لم يحب النبيُّ ﷺ أن يـدفنَ في الصحراء، وإنّما دُفنَ في حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي هي مكانٌ حريزٌ، وذلك لكي يُصانَ قبرُه مِنْ جميع الأخطار، ولا يسمحَ للناس بالرحلة إليه وزيارته أفواجاً، إلا الذي يأتي إلى المسجد النبويِّ للصلاة فيه، يزور القبرَ الشريف بالطريق المسنون، ويصلِّي ويسلّم على النبي ﷺ كما كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يفعلون[5].

---

(١) نقل ابن عبد الهادي في (الصارم) عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قوله: وقد ذكرت فيما كتبت من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره ﷺ كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب، والصلاة تقصر في هذه السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين. (الناشر)

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) عن مالك مرسلاً (مسند الإمام أحمد).

(٤) سنن أبي داود.

(٥) إن قضية صيانة عقيدة التوحيد، وسدّ ذرائع الشرك والغلو في التعظيم، والتشبه بالأمم التي اتخذت قبورَ أنبيائها مساجد، قضيةٌ مسلّمةٌ لا تقبلُ نقاشاً، ويؤيّدها كلُّ مَنْ فهم روح الدين، وتذوّقَ الكتابَ والسنة، ولكنَّ المنعَ عن زيارة القبر الشريف بتاتاً والتشديد في ذلك لا يخلو من شيء من المغالاة والتطرف، وإنّما كان ذلك نتيجة ذكاء ابن تيمية المتوقّد، وحسّه المرهف، الذي يمثّلُ لصاحبه أبعدَ الإمكانات وأقبحَ الاحتمالات، وذلك لا يغطي فضائله الكثيرة ومواقفه العظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين، وبلوغه=

لقد أخرجتْ هذه الفتوى بعدَ سبعة عشر عاماً بحكم عوامل عديدة، وشهرت، واتُّخذت ذريعةً لإثارةِ عواطف المسلمين، لما للنبيِّ ﷺ من مكانٍ قدسيٍّ في القلوبِ، إنَّهم رأوا فيها إساءةَ أدبٍ إلى مكانةِ النبيِّ ﷺ، كما أنَّ العلماء رأوها يتجلّى فيها الاعتمادُ الزائدُ على الرأي الشخصي ومعارضةٍ لجمهور الأمة، ولعلَّ ذلك كان هو العامل الأقوى لمعارضتهم إياه[1].

وعلى كل حالٍ فإنّ هذا الخلاف قد نال من الأهمية والشهرةِ ما جعل الحكومةَ (سواء على طلبٍ من العلماء أو نزولاً على مصالح النظام) تتدخلُ فيه، وصدرَ المرسومُ في السابع من شعبان عام ٧٢٦هـ بحبسه: فرحب به الشيخ ترحيباً بالغاً، وأبدى سروره على ذلك، وقال فور ما علم بحبسه: «أنا كنتُ منتظراً ذلك، وهذا فيه خيرٌ كثيرٌ، ومصلحةٌ كبيرةٌ»، ونُقلَ الشيخ إلى (قلعة دمشق) حيث أخليت له قاعةٌ، وأجري إليها الماءُ، وأقام معه أخوه زين الدين ابن تيمية يخدمه بإذن السلطان، وأجري عليه ما يقوم بكفايته.

«وما إن اعتُقلَ الشيخ حتى تكشفت القلوبُ عن خبيثاتها، وتوجَّه الأذى إلى تلاميذه وأوليائه، فأمر قاضي القضاة بحبسِ جماعةٍ من أصحابه، وعزَّرَ جماعةً

= درجة الإمامة في علوم الدين، ولم يكن يستحق بذلك ما لقيه من نكران وجفاء، وبقاءٍ في الحبس إلى أن يفارق الدنيا. المؤلف [قلت: لم يمنع ابن تيمية الزيارة إنما منع شد الرحال بقصد الزيارة لا بقصد الصلاة في المسجد النبوي.
وانظر ما قاله المؤلف في باب الحج إلى المشاهد والقبور، ص١٨١.] (الناشر)

(١) قلت: قال الصفدي رحمه الله في أعيان العصر، ص٥٠: «وأما مسألة الزيارة التي شُنِّعَ عليه فيها، وصرف كلامه بأنه منع من زيارة القبور، فهذه كتبه وفتاويه ومناسكه مصرحةٌ باستحباب زيارة قبور المسلمين، فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام.
نعم حكى خلافاً للعلماء فيما إذا سافر لمجرد (زيارة القبور) فمنهم من قال بالجواز وهم الجمهور، ومنهم من قال بالكراهة، ومنهم من قال بالتحريم، واختار هذا القول ابن بطة وابن عقيل إماما الحنابلة، والإمام أبو محمد الجويني، وهو اختيار القاضي عياض في إكماله، ومال إلى هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية» [فلماذا يشنع على ابن تيمية دون سائر العلماء الذي قالوا بقوله!] (الناشر)

منهم بإركابهم على الدواب والمناداة عليهم، وبعدَ ذلك أطلقوا من محابسهم، ما عدا صفيِّه وحاملُ اللواءِ مِنْ بعدِه شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية فإنّهُ حُبسَ بالقلعة»[1]، وظلَّ معه في الحبس، وما أُفْرجَ عنه إلا بعد وفاته.

تأسف أهل العلم والدين واحتجاجهم:

إذا كان اعتقالُ شيخ الإسلام ابن تيمية موضعَ سرورٍ عند شِرذِمَةٍ قليلةٍ من الحسّادِ والمناوئين، فلقد كانَ مبعثَ ألمٍ عميقٍ عند جماعةٍ كبيرةٍ من أهلِ العلم والمسلمين والمخلصين، الذين اعتبروه انتصاراً للبدعة على السنة، وذِلّة للحقِّ وأهله، ولقد بعثَ أهلُ العلم والدين من أنحاء المملكة المختلفة إلى السلطان الناصر بمصر كتاباً يصوّرون فيه النازلةَ التي نزلتْ بالإسلام والمسلمين، ويحسنُ بي أنْ أنقلَ إلى القارئ الكريم كتاباً بعثه علماءُ بغداد إلى السلطان، وحسبنا أن نقدّرَ بذلك أنَّ دعوةَ الشيخ وشهرتَه كانت قد انتشرت في جميع الأقطار الإسلامية، وأنّ أهلَ الحقّ جميعاً إنّما كانوا يحبونه ويُعجبون به، يقول علماء بغداد:

«لمّا قرأ أهلُ البلاد المشرقية، والنواحي العراقية، التضييقَ على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية سلّمه الله، عظمَ ذلك على المسلمين، وشقّ على ذوي الدين، وارتفعت رؤوس الملحدين، وطابت نفوسُ أهل الأهواء والمبتدعين، لما رأى علماء أهلِ هذه الناحية عِظَمَ هذه النازلة من شماتةِ أهل البدع، وأهل الأهواء بأكابرِ الفضلاء، وأئمة العلماء، أنهوا حالَ هذا الأمر الفظيع، والأمرَ الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية، زادها الله شرفاً، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجابَ به الشيخ سلّمه الله في فتاواه، وذكروا مِنْ علمه وفضائله بعضَ ما هو فيه، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء، أعزَّ الله أنصارَه، وضاعفَ اقتداره، غيرةً منهم على هذا الدين، ونصيحةً للإسلام وأمراء المؤمنين»[2].

وهذا الكتاب يدلُّ على أمرين:

---

(١) ابن تيمية، محمد أبو زهرة، ص٨٤.

(٢) العقود الدرية، ص٣٥٠؛ والكواكب الدرية، ص١٩٨.

أحدهما: وهو العمدة، أنَّ ذلك العالم الجليل قد عمّتْ دعوتُه إلى الرجوع إلى الكتاب والسنّة البقاعَ الإسلامية، ولم تعُدْ أراؤه ومناهجه مقصورةً على أهل الشام، بل تجاوزتها إلى البقاع الإسلامية كلها، وفوقَ ذلك لم تعدْ مقصورةً على الحنابلة، بل تحمّسَ لها المالكيّة والحنفيّة والشافعية، مما يُثْبتُ أنّه لم يعد نصيراً لمذهب معين من مذاهب الإسلام، بل نصيراً للإسلام في لُبِّه وصميمه.

الأمر الثاني: أنّ أهلَ الأهواء قد أظهروا الشماتةَ والعداوةَ، وأبدوا صفحتهم بعد أن كانوا قد أخفوها، وكانوا مستورين غير مكشوفين، وإذا كان أولُ متّهم بجريمة هو المنتفعُ منها، فلا بدّ أنّ أولئك الذين والوا دَسَّهم على الشيخ، وكانوا يتظاهرون بالمذاهب السنيّة، ليخدعوا الأمراء والقضاةَ، ولما تمّتِ الخديعةُ ظهرت شماتتُهم للعيان، وبدت ظاهرةً غير مستورةٍ.

أشغال الشيخ في القلعة:

تمتّع الشيخُ بنعمةِ الهدوءِ والخلْوةِ في القلعة بعد مُدّةٍ طويلةٍ، ولعلّه كان قد أشار إلى ذلك بقوله: «فيه خيرٌ كثيرٌ، ومصلحةٌ كبيرةٌ» إنّه قدر فرصةَ الخلوة والانقطاع هذه حقَّ قدرها، وأقبل على العبادةِ والتلاوةِ بكلِّ رغبةٍ وانهماكٍ، فإذا توفّرَ له بعض الوقت من هذه الأعمال شغلَه بالمطالعة والتأليف، وتنقيحِ كتبه، الأمرُ الذي كان يُعَدُّ عبادةً من العبادات، وطاعةً من الطاعات، التي يُتقربُ بها إلى الله، غير أنّه كان لتلاوة القرآن قسطٌ أكبر ونصيبٌ أوفرُ من أوقاته وأشغاله، إذ إنه ختم القرآن مع أخيه زين الدين ابن تيمية خلال الفترة التي قضاها في هذا المحبس (وهي سنتان) ثمانين ختمة.

وجلُّ ما ألفه في ذلك المحبس كان يتّصلُ بالتفسير، ولعلَّ إكثارَه من تلاوة القرآن، والتدبّر فيه كان السببَ في ذلك، كما أنّه ألّفَ الرسائلَ، وردّ على بعض المسائل، وكان يجيبُ على كلِّ ما يَرِدُ إليه من الخارج من الأسئلة العلمية والاستفتاءات الفقهية، وهكذا فقد كان مستمرّاً في جميع أعمالِه وأشغالِه سوى المواعظ والدروس العامة، أضف إلى ذلك كثرةُ التلاوة والعبادة.

القيود الجديدة وحرمانه أدوات الكتابة والدراسة:

كان الناس يتلقّفون كلَّ ما كان يكتبه الشيخُ في المحبس، ويصلُ من أقصى البلاد إلى أقصاها، ومن بين ما كتبَه الشيخ من الرسائل والمسائل في حبسه رسالة في موضوع مسألة الزيارة، رداً على أحد قضاةِ المذهب المالكيِّ في مصر القاضي عبدالله ابن الأخنائي[1]، أثبتَ فيها أنَّ القاضي المذكور رجلٌ قليلُ البضاعةِ في العلم، فاشتكى القاضي من ذلك إلى السلطان، وأبدى سخطَه واستنكارَه، فأصدرالسلطان مرسوماً يصرّحُ بمصادرة جميع ما عندَ الشيخ من أدواتِ الكتابةِ والكُتُبِ، حتى لا يبقَى عنده ما يستعينُ به في التأليف والكتابة.

وفي ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٢٨هـ نُفِّذَ المرسومُ، وصودرت جميعُ أدوات الكتابة والدراسة من الشيخ باسم الحكومة.

وفي غُرّة رجب أُرْسلت جميعُ مسوداته وأوراقه من المحبس إلى (المكتبة العادلية الكبرى)[2] وكان ذلك نحو ستين مجلداً من الكتب، وأربعَ عشرةَ ربطةَ كراريس، التي كان يشتغل بها دراسةً وتأليفاً[3].

الكتابة والتأليف بالفحم:

ولكنَ الشيخ لم يفزِعْهُ كلُّ ذلك، وما أبدى شكاةً منه للحكومة، ولمّا منع من الكتابة، وأُخذَ منه القلم والدواة، بدأ يكتبُ بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك، ووجدت له عِدَّةُ رسائل وكتابات مكتوبةٌ بالفحم، وظلّت محفوظة في هذه الحالة، إنّه في مثلِ هذا الاضطرار والعجز يبدو شاكراً وراضياً بقدر الله، إنّه يشعر بأنه سيحرِزُ بهذه الأحوال فضيلةَ الجهاد، وكأنَّ الوضع لم يتغيرَّ مما كان عليه، ويقول في رسالة له:

«نحنُ ولله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادُنا في هذا مثلُ جهادِنا

---

(١) اقرأ (الرسالة الأخنائية) طبع مصر.

(٢) العادلية هي مقابل الظاهرية والمقرّ القديم لمجمع اللغة العربية بدمشق. (الناشر)

(٣) ابن تيمية، محمد أبو زهرة.

يوم قازان والجبليّة، والجهميّة والاتّحادية، وأمثال ذلك، وذلك من أعظمِ نِعَمِ الله علينا وعلى الناس، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون».

الخضوع أمام قدر الله وعاطفة الحمد والشكر:

ويتجلّى في رسالةٍ أُخرى الخضوعُ أمام قدر الله وعاطفةُ الرّضا والشكر، يقول:

«كلّ ما يقضيه الله تعالى فيه الخيرُ والرّحمةُ والحِكْمَةُ، إنّ ربي لطيفٌ لما يشاء، إنّه هو القويُّ العزيزُ العليمُ الحكيمُ، ولا يدخلُ على أحدٍ ضررٌ إلا من ذنوبه كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

فالعبدُ عليه أن يشكرَ الله ويحمده دائماً على كلِّ حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكرُ يوجِبُ المزيدَ من النعمِ، والاستغفارُ يدفَعُ النِّقمَ، ولا يقضي الله للمرءِ مِنْ قضاءٍ إلا كان خيراً له، إنْ أصابتْه سرّاءُ شكرَ، وإن أصابتْه ضراءُ صبرَ فكان خيراً له».

إنّه في هذا الحال أيضاً متأكدٌ من صِحةِ مذهبه وبراءته، ويعتقدُ أنّه ليس عليه ذنبٌ سوى أنّه لم يخضع أمام السلطان في مسألة شرعية، وظلّ قائماً على ما كان يراه حقاً، ويعتبرُ ذلك مقتضى الإيمان والتوحيد، يقول:

«غايةُ ما عندهم أنّه خولف مرسومُ بعضِ المخلوقين، والمخلوقُ كائناً مَنْ كان إذا خالف أمرَ الله تعالى ورسوله ﷺ لمْ يجبْ ـ بل لا تجوزُ ـ طاعته في مخالفةِ أمرِ الله ورسوله ﷺ باتفاقِ المسلمين».

أيامُه الأخيرة ووفاتُه:

يقول الشيخ زين الدين عبد الرحمن شقيقُ شيخ الإسلام:

إنّه لما بدأ يقرأ القرآن بعد ما أكمل ثمانين ختمةً، ووصلَ إلى قوله تعالى من سورة القمر [٥٤ ـ ٥٥]: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ تركني، وأخذ في مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن محب، وعبد الله

الزرعي، وكانا في غايةٍ من الصلاح والتُّقى، وأخوين شقيقين، وذلك لأنَّ الشيخ إنّما كان مُعْجباً بقراءتهما القرآن، وما كادتْ تنتهي هذه المدارسةُ، حتى انتهت أيامُ حياته.

ولما بلغَ نائبُ دمشقَ نبأُ مرضه الأخير استأذن في الدخول عليه ليعودَه فأذنَ لـه، فلمّا جلسَ أخذَ يعتذرُ، ويلتمسُ منه أن يعفو عنه، إذا كان قد وقعَ منه تقصيرٌ أو أذىً في حقه، فأجابه الشيخ:

«إنّي قد أحللتُك وجميعُ من عاداني، وهو لا يعلمُ أني على الحق، وأحللتُ السلطانَ المعظّم الملك الناصر من حبسه إيّايَ، لكونه فعلَ ذلك مقلِّداً معذوراً، ولم يفعله لحظِّ نفسه، وقد أحللتُ كلَّ أحدٍ مما بيني وبينه، إلا مَنْ كان عدواً لله ورسوله ﷺ».

دامتِ العلةُ مدةً تقاربُ ثلاثة أسابيع، واستمرَّ به الحال حتى وافاه الأجل في ليلة ٢٢ من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وارتحل من هذه الدنيا، وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

ونعى الشيخَ مؤذِّنُ القلعة على المنارة، وتكلّم بها الحراس على الأبرجة، فما أصبحَ الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم، والأمر الجسيم، وبادروا على الفور إلى القلعة، من كلِّ مكانٍ أمكنهم المجيءُ منه، وفُتِحَ بابُ القلعة، واجتمع حشدٌ عظيمٌ من الخاصة والعامة، يدخلون إليه أفواجاً ويزورونه، ومنهم مَنْ كان يقبِّلُ رأسَه وناصيتَه، التي كانت تنصب على الأرض ساعاتٍ طوالاً أمامَ ربِّه.

وبدأ الناس يختمون القرآن قبل غَسْله، وأُذِنَ للنساء بعد الرّجالِ، فزرنَهُ، ولم يبقَ عند الغسل إلا مَن كان عليه أن يغسله.

وصف الجنازة والدفن:

وصلّي عليه أولاً بالقلعة، وتقدّمَ في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن

تمام، وأخرجت الجنازةُ بعد الصلاة، وغَصّتِ الطرقُ كلُّها ما بين القلعة والمسجدِ بالناس، حتى حضرتِ الجنازةُ في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك، ووُضعتْ في الجامع، والجندُ قد احتاطوا بها، يحفظونها من الناس من شدّةِ الزّحامُ، وتزايد الزحام إلى حدٍّ لا يبلغُ الإحصاء والتقدير، وقد صاح بين هذا الزِّحامِ صائحٌ يقول: «هكذا تكونُ جنائزُ أئمة السنة» الجملةُ التي هاجتِ الناسَ، وأثارتْ أحزانهم وحماسهم، فارتفعت الأصواتُ، وعلا النشيجُ.

وصُلّي عليه عقيبَ صلاة الظهر في الجامع الأموي، وقد تضاعفَ اجتماعُ الناس إلى أن ضاقتِ الرِّحابُ والأزقةُ والأسواقُ بأهلها ومَنْ فيها، وأُغلقت الأسواق والمتاجر والمطاعم، وقد نوى كثيرٌ من الناس الصيام، إذ كانوا في شُغلٍ شاغلٍ عن الطعام والشراب.

ثم حُملَ بعدَ أنْ صليَّ عليه على الرؤوس والأصابع، واشتدَّ الزحام، وعلتِ الأصواتُ بالبكاء والنحيب والترحُّمِ عليه، والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وفارقتِ النعالُ والقباقيبُ الأرجلَ والأقدامَ، وسقطتِ المناديلُ والعمائمُ عن الرؤوس، والناسُ لا يلتفتون إليها، لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعشُ على الرؤوس تارةً يتقدّمُ وتارةً يتأخرُ، وتارةً يقفُ حتى يمرَّ الناس..

وعظم الأمرُ بسوق الخيل وتضاعفَ الخلقُ، وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك، وتقدّمَ للصّلاةِ عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، وحُملَ إلى مقبرة الصوفية[1] حيثُ دُفنَ إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله.

---

(١) هي المقبرة الشهيرة التي هي مدفنُ كبارُ أهل العلم والصلاح كابن عساكر، وابن الصلاح، وابن الأثير، وأبي الحجاج المزي، والحافظ عماد الدين ابن كثير، وغيرهم، وقد زالت آثارُها، وتقومُ عليها الآن عمارات شامخة، إلا أنّ قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية وعمارة مستشفى الولادة، وقد أتيحتْ لي زيارتُه في ١٠ شوال سنة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٦م) بصحبة علامة الشام الشيخ بهجة البيطار، وقد حدثني الشيخ بأنَّ هذه المقبرة درست من القبور في إحدى الليالي بمناسبة تأسيس عمارة في=

وكان دفنُه قبل العصر بيسير، وذلك من كثرة مَنْ يأتي ويصلي عليه، ولم يتخلّف عن الحضور إلا مَنْ هو عاجزٌ عن الحضور، ويحزر الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مئة ألف، عدا النساء، يقدّرُ عدد الحاضراتِ منهن خمسة عشر ألف امرأةٍ، عدا من كنَّ على الأسطحة والغرف، ولم يعهد مثلُ هذا الزحام في تاريخ دمشق، ويمكنُ أن يكونَ ذلك في زمن بني أميّة، حين كانَ الناسُ كثيرين، وكانت دمشقُ دارَ الخلافة[1].

صلاةُ الغائبِ على ابن تيمية:

وصلّي عليه صلاةُ الغائب في معظم الأقطار الإسلامية، حتى في أقصى الجنوب والشرق، يقول ابن رجب في ذيل (طبقات الحنابلة):

«وصلي عليه صلاةُ الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة، حتى في اليمن والصين، وأخبر المسافرون أنّه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة، وأعلن (الصلاة على ترجمان القرآن).

* * *

= الجامعة السورية، ولما انتشر الخبرُ في الصباح أرسلَ الرئيس شكري القوتلي إلى رئيس الجامعة النصراني (قسطنطين زريق)، وقال له: لو أنّ قبرَ ابن تيمية اندرس ماذا عسى أنْ يكونَ جوابي لصديقي الملك عبد العزيز بن سعود إذا سألني عن هذا الحادث، فإنّه من محبي ابن تيمية وأنصاره، وهنالك أبقي قبرُ الشيخ ابن تيمية، الذي لا يزال موجوداً حتى الآن. (المؤلف)

(١) كل هذه التفاصيل مما كتبه ابن كثير برواية الشيخ علم الدين البرزالي الذي كان من معاصري الإمام ابن تيمية وزميل دراسته، انظر البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦ ـ ١٤٩.



الفصل الرّابع

ميّزات ابن تيمية البارزة وخصائصه

ذاكرته الموهوبة وذكاؤه النادر:

إنَّ المكانة الاجتهادية في العلوم الإسلامية، التي أحرزها شيخُ الإسلام ابن تيمية في عصره، وإنَّ التأثير العميق الذي خلّفه على أهل زمانه، لإمامته في التفسير والحديث معاً، وتبحُّره ونبوغِه في العلوم **إنّما كان الفضل الأكبر** في ذلك يرجعُ إلى ذاكرته النادرة، وذكائه المفرط، وكلُّ ذلك نعمةٌ أكرمه الله بها، وموهبةٌ اختصه بها.

وكانت العلوم الإسلامية قد توسَّعت في عصره، وتجمَّعت ذخيرةٌ واسعةٌ للعلوم النقلية، بحيث لم يكن بإمكان أحدٍ أن يحيطَ بها علماً، ولا أن يتجرَّأ على الكلام في المسائل المختلفة فيها أمامَ معاصريه الكبار، ولا كان يملك حقَّ الاختلاف مع عالمٍ متقدّمٍ في أيِّ مسألةٍ ما لم يكنْ يتمتعُ بذاكرةٍ نادرةٍ، وذكاءٍ مفرطٍ.

ولكنَّ الذاكرة القويّة وقوةَ الاستحضار التي كان قد أكرمَ الله بها ابن تيمية مكنته من الإحاطة بالذخائر الموجودة آنذاك من التفسير، والحديث، والفقه، وعلم الخلاف، والكلام، والتاريخ، والسير، والآثار، وعلم الرجال، واللغة، والنحو.

فقد درس ما تيسّرَ له من الكتب والمواد العلمية، ووعتها ذاكرتُه القويّة الأمينة، واستعانَ بها في حياته العلميّة والتأليفية كما يستعينُ الجنديُّ المحنّكُ بذخائرِ كنانتِه.

كان معترَفاً بذاكرته النادرة القويةِ وذكائه البارز لدى معاصريه من العلماء. وقد اتفقَ المعاصرون والمتأخّرون كلُّهم على قوّةِ حفظه، وسرعةِ فهمه،

وشدّةِ ذكائه، يقول زميلُه في الدراسة العلامة علم الدين البرزالي: «قلَّ أنْ سمعَ شيئاً إلا حفظه، وكان ذكياً كثيرَ المحفوظِ»[1].

ويقول الحافظُ الذهبيُّ الذي يُعتبَرُ من أئمة علم الرجال، ومؤرخ الإسلام:

«ما رأيتُ أشدَّ استحضاراً للمتون وعزوها منه، وكانت السنةُ بين عينيه وعلى طرفِ لسانِه»[2].

ومن أكبرِ الشهادات على حفظِه للمتون، وقوةِ ذاكرتِه هو قولُ معاصريه فيه: «كلُّ حديثٍ لا يعرفُه ابنُ تيميّة فليسَ بحديثٍ».

ولا يخفى أنَّ حفظ ذخائر الحديثِ الواسعةِ إنّما كان من الصعوبة بمكان، ولكنَّ الاعتمادَ على علمه وذاكرتِه وحدَهما في موضوع الحديث، والحكم على أساسِ قولِه لا يمكن ما لم يُعْتَرَفُ بأنّه أكبرُ حافظ للحدَيث في عصره، وأنَّ قوةَ حفظِه لا تخذلُه في أيِّ حالٍ ولا مجالٍ.

يقول الحافظ الذهبي: «يصدقُ عليه أنْ يقالَ: كلُّ حديثٍ لا يعرفُه ابنُ تيميّة فليسَ بحديثٍ»[3].

وحتّى قال بعضُ معاصريه: «لم يولد مثلُه منذُ قرون».

وهذا معاصره العلامة كمال الدين الزَّمَلْكاني الذي كان خصمَه في مجلس المناظرة، وكان بينه وبين ابن تيميّة خلافُ كبير في كثير المسائل، يشهد بصفته الموهوبة هذه فيقول:

«لم يُرَ من خمسمئة سنة أو أربعمئة سنة - والشكُّ من الناقل - أحفظُ منه»[4].

ويتحدَث عن ذكائه المفرط الحافظُ الذهبي فيقول: «كان يتوقَّدُ ذكاءً»، ويقول في مكان آخر: «كان آيةً في الذكاءِ وسرعةِ الإدراك»[5].

---

(١) الرد الوافر، ص٦٦.

(٢) القول الجلي، ص١٠١.

(٣) الكواكب الدرية، ص١٤٥.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الرد الوافر، ص٢٩.

التبحُّر العلمي والجامعية:

لقد تبحّرَ ابنُ تيميّة في العلوم الإسلامية، والموضوعاتِ السائدةِ في زمانه، وتمتّع بصفة الجامعية في هذه العلوم والفنون، بفضل ذاكرتِه الموهوبة، وذكائه النادر، وذوقه العلمي، الذي ورثه من آبائه، ثم بجهوده البالغة، والمشاق التي احتملها في سبيل دراسته، وبفضل التوفيق الإلـٰهي قبلَ كلِّ شيءٍ، بحيث إنّ معاصريه الكبار، الذي كانوا يكبرونه في السن، وكانوا أساتذةَ الفنِّ، والذين انتهتْ إليهم رئاسة التدريس والافتاء، وسُلِّمت إمامتُهم في العلوم الإسلامية، قد قضوا من هذه الصفات عجباً، وشهدوا أنّه بحرُ العلومِ، ومكتبةُ الإسلام الناطقةِ، وله في كل فنٍّ براعةٌ تدلُّ على أنّه صاحب اختصاص في هذا الفن.

ولما سافر ابن تيمية إلى مصر في عام ٧٠٠هـ ولقى هناك العلاّمة (ابن دقيق العيد) أُعجبَ به، على ما كان يحتلّه من المكانة العليا في علم الحديث، ويعتبر أستاذَ العلماء وكبيرهم، وقد عبّرَ العلامة عن إعجابه بابن تيمية فقال: «لما اجتمعت بابن تيمية رأيتُ رجلاً العلومُ كلُّها بين عينيه، يأخذُ منها ما يريدُ، ويدعُ ما يريدُ»[1].

ويبدي عجبه من ابن تيمية زميلُه العلامة كمال الدين الزَّملكاني، الذي كان نفسُه عالماً متبحراً في كثيرٍ من الفنون فيقول: «كان إذا سُئلَ عن فنٍّ من العلمِ، ظنَّ الرائي والسامعُ أنَّه لا يعرفُ غير ذلك الفنّ، وحكمَ أنَّ أحداً لا يعرفُ مثلَه»[2].

أما العلامة تقي الدين السُّبكي الذي هو خصمُه الشهيرُ، وألّفَ في الردِّ عليه ـ حولَ مسألة شد الرحال، وفي بعض المسائل الفقهية ـ كتباً مستقلةً بذاتها، وأبدى رأيه عنه في النظام[3] أيضاً، فإنّه بالرغم من ذلك كتبَ في رسالة له موجهة إلى الحافظ الذهبي:

«المملوكُ يتحقّقُ كبير قدرِه، وزخارةَ بحرِه، وتوسُّعِه في العلوم الشرعية

---

(١) الرد الوافر، ص٣١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠.

(٣) كذا في الأصل.

والعقلية، وفرطَ ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كلّ ذلك المبلغَ الذي لا يتجاوزه الوصف، والمملوكُ يقول ذلك دائماً»[1].

إنّ التاريخ لم يكنْ من اختصاص ابن تيمية، ولم يتوفّر على دراسته كتوفّره على دراسة العلوم الدينية، ولكنّ الذهبيّ الذي كان من مؤرخي الإسلام، المتبصّرين في التاريخ، والناقدين له، يتحدّث عن معرفته بالتاريخ، فيقول:

«ومعرفتُه بالتاريخِ والسِّيرِ فعجبٌ عجيبٌ».

وقد نقل تلميذه النابغةُ (ابن قيّم الجوزية) حادثاً مُذهشاً عن علمه بالتاريخ، وسَعةِ نظره، وحضور ذهنه في كتابه (زاد المعاد) إنّه يقول:

«ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السنّة وأعلامُها، أظهر طائفةٌ منهم كتاباً قد عتّقوه وزوّروه، وفيه أنّ النبيَّ ﷺ أسقطَ عن يهود خيبر الجزية، وفيه شهادةُ عليّ بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراجَ ذلك على مَنْ جهل سُنّةَ رسول الله ﷺ ومغازيه وسيره، وتوهّموا بل ظنّوا صحته، فأجيزوا على حكم هذا الكتاب المزوّرِ، حتى أُلقيَ إلى شيخ الإسلام ابن تيمية (قدس الله روحه) وطُلبَ منه أن يعينَ على تنفيذه والعمل عليه، فبصقَ عليه، واستدلَّ على كذِبه بعشرةِ أوجهٍ:

منها: أنَّ فيه شهادةَ سعد بن معاذ، وسعدٌ توفي قبل خيبر.

ومنها: أنّ في الكتاب أنّه أسقطَ عنهم الجزية، والجزيةُ لم تكن نزلت بعدُ، ولا يعرفها الصحابة حينئذ، فإنّ نزولها كان عام تبوك بعدَ خيبر بثلاثة أعوام.

ومنها: أنّه أسقطَ عنهم الكلفَ والسخر، وهذا محالٌ، فلم يكن في زمانه كلفٌ ولا سخرٌ توجد منهم ولا من غيرهم، وقد أعاذه وأعاذَ أصحابه من أخذ الكلف والسخر، وإنّما هي مِنْ وضع الملوك الظلمة، واستمرَّ الأمرُ عليها.

ومنها أنّ هذا الكتاب لم يذكره أحدٌ من أهل العلم على اختلاف أصنافهم،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، (ترجمة العلامة تقي الدين السبكي).

فلم يذكره أحدٌ من أهل المغازي والسير، ولا أحـدٌ من أهل الحديث والسـنة، ولا أحدٌ من أهل الفقه والإفتاء، ولا أحدٌ من أهل التفسير، ولا أظهروه في زمان السلفِ، لعلمهم أنّهم إن زوّروا مثلَ ذلك عرفوا كذبه وبطلانه[١].

ويمكن تقديرُ ذكائه وتبحره العلمي بما حدَّثه أحدُ معاصريه الشيخ (صالح تاج الدين)، إنّه يقول:

«حضرتُ مجلسَ الشيخ رضي الله عنه، وقد سـأله يهوديٌ عن مسـألةٍ في القدر، وقد نظمها شعراً في ثمانية أبيات، فلمّا وقفَ عليها فكّر لحظةً يسيرةً، وأنشأ يكتُبُ جوابها، وجعلَ يكتبُ، ونحنُ نظنُّ أنّه يكتبُ نثراً، فلمّا فرغَ تأمله مَنْ حضر من أصحابه، فإذا هو منظوم من بحر أبيات السؤال وقافيتها، تقربُ من مئة وأربعة وثمانين بيتاً، وقد أبدى فيها من العلومِ ما لو شُرحَ لبلغ مجلّدين كبيرين»[٢].

ولمّا رأى المعاصرون من العلماء والمتأخرون منهم تبحّره في العلوم، وجمعـه للصفات العاليـة؛ والمميزات البارزة، لم يلبثـوا أن وصفوه بأسـمى الصفات، فـاعتبروه نادرةَ الزمان، إمامَ المحققين، آخرَ المجتهدين، وآيـةً من آيات الله، حتى يقول ابن سيّدِ الناسِ (المتوفى عام ٧٣٤هـ): «لم ترَ عينُ مَنْ رآه مثلَه، ولا رأتْ عينُه مثلَ نفسِه»[٣].

ولم يملك الحافظ شمس الدين الذهبي ذلك المؤرخ الكبير الناقد البصير إلا أن يصفه بقوله:

«لـو حلفتُ بين الـرُّكنِ والمقامِ لحلفتُ أنّـي ما رأيتُ بعيني مثلَه، ولا والله ما رأى هو مثلَ نفسِه في العلم».

الشجاعة والاستقلال الفكري:

لقد كانت شجاعةُ ابن تيمية وبسالتَه وصمودَه أمام الموت موضعَ دهشةٍ عند

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٣٣٦، فصل في هدى النبي ﷺ، في عقد الذمة وأخذ الجزية.
(٢) الكواكب الدرية، ص١٥٤.
(٣) المصدر السابق نفسه.

جميع معاصريه، حتى ضباط الجيش وقواد الأتراك، فإنّ الشجاعة والجرأة التي أبداها إزاءَ المغول، وثبات الجأش الذي ظهر به أمامهم أثار استغراب الجميع، ولم يترك (قبجق) نفسه ـ الذي يعتبر من كبار الضباط العسكريين الأتراك، وأشهرهم في عصره ـ إلا وجعله يندهشُ من شجاعته الفذة، التي لا يعرفُ لها نظير في حملة العلم، يصفُه الحافظ سراج الدين أبو حفص البزّار بالكلام الآتي:

«وكان إذا ركبَ الخيلَ يجول في العدوّ كأعظم الشُّجعان، ويقومُ كأثبتِ الفرسان، وينكي العدوّ من كثرة الفتك بهم، ويخوضُ بهم خوضَ رجلٍ لا يخافُ الموتَ»[1].

ولكني لا أريدُ أن أتحدثَ هنا عن شجاعته، التي أبداها في ساحة القتال وبلاط الملوك إعلاءً لكلمة الحق، فقد مرَّ بعضُ التفاصيل عنها في الصفحات الماضية، إنني أتحدّثُ هنا عن شجاعته التي ظهرت منه في مجال العلم والتحقيق والمعارك الكلامية والصدع بالحق.

يعرفُ أهلُ العلم من القرّاءِ أنَّ ابن تيمية ليس متفرداً في أكثر المسائل، فقد نوقشت هذه المسائل من قبلُ، وألّفتْ في موضوعها رسائل، وقد وجد في عصره من كان يوافقه في آرائه من معاصريه، غير أنَّ الجرأةَ والصراحةَ اللتين اتسم بهما في إبداءِ آرائه وتحقيقاته، وأعلنهما في كتاباتِهِ وخُطبه كان المجلي فيهما، ولا أدلَّ على صفته هذه مما قام به من شرح التوحيد الخالص، وردِّ الاستغاثة والاستعانة بغير الله، ومعارضةِ البدعِ والمنكراتِ السائدةِ في عصره، والكفاح بالقلم واللسان مقابلَ وحدةِ الوجود ونظرية الحلول والاتحاد، وهتكِ الأستارِ عن تلبيسات المتصوّفين الدُّخلاء والمبدعين المفترين.

إنَّ الجرأةَ البالغةَ التي مثلها في إحقاق المسائل، والتحقيقات التي كان يراها حقاً، سواء كان لها علاقة بالمباحث الكلامية أو المذاهب الفقهية، وأنّ الأسلوب القويَّ الذي اتخذه لإثباتِ عقائده ونظرياته، وأنّ الأذى الذي احتمله في

(١) الكواكب الدرية، ص١٦١.

هذا السبيل، كلُّ ذلك ليس حجةً على شجاعته واستقامته فحسب، بل يدلُّ على عظمته وإمامته في الدين أيضاً.

يتحدّثُ الحافظ الذهبي عن شجاعتهِ واستقامتهِ العلميّة والدينيّة، فيعبـرُ عنهما بما يلي:

«أطلق عباراتٍ أحجمَ عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قامَ عليه خلْقٌ من علماء مصر والشام قياماً لا مزيدَ عليه، وبدّعوه، وناظروه، وكاتبوه، وهو ثابتٌ لا يداهنُ ولا يحابي، بل يقولُ الحقَّ المرَّ الذي أداه إليه اجتهاده، وحِدّة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكر، وسعة الإدراك، والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله، فيجري بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة رموه عن قوسٍ واحدةٍ فينجيه الله»[1].

ولا شكَّ أنَّ ابن تيمية إنما كان يمتاز في تبحّره العلميِّ عن معاصريه، كما اعترفَ بذلك معاصروه بكلمات قويةٍ، غير أنَّ ميزتَه الأصيلة ـ التي جعلته فذاً بين أقرانه المعاصرين، وخلّدته في التاريخ ـ لم تكن مجردَ تبحره في العلم، بل إنما **هو استقلاله الفكري، وذوقهُ للبحث والتحقيق، وأسلوبه الاجتهادي**، إنّه لم يدرس من العلوم والفنون إلا ما كان قد درسه أكثرُ معاصريه، ولكنّه شقَّ فيها طريقَه الذي سار عليه، وسُرْعانَ ما أحرز مكانته الخاصةَ، لقد كان كل العلماء في زمنه قد تعلّموا النحو، واعتقدوا في سيبويه إماماً واجبَ الاتباع، واعتبروا قولَه هو الحجة الأخيرة في النحو، ولكنّ ابنَ تيميّة كان قد درس (الكتاب) لسيبويه دراسةَ نقدٍ وتحليل، فلمّا ذكر أبو حيان النحوي بعض مسائل النحو برواية سيبويه أجابه الشيخ ابن تيميّة، بأنّه لم يكن نبياً نزل عليه النحو، بل إنّه أخطأَ في (٨٠) موضعاً من (الكتاب).

وقد أخذ أكثرُ علماء عصره بالحيطة في دراسة المنطق والفلسفة اليونانية،

---

(١) الرد الوافر، ص٧١.

أما الذين كانوا درسوهما، فقد تأثّروا بهما في قليل أو كثير، حتى إنّ حجةَ الإسلامِ الغزاليَّ، الذي يُعتبَرُ أكبرَ منتقدٍ للفلسفة اليونانية، ومطّلعٍ على مواضع ضَعْفِها في جماعة المسلمين، لم يتمكّنْ من صَوْنِ مؤلفاته، وحتى كتابه (إحياء علوم الدين) من تأثيرِ العلوم الإلـٰهية اليونانية، وفلسفة أخلاقها كلياً، ويتجلّى ذلك لكثيرٍ من مؤرّخي الفلسفة في كثير من مؤلفاته»[1].

أما ابنُ تيميّة فإنّه رفعَ لواء الثورة على المنطق والفلسفة اليونانية، ولم يتفاهم معهما في أيِّ حالٍ، إنّه ناقش مسائلَ ومقدِّماتِ المنطق والفلسفةِ المعترَفِ بها كناقدٍ بصيرٍ، وصيرفيٍّ خبيرٍ في كتابه (الرد على المنطقين)[2] وتناولها بعملية جراحية، وزعزعَ أساسَها بالكليّة، ولم يترك موضعاً إلا وثقبه بسهامه الحادّةِ.

منذُ مدةٍ كان البحثُ والدراسة في مجال الفقه والحديث قد انحصرَ في نطاقٍ محدودٍ، ولم يكن يتجرَّأُ أحدٌ أن يخرجَ عنه، ولا كانت ذخائرهما العلميّة تتّسِعُ وتنمو منذ مدة طويلة، وجاءَ ابنُ تيميّة، فاستأنفَ النظرَ في كثيرٍ من المسائل الفقهية، التي كانت تُعْتبَرُ مقررّةً لا تحتاجُ إلى تفكيرٍ أو دراسةٍ من جديدٍ، وقدّم نِتاجَ بحثِه ودراساتِه إلى أوساط العلماء والفقهاء، بكلِّ شجاعةٍ وصرامةٍ علميّةٍ، لقد أثار ذلك سواكنَ العقول، وحرّك الأوساطَ العلميّة، وفتح بابَ التفكير والدراسة من جديد، وفي الأخير بدأ يُفتي على أساسِ الكتابِ والسنةِ وآثارِ الصحابة.

يقول الحافظ الذهبي (وابن تيمية لا يزالُ على قيد الحياة):

«وله الآن عدّةُ سنين لا يفتي بمذهبٍ معينٍ، بل بما قام الدليلُ عليه، ولقد نصرَ السُّنةَ المحضَةَ؛ والطريقةَ السلفيّةَ؛ ببراهين ومقدمات وأمورٍ لم يُسْبقْ إليها»[3].

---

(١) راجع للتفصيل: (فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلتها بالفلسفة الإغريقية) و(تاريخ الأخلاق)، للدكتور محمد يوسف موسى.

(٢) نشر الكتاب بتحقيق السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى، وطبع في الهند. (الناشر)

(٣) الرد الوافر، ص١٧.

وهو يتفرّد في هذه الاجتهادات أحياناً، ولا يبعد أن يخطئ كما هو الشأن في جميع البشر، ولا يتحتم أن تكونَ دلائلُه في كلِّ مسألة قوية واجبة التسليم، ولكن الذي لا شكَّ فيه أنّه إنما كان جدَّ مخلصٍ في مقاصدهِ، وأنّه لم يكن يتركُ مذهبَ إمامٍ من الأئمة، أو قولَ الجمهورِ، ولا كان يستنبطُ مسألةً اتباعاً للهوى أو النفس، أو لأجل مصلحة أو حاجة في نفسه، بل إنّه كان طالباً للحق، خاضعاً للدليل، متبعاً للكتاب والسنة.

وللحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي صاحب (فتح الباري) قولٌ فصلٌ في هذا الموضوع، إنّه يقول:

«إنّه شيخُ مشايخِ الإسلامِ في عصره بلا ريب، والمسائلُ التي أُنكرتْ عليه ما كان يقولُها بالتشهّي، ولا يصرُّ على القول بها بعدَ قيامِ الدليل عليه غالباً، فالذي أصابَ فيه ـ وهو الأكثر ـ سيستفاد منه، ويترحّمُ عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلَّدُ فيه، بل هو معذورٌ، لأنَّ أئمةَ عصره شهدوا له بأنَّ أدواتِ الاجتهادِ فيه، حتى كان أشدُّ المتعصبين عليه والعاملين في إيصال الشرِّ إليه ـ وهو الشيخ جمال الدين الزملكاني ـ شهدَ له بذلك»[1].

إخلاصه وانهماكه:

وميزتُه البارزةُ الثانية أنّه وقف نفسه لخدمة علوم الدين، إنّه لم يسمح لنفسه بأيّةِ علاقةٍ بأمرٍ آخرَ طول حياته، بينما ظلَّ أكثرُ معاصريه وزملائه وأترابه ـ الذين وُجدَ مِنْ بينهم كبارُ المخلصين والفضلاء ـ يشغلون مناصبَ الحكومة المختلفة، أو أنّهم كانوا يحملون المسؤولية عن منصب ديني أو إداري، أو حُظُوا بمنحة ملك أو خلعة سلطان، أو جائزة ملكية، أو كانوا يقبلون رواتبَ الحكومة، ولكنَّ ابن تيمية ظلَّ في غنًى عن جميع هذه الملابسات، وكان في شغل عن كلِّ شيءٍ سوى الاشتغال بالعلم والدين، من الافتاء، والتدريس، والوعظ، والإرشاد، والتأليف، والتحقيق.

---

(١) الرد الوافر، ص٨٧.

يشـهدُ بانهماكه الديني وانصرافـهِ إلى العلمِ مع الانقطاعِ عن الدنيـا أحدُ معاصريه بالكلام الآتي:

«وما خالط الناسَ في بيعٍ ولا شراءٍ، ولا معاملة، ولا تجارةٍ، ولا مشاركةٍ، ولا مزارعةٍ، ولا عمارةٍ، ولا كان ناظراً أو مباشراً لمالِ وقفٍ، ولم يقبل جرايةً، ولا صلـةً لنفسه من سـلطانٍ، ولا أمير، ولا تـاجرٍ، ولا كان مُدَّخراً ديناراً، ولا درْهماً، ولا متاعاً، ولا طعاماً، وإنَّما كانت [مؤلفاته] بضاعتَه مُدةَ حياته، وميراثَه بعدَ وفاته رضي الله عنه العلمُ، اقتدى بسيّد المرسلين، فإنّه قال: «إنّ العلماء ورثةُ الأنبياءِ، إنّ الأنبياءَ لم يورّثوا ديناراًولا درْهماً، ولكنْ ورّثوا العلمَ، فمنْ أخذ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ»[1].

ويقول صاحب (الكواكب الدرية) رواية عن الثّـقاتِ: إنّه كان قد قطعَ جُلَّ وقته وزمانه في العبادة، حتى إنه لمْ يجعلْ لنفسه شاغلةً تشغلُه عن الله مما يزاوله، لا من أهلٍ ولا من مالٍ»[2].

لم تمهله أشغالُه وأفكارُه، وانهماكُه في العلم والدين، وحياتُه المشغولة (وقد قضى جزءاً كبيراً منها في الحبس والاعتقال) أن يتزوّجَ، فقد عاش طوال حياته عزباً، اشتغالاً بطلبِ العلمِ والمجاهدةِ.

يتحدّثُ مـؤلِّفُ (الكواكب الدريـة) عن برامجه اليومية وأعماله الرتيبـة فيقول:

«ولا يزالُ تارةً في إفتاء الناس، وتارةً في قضاء حوائجهم، حتى يصلي الظهرَ مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه، ثم يصلِّي المغرب، ويُقْرأُ عليه الدرس، ثم يصلي العشاء، ثم يقبلُ على العلوم، إلى أن يذهبَ قدر طويلٌ من الليل، وهو في خلالِ ذلك كلِّه يقضي الليل والنهار، يذكر الله تعالى، ويوحّده ويستغفره»[3].

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق نفسه.

إذا كان العلم شغلاً مؤقّتاً وخدمةً طارئة لأيِّ مدرس أو مفتٍ، فإنّه كان غذاءَه ولباسَه، وامتزجَ بطبيعتِه.

يقولُ الشيخ سراج الدين أبو حفص البزّار: «وكان العلمُ قد اختلطَ بلحمِه ودمه وسائرِه، فإنّه لم يكن مستعاراً، بل كان له شِعاراً ودِثاراً»(1).

ولا أدلَّ على إخلاصِه وورعِه مِنْ أنّه عفا عن أعدائه ومعارضيه في كل مناسبة، وأعلنَ بصراحةٍ بقوله: «أحللتَ كلَّ مسلمٍ عن إيذائه لي».

وإننا نستطيعُ أن نقدّر مدى ورعه، وسماحة نفسه، وإخلاصه بقصّةٍ عفوه عن أكبر معارضيه القاضي (ابن مخلوف) بعد عودةِ (السلطان الناصر) رغم إلحاحه على عدم الصفح عنه، وبما أثنى على القاضي وجميع شركاء المملكة وعلمائها للسلطان الناصر، وشفاعته لهم إليه، وقد ثبتَ بذلك أنَّ كل خلافاتِه إنّما كانت على الأساس العلمي والديني، لا يشوبها شائبةٌ من الأنانية والعداوة.

إنّه خلّفَ ذخيرةً من الآثار العلمية، والمؤلفات القيمة، التي تُعْتبرُ مفخرةً لجماعةٍ من أهل العلم في حياته البالغة (٦٧) سنة، الحافلة بالحوادث والوقائع الشاذة، نتيجة إخلاصه وانهماكه، وخلّفَ نتيجة لذلك أيضاً تأثيراً عميقاً في عصره، يؤهلّه بكلِّ جدارةٍ أن يسمّى رائدَ عهدٍ جديدٍ، وذا شخصيةٍ قويةٍ تغيِّرُ مجرى التاريخ.

* * *

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٦.



الفصل الخامس

خصائص التأليفيّة

إنَّ مؤلفاتِ ابن تيمية تتفرّدُ بخصائصَ بارزةٍ، تميزُها مِنْ بينِ مؤلفات عصره بكل وضوح، إنّها لا تزالُ تؤثّرُ في قلوبِ الجيلِ الجديدِ وعقوله، رغمَ أنَّه مضى عليها قرون عديدة، حدثت في خلالها ثورات في دنيا العلم والتفكير، وقد أنتجَ ذلك أنَّها تنالُ الإعجابَ والقبولَ من جديدٍ في هذا العصر الوَلوع بالتجديد والعلمية، وهناك أربعةُ جوانبَ ذاتُ أهميةٍ في هذه الخصائص:

١ ـ كل دارس لمؤلفات ابن تيمية يرجعُ بانطباع أنّ **مؤلفها عارفٌ بمقاصد الشريعة، ومطّلعٌ على روح الدين**، وأنّه آخذ بأطراف الدين وأصوله، ولذلك فإنّه يركّزُ بحثه في كلِّ أمرٍ من أموره على الأصول، بحيث يشفي العليلَ، ويروي الغليلَ، ويبعثُ الطُّمأنينةَ واليقينَ في النفس، إنّه يركّزُ على الأصول دون الفروع، ويبدأُ كلَّ بحثٍ بأسلوبٍ يشعِرُ القارئ بأنّه هو طبيعة الدين وروحه، ومقتضى الشريعة المحمدية بالبداهة والاضطرار، إنّ السرَّ في تفوقه بإزاء معاصريه، والمؤلفين الآخرين هو اطلاعُه على مقاصدِ الشريعةِ، وروحِ الدين، وشرحِه الناجح لهما، وذلك ما يتجلى في كلِّ ما ألفه من صغيرٍ وكبيرٍ، ولا سيّما عندما يبحثُ في العقائد والمسائل الكلامية والفقهية المهمة.

٢ ـ الميزة الثانية البارزة **أنَّ كتبَه تفيضُ حيوية**، ويبدو أنَّها لم تؤلَّفْ في ركن من المكتبة منزوٍ، أو جزيرةٍ منقطعةٍ عن الناس، بل إنّها أُلِّفتْ في معتركِ الحياة وأوساط العامة، إنَّ مَنْ يدرسها يستطيعُ أن يعيّنَ ويقدّرَ العصرَ الذي أُلِّفتْ فيه بسهولةٍ، ويعرفَ عقليةَ المجتمعِ وأخلاقَه الذي كان يتصلُ به مؤلفها[1].

---

(١) وكنموذج اقرأ كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم).

كما أنَّ مؤلفاته تشـير إلى عواطفِه وحماسِه، وحبِّه وكراهيتِه، ويبدو أنّ مؤلفها كان صاحبَ عقلٍ واعٍ، وقلب حسَّاسٍ ومشاعرَ حيّةٍ قويةٍ، ولم يكن مجرّدَ آلةٍ للكتابةِ، ولا محضَ عقلٍ.

وكذلك أسلوبُ تفسيره يتسم بارتباطه مع الحياة، إنّه يطبّقُ الآيات القرآنية على ما حولَه من الحياةِ والإنسانِ، ويستعرضُ الحياةَ من وجهة نظرها، ويتناولُ معاصريه وطبقـات الأمةِ المختلفة بالاحتسـاب، إنّه يضعُ الأصبـعَ في مواطـنِ الانحرافِ عن هذه الآيات والحقائق، ويخبرُ بنتائج ذلك[1].

إنّ ميزة الحيوية هذه منحتْ مؤلفاته حياةً طويلةً، وتأثيراً عميقاً، وروعـةً عجيبةً، قد تندرُ في مؤلفات غيره، وقد تكونُ مفقودةً فيها.

٣ ـ إنه يجمع معلوماتٍ ومـوادَّ في كلِّ موضـوعٍ يطرقُه، في عشـرات من الكتب، ومئات من الصفحات، إن أسلوبَ تأليفهِ هذا ـ الذي يمكِنُ أن يسمّى أسلوباً موسوعياً ـ أبرز ميزة لجميع مؤلفاته، سواء كانت في المباحث النقلية أو العقلية، وهكذا فإنّ كتبَه تجمعُ معلوماتٍ كثيرةٍ وفيرةٍ، تغني أكثر الأحيان عن مكتبةٍ، بل تقومُ مقامها، ويستغني بها الطالِبُ عن مراجعة المصادر والمباحث.

وطالما يفلت منه طرفُ البحث في تأييد كلامِه بالمواد والمعلومات، حتى إنّ الدّارسَ يضِلُّ في خضمِّ الأقوالِ والشواهدِ، ويتعسَّرُ عليه التغلبُ على البحثِ، ولكن على الرغم من ذلك لا يستهان بجانب الإفادةِ في كتبه، وهوأنّها مخزنُ أقوالِ المعاصرين وآرائهم، وموسوعة صغيرة في مواضيعها، إنّه حفظ كثيراً من المواد والمعلومات القديمة، وكثيراً من الآراء والأفكار في كتبه، وصانها من الضياع، وهي مِنّةٌ علميّةٌ كُبْرى لا تُنْسى من ابن تيمية.

٤ ـ تمتازُ كتُبه بين كتب الفقه والكلام العامة بخلوِّها من الجفافِ والتعقيد والاختصارِ، الأمر الذي يعتبرُ سمةَ الكتب المؤلّفة في هذا الموضوع، ولكن

---

(١) اقرأ (تفسير سورة النور) و (سورة الإخلاص) وما إلى ذلك لابن تيمية.

بالعكس من ذلك إنَّ **مؤلفاتِ ابن تيمية تتسم بالسلاسة والقوة والفصاحة، وأحياناً بصفـة البلاغة والأدبِ والخطابـةِ من غير قصد**، تلك التي تجعل كتبَهُ (وأكثرها دفاتر ضخمة) ذاتَ روعةٍ وحيّويةٍ وقوةٍ، سيّما عندما يبحث هو في ترجيح مذهب السلفِ، وفي تفوقهم العلمي والديني، وفضلهم العمليِّ والفكريِّ، يستمد قلمُه قوةً، ويستوحي بحثُه صفةً من الرَّجَزِ.

لقد تحدَّثَ معاصروه والمؤلفون عن حياتـه عن بلاغته وخطابته بصفـة خاصةٍ ضمن الحديث عن أحواله وفضائله، يقول الحافظ أبو حفص البزار:

«يجري كما يجري التيّارُ، ويفيضُ كما يفيضُ البحرُ، ويصيرُ منذ يتكلَّم إلى أن يفرغَ كالغائبِ عن الحاضرين، مغمضاً عينيه، ويقعُ عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعِدُ القلوبَ، ويحيِّرُ الأبصارَ والعقولَ»[1].

يبدو من دراسة مؤلّفاته أنَّ سلاسة الألفاظِ وفيضان العلمِ، لا يختصمانِ بمجالسه، بل يشاركُ قلمُهُ لسانَهُ، هكذا أبدى (الأقشهري) انطباعه عنه في رحلته، إذ إنّه يقول: «وقلمُه ولسانُه متقاربان».

وعلى هذا الاعتراف بمحاسنه، لا بدّ من الإشارة إلى بعضِ جوانب الضعف لكل مؤرخٍ ناقدٍ، وهي أنَّ في كتبه ومباحثه اضطراباً، وانتقالاً من معانٍ إلى أخرى، وبدء بحث جديد بأدنى مناسبة، كما أنّها تتسم بالإطناب والتطويل، ولا شك أنَّ ذلك مما يسبِّب حيرةً شديدةً للقارئ، لا سيما إذا كان يجهل أسلوبه وطرازَ تأليفه، إنَّ السببَ الكبيرَ لذلك إنّما هو حِدَّةُ ذهنه، وفرطُ ذكائه، ووفرةُ علمِهِ، وحماسُ طبيعته.

ويبدو أنّ ذهنـه وقلمه لا يكادان يسـتقران في مجال البحث على نقطـة واحدة، وترِدُ إليه الخواطر، وينتقلُ ذهنُه بسرعةٍ بالغةٍ، لا تضعُ عليهما حدّاً، وذلك ما كان تتصفُ به درُوسُه، يقول تلميذه أبو حفص البزار:

«كان ابن تيمية إذا شرعَ في الدرْسِ يفتحُ الله عليه أسرارَ العلوم، وغوامضَ

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٥.

ولطائفَ ودقائقَ فنونٍ ونقولٍ، واستدلالاتٍ بآياتٍ وأحاديثَ، واستشهاداً بأشعار العرب، وهو مع ذلك يجري كما يجري التيار، ويفيضُ كما يفيضُ البحر»[1].

وهذه الخصيصةُ من وفرة المعلومات، وكثرة البراهين والدلائل، وتموج ذهنه هي التي كانت تسدُّ الطريق على مناظريه في مجلس المناظرة، إنّه كان يدخل في ثنايا بحثه ومناظراته علوماً ومسائلَ يعسرُ على خصمه أن يرتكز على بحث واحد، وينضبط في مسألة واحدة، وذلك ما جعل العلماء والفقهاء في مصر والشام يتجنبون مناظرته في المجالس العامة، ويعتذرون إليه، وقد عبّر عن هذه الصعوبة أحدُ معاصريه ومناظريه الفضلاء الشيخ (صفي الدين الهندي) بكلامه الآتي:

«ما أراكَ يا ابن تيمية إلا كالعصفورِ حيثُ أردتُ أن أقبضَه من مكانٍ فرَّ إلى مكانٍ آخر»[2].

إنّ هذه الطبيعة العلمية (التي ليست نتيجة نقصٍ أو عيبٍ، بل إنّها دليلٌ على كثرة معلوماته، ووفرةِ فضله وذكائه وعلمه) توجدُ في مؤلفاته، فإذا تجلّدَ الطالبُ الصادقُ، ودأبَ على الغوْصِ في بحره، فلا شكَّ أنه يرجعُ منها بدرر ثمينة، ولآلئَ فاخرة.

* * *

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٥.

(٢) نزهة الخواطر: ٢/ ١٤٠، ترجمة محمد بن عبد الرحيم الأرموي (الشيخ صفي الدين الهندي).

الفصل السادس

أسباب معارضة ابن تيمية

بَيْنَ نُقَّادِهِ وَالْمُدَافِعِينَ عَنْهُ

ينشأُ هنا سؤال في نفس كلِّ إنسان سليم الطبع، وهو أنّ ابن تيمية على رغم تبوئه هذا المنصبَ العالي للعلم والدين، وتحلّيه بالفضائل الفكرية والتدين والإخلاص إلى حدِّ الإبداع والتفرّد، لماذا خولف وعورض هذه المعارضة الشديدة من قبل معاصريه وبعض المتأخرين من العلماء؟[1].

ولماذا ظلّت شخصيته موضعَ بحثٍ وانتقادٍ منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا؟

ولماذا لم يتفق الناسُ على عظمةِ هذا الإنسان الجامع للفضائل والكمال.

إنّ هذا السؤال حقٌّ، ويجدرُ بأن نردَّ عليه في وضوحٍ وصراحةٍ في ضوء سيرته وتاريخه المعاصر:

١ ـ إنّ وجود فريقين متنافسين في شخصيّة، وصراعهما في تحديد مكانتها لدليلٌ على عظمتها قبل كلِّ شيء، فإنَّ الشخصياتِ التي لمعتْ في التاريخ، وتميّزتْ بفضائل خارقةٍ للعادة، إنّما واجهت هذا الوضع دائماً، ونالت تأييدَ فريقٍ وإعجابَه، ومبالغةً في مدحها والثناء عليها، وانتقادَ فريقٍ آخر ومعارضته، ومغالاته في الحطِّ من شأنه، ونقصِ منزلته، إنّها تجربةٌ مستمرّة للتاريخ، فيما يتّصلُ بالشخصيات العظيمة ذاتِ العبقريات، حتى إنّ بعضَ فلاسفة التاريخ وعلم النفس، وأصحابِ البصيرةِ للعظمةِ والعبقريّةِ، اعتبروا ذلك من مبادئ العظمة، وشروط العبقرّية.

---

(١) لا يغيبنّ عن البالِ أنَّ هناك فرقاً بين المخالفة والاختلاف، إذ إنَّ الاختلاف حقٌّ لأهل العلم والتحقيق دائماً، لا يمكن سلبُه من العلماء في أيِّ زمان، ولذلك فإننا لا نعني هنا الاختلاف مطلقاً، بل نبحثُ في المخالفة وأسباب تضليله وتكفيره.

٢ ـ كـان ابنُ تيميّـة أعلى من المسـتوى الفكريّ والعلميّ للجيل الذي نشأ فيـه، وكان ذلك بلاءً عظيماً لمعاصريـه، إذ إنّ السموَّ على المستوى السائد نعمةٌ موهوبةٌ، ومِنْحَةٌ من الله يغتبطُ عليها، إلا أن صاحب هذه النعمة يضطر إلى دفع ثمن باهظٍ لها، إنّه يعيشُ في بلاء مستمر، ومحنةٍ دائمة من قِبَلِ معاصريه.

كما أنَّ أولئك المعاصرين يعانون من شقاءٍ ومصيبةٍ طول حياتِهم من أجله، وذلك لأنّهم لا يسايرون طراوةَ فكره، وعلوَّ نظره، وقوةَ اجتهاده، ولا يستطيعون أن يتوصلوا إلى آفاق علمه وفِكَرِهِ العالية.

هذا وهو لا يقدر على أن يبقى مقيّداً محدوداً في مصطلحاتهم المحدودة المرسـومة، وحدودهم المدرسـيّة، بل إنّه يطيرُ بحرّيةٍ في أجواء العلم والفكر الواسعة، ويسبَحُ في بحارِ الكتاب والسنّةِ الزاخرة، إنّ مبلغَ علمهم لا يعدو فهمَ كتب المتقدّميـن وأهل التدريس، أمّا هو فـإنّه يكونُ مجتهداً ومجدِّداً في علومٍ كثيرةٍ، وقد يكونُ مرسياً لقواعد بعض الفنون، مبتكراً لها.

وبالجملة فإنّ تفاوت المدارك والكفاءاتِ يحدِثُ صراعاً عجيباً ـ لا يكاد ينتهي ـ بينه وبين معاصريه المخلصين، فلا يستطيعُ أن يقنعهم في حالٍ ما، إنَّ أصحابَ الفضلِ ومجتهدي الفنِّ من العلماء واجهوا هذه المشكلة في كلِّ زمان، إنّهم وجدوا أنَّ تحقيقاتهم وعلومَهم تعدّتْ المستوى العلميَّ والدراسيَّ السائد في عصرهم، فلم يتمكنْ من فهمها والتغلُّبِ عليها أولئك العلماء، الذين لم ينطلقْ فكرُهم من نطاق الكتب المتداولـة، وذلك هو العاملُ الكبيـرُ لمعارضة كثير من أهل العلم[1].

---

(١) ولقد أشـار إلى هذه النقطة أفضلُ المتـأخرين شيخُ الإسـلام وليُّ الله بنُ عبد الرحيم الدهلوي في مؤلفاته، يقول في موضع من كتابه (إزالة الخفاء): «بما أنّكَ لم تقرأ هذه المقدمة في كتب علم الكلام بمثل هذه الروعة يحتمل أن تتطرقَ إلى قلبك وحشـة»، ويقـول في مكان آخـر: «إنّ فهمَ هذا المعنـى في غايـةٍ من الدقـة، فإنّ الجماعةَ التي لايتجاوز علمُها شرحَ (الوقاية) و(الهداية) كيف تستطيعُ أن تدركَ هذا السرّ الدقيقَ؟»: ٨٤/٢.

٣ ـ إنّ طائفةً من المعارضين إنّما كانت تعارضُ هؤلاء العباقرة على أساس أنّهم إنّما كانوا يسيطرون على رجالِ الحكومة، وينالون إعجابَ الجميعِ من العامّةِ والخاصّةِ بفضلِ ذكائهم وعلمهم، وعلّو مكانتهم، وجمالِ شخصيتهم.

لا يقوم أحدٌ أمام علمهم وبيانهم، إنّهم يستولون على الجميع حيثما كانوا، فإنْ درَّسوا أوحشت مجالسُ دروسِ الآخرين، وإن خطبوا تدَفَقتْ منهم بحار العلم، ولقد أشار الحافظ الذهبي في الفقرة التالية ذاتِ المغزى الدقيق إلى كوامن النفوس هذه، يقول: «غير أنّه يغترِفُ من بحرٍ، وغيرُه من الأئمةِ يغترفون من السّواقي»[1].

ولا شكَّ أنَّ العلماءَ في كلِّ عصرٍ إنّما كانوا بشراً، يتمتعون بأفكار ومشاعر البشر، فلا غرابةَ إذا كان سببُ المعارضة لدى كثير منهم هو ما يسمّى في عصرنا بمركّب النقص، وضعف الطبيعة البشرية، ذلك الذي يتعسّرُ التحرّزُ منه، إنَّ المؤرخين حينما يتحدثون عن أسباب العداوة والمعارضة للإمام أبي حنيفة ينشدون البيت الذي يصدقُ في كلِّ عصرٍ:

حَسدُوْا الفتى إذْ لم ينالوا سعْيَهُ   فالناسُ أعداءٌ لَهُ وخصُومُ

٤ ـ إنّ السببَ الطبيعيَّ لمعارضته لدى كثير من المعاصرين خصيصةٌ كانت في نفس شيخ الإسلام، تلك التي توجدُ عند كثير من أهل الفضل، الذين يتميّزون بذكاءٍ غيرِ عادي، وسعةِ النظرِ، وكثرةِ المعلومات، وأعني بها حِدّةُ الطبيعة، التي تبعثهم في بعض الأحيانِ على تناولِ بعضِ معاصريهم بالنقد اللاذع، وإظهار جهلهم وغبائهم، وقلّة علمهم، وتَخرُجُ من أفواههم من شدّة التأثّر كلماتٌ تجرحُ شعورَ أهل العلم من معاصريهم والمعجبين بهم، وتثبِّط همة تلاميذهم، الأمر الذي يبذر في قلوبهم بذورَ النفورِ والعداوةِ الدائمةِ، وذلك ما ينتج إصدارَ فتاوى الكفر والضلال عليهم، والمعارضة المستمرة والتربص بهم الدوائر.

لم يصرف معاصرو شيخ الإسلام ومترجمو حياتِه نظرَهم عن تلك

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٤٥.

الخصيصة الطبيعية التي كانت نتيجة أحواله وفضائله العلمية والفكرية إلى حد كبير، كلما تحدثوا عن فضائله ومناقبه وأحواله، يقول الحافظ الذهبي الذي كان معجباً بفضائله العلمية والدينية:

تعتريه حِدَّةٌ في البحثِ، وغضبٌ وصدمةٌ للخصومة، تزرعُ له عداوةً في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمة إجماع، فإنَّ كبارَهم خاضعون لعلومِه، معترفون بأنه بحرٌ لا ساحلَ له، وكنزٌ ليسَ له نظيرٌ».

ونجدُ في حياته عدداً من أحداثٍ تؤكِّدُ أنّه لم يتمكن من تحمُّلِ قلةِ فهمٍ أو قِصَرِ نظرٍ ودراسةٍ لمعاصره في أيِّ مسألة دينية وعلمية، فلم يلبث أن جهر بذلك، حتى إنّ معاصره عاد منافساً ومعانداً له بصورة دائمة.

ففي **مسألة الزيارة** حينما ردَّ عليه تقي الدين ابن الأخنائي المالكي، وقرأ رسالة رده تصدّى للردِّ عليها، وقال فيها: إنّه قليلُ العلم والمعلومات، لا يصلحُ للكتابة في هذه المسألة، وكان نقدُه هذا سببُ محنته وإيذائه، فقد يرى بعضُ مترجمي حياتِه، ومؤلفي سيرته، أنّ ذلك هو السبب في اعتقاله الأخير، وطول أسارته، ومصادرة أدوات كتابته[1].

وهكذا حضر أبو حيّان المفسّر ـ الذي كان يعتبَرُ إمامَ عصره في النحو ـ دروس ابن تيمية معجباً به، ومعترفاً بفضله، وكان قد نظم قصيدةً في مدحه كان مطلعها[2]:

لمّــا أَتَيْنَــا تقــيَّ الــديــنِ لاحَ لَنَــا ... داعٍ إلــى الله فَــرْدٌ مَــالَــهُ وَزَرُ

ومن جملتها قولُه:

يا مَنْ يُحدِّثُ عَنْ عِلْمِ الكتابِ أصِغْ ... هــذا الإمــامُ الــذَّيْ قَــدْ كــانَ يُنْتظَـرُ

وفي ثنايا الكلام دار الحديثُ حول مسألة نَحْوِيَةٍ، فأوردَ أبو حيان مذهب

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٤.

(٢) انظرها بتمامها في كتاب (شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة) لإبراهيم محمد العلي، ص٣٣٤. طبع دار القلم بدمشق. (الناشر)

سيبويه مؤيِّداً جانبه، وكان يتوقَّعُ أن يسكتَ ابن تيميّة، ويعترف بفضل سيبويه، ولكنّه ردَّ عليه قائلاً: «إنّ سيبويه ليس نبياً للنحو معصوماً عن الأخطاء، بل إنه أخطأ في (الكتاب) في ثمانين موضعاً، لا تستطيعُ أن تتفطنَ لها»، وما إنْ صادفَ أبو حيان هذا الكلام الشاذّ من ابن تيميّة حتى تنغَّصَ خاطرُه، وأخرجَ قصيدةَ ابن تيميّة من ديوانِه، ولم يعدْ معجَباً بابنِ تيميّة، بل أصبحَ من معارضيه ونُقّادِه.

٥ ـ وسببٌ آخر لمعارضته وهو بعض تحقيقاته وترجيحاته التي يتفرّدُ به، وينشق فيها عن جماعةِ الأئمةِ الأربعةِ والمذاهبِ المشهورةِ في بعضِ الأحيان، إنّ هذه التفردات لا تبعثُ وحشةً واستنكاراً في نفوس مَنْ لهم اطلاعٌ واسعٌ على تاريخ الفقه والخلافيات وأقوالِ الأئمةِ والمجتهدين ومسائلهم، إنّهم يعرفون جيداً أنّ تفرّدات الأئمة المشهورين، والأولياء المقبولين، ومسائلهم الغريبة إذا جمعت تتضاءلُ أمامها هذه التفرّدات، وتبدو لهم كلا شيء، ويتضعضعُ اعتقادُهم بالتفرّد، الذي يعتبرونه مضاداً للقبول، ومنافياً للحق، ويشترطون لعظمته وولايته أن لا يكونَ له رأيٌ أو تحقيقٌ يعارضان الآراءَ والتحقيقاتِ المشهورة.

أما الذين لا يملكون نظرةً واسعةً حول الخلافيات، أو أنّهم يسمحون بالتفرّد والشذوذ للمتقدمين، لكنهم لا يرون في ذلك مندوحةً للمعاصرين، مهما بلغوا من التفوق والكمال شأواً بعيداً، فقد أصبحَ لهم هذا التفرّدُ أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضلال، ودليلاً على خرق الإجماع.

وما أعدلَ وأجملَ كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (وقد تقدّم فيما مضى) وأبعدَ من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع، إنه يقول:

«فالذي أصاب فيه ـ وهو الأكثر ـ يستفاد منه، ويترحمُ عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلّدُ فيه، بل هو معذورٌ».

٦ ـ وهناك سببٌ آخر قويٌّ لمعارضته، وهو أنه خالف ذلك الأسلوبَ في تأويل الصفات والآيات المتشابهات الذي كان يعرف باسم (العقيدة الأشعرية) بل باسم عقيدة أهل السنة، وكان الناس يرون العدولَ عنه نوعاً من الجهل، أو معارضةً

لأهل السنة، وقد أسلفنا التفصيلَ بأنَّ الإمام ابن تيمية خالف ذلك بكلِّ جرأةٍ وقوةٍ، وشـرح مذاهب الصحابـة والتابعين رضي الله عنهم، والأئمـة المجتهديـن، والمتكلّمين المتقدمين كـ(الإمام أبي الحسن الأشعري)، و(القاضي أبي بكر الباقلاني)، و(إمام الحرمين الجويني) بأقوالهم ومؤلفاتهم، وأثبتَ من مقتطفاتِ كتبهم أنَّ هؤلاء الأئمة كلُّهم إنما يوجبون الإيمانَ بالصفات، إنّهم يعترفون بحقيقتها التي تتفِقُ وعظمةَ الله سبحانه وتعالى أو تنطبق على قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. وتتنزَّهُ عن النفي والتعطيل والتشبيه والتجسيم، إنّهم يدّعون أنّه لم يثبت خلافَ ذلك لفظٌ واحدٌ لا نصاً ولا ظاهراً عن الصحابة والتابعين والسلف رضي الله عنهم.

لقد كان العالم الإسلامي آنذاك تحت تأثير العلماء والمتكلّمين الأشعريين، ولذلك فإنَّ اختلافَ ابن تيمية الذي كان مؤسَّساً على أُسسٍ علمية خالصةٍ، اعتبرَه النـاسُ نوعاً من البدعة، ومرادِفـاً لقولـه تعالى: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١١٥]، واتهموه بالتجسيم.

وبما أنّ العلماء في ذلك العصر كانوا يرونَ أنّ التأويل لا مناصَ منه، وقد أطبقوا عليه، ركّزَ ابنُ تيميّة كلَّ قوته على رد التأويل، وقد شكَّ الناسَ بجهره برد التأويل في اعتقادِه، ورموه بالتجسيم، وغالوا في ذلك إلى حّد أنهّم نسبوا إليه روايات تؤكِّدُ أنه من الفرقة المجسمة، مثلاً إنه كان يخطَبُ في الجامع الأموي بدمشـق، ونزل من درجات المنبـر إلى أدناها وقال: إنّ الله تعالى يَنْزِلُ كنزولي هذا[1].

إنّ الإمامَ ابنَ تيميّة وتلاميذَه كلّهم نَفَوْا هذه التهمةَ، وأبدوا وأعادوا براءتهم

---

(١) سجل ابن بطوطة هذه القصة في رحلته كحادثٍ رآه بعينه، وقد سألتُ علامة الشام الشيخ بهجة البيطار عن هذه القصة فقال: إنّها لاتستـندُ إلى أصلٍ تاريخيٍّ، فإنّ ابنَ بطوطـة يتحدّث عن وصوله إلى دمشق في رمضان ٧٢٦هـ والمعلومُ أنَّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية كان قد اعتُقِل في السابع من شعبان ٧٢٦هـ ثم إنه لم يكن خطيباً في الجامع الأموي في أيِّ زمان، وكان الشيخ جلال الدين القزويني هو خطيب الجامع الأموي في عهده، وهذا يؤكد أنّ ابنَ بطوطة التبس عليه الأمر، أو أنه زور الكلام.

عن التجسيم، ولكنَّ كتاباته القوية في معارضة التأويل التي كانت عن ضرورة قدّمها معارضوه كدليل على عقيدة تجسيمه، وقد كان ذلك أقوى سبب من الأسباب التي دعت كثيراً من العلماء وأتباعهم إلى معارضته.

والواقع أن الطريق بين التأويل والتجسيم شائك حرجٌ، بحيث لا يتسنّى لكلّ إنسان أن يفهم الفرق بينهما، وقد لوحظ أنَّ عدداً من الحنابلة ومنكري التأويل تسرّبوا إلى ثغر التجسيم، فلا غرابةَ فيما إذا رُمِيَ ابن تيمية بالتجسيم في مثل هذه الأوضاع، على أنَّ الحقيقة تؤكِّد أنّه كان بريئاً من هذه التهمة كل البراءة[1].

٧ ـ وسبب آخر لمعارضته وهو مخالفته للشيخ (محيي الدين ابن عربي) فإنّ ذلك ذنبٌ لا يغتفَرُ لدى كثير من الناس، ولا سيما الذين يغالون في المذهب الصوفي، ويتجهون إلى أنهم يرونَ أنَّ نفيه لمذهب وحدِةِ الوجود، وردُّهُ على آراء الشيخ محيي الدين وتحقيقاته المشهورة، يكفيان للقضاء على جميع فضائله ومحاسنه التي كان يتحلى بها.

وليس شيخ الإسلام ابن تيمية هو الفريد في نقده لآراء الشيخ محيي الدين ابن عربي ومذهبه، بل يوافقه في هذا الاتجاه بعضُ كبار الصوفية، وأئمة الطرق المحققين، فقد حملَ لواءَ الردِّ على الشيخ محيي الدين، ومخالفةِ مذهبِهِ في وحدة الوجود (الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي) إمام الطريقة المجددية النقشبندية، في رسائله الخالدة، وانتهت إليه رئاسة معارضة الشيخ، والدفاع عن العقيدة السنية، ورسائله مملوءة بهذه التصريحات، ونكتفي هنا بنقل واحد، يقول رحمه الله في رسالة وجهها إلى أحد أصحابه:

«إنّ أكثرَ معارفه التي تتعلّق بالكشوفِ، وتعارضُ علومَ أهل السنة بعيدة عن الصواب، ولا يتبعه فيها إلا مَنْ هو مريضُ القلب، أو أنّه مقلّدٌ بحتٌ»[2].

وقد ذكر العلامة (نعمان الألوسي) صاحب (جلاء العينين) قائمةً لأولئك العلماء الذين كانوا يؤيدون ابن تيمية في هذه المسألة، وقد ألف عددٌ منهم رسائل مستقلة في هذا الموضوع، نجد من بينهم العلامة (السخاوي)، والعلامة (سعد

---

(١) انظر كتاب (ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل) للدكتور محمد السيد الجلينيد. (الناشر)
(٢) مجموع رسائل: ١/٢٦٦.

الدين التفتازاني) والعلامة (نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي)، المعروف بملا علي القاري، و(الحافظ ابن حجر العسقلاني)، و(أبا حيان المفسر)، وشيخ الإسلام (عزّ الدين بن عبد السلام)، والحافظ (أبا زُرعة العراقي)، وشيخ الإسلام (سراج الدين البلقيني)، شخصيات لامعة من الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام[1].

ثم إنّ مخالفة شيخ الإسلام ابن تيمّية للشيخ الأكبر لا تقومُ على أساس الشخصية أو العاطفة، إنّما هي مخالفةٌ باعثُها الحميّةُ الدينيّةُ، والغَيرةُ الشرعيّةُ، يزخَرُ بأمثلتها تاريخ السلف والخلف، فإنَّ أهلَ الحميّةِ الدينية، والمحافظين على الشريعة كلما رأوا كلاماً لأحدٍ يعارضُ السنة ونصوص الشريعة، ويتنافى مع عقائدها القطعية المتواترة تصدّوا للردّ عليه، ولم تَحُلْ دون ذلك عظمة صاحبُ ذلك الكلام وشهرتُه، ولا آثارُ ولايته، وقبوله العام، وذلك لأنَّ حرمةَ الشريعةِ، وعظمةَ مكانة النبوة فوق كلِّ حرمةٍ وعظمةٍ، وإنّ الشيخ السَّرْهندي نفسَه لم يستطع أن يضعَ حدّاً لحماسه العمري وسورة حميته الدينية، وتصدّى للردِّ على مثل هذه الأقوال بكلِّ قوة، أخبره أحدُ العلماء المعاصرين مُرةً أنَّ الشيخ (عبد الكبير اليمني) لا يؤمنُ بعلم الغيب لله تعالى، فردَّ عليه قائلاً:

«يا سيدي! إنّ هذا الفقير لا يحتملُ أن يسمعَ مثل هذه الترّهات، فإنّ العِرْقَ العمريَّ، الذي ورثتُه عن آبائي ينبضُ ويثورُ ويفورُ فيَّ، ولا يتركني أن أؤوِّل مثل هذا اللغو من الأقوال، وإنْ كان الذي يقوله الشيخ (عبد الكبير اليمني) أو (الشيخ الأكبر) الشامي، **إنَّ الحجة في كلام سيدنا محمد العربي ﷺ، لا في كلام (محيي الدين ابن عربي) و(صدر الدين القونوي) و(عبد الرزاق الكاشي)، إنّما يعنينا النصُّ[2] لا الفصُّ[3]**، وقد أغنتنا (الفتوحات المدنية)[4] عن (الفتوحات المكية)»[5].

---

(١) جلاء العينين، للعلامة خير الدين نعمان ابن العلامة محمود الألوسي، ص٤٣ ـ ٤٤.

(٢) يريد به نصوص الكتاب والسنة.

(٣) يشير إلى كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي المعروف بـ(فصوص الحكم).

(٤) يريد بها تعاليم الكتاب والسنة.

(٥) كتاب الشيخ محيي الدين ابن عربي المعروف بـ(الفتوحات المكية).

هذه الحميّةُ والغَيْرةُ، وهذا الاختلاف والإنكار، الذي لا ينبعثُ إلا من الحميّة الدينيّة، والانتصار للكتاب والسنة، وإيثار جانب الله والرسول ﷺ على كلِّ شيءٍ سواهما، وهذا الحبُّ الخالصُ لمن يستحقُّ الحبَّ والاحترامَ، ليس كلُّ ذلك ممّا يُعَدُّ من المعايب، إنّما يجدرُ أن يعتبرَ ذلك من أفضل المناقب، وأعلى الفضائل، إذ إنّه مصداقٌ كاملٌ لما صحَّ من حديث:

«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبُّ إليه مما سواهما، ومَنْ أحبَّ عَبْداً لا يحبُّه إلا لله، ومَنْ يكرهُ أنْ يعودَ في الكفرِ بعدَ أنْ أنقذهُ الله منه كما يكرهُ أنْ يُلقى في النار»[(١)].

٨ ـ وأصيبتْ طائفةُ بسوءِ ظنٍّ كبيرٍ به، ومغلطاتٍ كثيرة في بابه، فقد نَسَبَ إليه بعضُ المؤلفين الحاقدين عليه أقوالاً تُوجِبُ الكفر، وفقاً لمذهب الجمهور، ومعتقداتِ أهل السنة العامة، كما نسبت إليه أقوالٌ أخرى تحطُّ من شأن صاحب النبّوة العظمى، وتسيءُ إليه (أعاذنا الله وجميع المسلمين منها).

ولم يكن ابن تيمية وحده هدفاً لهذه المعاملة الشنيعة، بل تناولَ المعاندون رجالَ الأمة الآخرين أيضاً بهذه المؤامرة الدنيئة، إنّهم لم يكتفوا بنسبة تلك الأقوال والعقائد التي كانوا أبرياء منها، بل زادوا في مؤلفاتهم من المواد التي تستوجبُ الكفر والضلال.

وتقدّموا خطوةً زائدةً، فألّفوا كتباً بذاتها ـ مشتملة على مواد الكفر ـ ونسبوها إليهم، جاهدين في نشرها على أوسع نطاق، هكذا عُومل حجة الإسلام الإمام (الغزالي) من قِبَلِ معارضيه، إذ إن جماعةً من العلماء تعتقد أنّ الكتب التالية: (المضنون به على غير أهله) و(المضنون به على أهله) و(معارج القدس) و(مشكاة الأنوار) منحولة إليه، فعل ذلك أعداؤه وحُسَّاده، ويقال: إنّ بعض مؤلفات الشيخ (محيي الدين ابن عربي) دَسَّ الناس فيها موادَّ وآراء تخالفُ مبادئ الإسلام، وما ثبتَ بالضرورة في الإسلام، كما يقول الإمام الشعراني[(٢)]، وقد

---

(١) متفق عليه.

(٢) يقول ذلك في نسخ من كتب ابن عربي كانت متداولة في عصره في مصر، أما النسخ=

جرب هو نفسُه في كتبه أيضاً قصة تثير الاستغراب والدهشة، يقول في كتابه (الأجوبة المرضية):

«وقد ألحق بعض الحساد بكتابي (البحر المورود في المواثيق والعهود) زيـاداتٍ كانت تعارضُ الشـريعة، وتولّوا إشـاعتها في (الجامع الأزهر) وغيره، حتى نجمت بذلـك فتنـةٌ، وهنالك اضطررتُ إلى أن أقـدِّمَ النسـخةَ الصحيحة الأصليّة من كتابي إلى العلماء، فكتبَ عليه كبارُ العلماء ومشايخُ الإسلام تزكيةً وتصديقاً، ومن ثَمّ اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات، التي كان قد ألحقها الحُسّادُ بكتابي، وماتت الفتنة».

ولا شـك أن المعاملة القاسـية التي لقيها ابن تيمية من بعض المعاصرين والمتعصبين، تـؤكدُ أنّ كثيراً من أقـوالِ الكفرِ والعبـارات التي يُستدَلُّ بها على الإساءة إلى مقام الرسالة العظمى، وقلّةِ الأدب معه (أعاذ الله شيخ الإسلام وجميع المسلمين منها) مما حمل كثيراً من المخلصين والعلماء ذوي الحمية الدينية على معارضته، بل على تكفيره وضلالته.

وقد غالتْ طائفةٌ من معارضيه وأعدائه في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع إلى حدٍّ أنّها أصدرتْ فتوى بأنّ من يُسمِّي ابنَ تيميّة شيخَ الإسلام فهو كافر[1] فألّفَ حافِظُ الشام شمس الدين الشهير بـ (ابن نـاصر الدين) الشافعي

= الصحيحة المكتوبة بخط ابن عربي نفسه فهي محفوظة في مكتبة قونية لأنه أعطى مكتبته لتلميذه صدر الدين القونوي، قبيل وفاته، وقد أرسل الأمير عبد القادر الجزائري (المعروف بتعصبه لابن عربي) إلى قونية عالمين مشهورين أحدهما الشيخ مصطفى الطنطاوي رحمه الله لينسخا له نسخة الفتوحات عن نسخة المؤلف ففعلا ذلك وأرسلها إلى مصر حيث طبعت في مطبعة بولاق بعنايته وإشرافه، فطبعة بولاق والميمنية المأخوذة عنها وطبعة الهيئة العامة للكتاب كلها مطبوعة عن نسخة المؤلف ولا مجال للقول بأن فيها دساً أو تحريفاً. (الناشر)

(١) يتقدّم هذه الطائفة الصغيرة الشيخ محمد بن محمد البخاري المشهور بعلاء الدين البخاري، ولد سنة ٧٧٩هـ وتوفي ٨٤١هـ، كان فقيهاً حنفياً ولد بإيران، ونشأ ببخارى، ورحل إلى الهند، ثم إلى مكة ومصر، وأقام بهما طويلاً، ثم انتقل إلى دمشق، ومات=

(م٨٤٢هـ) ردّاً على هذه الفتوى، وإثباتاً لفضل شيخ الإسلام ابن تيمية وعظمتِه وإمامتِه، وبراءتِه من هذه الأقاويل كتابه الشهير (الردُّ الوافِرَ على من زَعَمَ أنَّ مَنْ سَمَّى ابنَ تيميّة شيخَ الإسلامِ فهو كافرٌ)[1]، جمع فيه شهادات من ٨٧ عالماً وإماماً، وآراءهم، وانطباعاتهم، واعترافاتهم بعظمته وإمامته، وقدّم لهذا الكتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني، والعلامة العيني، وأفاضا في الثناء على ابن تيميّة وتأييدِه، وأبديا أنّه كان صحيحَ العقيدةِ، وسنيّ المذهب، وشيخَ الإسلام بلا نزاع، حتى إنّ العلامة بدر الدين العيني قال فيما كتب: «**ومَنْ نسبَه إلى الزندقةِ فهو زنديقٌ، وقد سارتْ تصانيفُه إلى الآفاقِ، وليس فيها شيءُ مما يدلُّ على الزَّيْغِ والشقاق**».

بيدَ أنَّ هذه المؤامرة على ابن تيميّة ظلت مستمرة، ولم تزل طائفةٌ من النّاس تَنْسُبُ إليه أقوالاً لم تكن تمتُّ إليه بصلة، وتناقلها النّاسُ، مما أثار العواطف خلافه، وجعل النّاسَ يخالِفونه بكتاباتهم، وكان في مقدّمتهم عالمُ القرن العاشر، ومؤلّفه الشهير، العلامة (ابن حجر الهيتمي المكي)[2]، الذي أصدر فتاوى قاسية على ابن تيميّة، تضمّنتْ كلماتٍ نابيةٍ مثلاً: «عبدٌ خذله الله تعالى وأضله، وأعماه وأصمه وأذله».

= فيها، وكان شديدَ الإنكار على ابن تيمية، وعلى الشيخ محيي الدين ابن عربي في وقتٍ واحدٍ، وألّفَ في الأخير كتاباً أسماه (فاضحةُ الملحدين وناصحةُ الموحّدين).

(١) صدر هذا الكتاب في مجموعة ألّفها ورتبها فرج الله زكي الكردي، واهتمَّ بطبعها الشيخ عبد القادر التلمساني في مطبعة كردستان العلمية في مصر سنة ١٣٢٩هـ، وقد أصدرَ المكتب الإسلامي ببيروت طبعةً جميلةً منقحةً بتحقيق صديقنا الفاضل الأستاذ زهير الشاويش مع حواشٍ مفيدة وفهارس عديدة سنة ١٣٩٤هـ، فكان عملاً مشكوراً، والكتابُ أثمنُ ذخيرةٍ تحتوي على حياةِ الشيخ وسيرته. المؤلف.

(٢) ولد سنة ٩٠٩هـ في مصر، وتوفي سنة ٩٧٣هـ بمكة المكرمة، وأشهرُ كتبه (تحفة المحتاج في شرح المنهاج) أربعة أجزاء، و(الزواجر عن اقتراف الكبائر) و(الصواعق المحرقة) و(الفتاوى الفقهية) و(الفتاوى الحديثة)، وابن حجر المكي هذا غير العلامة ابن حجر العسقلاني صاحب (فتح الباري) ومتأخر عنه، إنَّ ابن حجرَ العسقلاني إمامٌ شهيرٌ في الحديث، ومحققٌ بالغُ النظر، يتعذَّر نظيره في المتأخرين، ولا يدانيه ابن حجر المكي في العلم وسعة النظر ورحابة الصدر والتحقيق.

ولكنّ عبارة الفتوى نفسَها تدلُّ على أنَّ العلامة ابن حجر نفسه لم يطلع على كُتبِ ابن تيمية، وأنّ معلوماتِه لم تكن مباشرةً وشخصيةً، إنما كان جُلُّ اعتماده في ذلك على تلك النقول والإشاعات، التي تولّى إشاعتها وترويجها بين الناس معارضوه، ودسوها في كتبهم ومؤلفاتهم، وتحدّثوا عنها في مجالسهم في ذلك العصر، إنه يقول في نفس الفتوى بعد ما ينقلُ تفرّدات ابن تيمية الفقهية والكلامية: «وقال بعضهم: ومن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل» ويبدي شكَّه في آخر الفتوى بقوله: «فإنْ صحَّ عنه مكفرٌ أو مُبَدِّعٌ يعامله الله تعالى بعدله، وإلا يغفر الله لنا وله».

قد قام بالردِّ على هذه الفتوى والمحاكمة بين أحمد ابن حجر وأحمد ابن تيمية العلامة (خير الدين نعمان الألوسي) ابن العلامة (محمود الألوسي) صاحب (روح المعاني) في كتابه القيم (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) وردَّ على العلامة ابن حجر بتفصيلٍ، وأثبتَ أنَّ جزءاً من هذه المقولات زورٌ وافتراءٌ محضٌ، لا أساس له، فإنَّ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تتضمن بياناً وتصريحات تعاكِسُ هذه المنقولات، وتضادها تماماً، ولكنَّ جزءاً خفيفاً جداً من هذه المنقولات، يحتاج إلى تفصيلٍ، إذ إنه لا يتحدّثُ عن الحقيقة التي بينوها، أو أنّ ابن تيمية لا يتفردُ فيها وحدَه، كما أنّه جمع في هذا الكتاب ذخيرةً قيمةً من سيرته وأحواله[1].

ولقد ظلّ العلماءُ المحققون والمؤلفون من العلماء المنصفين وواسعي النظر يعارضون ابن حجر المكي في هذا الموضوع، ويبرئون ابن تيمية، ويعترفون بنبوغه وعلوِّ مكانته في رسائلهم ومؤلفاتهم، حتى إنّ تلميذَ ابنَ حجر المكي العلامة (نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المشهور بالملا علي القاري)[2]،

---

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٩٨هـ، بالحروف الحديدية الدقيقة ويقع في ٣٦٢ صفحة.

(٢) كان من أهل هراة (أفغانستان) ويعتبَرُ من أكابر علماء الحنفية في عصره، سافر إلى مكة حيث توطّنَ، وكان من علماء المناسك والفقه والحديث البارزين، اشتُهِرَ من بين مؤلفاته (المرقاة شرح المشكاة) و(شرح الفقه الأكبر) و (شرح الشفاء) و (شرح شمائل الترمذي) و (شرح النخبة) و(شرح الشاطبية) و (شرح الجزرية) و (خلاصة القاموس) وما إلى =

يعارضُ آراءه في ابن تيمية، فإنّه يثني عليه في مؤلفاته ثناءً بالغاً، يقول في (شمائل الترمذي) و(المرقاة شرح المشكاة):

«ومن طالع (شرح منازل السائرين) تبينَ له أنّهما[1] كانا من أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة».

وقد تصدى في آخر الزمانِ إمامُ المتأخرين شيخُ الإسلام (أحمد بن عبد الرحيم) المشهور بولي الله الدهلوي للدفاع عن ابن تيمية بكلِّ قوةٍ، وصرّحَ بأنه لم يكن عالماً سنيَّ العقيدة وسلفيَّ المذهب فحسب، بل كان شارحاً كبيراً، ومناضلاً قوياً عن الشريعة الإسلامية، وخادماً مخلصاً للكتاب والسنة، عالماً جليلاً أتحفَ الله به الأمةَ المحمديةَ، كان من نوادرِ الزمانِ، ممن لا يجودُ به الدهر إلا بعد قرون، والذين عارضوه، وتعقبوا عليه، لم يبلغوا معشار ما آتاه الله من العلم العميق، والنظر الدقيق».

يقول عنه الشيخ الدهلوي تعديلاً لعلماء الإسلام وحملة الكتاب والسنة ومستشهداً بالحديث الشهير «يحْمِلُ هذا العلمَ مِنْ كلِّ خلفٍ عدولهُ»:

«وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فإنا قد تحققنا من حالِه أنّه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية، وحافظ لسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارفٌ بمعانيهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرِّرٌ لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائقٌ في الذكاء، ذو لسانٍ وبلاغةٍ في الذَّبِّ عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثَرْ عنه فِسقٌ ولا بدعةٌ، اللهم إلا هذه الأمور التي ضُيِّقَ عليه لأجلها، وليس شيءٌ منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف، فمثل هذا الشيخ عزيزُ الوجودِ في العلم، ومن يطق أن يلحقَ شأوَهُ في تحريره وحديثه؟! والذين ضيّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى، وإن

= ذلك، كانت له قدمٌ في التصوف أيضاً، توفي سنة ١٠١٤هـ، وصلّت عليه جماعةٌ كبيرةٌ صلاةَ الغائبِ في الجامع الأزهر بمصر.

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى. (الناشر)

كان تضييقُه ذلك ناشئاً من اجتهاد، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك، وما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم، والواجب في ذلك كفُّ اللسان إلا بخير»[١].

وبعد هـذه التزكية والشـهادة من شـيخ الإسلام (ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي) وثنائه البالغ على ابن تيميّة لا يُقامَ أيُّ وزنٍ لنقدٍ أو جَرْحٍ يصدران من عالم أو مؤلف[٢]، لا يبلغُ إلى آفاق ابن تيميّة العلميّة والفكرية، وإنّ كلامَ الشيخ الدهلوي الذي كان قد أكرمه الله بالتبحّر العلميّ، وتنوعِ الفضائلِ والفكرِ المجتهد، وملكة الاعتدالِ والاتزانِ، وميزةِ المعرفة لمكانة علماء الإسلام وقيمتهم لهو القول الفصلُ في هذا الموضوع، ولا أحد يجيدُ الدفاع والقول أحسن من هذا.

* * *

---

(١) هـذه العبارةُ جزءٌ من رسالةٍ وجهها الشـيخ الدهلوي إلى أحدِ معاصريه المخدوم معين الدين تهتوي (تهتهة مدينة بولاية السند) ردّاً على رسالةٍ له. وقد كان صاحبُ هذه الرسالة وجه إلى الشيخ الدهلوي بعضَ الأسئلة حول تفرّدات ابن تيمية، مشيراً إلى خلافات معارضيه، وطلب منه أن يبدي رأيه في ابن تيمية، وقد تولّى تلميذ الشيخ الدهلوي ومسترشده الشهير الخواجة (محمد أمين الكشميري) تدوينَ مجموعةٍ لرسائله، طبعت في المطبعة الأحمدية باسم (مناقب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وفضيلة ابن تيمية) وتوجدُ نفسُ هذه العبارات المذكورة لرسالة الشيخ الدهلوي في (جلاء العينين) أيضاً.

(٢) هذه العبـارة ردٌّ على انتقاص الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله لشيخ الإسـلام ابن تيمية. (الناشر)

الفصل السابع

شيخ الإسلام ابن تيميّة

كعارفٍ بالله ومحقّق

اكتشافٌ جديدٌ في شخصيّةِ ابن تيميّة:

عُرِفَ شيخُ الإسلام ابن تيميّة - بوجهٍ عام - كعالم متكلّم، وفقيه جدلي، ومحدّث كبير، ولا يتخيّله الدارسون لكتاباته العلميّة ومؤلفاته الجدليّة أكثرَ من أنّه كان عالماً ذكياً، واسعَ العلم، قويَّ الحجةِ، غزيرَ المادة.

والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامّةُ المؤرخين، أو قاسوه على تلاميذِه المتأخرين والمنتسبين إليه[1]، لا يرون فيه شيئاً أكثرَ من محدِّثٍ جافّ، وعالمٍ متبحرٍ في العلوم الظاهرة.

أما ما ذكره (الحافظ ابن قيم الجوزية) في (مدارج السالكين)، من أحواله وأقواله بمناسباتٍ شتّى، وكذلك ما ذكره العلامّة (الذهبي) وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه، وعاداتِه وشمائلِه، وأشغالِه وأعماله، فيدلُّ دلالةً واضحةً على أنّ شيخَ الإسلام ابن تيمية يستحقُّ كلَّ الاستحقاقِ أن يعدَّ من العارفين، ورجال الله في هذه الأمة[2]، وهنالك ينشرِحُ كلُّ صدرٍ للاعترافِ، بأنّه كان يتبوأُ تلك المكانة، ويتمتعُ بجميع تلك الغايات التي لا تتيسّرُ - بوجهٍ عامٍ - إلا برياضاتٍ شاقّة، ومجاهداتٍ طويلة، وتربيةِ أئمة الفنّ، ودوام الذكرِ والمراقبةِ، وذلك

---

(١) عدا تلميذُه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنة، في كتابه (مدارج السالكين) شرح (منازل السائرين) لشيخ الإسلام الهرري، وأثبت فيه أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكاناً علياً في المعرفة والروحانية، والذوق الباطني.

(٢) انظر كتاب (ابن تيمية والتصوف) للدكتور مصطفى حلمي. (الناشر)

ما يعبِّرُ عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله[1]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

تنوّع الوسائل، ووحدة الغاية:

ولا يخفى على أصحاب البصيرةِ، أنّ الذّوقَ والمعرفة، والإيمانَ الحقيقيَّ واليقين والإخلاص، والاستقامة، وتزكيةَ الباطن، وتهذيب الأخلاق، والاتباعَ الكامل للسنة، والتفاني في الشريعة ـ غاياتٌ حقيقية مقصودةٌ، تتخذُ لأجلها وسائل مختلفة، وطرقٌ متعددة، ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة، وقد كان الطريقُ القوي المؤثِّر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الإسلامية، صحبةُ النبي ﷺ، التي لا يجهَلُ تأثيرَها وقوتَها أحدٌ.

ولمّا حُرِمَتْ أمّةُ الإسلام هذه النعمة، قام خلفاءُ النبوة، وأطباءُ هذه الأمّةِ في عصورهم بطريقةٍ تنوبُ عنها، وأخيراً ركزوا جُلَّ عنايتهم لأسبابٍ مختلفة على الصُّحبةِ، وكثرةِ الذكرِ، ولها طريقةٌ مدوّنةٌ منقحةٌ تعرفُ بنظام التصوف والسلوك.

غير أنّه لا مساغَ لإنكار أنَّ الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقَّفُ على هذه الوسائل، فإنّ الإيمانَ والاحتساب، ومحاسبةَ النفس، وتتبع السنةِ، والاشتغالَ بكتب السنة والشمائل، درساً وتدريساً، وخدمةً ونشراً، مع الحُبِّ والإجلالِ، وكثرةِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، وخدمة الخلق، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوةِ والتبليغ بصدق النية والاحتساب، كلُّ ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبةَ، التي يخصّ بها بعض الأفراد ـ سببٌ للتقرب إلى الله، وحصولِ النسبةِ معه، إذا صدرَ عن إيمانٍ واحتساب، وحضورٍ واهتمام.

ولا مانع عن أن تكونَ الوسائلُ مختلفةً، والطرقُ متعددة، فإنّ الغاية واحدة.

ولا شك أنّ جملة أحوالِ شيخ الإسلام تدلّ بوضوحٍ على أنّه كان يتمتعُ

---

(١) يعني الصلة الروحية بالتدين.

بهذه الغاية، وذلك ما أريدُ إيضاحه في السطور التالية:

ميزانُ كمال الإنسان وآيةُ بلوغه درجةَ الولاية والتحقيق:

ونستطيعُ أن نشهدَ لرجلٍ بأنّه كان من العارفين والمحققين الكاملين، وممنْ وضعَ الله لهم القبولَ نظراً إلى الأحوالِ والأذواقِ، والعادات العامة التي عاش فيها، ولا يكون له مقياسٌ ظاهرٌ أو دليلٌ منطقيٌّ، وقد يخطِئ من رُزِقَ سلامةَ الفطرةِ وصفاءَ الذّوقِ، لكثرةِ ما يدرسه من أحوالِ العارفين ورجال الله، ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان، ولا يتمكنُ بهما من الحكم في ذلك.

ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها أنّ مستوى هذا الرجل الديني أرفعُ من مستوى عامّة الناس، وهو يتمتع بأخلاقِ رجال الله وأذواقِهم، وفهمِ الدين الصحيح وذوق خاص للعبودية والإنابة إلى الله، وتذوّقِ العبادة والانهماك فيها، ولذةِ الدّعاء والابتهال والزهد، والانقطاع عن الدنيا وازدرائها، وسجيةِ السخاءِ والإيثار، والتواضعِ وهضمِ النفس، والسكينة والسرور، والكمال في اتباع السنة، والقبولِ في الصالحين، وشهادةِ العلماء له، وتصلّبِ أتباعه ومحبيه في الدين، وحُسْنِ سيرتهم وما إلى ذلك.

وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الإسلام، وما سجّله المؤرّخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها.

ذوقه في العبودية والإنابة إلى الله:

إنّ الذوقَ الحقيقيَّ الصحيحَ للعبوديةِ والإنابةِ إلى الله شهادةٌ جليةٌ على أنَّ قلبَ صاحبِهِ عامرٌ باليقين، ومغمورٌ بجلال الله وكبريائه، ومنوَّرٌ بمشاهدةِ قدرة الله سبحانه وتعالى وجلاله، وبشعورِ العجز والضعفِ أمامه، وحينما يرسَخُ هذا اليقين والمشاهدة في الباطن، يتجلّى ذلك في الأعمال والألفاظ، والفرق بين الحقيقة والصناعة في ذلك كالفرق بين الأصل والنقل، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان، وقد قال الشاعر العربي:

ليسَ التَّكَحُّلُ في العيْنيْنِ كالكَحَلِ[1]

والأحوالُ التي عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهدُ له بأنّه كان متحلّياً باليقين والمشاهدة، التي بَعثتْ فيه صفةً من الافتقار والاضطرار، والعبودية والإنابة.

وقد روي[2] أنه إذا أشكلتْ عليه مسألةٌ أو صَعُبَ عليه فهمُ آيةٍ التجأ إلى مسجدٍ مهجورٍ[3]، ووضع جبهته على التراب وردّدَ قوله: «يا معلّمَ إبراهيمَ فهمني».

يقول العلامة الذهبي: «لم أرَ مثلَه في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه».

ويقول شيخ الإسلام: «إنّه ليقف خاطري في المسألةِ أو الشيء أو الحالة التي تشكلُ عليّ، فأستغفرُ الله تعالى ألفَ مرّةٍ أو أكثر أو أقلَ، حتى ينشرحَ الصدرُ، وينجلي إشكالُ ما أشكلَ».

ولا يحولُ دونَ هذه الحالةِ نوعٌ من الجلوة والمجالسِ وصخبِ الأسواق، يقول:

«وأكونُ إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدّروب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذّكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»[4].

وعندما ينشأُ هذا اليقين، وذوقُ العبودية في النفس، ويتمكنُ في الباطن، يشعرُ الإنسان بعجزه وافتقاره، وضعفه وقِلةِ بضاعته، ويتمثلُ كأنّه واقفٌ على الباب الملكي بكشكوله[5] الفارغ، ويستجدي من الله رحمته وفضله.

وحياةُ ابن تيمية وما ذُكرَ له من أحوالٍ وأقوالٍ ومواقفَ تشهد بأنه كان يَنْعمُ بنعمةِ الفقرِ وعزةِ التذلّلِ.

---

(١) الكَحَل: سواد يعلو جفون العين مثل الكُحْلِ من غير اكتحال. (الناشر)

(٢) العقود الدرية، ص٦

(٣) حيث يحييه بالعبادة والصلاة وكثرة السجود والدعاء. (الناشر)

(٤) الكواكب الدرية، ص١٤٥.

(٥) وعاءُ المتسوّل الذي يجمعُ فيه رزقه.

يقول ابن القيم: «إنني لم أشاهد هذه الحالة عند أيِّ شخصٍ بمثل ماشاهدتُه في شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد كان يقول: «ما لي شيءٌ، ولا منِّي شيءٌ، ولا فيَّ شيءٌ»، وطالما كان ينشد البيت التالي:

أنـــا المُكَـــدّي وابـــنُ المُكَـــدِّي وهكـــذا كـــانَ أبـــي وجَـــدِّي[1]

تذوّق العبادة، والانهماك فيها:

لا يستطيعُ أيُّ إنسانٍ أن يتذوقَ العبادةَ، وينهمكَ فيها، ما لم يشْعر بلذتها ويذق طعمها، وما لم تحتل العبادةُ محلَّ الدواء والغذاء والقوة، ويصل إلى درجةٍ تصبحُ الصلاةُ فيها لعينهِ قرّةً، ولروحه مسرّةً[2].

أما الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصروه، والمطلعون على أحواله، بأنّه كان له القدح المعلّى في هذه الثروة الغالية، وكان له ذوقٌ خاصٌ في العبادة، والمناجاة والخلوة، وكان شديدَ الشغفِ بهذه الناحية، عظيمَ الانهماك فيها.

جاء في (الكواكب الدرية):

«وكان في ليلةٍ منفرداً عن الناس كلّهم، خالياً بربه عزّ وجلّ، ضارعاً إليه، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرّراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكـان إذا دخل في الصلاة تـرتعدُ فرائصُـه وأعضاؤه، حتى يميـلَ يمنـةً ويسرةً»[3].

ولا شكّ في أنَّ قوةَ أصحاب الذوق، وأهل القلوب ونشاطهم، إنّما يقوم على الذكر والعبادة، فإذا اختلَّ ذلك، انهارت قواهم، ويشعرون كأنهم أُصيبوا بفاقة، يقول ابن القيم:

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٢٩٦؛ طبعة (المنار).

(٢) وقد ورد في الحديث: «جعلتْ قرة عيني في الصلاة». رواه النسائي؛ وكان النبي ﷺ يقول: «يا بلالُ أقمِ الصلاةَ؛ أرحنا بها». رواه أبو داود.

(٣) الكواكب الدرية، ص١٥٦.

«وكان إذا صلّى الفجرَ يجلسُ في مكانه، حتى يتعالى النهّار جداً، يقول: هذه غدوتي، لو لم أتغدَّ هذه الغَدْوَة سقطت قواي»[1].

ويرزق الله سبحانه وتعالى الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام، فيصبح الذكر والعبادة والمواظبة عليهما طبيعةُ الإنسان.

يقول العلامة الذهبي: «له أورادٌ وأذكارٌ يُدْمِنُها بكيفية وجمعية»[2].

الزهد في الدنيا وازدراؤها:

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهّد في الدنيا وازدرائها، ما لم تنكشف حقيقةُ الدنيا بوضوح، وما لم يطرأ على المرءِ حالٌ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦]، وذلك لا يتحقّقُ بدون اليقين والمعرفة الصحيحة والاتصال بالله.

وقد ذكر معاصروه أحوال زهدِ شيخ الإسلام، وتجرُّدِه من الدنيا، وافتقاره إلى الله.

يقول زميلُه في الدراسة ومعاصره الشيخ (علم الدين البرزالي) المتوفى سنة ٧٣٨هـ: «وجرى على طريقةٍ واحدةٍ من اختيار الفقر، والتقلّل من الدنيا، وردّ ما يُفتَحُ به عليه»[3].

ومن انصبغ بهذه الصبغة، ورزقه الله نعمةَ غنى القلب الخالدة، تلاشت في عينه مملكة كسرى وقيصر، ورأى النظرَ إليها كفراناً بنعمة الله تعالى، وجحوداً لِمِنَّتِه، وهو ينشدُ في نشوة الحب والمعرفة ما معناه:

«إنني لا أرضى بإعطاءِ مسوحي عِوَضاً عن حلة الملوك، ولا أرضى ببيع فقري بُمِلْكِ سُليمان، إنّ الثروةَ التي نلتها في آلام الفقر لن أرضى باستبدالها بتنعم الملوك».

---

(١) الرد الوافر، ص٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٨.

(٣) المصدر السابق، ص٦٥.

ومَنْ جهل حالَه يسيءُ به الظنّ، ويتهمه بالطمع في الملك والحكم، ولكنّه يتأسّفُ على جهله وفسادِ ذوقه، ويقول: «كيف يمكِنُ النظر إلى هذا الملك الفاني بعد هذه الثروة الغالية، والنعمة الخالدة؟».

وقد كانت هذه قصةُ الشيخ ابن تيمية، فقد قال له الملك الناصر ذاتَ مرّةٍ: سمعتُ بأنَّ النّاس أطاعوك، وأنت تفكِّرُ في الحصول على المُلْكِ، فردَّ عليه قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلهم:

«أنا أفعل ذلك؟! واللهِ إنّ مُلكَك ومُلْكَ المغولِ لا يساوي عندي فَلْساً»[1].

السخاء والإيثار:

ومما يتّصفُ به رجال الله، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة، هو السخاء والإيثار، وقد بسط الحافظ ابن قيم الكلامَ في أسباب شرح الصدر في كتابه: (زاد المعاد) وذكر ما للإحسان إلى الخَلق، ونفعهم بالمال والجاه والبدن من التأثير العميق في انشراحِ الصدرِ، وطيبِ النفس، ونعيمِ القلب[2].

وقد اعترف معاصروه وأحبّتُه بسخائه، وأثنوا على جوده وإنفاقه، وقد جاء في (الكواكب الدرّية): «وهو أحدُ الأجوادِ الأسخياءِ الذين يُضْرَبُ بهمُ المثلُ»[3].

ويتحدّثُ الحافظ (ابن فضل الله العمري) أحدُ معاصري الشيخ عن جودِه وسخائه، فيقول: «كانت تأتيه القناطيرُ المقنطرةُ من الذّهب والفِضَّةِ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، فيهبُ ذلك بأجمعه، ويضعهُ عند أهل الحاجة في موضعِه، لا يأخذُ منه شيئاً إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليُذْهِبَه»[4].

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٦٦.

(٢) راجع زاد المعاد: ٢/ ١٥٤، طبع المطبعة المصرية.

(٣) الكواكب الدرية، ص١٤٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

وقد بلغ من السّخاءِ والإيثار أنه كان يخلعُ ما كان عليه من ثياب، ويقدّمها إلى السائل إذا لم يجدْ شيئاً آخر، يقول الحافظ ابن فضل الله: «كان يتصدّقُ، حتى إذا لم يجدْ شيئاً نزعَ بعضهَ ثيابِه فيَصِلُ به الفقراء»[1].

ويقول أحد الرواة: «وكان يتفضَّلُ[2] من قوته الرغيف والرغيفين، فيؤثر بذلك على نفسِه»[3].

ومن مواقف الإيثار المحرِجة أن يعامِلَ المرءُ أعداءَه ومعارضيه برحابـةِ الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدّعاء والنصح، وهذا منصب خطير لا يناله إلاّ من تجاوزَ حدودَ الكِبْر والأنانية، ونَسِيَ نفسَه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السّكينة والسّرور ما يذوبُ أمامه كلُّ عِدَاءٍ ومعارضـة، فيجدُ قلبَه عامراً بدافع النّصحِ والرّثاء لأعدائه.

وقد سبق أنه عندما أُطْلِقَ سـراحُه في سنة ٧٠٩هـ مـرّة أخرى، خلا بـه السلطان، واستفتاه في قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية (جاشنكير) وأفتوا بعزل السـلطان، وزاد له السّلطانُ قائلاً: إنّهم أثاروا عليك الضجّة والأقـاويل، وآذوك، فما وسعَ ابنُ تيميّة إلا أن مدحهم، وأثنى عليهم أمام السلطان، وشفع لهم بالعفو والصفح عنه، ومنعه عن قتلهم.

وقد مدحه القاضي (ابن مخلوف) المالكي، الذي كان من أشدِّ معارضي شيخ الإسلام ومنافسيه، بقوله: «ما رأيتُ كريماً واسعَ الصَّدْرِ مثلَ ابن تيميّة، فقد أَثَرْنا الدّولةَ ضِدَّهُ، ولكنّـه عفا عنـا بعد المقدرةِ، حتى دافعَ عن أنفسـنا وقـام بحمايتنا».

يقول تلميذُه النجيبُ، ورفيقُه في كلِّ آن[4]: «كان يدعو لأعدائه، ما رأيتُه

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٥٧.

(٢) يبقى.

(٣) الكواكب الدرية.

(٤) ابن القيم الجوزية. (الناشر)

يدعو على واحدٍ منهم، وقد نعيتُ إليه يوماً أحدَ معارضيه، الذي كان يفوقُ النّاسَ في إيذائه وعدائه، فزجرني، وأعرضَ عنّي، وقرأ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾، وذهب لساعتِه إلى منزله، فعزّى أهلَه وقال: «اعتبروني خليفةً له، ونائباً عنه، وأساعِدُكم في كلِّ ما تحتاجونَ إليه» وتحدّثَ معهم بلطفٍ وإكرامٍ بعثَ فيهم السّرورَ، فبالغَ في الدُّعاءِ لهم، حتّى تعجّبوا منه».

إنّ مكانَةَ العفو والإحسان، والشفقة والرحمة مع الأعداء، أرفعُ وأسمى من مكانة الإيثار المالي والماديِّ بكثير، إنّها مكانة لا يسعدُ بها إلا الأولياءُ والصديقون.

وقد كان لابن تيميّةَ قدمٌ راسخةٌ في هذه المكانة، وكأنّه كان ينشدُ بلسانِ حالِه ما أنشده الشّاعِرُ الربانيُّ الذي سعد بهذه المكانة (بالفارسية) وهذا معناه:

«إنَّ مَنْ ضاقَ صدرُه عن مودَّتي، وقصَّرتْ يدُه عن معونتي، كان الله في عونه، وتولّى جميعَ شؤونه.

وإنَّ كلَّ مَنْ عاداني، وبالغَ في إيذائي، لا كدَّر الله صَفوَ أوقاتِه، ولا أراهُ مكروهاً في حياتِه.

وإنَّ مَنْ فرَشَ الأشواك في طريقي، وضيّق عليَّ السُّبُلَ، ذُلِّلَ له كلَّ طريقٍ، وحالفَه النجاحُ والتوفيق».

التواضع وهضم النفس:

إنّ التواضع وهضمَ النفس من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين، أفضل من ألف فضيلةٍ وألف كرامةٍ، ولا يبلغُ الإنسان هذه المنزلة، إلا أن تموتَ الأنانية في قلبه، ويتزكّى قلبُه من جميع الشوائب والعلائق، وقد كان شيخ الإسلام متحلّياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية، وسموّه الديني والعلمي، وأقوالُه تشهدُ بما كان يتّصف به من التواضع والربانية، وهضم النفس.

يقول الحافظ ابن قيم: إنّه كثيراً ما كان يقول: «ما لي شيءٌ، ولا منّي شيءٌ، ولا فيَّ شيءٌ».

وإنْ مدحَـه أحدٌ في وجهه، قـال: «واللهِ إنّي إلى الآن أجـدِّدُ إسلامي كلَّ وقتٍ، وما أسلمتُ بعدُ إسلاماً جيّداً»(١).

وقد يقول لمن مدحه: «أنا رجل مِلَّةٍ، لا رجلُ دَوْلَةٍ»(٢).

وإذا بلغ الإنسانُ إلى هذه المنزلة من العبودية، وهضم النفس، لا يرى له حقـاً على أحدٍ، ولا يطالبه بشـيء، ولا يعاتِبُ أحداً، ولا ينتقِمُ لنفسـه في أي حال، وقد بلغَ به الله إلى هذه الدرجة، يقول ابن قيم:

سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيميّة قدس الله روحه يقول: «العارِفُ لا يرى له على أحدٍ حقّـاً، ولا يَشْـهدُ على غيرِه فَضْلاً، ولذلك لا يعاتِبُ، ولا يطالِبُ، ولا يضارِبُ»(٣).

ويعلم المطّلعون على أحوالـه جيّداً أنّه في ذلـك إنّما يتحدَّثُ عن نفسِـه ويحكي حاله.

السكينة والسرور:

وبعد هذا الإيمان واليقين، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى، والتحرّر من الخلق، وانطلاق القلب من القيود المادية، يحصلُ للعارف السّكينة والسرور، يذوقُ بهما لذة النعيم، والجنة في الدنيا.

ويقول ابن القيم: إنّ شيخ الإسلام قال مرة:

«إنّ في الدنيا جنةً، مَنْ لم يدخلْها لم يدخلْ جنّةَ الآخرةِ»(٤).

ولا يخفى على أهل البصيرة أنَّ عباد الله تعالى المخلَصين، ينطبقُ عليهم وصف الله تعالى لعباده المكرمين: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة ٦٢]

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٦٩٦.
(٢) الكواكب الدرية، ص١٦٤.
(٣) مدارج السالكين: ١/ ٤٩٦.
(٤) الرد الوافر، ص٣٦.

ويذوقون هذه اللذة، ويرون نموذجَها في الدنيا.

ولا شكَّ أنّ شيخ الإسلام ظفرَ بهذه النعمة، كما ذكر أصحابه، وقد قال مَرةً في حماس:

«ما يصنعُ أعدائي بي؟. إنَّ جنتي وبستاني في صدري، إنْ رحتُ فهي معي لا تفارِقُني»[1].

وظلَّتْ نسبةُ السكينة والرضا هذه لا تفارقُه في حياته، وبعدَ مماته، يقول ابن القيم:

زرتُه ذاتَ ليلةٍ في الرؤيا، وذكرتُ له بعضَ الأعمال القلبية، فقال:

«أما أنا فطريقي الفرحُ والسرورُ به»[2].

ويقول ابن القيم في (مدارج السالكين): «هكذا كانت حالُه في الحياة، يبدو ذلك على ظاهِره، وينادي به عليه حاله»[3].

الكمال في اتّباع السنة:

وتبتدئ هذه المكانة (مكانة القبول والولاية) باتّباع السنة، وتنتهي بكمال اتّباع السنة، وقد اعترفَ النّاسُ جميعاً ـ حتى الأعداء ـ بشغف شيخ الإسلام بالسنة، وانهماكه في الحديث، ولم يكن هذا الشغفُ والانهماك علمياً أو نظرياً فقط، وإنما كان يتّصل بالسنة عملياً وفي الظاهر.

وقد شهدَ معاصروه أنّهم لم يَروْا جلال مكانة الرّسول ﷺ والاهتمامَ باتباع سنته عند أحدٍ من العلماء مثلَ ما رأَوْا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيميّة.

يقول الحافظ سراج الدين البزار، وهو يقسِمُ باللهِ:

«لا واللهِ ما رأيتُ أحداً أشـدَّ تعظيماً لرسـول الله ﷺ، ولا أحرصَ على

---

(١) الوابل الصيب، ص٦٦.

(٢) إغاثة اللهفان.

(٣) مدارج السالكين.

اتباعه، ونصرَ ما جاءَ به منه»[1].

وقد كانت هذه الناحية تستحوذُ عليه، وتسيطرُ على قلبه، فكلُّ مَنْ رآه شهد قلبه بكمال اتباعه للسنة، وحبِّه العميق للرسول ﷺ.

يقول العلامة عماد الدين الواسطي:

«ما رأينا في عصرنا هذا من تتجلى النبوّة المحمّديةُ وسننها من أقواله وأفعاله، إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أنّ هذا هو الاتباع حقيقةً»[2].

وهنالك مقتطفات من كلام شيخ الإسلام الملتقطةُ من موسوعة معارفه المسماة (فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)، تدلُّ على إقراره بحقيقة السلوك وضرورته، وعمق نظرِه، ورسوخِ علمه فيه، يقول رحمه الله:

«فإنَّ السلوكَ هو الطريقُ التي أمرَ اللهُ بها ورسولُه ﷺ من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كلُّه مبيَّنٌ في الكتاب والسنّة، فإنَّ هذه منزلةُ الغذاء الذي لا بدَّ للمؤمن منه»[3].

ويقول: «وفي السّلوكِ مسائل تنازَعَ فيها الشّيوخُ، لكنْ يوجَدُ في الكتاب والسنة مِنَ النصوص الدالّة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالِبُ السالكين، فمسائِلُ السلوك من جنس مسائلِ العقائد كلُّها منصوصة في الكتاب والسنة»[4].

ومن إفاداته: «وكذلك مَنْ بنى الإرادةَ والعبادةَ والعمل والسماع المتعلّق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبيّة، والأعمال البدنيّة ـ على الإيمانِ والسنةِ والهدي الذي كان عليه محمّد ﷺ وأصحابه، فقد أصابَ طريقَ النبوّةِ، وهذه طريقُ أئمةِ الهدى»[5].

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٤٩.

(٢) جلاء العينين، ص٨.

(٣) فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٧٣.

(٤) المرجع السابق: ١٩/ ٢٧٤

(٥) المرجع السابق١٠/ ٣٦٣.

ومن معارفه: «أعمالُ القلوب التي تسمّى (المقامات والأحوال) مثل محبة الله ورسوله ﷺ، والتوكّل عليه، وإخلاص الدين له، والشكر، والصبر على حكمه، والخوف، والرجاء له، وما يتبعُ ذلك ـ واجبةٌ على جميعِ الخلق، خاصتهم وعامتهم، للخاصة خاصتها، وللعامّة عامتها، تفاوت أحوالَ القلوب وصفاتها»[1].

قبوله في الصالحين، وشهادة علماء عصره له:

إنّ ثناءَ حشدٍ من النّاسِ على رجلٍ لا يعتَبَرُ دليلاً على قبوله عند الله، واستقامتِه وعلوِّ منزلته، أما إذا شهدَ له رجالُ العلم والبصيرةِ وأصحابُ الصلاحِ والتقوى في عصره، فلا شكَّ أنّه يعتَبَرُ دليلاً على قبوله وعلوّ منزلته، ولا بدَّ من أن يتصف أتباعُه ومحبّوه وجلساؤه بالصلاح والسّداد، وحسن الاعتقاد، والتقوى والاهتمام بالآخرة، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تدينّهم، وحسن سيرتهم.

وهذا كان شأنُ شيخ الإسلام ابن تيميّة، فقد شهد بفضله وصحةِ اعتقادِه، وسلامة عقيدتِه، ومكانتِه العالية، كبارُ رجال العلم والبصيرة، وأصحابُ الصّلاح والرشدِ في عصره، واعترفوا بعلوِّ منزلته في ذلك، فمدحوه وأثنوا عليه.

أما معارضوه فقد كان معظمُهم ممَنْ يتزلّفون إلى الدولة، ويطلبون الدنيا، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً[2].

يقول مؤلف (الكواكب الدرية):

«قالوا: ومن أمعن النظر ببصيرته، لم يرَ عالِماً من أهل أيِّ بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبعِ علماءِ بلدِه للكتاب والسنة، وأشغلِهم بطلب الآخرة، والرغبة فيها، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا، والإهمال لها. ولا يرى عالماً مخالفاً له،

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ١٠/ ٢١.

(٢) ويستثنى من هذه الكلية مَنْ عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عامّ إلا قد خُصّ منه البعض.

منحرفاً عنه، إلا وهو مِنْ أكبرِهم همة في جمع الدنيا، وأكثرهم رياء وسمعة، والله أعلم»[1].

ويقول العلامة الذهبي: «وأخيف في نصرِ السنّة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى منارَه، وجمعَ قلوبَ أهلِ التقوى على محبتِهِ والدعاء له»[2].

الفراسة والكرامة:

وبالرّغم أنّ الكشوفَ والكرامات لا تعدُّ جزءاً من الولاية والقبول، ولا دليلاً عليهما، وقد أوضح المحقّقون، فقالوا: «الاستقامة فوقَ الكرامة» وهي قضية لا تقبل الجدل.

ولكنَّ الحقيقةَ أنّ الله سبحانه وتعالى ينعِمُ على كثيرٍ من عباده المخلصين بهذه النعمة، فتظهَرُ على أيديهم أو ألسنتهم وقائعُ تؤيد قبولهم ووجاهتهم عند الله والناس.

وقد اتفق أهلُ السنّةِ على أنَّ «كرامات الأولياء حق» ويُؤيّد ذلك بعض الوقائع والشواهد في الكتاب والسنة أيضاً.

وقد جاء في مؤلفات شيخ الإسلام إثباتُ هذه الحقيقة، وتقريرُ هذه المسألة.

وقد شهدَ معاصروه، وتلاميذُه ومحبّوه، بتلك الوقائع، التي حدثت كخَرْقٍ للعادة والكرامةِ، واعترفَ بها المتأخّرون، وقالوا: لا يمكنُ إنكارُها لكثرةِ ما عُرِفتْ ونُقِلَتْ.

يقول العلامة بدر الدين العَيْني، صاحبُ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) في تقريظ (الردّ الوافرِ):

«وهذا الإمامُ مع جلالةِ قدْرِه في العلوم نُقِلَتْ عنه على لسان جمٍّ غفيرٍ من

---

(١) الكواكب الدرية، ص١٦١.

(٢) جلاء العينين، ص٦.

الناسِ كراماتٌ ظهرتْ منه بلا التباسٍ»[1] .

والفراسة الصادقة من هذه الكرامات التي يكرم الله بها عبادَه المتّقين، وكبار المؤمنين، وتحكى عن هذه الفراسة حكاياتٌ عجيبةٌ، ذكر الحافظ ابن القيم[2]، طائفـةً منها في كتـابه (مدارجِ السالكين) وغيرِه من مؤلفاتـه الأخرى، يقول في (مدارج السالكين):

«ولقد شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبةً، وما لم نشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراستِه تستدعي سِفْراً ضخماً».

ونظراً إلى كلِّ ذلك قال العلاّمة (علي بن سلطان محمد القاري الهروي) المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤هـ: «ومن طالعَ (شرح منازل السائرين) تبين له أنّهما[3] كانا من أكابرِ السنّة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة»[4].

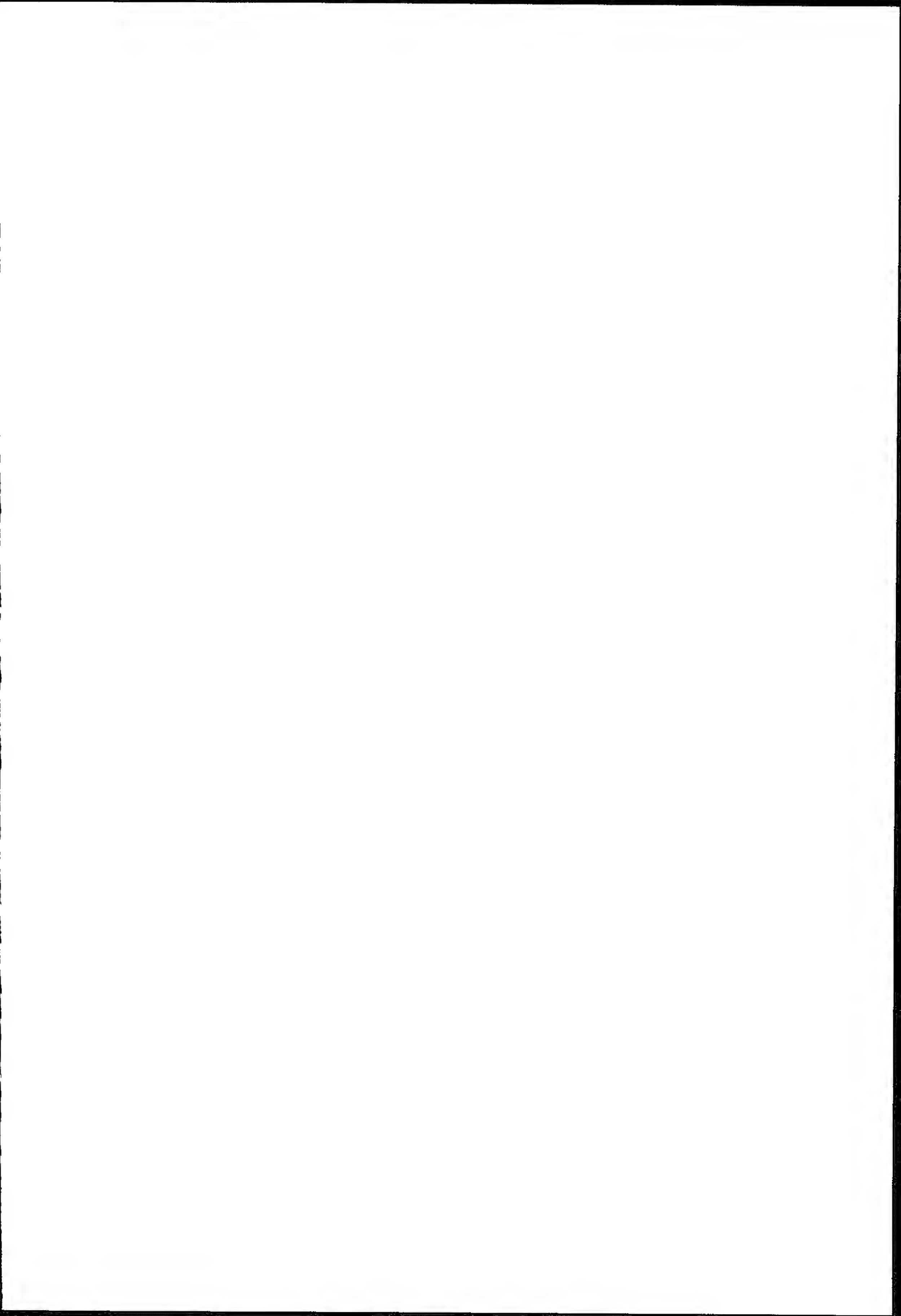
وقال شيخ الإسلام (أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي) المعروف بولي الله المحدّث (م١١٧٦هـ)، في كلام طويل:

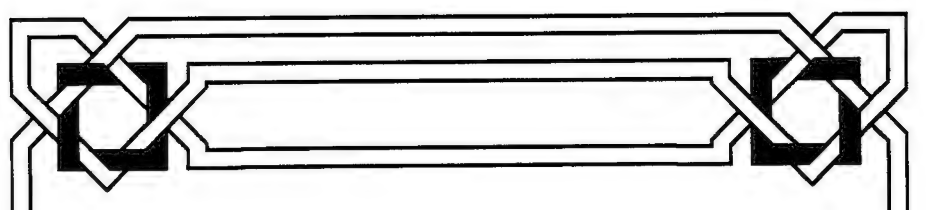
«مثلُ هذا الشـيخ عزيـزُ الوجودِ في العالم، ومن يُطِقْ أن يلحقَ شـأوه في تحريره وتقريرِه، والذين ضيّقوا عليه ما بلغوا معشارَ ما أعطاه الله تعالى»[5]

* * *

---

(١) الرد الوافر، ص٨٩.
(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٢٥٠.
(٣) يعني شيخ الإسلام ابنَ تيميّة وتلميذَه ابنَ قيم الجوزية.
(٤) المرقاة شرح المشكاة، ٤/ ٤٢٧.
(٥) التفهيمات الإلـٰهية، لشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي.





الباب الثاني

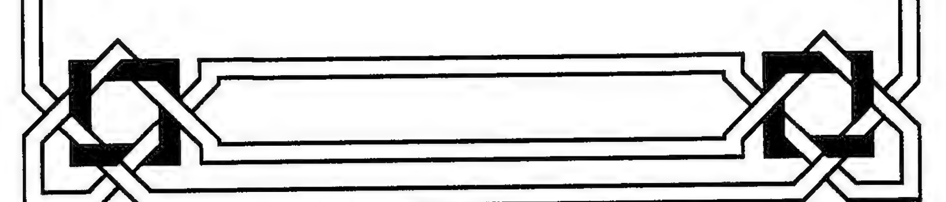
الدور الإصلاحي والتجديدي لشيخ الإسلام ابن تيمية

الفصل الأول: تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد الشركية

الفصل الثاني: نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتاب والسنّة وأسلوبهما على كلّ منهج وأسلوب

الفصل الثالث: الرد على الفرق والملل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها

الفصل الرابع: تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي





أركان الإصلاح والتجديد الأربعة
في حياة ابن تيميّة

تمهيد

الدور الذي مثّله شيخُ الإسلام ابن تيميّة في تايخ الإسلام الدعويِّ والفكريِّ ـ وإنْ كان ذا جوانبَ علميّة وعمليّة كثيرةٍ ـ يمكنُ توزيعُه في أربعة أجزاء، تلك التي لها أهمية خاصة في تاريخ الإصلاح والتجديد، وهي كما يلي:

١ ـ تجديدُ عقيدةِ التوحيد، وإبطالُ العقائدِ والتقاليدِ الشركية.

٢ ـ نقدُ الفلسفةِ والمنطق وعلم الكلام، وترجيحُ منهجِ الكتاب والسنّةِ وأسلوبهما على كلِّ منهج وأسلوب.

٣ ـ الردُّ على الفرق، والمِلَلِ غيرِ الإسلاميّة، ومقاومة عقائدِها وتقاليدِها وتأثيرها.

٤ ـ تجديدُ العلوم الشرعيّةِ وبعثُ الفكرِ الإسلاميِّ.



الفصل الأول

تجديد التوحيد وإبطال العقائد والتقاليد الشركية

العقائد والتقاليد المشركة في عهد ابن تيمية:

كانت العقائدُ والتقاليدُ المشركة قد نالتْ رواجاً بين عامّةِ المسلمين، باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم، ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرها، وانتشار تعاليم الفئات الجاهلة والضالّة من الصوفية وأعمالهم.

فقد وُجِدَ عددٌ كبير من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشايخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة، ويحملون من الأفكار المشركة؛ ما كان يعتقده اليهود والنصارى في (عزير) و(المسيح) عليهما السلام وأحبارهم ورهبانهم.

وكل ما كان يدورُ حولَ قبور الأولياء والمشايخ إنّما كان تقليداً ناجحاً للأعمال والتقاليد التي كانت تنجَزُ في معابد غير المسلمين، وقبور القديسين عندهم، فالاستغاثةُ منهم والاستعانةُ بهم، ومدُّ يدِ الطلب والضراعة إليهم كلُّ ذلك كان عاماً شائعاً بينهم.

كما عمّتْ عادةُ بناء المشاهد الفخمةِ على قبورهم وجعلها مساجد، وعقد المهرجاناتِ عليها عاماً فعاماً، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها.

وقد تفاقمتِ هذه العقائدُ السيئةُ، وانتشرت هذه البدع والمنكرات في أواخر القرن السابع بشكلٍ فظيع، ولكي نقدّرَ مدى هذا الفساد، نقدم مقتطفات من مؤلّفات شيخ الإسلام وكتاباته نفسِه، فقد تناول فيها ذكرَ بعض الضلالات الشائعةِ في عصره ضمنَ بحثٍ، أو ردٌّ على سؤالٍ، وهي تشيرُ بعضَ الشيءِ إلى

الانحطاط الديني، والهجماتِ التي شنتها الجاهليّةُ على قلبِ الإسلام في ذلك العصر، يقول:

«وآخرون قد جعلوا الميتَ بمنزلةِ الإله، والشيخَ الحيَّ المتعلّق به كالنبيِّ، فمنَ الميتِ يطلَبُ قضاءُ الحاجات وكشفُ الكرُبات، وأمّا الحيُّ فالحلالُ ما حلّله، والحرامُ ما حرّمه، وكانوا في أنفسِهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلٰهاً، وعزلوا محمّداً ﷺ عن أن يتخذوه رسولاً، وقد يجيءُ حديثُ العهدِ بالإسلام، أو التابع لهم لحسن الظنّ بهم، أو غيره، يطلبُ من الشيخ الميتِ إمّا دفع ظلم ملك يـريدُ أن يظلمَه، أو غيـر ذلك، فيدخلُ ذلك السـادنُ فيقول: قد قلتُ للشيخِ، والشيخُ يقولُ للنبيِّ، والنبيُّ يقول للهِ، والله قد بعثَ رسولاً إلى السلطان فلان، فهل هذا إلا محضُ دينِ المشركين والنصارى، وفيه من الكَذِبِ والجَهْلِ ما لا يستجيزُه مشرك أو نصراني، ولا يروجُ عليه، ويأكلون من النذور ما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤][1].

عبادة القبور السافرة:

«فطائفـةٌ من هؤلاء يصلّـون إلى الميتِ، ويدعـو أحدُهم الميتَ، فيقول: اغفر لي وارحمني، ونحو ذلك، ويسجدُ لقبره.

ومنهم من يستقبل القبرَ، ويصلّي إليه مستدبراً الكعبةَ، ويقول: القبرُ قِبْلَةُ الخاصّةِ، والكعبةُ قِبلةُ العامّة، وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادةً وزهداً، وهو شيخٌ متبوعٌ، ولعلّه أمثلُ أتباع شيخه، يقوله في شيخه.

وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحابِ الصدقِ والاجتهادِ في العبـادة والزّهد يأمرُ المريدَ أول ما يتوبُ أن يذهبَ إلى قبر الشيخ، فيعكف عليه عكوفَ أهل التماثيل.

---

(١) الرد على البكري، ص٢٩٨.

وجمهورُ هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عندَ عبادة القبور من الرِّقةِ والخشوع والدعاءِ وحضورِ القلبِ ما لا يجد أحدُهم في مساجدِ الله تعالى، التي أذنَ أن ترفعَ ويذكرَ فيها اسمُه»[1].

يخشون القبور وأصحابها ولا يخشون الله:

«حتى إنّ طائفةً من أصحاب الكبائر، الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قبة الميت أو الهلال الذي على رأس القبة، خشيَ من فِعْل الفواحش، ويقول أحدُهم لصاحبِه: ويحك هذا هلالُ القُبَّةِ، فيخشون المدفون تحت الهلالِ، ولا يخشون الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ، وجعلَ أهِلّةَ السماء مواقيتَ للنّاس والحج.

وهؤلاء إذا نُوظروا خَوَّفوا مُنَاظِرَهم كما صنع المشركون بإبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨١ ـ ٨٣].

استخفافٌ بشعائرِ اللهِ واستهزاء بالله:

«وهؤلاء الذين اتخذوا القبورَ أوثاناً، تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته، ويعظّمون ما اتخذوه من دون الله شفعاءَ، حتّى إنّ طوائفَ منهم يستخفّون بحجِّ البيت وبمن يحجُّ البيتَ، ويرونَ أنَّ زيارةَ أئمتهم وشيوخهم أفضلُ من حَجِّ البيت، وهذا موجودٌ في الشيعةِ وفي المنتسبين إلى السنّة، وآخرون يستخفون بالمساجد، وبالصلوات الخمس فيها، ويَروْنَ أنَّ دعاءَ شيخهم أفضلُ من هذا، وهذا موجودٌ في الشيعةِ المنتسبينَ إلى (يونس القيسي) حتى ينشدون[2]:

---

(١) الرد على البكري، ص٢٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥١.

تعـالــوا نَخْــرِبِ الجـامــعْ ونجْعَـــلْ فيـــه خَمّـــارَهْ
تعــالَـــوْا نكسِـــرِ المِنْبَــرْ ونجعَـــلْ مِنـــهُ طنْبَــاره
تعـالــوا نَخْــرِقِ المُصحَــفْ ونجْعَـــلْ مِنـــهُ زمّـــارَهْ
ونَنْتِــفْ لِحيَــةَ القَــاضِــي ونجعَـــلْ مِنـــهُ أوتـــارَه

وقاحة المشركين وجرأتهم:

«ويحلف أحدُهم اليمينَ الغموسَ كاذباً، ولا يجترئ أن يحلفَ بشيخِه اليمينَ الغموسَ كاذباً، ومنهم من يقولُ: كلّ رزقٍ لا يرزقه إياه شيخه لا يريده، ومنهم من يذبحُ الشاة، ويقول: باسم سيدي، ومنهم من يقول: إنّ شيخَه أفضلُ من الأنبياء والمرسلين، ومنهم من يعتقِدُ فيه الإلـٰهيّة، كما يعتقده النصارى في المسيح، فإذا ذكروا شيخَهم عظّموه، وادعوا فيه الإلـٰهيّة، وأنشدوا على لسانه:

مُوْسَى على الطورِ لما خرَّ لي ناجَى وصاحبُ التُّرْبِ أنا جئتُه حتّى جا

ولهم أيضاً:

وأنـا صرختُ في العرش حتى ضَج وأنـا حملتُ على علي حتّى هَـج
وإنَّ البحارَ السبعة من هَيْبتِي تَرتَج

العقيدةُ بألوهيّــة المشايخ:

«وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخَ يدبّرون العالم بالخلق والرزق، وقضاء الحاجات، وكشف الكربات، وهذا ليس من دين المسلمين، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحدَه لشبهة الاتحاد والحلول، ولهذا لم يقولوا ذلك في إبراهيم وموسى وغيرِهما من الرسل، مع أنّهم في غايةِ الجهلِ في ذلك»[١].

«ومنْ هؤلاء من يظنُّ أنّ القبر إذا كان في مدينةٍ أو قريةٍ فإنّهم ببركتِه يُرزَقون ويُنصَرون، وإنّه يندفع عنهم الأعداءُ والبلاءُ بسببه، ويقولون عمن يعظّمونه: إنّه

---

(١) الرد على البكري، ص٢٣٨.

خفيرُ البلدِ الفلاني، كما يقولون: السيدةُ نفيسةُ خفيرةُ مصرَ القاهرة، وفلانٌ وفلانٌ خفراءُ دمشقَ أو غيرها[1]، وفلان خفير حران أو غيرها، وفلان وفلان خفراء بغداد أو غيرها، ويظنون أن البلاء يندفع عن هذه المدائن والقرى بمن عندهم من قبور الصالحين الأنبياء»[2].

«حتى إنّ العدوَّ الخارجَ عن شريعة الإسلام، لما قَدِمَ دمشقَ خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور، التي يرجون عندها كشف ضرهم، وقال بعض الشعراء:

يا خائفينَ من التَتَرْ لُوذُوا بِقَبْرِ أبي عُمَرْ

أو قال:

عُوذُوا بِقبرِ أبي عُمَرْ يُنْجِيكُمُ مِنَ الضَّرَرْ

فتنة المشاهد:

وكانت النتيجةُ الحتميّةُ لهذا الإجلال والتعظيم أن تزايدت أهميةُ المشاهد بإزاءِ المساجد، وتتحوّلَ المشاهدُ إلى مزاراتٍ للجهلة، ومراكزَ لقضاءِ الحاجاتِ، والاستغاثة بها لدى هذه الطبقة، فقد انتشرت هذه المشاهدُ والمزاراتُ في كلّ ركن من أركان العالم الإسلامي، ووُجدَتْ آلافٌ مؤلّفة من القبور المزوّرة، وتصدّى الأمراءُ والسلاطينُ لوقف الممتلكات والأراضي الواسعة عليها، وأُقيمت عماراتٌ ضخمةٌ وقِبابٌ فخمةٌ في أمكنةِ هذه القبور ومشاهد المشايخ، كما وُجِدَتْ أمةٌ بأسرِها من العاكفين والكنّاسين والخدم لهذه القبور، ونالت الرحلة إليها كلَّ إعجابٍ واهتمامٍ، حتى بدأت تصلُ قوافِلُ الحجّاجِ إليها من مسافات بعيدة، تضارعُ قوافلَ الحجيج إلى بيت الله، بل تفوقها في بعض الأحيان في الشَّوْكةِ والزّينة، وتحوّلَ إقبالُ عامّةِ المسلمين من المساجدِ إلى هذه المشاهد.

---

(١) كما ينشد بعض العامة في دمشق: شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حاميها (أي دمشق) وبر الشام. (الناشر)

(٢) الردّ على الأخنائي، ص٨٢ ـ ٨٣.

وفي القرنين السابع والثامن دخلت هذه المشاهدُ والضرائحُ في حياة المسلمين الدينية، ونالت عندَهم من القَبول والمركزيّة ما جعلَها تنافِسُ بيتَ الله وتتحدّاه، ونستطيعُ أن نقدِّرَ مدى خطورةِ فتنةِ المشاهدِ هذِه، وتغلغل جذورِها في أحشاءِ المجتمع، وكم كان للجهلةِ من المسلمين والانتهازيين من علاقةٍ عميقةٍ بها عن طريق كتابات ابن تيميّة ومؤلفاته.

ومن الأسباب التي أدّتْ دَوْراً هاماً في توسّع هذه الفتنة وتأصُّلها أنّ الدولة الباطنيّة في مصر[1] حكمتْ قروناً طويلةً في رقعة تمتدّ من المغرب الأقصى إلى مصر والشام، وما يعرفُه الجميع أنّ أهلَ الرفض والتشيُّع كانوا يتّصلون بالمشاهد أكثر منهم بالمساجد، وبالنجف وكربلاء ومشهد أكثر منهم بالحرمين الشريفين.

ولو أنّ دولةَ مصر الفاطميّة كانت قد انتهت قبلَ ولادةِ ابن تيميّة إلا أنّ تأثيرَها الفكريَّ والحضاريَّ لم ينته بعدُ، وبخاصة في الشام، فقد وجدَ فيها عددٌ كبير من الشيعة والإسماعيلية، ممن لم تكن صحبتُهم تخلو من تأثيرٍ سيِّئٍ على العامّة والجهلة من المسلمين.

كما أنَّ التصوّفَ الدخيل الذي ابتعدَ عن تعاليم الإسلام في العصر الأخير، الذي تحتلُّ فيه المشاهِدُ والضرائحُ محلاً خاصاً من الأهمية والتقديس، وتعقد عليها اجتماعات سنوية، سبَّب ازدهارها، حتى غدت وسيلةً كبرى من وسائل الشرك والبدع.

يقول الإمام ابن تيمية وهو يتحدّثُ عن هذه المشاهد والقبور:

الحج إلى المشاهد والقبور:

«وآخرون يحجّون إلى القبور، وطائفة صنّفوا كتباً، وسموها مناسك حج المشاهد، كما صنف (أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقب بالمفيد) أحد شيوخ الإمامية كتاباً في ذلك، وذكر فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت

---

(١) وتعرف بوجهٍ عام باسم الدولة الفاطمية، والحقيقة أنّها دولةُ العبيديين.

ما لا يخفى كذبه على من له معرفةٌ بالنقل، وآخرونَ يسافرون إلى قبور المشايخ، وإنْ لم يسمّوا ذلك منسكاً وحجاً، فالمعنى واحد، ومن هؤلاء من يقول: وحق النبيِّ الذي تَحُجُّ إليه المطايا، فيجعلُ الحجَّ إلى النبيِّ لا إلى بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1]».

الترجيحُ على الحجِّ إلى الكعبة:

«ومن هؤلاء من يرجِّحُ الحجَّ إلى المقابر على الحجِّ إلى البيت، لكن قد يقولُ أحدُهم: إنّك إذا زرتَ قبرَ الشيخ مرّتين أو ثلاثاً كان كحجةٍ، ومن الناس من يجعلُ مقبرةَ الشيخِ بمنزلة عرفات، يسافرون إليها وقتَ المَوْسم، يعرّفون بها كما يعرّفُ المسلمون بعرفات، كما يُفعَلُ هذا في المغرب والمشرق.

ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يعظمه أفضل من الحج، ويقول أحدُ المريدين للآخرين وقد حجَّ سبعَ حجج إلى بيتِ الله العتيق؛ أتبيعني زيارةَ قبرِ الشيخ بالحجج السبع؟!.

فشاور الشيخَ فقال: لو بعتَ لكنتَ مغلوباً.

ومنهم من يقول: مَنْ طافَ بقبرِ الشيخ سبعاً كان كحجة»[2].

الإعراض عن المساجد والاهتمام بالمشاهد:

«وكثيرٌ من هؤلاءِ يخرّبون المساجدَ، ويعمرون المشاهدَ، فتجدُ المسجدَ الذي بني للصلوات الخمس معطّلاً مخرَّباً، ليس له كسوة إلا مِنَ النّاس، وكأنّه خان من الخانات، والمشهد الذي بُنِيَ على الميتِ عليه الستورُ، وزينةَ الذّهب والفِضّة والرّخام، والنذور تغدو وتروح إليه، فهل هذا إلا مِنْ استخفافِهم بالله تعالى وآياتِه ورسولِه ﷺ، وتعظيمِهم للشرك، فإنّهم اعتقدوا أنَّ دعاءَ الميت الذي بُنِيَ له المشـهد، والاستغاثة به أنفعُ لهم من دعاءِ الله تعالى، والاسـتغاثة به في البيت الذي بني لله عزّ وجلّ، ففضّلوا البيتَ الذي بني لدعاءِ المخلوق، على البيت الذي بني لدعاء الخالق، وإذا كان لهذا وقفٌ ولهذا وقفٌ كان وقفُ الشركِ

---

(١) الرد على البكري، ص٢٩٥.
(٢) المصدر السابق، ص٢٩٦.

أعظمَ عندهم، مضاهاةً لمشركي العرب، الذين ذكر الله تعالى حالهم في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]»[١].

وبهذه المقتطفات التي أوردناها يستطيعُ أن يقدِّرَ القارئ الكريمُ مدى الضلالات العقائدية والعمليّة، التي كان الجهلةُ والعامّةُ من المسلمين قد أصيبوا بها في القرنين السابع والثامن الهجري على رغم وجودِ حكوماتٍ إسلاميّةٍ قويّةٍ، ووجود كبار أئمةِ الفنِّ من المحدّثين والفقهاء والمدارس الدينية والمراكز العلمية، وكيف كانت العقائدُ والأعمالُ المشرِكة قد تسرّبت إلى نفوس العامة منهم.

وبصرف النظر عن هؤلاء العامة والجهلة من الناس، فإنّ كثيراً من العلماء والفقهاء وَجَدَتِ الشبهاتُ سبيلاً إلى نفوسِهم حول هذه العقائد والأعمال، فإنّ كتاباتهم وفتاواهم تشير إلى أنَّ أفكارَهم لم تكن نقيّةً في موضوع الشرك والتوحيد كما ينبغي أن تكون لرجل استفاد عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة مباشرةً، واطّلع على سيرة السّلف الصالح وعقيدتهم وسلوكهم.

وتقدّر وجهة نظر هذه الطبقة التي تأثّرت بتقاليد عصرها الرائجة، وعاداتِه القديمة من كتابات معاصرِ ابن تيميّة الشيخ (علي بن يعقوب البكري) و(الأخنائي) التي تصدّى شيخ الإسلام ابنُ تيميّة للردِّ عليها، فألّفَ كتابين مبسوطين[٢] اقتطفنا منهما ما مرَّ آنفاً.

---

(١) الرد على البكري، ص٢٥٠.

(٢) تلخيصُ كتاب (الاستغاثة) المعروف بالرد على البكري، المطبعة السلفية، مصر، عام ١٣٤٦هـ؛ وكتاب (الرد على الأخنائي، واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ، والكتابُ المذكورُ آخراً على هامشِ المذكور أولاً.

مهمته الإصلاحية، ومعارضته للعقائد المشركة:

رفعَ ابنُ تيميّة لواءَ الجهاد والتجديد محارِباً هذه الأعمال والأفكار والتقاليد المشركة الرائجة، غير مبالٍ في ذلك بسخط العامة، وغضب الخاصة وعتابهم، وضربَ جذور تلك العقائد والآراء التي كانت أساسَ هذه الأعمال المشركة.

والذي دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور وممارستهم لهذه الأعمال والتقاليد المشركة هو أنّهم إنما كانوا يدعون أصحابها لتحقيق أغراضهم ومآربهم، فكانوا يستغيثونَ ويستعيذونَ بهم، وقد صرّح ابنُ تيميّة في مؤلفاته أنّ دعاء غيرِ اللهِ لا يجوزُ ألبتةَ، وهو شركٌ جليٌّ، دخل فيهم بجهالتهم واختلاطهم بغير المسلمين، إنّه يقول في كتابه (الرد على البكري):

المنع من الدعاء والاستغاثة بغير الله:

«فإنّا بعد معرفة ما جاء به الرسول ﷺ نعلمُ بالضرورة أنّه لم يَشرَعْ لأمتِه أن تدعوَ أحداً من الأمواتِ لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنّه لم يشرعْ لأمتِه السجودَ لميتٍ ولا لغيرِ ميتٍ ونحوِ ذلك، بل نعلمُ أنّه نهى عن كلِّ هذه الأمور، وأنّ ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ، لكنْ لغلبةِ الجهلِ وقِلّةِ العلمِ بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يكن تفكيرُهم يحيط بذلك حتى يتبيَّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه»[1].

ويقول في مناسبة أخرى:

«أبعدها عن الشرع أن يَسأل الميتَ حاجةً أو يستغيثَ به، كما يفعله كثير من الناس بكثيرٍ من الأموات، وهو من جنس عبادةِ الأصنام، ولهذا تتمثّلُ لهم الشياطينُ على صورة الميت أو الغائب، كما كانت تتمثّلُ لعبّاد الأصنام، بل أصلُ عبادةِ الأصنامِ إنّما كانت من القبور كما قال ابن عباس وغيره»[2].

---

(١) الرد على البكري، ص٣٧٧.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.

ويقول في موضع آخر:

«سؤالُ الميتِ والغائبِ نبياً كان أو غيرَه من المحرّمات المنكرَةِ باتّفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ ولا فعله أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحبَّه أحدٌ من أئمة المسلمين، وهذا مما يُعلَمُ بالاضطرار من دين المسلمين أنَّ أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به تِرَةٌ، أو عرضتْ له حاجةٌ لميت: يا سيدي فلان! أنا في حَسْبِك، أو اقض حاجتي، كما يقول بعضُ هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبيّ ﷺ بعدَ موته، ولا بغيرِه من الأنبياءِ، لا عندَ قبورِهم، ولا إذا بعدوا عنها، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العِظام في مقابلة المشركين في القتال، ويشتدُّ البأسُ بهم، ويظنّون الظنونَ، ومع هذا لم يستغثْ أحدٌ منهم بنبيٍّ ولا غيرِه من المخلوقين، ولا أقسموا بمخلوقٍ على الله أصلاً، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء، ولا قبورَ غيرِ الأنبياء، ولا الصلاة عندها، **وقد كَرِهَ العلماءُ كمالك وغيرِه أن يقومَ الرّجلُ عند قبر النبيِّ ﷺ يدعو لنفسه، وذكروا أنَّ هذا من البدعِ التي لم يفعلها السلف**»[1].

ويقول في رسالته المعروفة باسم (التوسل والوسيلة):

«فإنّ دعاءَ الملائكةِ والأنبياءِ بعد موتهم، وفي مغيبتهم، وسؤالهم، والاستغاثة بهم، والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعْهُ الله، ولا ابتعثَ به رسولاً، ولا أنزلَ به كتاباً»[2].

الحكمةُ في تحريم دعاء غير الله:

ويتحدّثُ في هذا الكتاب عن الحكمة في تحريم دعاء غير الله فيقول: «نهى سبحانَه عن دعاءِ الملائكةِ والأنبياءِ مع إخبارِه لنا أنَّ الملائكةَ يدعون لنا

(١) الرد على البكري، ص٢٣٢.
(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص١٥.

ويستغفرون، ومع هذا فليسَ لنا أن نطلبَ ذلك منهم، وكذلك الأنبياء والصالحون، وإنْ كانوا أحياءً في قبورهم، وإنْ قُدِّرَ أنّهم يدعون للأحياء، وإنْ وردت به الآثار، فليس لأحدٍ أن يطلبَ منهم ذلك، ولم يفعلْ ذلك أحدٌ من السلف، لأنَّ ذلك ذريعةٌ إلى الشرك بهم، وعبادتهم من دون الله تعالى، بخلاف الطلبِ من أحدِهم في حياته، فإنّه لا يفضي إلى الشّرك، ولأنَّ ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياءُ والصالحون بعدَ الموت هو بالأمر الكوني، فلا يؤثِّرُ فيه سؤال السائلين، بخلافِ سؤال أحدهم في حياتِه، فإنّه يشرعُ إجابةُ السائل، وبعد الموتِ انقطعَ التكليفُ عنهم»[1].

أشكال وأنواع متعددة للداعين:

وفي موضع آخرَ يشرحَ ألوانَ وأحوالَ الداعين والسائلين على القبور، ويذكر أحكامَ كلّ منهم، يقول:

وأمّا من يأتي إلى قبرِ نبيٍّ أو صالحٍ أو من يعتقدُ فيه أنّه قبرُ نبيٍّ أو رجل صالح، وليس كذلك، ويسأله ويستنجده، فهذا على ثلاث درجات:

أحدها: أن يسأله حاجتَه مثل أن يسأله أن يُزيلَ مرضَه، أو مرضَ دوابّه، أو يقضيَ دينَه، أو ينتقمَ له من عدوه، أو يعافيَ نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك، مما لايقدِرُ عليه إلا الله، فهذا شِركٌ صريحٌ، يجبُ أن يُستتابَ صاحبُه، فإنْ تابَ وإلا قُتِلَ.

وإن قال: أنا أسأله لكونِه أقربُ إلى الله منّي ليشفعَ لي في هذه الأمور، لأنّي أتوسلُ إلى اللهِ به، كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا مِنْ أفعال المشركين والنصارى، فإنّهم يزعمون أنَّهم يتخذون أحبارَهم ورهبانَهم شفعاءَ يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبرَ الله عن المشركين أنّهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٢.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذا هو القسم الثاني: وهو أن لا تطلبَ منه الفعلَ، ولا تدعه، ولكن تطلب أن يدعوَ لك كما تقول للحي: ادعُ لي، وكما كان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يطلبون من النبيِّ ﷺ الدعاءَ، فهذا مشروعٌ في الحيِّ كما تقدم.

وأما الميت من الأنبياءِ والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول: ادعُ لنا ولا اسأل لنا ربّك، ولم يفعل هذا أحدٌ من الصحابة والتابعين، ولا أمرَ به أحدٌ من الأئمة، ولا وردَ فيه حديث.

بل الذي ثبت في (الصحيح) أنّهم لما أجدبوا زمنَ عمر رضي الله عنه استسقى عمر بالعباس وقال: «اللهمّ إنّا كنّا إذا أجدبنا نتوسّلُ إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنّا نتوسّلُ إليك بعمِّ نبيّنا فاسقنا، فيُسْقون».

ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله! ادعُ لنا، واستسقِ لنا، ونحن نشتكي إليك مما أصابنا، ونحوِ ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط بل بدعة ما أنزل الله بها من سلطان(١).

وأما القسم الثالث: وهو أن يقولَ: اللهم بجاه فلانٍ عندَك، أو ببركةِ فلانٍ، أو بُحرمَةِ فلانٍ عندَك افعل بي كذا وكذا، فهذا يفعلُه كثيرٌ من الناس، لكن لم ينقلْ

---

(١) أما حديث بلال بن الحارث المزني الذي ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية): ٧/ ٧٤، واستدل به بعضهم على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ فحديث ضعيف، في إسناده سيف بن عمر التميمي؛ قال الحافظ في التقريب: ضعيف، ولم يصححه ابن كثير، بل سكت عنه. (الناشر)

عن أحدٍ من الصحابة والتابعين وسلفِ الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحدٍ من العلماء في ذلك ما أحكيه، إلا ما رأيتُ في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام[1] فإنّه أفتى أنّه لا يجوز لأحدٍ أن يفعلَ ذلك إلا للنبيِّ ﷺ إن صَحَّ الحديث. . .

وقالت طائفة: ليسَ في هذا جوازُ التوسل به في مماته وبعد مغيبه، بل إنما فيه التوسل في حياتِه بحضوره[2].

لا يجوز للمرء أن يطلبَ من أيِّ كائن حي ما وراءَ الأسباب الدنيويّة:

ولا يكتفي ابنُ تيميّة باعتبار حرمة مدِّ يد السؤال إلى شيخٍ ميّتٍ أو نبيٍّ أو صاحب قبرٍ، بل إنّه يعتبر طلب كلِّ شيءٍ يكون وراء الأسباب الدنيوية، ويتصل بالقدرة الإلـٰهية، أو بالإرادة المطلقة، التي عبّر عنها بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [النحل: ٤٠]. واختصّه الله بنفسه، وإن كان ذلك إنساناً حياً غير جائز، يقول في رسالته (زيارة القبور):

«إنّ مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدِرُ عليها إلا الله تعالى، مثل أن يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم، أو وفاء دينه من غير جهة معينة، أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره على عدوه، وهداية قلبه، وغفران ذنبه، أو دخوله الجنة، أو نجاته من النار، أو أن يتعلّم العلم والقرآن، أو أن يصلح قلبه، ويحسن خلقه، ويزكي نفسه، وأمثال ذلك، فهذه الأمورُ كلُّها لا يجوز أن تطلب إلا من الله، ولا يجوزُ أن يقول لملك ولا نبيٍّ، ولا شيخ، سواء كان حياً أو ميتاً: اغفر ذنبي، وانصرني على عدوي، واشف مريضي وعافني، أو عافِ أهلي أو دابتي، وما أشبه ذلك، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه، من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل، التي

---

(١) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي المتوفى سنة ٦٦٠. (الناشر)

(٢) ملخّصاً عن رسالة زيارة القبور، ص١٠٦، ١١٢.

يصوّرونها على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه»[1].

حقيقة الواسطة:

ويحتوي هذا الموضوع على بحث آخر يسمّى بالواسطة أو التوسّط، ويقال لمن يخالفون أن يدعى الرسل أو الشيخ أو الولي: إنّهم ينكرون الواسطة، على أنّ من المعلوم **أنَّ النبي هو الواسطة بين الخلق والخالق، ويستحيلُ الوصول إلى الله بدونه.**

وقد تصدّى ابن تيمية للرد على الاعتراض بطريق واضح، وبين أنَّ هناك مفهومين للواسطة، مفهوماً حقاً متفقاً عليه، وعليه أساسُ الدِّين كله، ومفهوماً باطلاً لا أساسَ له اخترعه الناس، وقد وضعَ في هذا الموضوع رسالة مستقلة باسم (الواسطة بين الخلق والحق) يقول فيها:

«إنْ أرادَ بذلك أنّه لا بدَّ من واسطة تبلِّغنا أمرَ اللهِ فهذا حقٌّ، فإنَّ الخلقَ لا يعلمون ما يحبّه الله ويرضاه، وما أمر به، وما نهى عنه، وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقّه الله تعالى من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، التي تعجزُ العقول عن معرفتها، وأمثال ذلك إلا بالرسل، الذين أرسلهم الله إلى عباده... وهذا مما أجمعَ عليه جميعُ أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، فإنّهم يثبتون الوسائطَ بين اللهِ وبين عباده، وهم الرسل، الذين بلّغوا عن الله أمرَه وخبرَه قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]. ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافرٌ بإجماع أهل الملل»[2].

«وإنْ أراد بالواسطةِ أنّه لا بدّ من واسطةٍ في جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد، ونصرهم، وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك، الذي كفّر الله به المشركين، حيث

---

(١) رسالة زيارة القبور، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) الواسطة بين الخلق والحق، ص٤٥، ٤٦.

اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء، يجتلبون بهم المنافع، ويجتنبون المضار»[1].

وقد غالى العامّة والجهلة وكثيرٌ من الخواصّ أيضاً إلى حد أن اتخذوا الأولياء والصُّلحاء واسطةً بينهم وبين الله تعالى، فضلاً عن الأنبياء والرسول ﷺ، فكانوا يرجعون إليهم في كلِّ شيءٍ من الدعاء والاستعانة والتوكل والرجاء. يتحدّثُ ابنُ تيميّة عن الفرق بين هؤلاء وأولئك فيقول:

«ومن سوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته، يبلّغونهم، ويعلّمونهم، ويؤدّبونهم، ويقتدون بهم، فقد أصابَ في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعُهم حجة قاطعة، لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء رَدُّوه إلى الله والرسول ﷺ، إذ الواحد منهم ليس بمعصومٍ على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخَذُ من كلامه ويتركُ إلا رسولَ اللهِ ﷺ.

وإن أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجّاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائجَ خلقه، فالله إنما يهدي عبادَه ويرزقهم بتوسطهم، فالخلقُ يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أنّ الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس، لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، لأنّ طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبِهم من الملوك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتَهم وسائطَ على هذا الوجهِ فهو كافر مشرك، يجب أن يُستتابَ، فإنْ تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبِّهون للهِ، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أنداداً»[2].

المَشَاهِدُ بدعةٌ قبيحةٌ:

يعارِضُ ابن تيمية بعنفٍ وصراحة هذه المشاهد والمزارات، التي كانت قد تحوّلت في العالم الإسلامي كلِّه إلى مرتعٍ للشرك والبدع، والفسق والفجور، وأوانٍ من المنكرات، وظهرت فيه كفتنة عظيمة، ويعتبرُها ابنُ تيميّة معارَضةً

(١) الواسطة بين الخلق والحق، ص٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص٤٧، ٤٨.

مكشوفة للشريعة، وبدعةً قبيحةً في الزمن المتأخر، يقول في (الرد على البكري):

«وكذلك المساجد المبنيّة على القبور، التي تسمّى المشاهد، محدثةٌ في الإسلام، والسفر إليها محدَثٌ في الإسلام، لم يكن شيءٌ من ذلك في القرون الثلاثة المفضلة.

بل ثبتَ في (الصحيح) عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لعنَ اللهُ اليهودَ والنّصارى اتَّخذُوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذّر ما فعلوا. قالت عائشةُ رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يُـتّخَذَ مسجداً.

وثبت في (الصحيح) عنه أنّه ﷺ قال قبلَ أن يموتَ بخمسٍ: «إنّ مَنْ كان قبلَكم كانوا يتّخذونَ القبورَ مساجدَ، ألا فلا تتّخذوا القبورَ مساجدَ، فإنّي أنهاكم عَنْ ذلك»[1].

ويتقدّمُ فيقول: «وأيضاً فلما فتح المسلمون (تُسْتَر) وجدوا فيها قبر (دانيال) عليه السلام، وكان أهلُ البلد يستسقون به، فكَتَبَ في ذلك أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فكتب إليه: أن احفرِ بالنّهارِ ثلاثةَ عشرَ قبراً، وادفنه في الليلِ في واحدٍ منها، لئلا يُفْتَتَنَ به الناسُ، فيستسقون به، فهذه كانت سُنّةُ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم، ولهذا لم يكن في زمن الصّحابةِ والتابعين لهم بإحسان على وجه الأرض في ديار الإسلام مسجدٌ مبنيٌّ على قبرٍ ولا مشهدٍ يزارُ، لا بالحجاز، ولا باليمن، ولا الشام، ولا مصر، ولا العراق، ولا خُرَاسان»[2].

ويقول في كتاب آخر:

«وأمّا الحُجّاجُ إلى القبور، والمتّخذون لها أوثاناً ومساجدَ وأعياداً، فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم منهم طائفةٌ تُعرَفُ، ولا كان في الإسلام قبرٌ ولا مشهدٌ يحجُّ إليه، بل هذا إنما ظهرَ بعد القرون الثلاثة.

---

(١) الرد على البكري، ص٣٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨٢.

والبدعةُ كلما كانت أظهرَ مخالفةً للرسول ﷺ يتأخّرُ ظهورها، وإنّما يحدثُ أولاً ما كان أخفى مخالفةً للكتاب والسنّةِ»[1].

المشاهد (مسحة) الروافضِ والباطنيّةِ:

إنّه يعتقدُ أنَّ الروافضَ والباطنيّةَ هم الذين أحدثوا بدعة المشاهد، ووضعوا أحاديثَ تؤيّدُ مذهبَهم فيها، وذلك لأنّهم معجبون في الحقيقة بقبور أئمتهم ومشاهدهم، يقول:

«وأوّل مَنْ وضع هذه الأحاديث في السَّفرِ لزيارة المشاهد التي على القبور أهلُ البدع من الروافض ونحوهم، الذين يعطّلون المساجدَ، ويعظّمون المشاهد، التي يُشرَكُ فيها، ويكذَّبُ فيها، ويُبتَدَعُ فيها دينٌ لم ينزِلِ اللهُ به سلطاناً.

فإنّ الكتاب والسنّةَ إنما فيهما ذكرُ المساجدِ دون المشاهدِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[التوبة: ١٨].

وقال: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقول: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[2].

---

(١) الرد على الأخنائي، ص١٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص٤٨ـ٤٩.

معظم هذه المشاهد والقبور مزوّرةٌ:

وقد حقّقَ ابنُ تيميّـة أنَّ معظم هذه المشـاهد والقبور مـزوَّرة مفترضَـة، وما أحسنَ ما يقول في تأييد هذا المعنى:

«وكثيرٌ من المشاهد كَذِبٌ، وكثير منها مشكوكٌ فيه، وسببُ ذلك أنّ معرفةَ المشاهِدِ ليست من الدين، الذي تكفّل الله بحفظه للأمة، لعدم حاجتهم إلى معرفة ذلـك»[1]، ولذلـك فقد وقع فيها التزويـرُ بصفةٍ عامّةٍ، وكثيرٌ منها تزويرٌ بحتٌ[2]، لا يستنِدُ إلى أيِّ أصلٍ، ولكنْ ينخدِعُ به خلقٌ كثيرٌ.

قصص يزورونها لإنجاز أغراضهم من المشاهد:

ومن الفتنِ التي شاعت وانتشرت في الناس، أنَّ هذه المشاهد والقبور توفِّرُ الشفاءَ للمرضى المزمنين، ويُستجابُ عندها الدعاء، وكان الناس يتحدّثون في ذلك عن تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية، ولكنّ ابن تيميّة لم يكن ليتأثَّرَ بمثل هذه الإشاعات والدعاوى الكاذبة، لما كان يتمتّعُ به من الرسوخ في الدين، وقوّة الإيمان واليقين، ولم يكن ليتركَ قطعيّات الدين، ومنصوصاتِ الكتاب والسنّة؛ لمجرد إشاعات ورواياتٍ يتناقلها الناس.

إنّه ظلَّ قائماً على فراسته الإيمانية، وفهمه النيِّر للدين، وأثبتَ أنَّ هذه الإشاعات والدعاوى كلَّها وهمٌ على وهمٍ، لا يمتُّ إلى الحقِّ والصدقِ بصلةٍ ما.

وكثيراً ما كان الناس يروون عن شفاء الحيوانات والبهائم عند هذه المشاهد والقبور، ولكن ما ذكره ابنُ تيميّة لهذه الأحداث من تأويل عجيب إنما يستلفتِ الأنظارَ، وينوِّرُ الأبصار، إنّه يقول:

«وكان بالبلد جماعةٌ كثيرون، يظنّون في العبيديين أنّهم أولياءُ اللهِ تعالى

---

(١) الرد على البكري، ص٣١٢.

(٢) بعض هذه القبور أو المشاهد وضعت فيها حيوانات نافقة. انظر: (طرائف ومسامرات) للدكتور محمد رجب بيومي، ص١٤١ـ١٤٢، ط دار القلم بدمشق. (الناشر)

صالحـون، فلما ذكرتُ لهم أنَّ هـؤلاء كانوا منافقين زنـادقة، وخيارُ مَنْ فيهم الرافضـة، جعلوا يتعجّبـون، ويقولون: نحن نذهبُ بالفرسِ التي بها مَغْلٌ إلى قبورهم، فقلت لهم: هذا من أعظم الأدلّةِ على كفرِهم، وطلبتُ طائفةً من سُيّاس الخيل فقلت: أنتم بالشـام ومصر إذا أصابَ الخيل المَغْلُ أين تـذهبونَ بهم؟ فقالوا: في الشام نذهبُ بها إلى القبورِ التي ببلاد الإسماعيلية كالعلّيقة والمنقية ونحوهما، وأما في مصر فنذهب بها إلى دير هناك للنصارى، ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف، وهم يظنّون أن العبيديين شرفاءَ، لما أظهروا أنّهم من أهل البيت.

فقلت: هل تذهبونَ بها إلى قبور صالحي المسلمين مثل قبر الليث بن سعد والشافعيِّ وابن القاسم وغيرِ هؤلاء؟.

فقالوا: لا.

فقلت لأولئك: اسـمعوا، إنّما يذهبـون بها إلى قبـور الكفار والمنافقين، وبينتُ لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يعذّبون في قبورِهم، والبهائمُ تسمعُ أصواتَهم ـ كما ثبتَ ذلك في الحديث الصحيح ـ فإذا سمعتْ ذلك فَزِعتْ، فَبِسَببِ الرّعبِ الذي يحصلُ لها تنحلُّ بطونها فتروثُ، فإنّ الفزعَ يقتضي الإسهال، فيعجبون من ذلك، وهذا المعنى كثيراً ما كنتُ أذكرُه للناس، ولم أعلم أحداً قاله، ثم وجدتُه قد ذكره بعض العلماء»[1].

تمثيل الشياطين للمشركين:

ويتحدّثُ ابنُ تيميّة عن عِلّةِ ما يحدثُ على قبور الأولياء والصالحين من استجابة الدعاء وانقضاء الحاجة، ومن كلام صاحبِ القبرِ وزيارته، فيقول:

«وكثيـرٌ من هؤلاء إذا استغاثَ بالشيخ رأى صورته، وربّما قضى بعضَ حـاجتِه، فيظنُّ أنّه الشيخ نفسُـه، أو أنّه مَلَكٌ تصوّرَ على صورته، وإنّ هذا من

---

(١) الرد على البكري، ص٣١٠، ٣١١.

كراماتـه، فيزدادُ به شِـرْكاً، وفيه مغالاةً، ولا يعلمُ أنّ هذا من جنـس ما تفعلُـه الشـياطينُ بعبّادِ الأوثان، حيث تتراءَى أحياناً لمن تعبدّها، وتخاطبُهم ببعضِ الأمورِ الغائبة، وتقضي لهم بعضَ الطلبات، ولكنّ هذه الأمور كلّها بدعٌ محدثةٌ في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضّلة»[1].

ويقول في مكان آخر:

«إنّ هذه الشياطين تتصوّرُ على صورة المستَغاثِ به، وحكى لي غيرُ واحدٍ من أصحاب الشيوخ، أنّه جرى لمن استغاثَ بهم مثلُ ذلك، وحكى خلقٌ كثيرٌ أنّهم استغاثوا بأحياء وأموات، فرأوا مثل ذلك، واستفاضَ هذا حتى عُرِفَ أنَّ هذه من الشـياطين، تغري الإنسان بحسـب الإمكان، فإنْ كانَ ممنْ لا يعرِفُ ديـن الإسلام أوقعتْهُ في الشركِ الظاهرِ، والكفرِ المحضِ، فأمرته ألاَّ يذكرَ، وأن يسجدَ للشيطان، ويذبَح له، وأمرته بأكلِ الميتةِ والدمِ، وفعل الفواحش، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض، وبلاد فيها كفر وإسلامٌ ضعيف، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعفُ إيمانُ أصحابِها، حتى قد جرى ذلك في مصرَ والشام على أنواع يطولُ وصفُها، وهو في أرض الشرق قبلَ ظهورِ الإسلام في التتر كثيرٌ جدّاً، وكلّما ظهرَ فيهم الإسلامُ وعرفوا حقيقتَه قلتْ آثارُ الشياطينِ فيهم»[2].

يقول ابن تيمية: إنّ ذلك لا يحدثُ مع الصالحين فقط، بل يحدثُ ذلك لعبّاد الكواكبِ أيضاً، ويحصلُ لهم مثل هذه الانتصارات والأحاسيس:

«والذين يدعـون الكواكبَ تنـزِلُ عليهم أشـخاصٌ يسـمّونها روحانيـة الكواكب، وهو شـيطانٌ نزل عليه لمّا أشـرك ليغويه، كما تدخلُ الشـياطين في الأصنام، وتكلّم أحياناً بعضَ الناسِ، وتتراءى للسدنة أحياناً، ولغيرِهم أيضاً»[3].

---

(١) الرد على البكري، ص٢٣٣.

(٢) تفسير سورة الإخلاص، ص١١٨.

(٣) كتاب النبوات، ص٢٧٤.

دور ابنُ تيميّـة في إصلاح العقيدة وتأثيره:

إنّ القرنين السابع والثامن (وقد مضى الحديثُ عن خصوبتهما وإنتاجاتهما في أول الكتاب) وإنْ كانا حافِلَيْنِ بكبار العلماء والشيوخ، وكان العمل في كل مجال من مجالات التأليف والوعظِ والإرشاد والدعوة والتبليغ مستمراً بكل قوة، لا يتركُ مجالاً للشكّ في أنّ العلماءَ الرّاسخين؛ وحملة الكتاب والسنة؛ لا بدَّ أنّهم قد استنكروا هذا الشركَ الجليَّ، والجاهلية الوثنية كلَّ الاستنكار، وعارضوها بالقلم واللسان.

ولكنَّ ابن تيميّةَ يمتازُ بأنّه كان في طليعة العلماءِ الذين رفعوا رايةَ الجهادِ لمحاربةِ هذا الوضعِ، وتصدّوا لمقاومةِ هذه الفتنة الكبرى رغم اشتغالهم وبحثهم في العلم، وخاطبوا عقولَ الجماهير، وتبنوا مهمّةَ الردِّ على الشرك الصريح غاية حياتهم، وكانوا يتمتّعون بمكانةٍ عاليةٍ في العلم والدين، وخلّفوا ذخيرةً علميّةً ذات قيمة كبيرة في هذا الموضوع، تخلِّدُ شخصيّتَهم، وتجدِّدُ مهمتهم الإصلاحية من حينٍ لآخر.

والحقيقةُ أنّ مقاومةَ هذه الفتنة العامة، وشرحَ عقيدة التوحيد، وبعثَ الفكر الإسلاميّ الصحيح، واستعراضَ هذه التقاليد والعقائد المشركة التي كانت تغطِّي المجتمعَ، وتسيطرُ عليه، والردَّ عليها رداً قوياً حاسماً، كلُّ ذلك كان يحتاجُ إلى شخصيّةِ ابن يتميّة القويّة، وطبيعةُ التوحيدِ تأبى أن تلوذَ بالتأويل والمداهنة أو المحاباة، إنّها تتطلّبُ خطابَ الأنبياءِ الواضحِ الحاسم، وأسلوب دعوتهم الصريح الذي يتّسم بميزة (الفرقان).

ولاشك أنّ ابن تيميّة إنما قام بمسؤولية النيابة عن الأنبياء في عصره، وعمل بمصداق ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] حتّى إنّ هذه العقائد والتقاليد الباطلة - التي كانت قد عمّتِ المجتمعَ الإسلاميَّ باختلاط غير المسلمين وصحبتهم، وتأثير الفرق الضالّةِ والمغرضين قد انهزمت وذهبت ريحُها، وتمثّلت عقيدةُ التوحيد التي ترتكزُ عليها دعوةُ الأنبياء، وتعتبر غايتهم الكبرى بملامح أوضحَ وأجملُ من جديد: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إنّ هذا العمل الذي قام به ابنُ تيميّة كفاه دليلاً على ما خصّه الله به من مكانة عالية في مجال الإصلاح والتربية، والدعوة والتجديد، وقد وُجِدَ بتأثير كتاباته ومؤلفاته رجالٌ من أهل الدعوة والتربية بينَ حينٍ وآخرَ، ممّنْ رفَعوا راية الجهاد ضد هذه التقاليد و(الوثنية الجاهلية) بكل صدْعٍ وإعلانٍ، وارتفعَ صوت القرآن مدوياً عالياً ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] فارتجَّ له العالم الإسلاميُّ، وجاوبه السهلُ والجبلُ.

* * *

الفصل الثّاني

نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام

وَترجيحُ أسْلُوبِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

مهمة الإصلاح والتجديد الثانية:

أمّا مهمة الإصلاح والتجديد الثانية، التي قام بها شَيخُ الإسلام ابنُ تيميّة، فهي أنّه تناولَ الفلسفة والمنطقَ وعلمَ الكلامِ بنقدٍ مُفَصَّلٍ، وأثبتَ فضلَ أسلوبِ الكتاب والسنّةِ إزاءَ هذه العلوم، مؤيّداً بالدلائل والبراهين.

ولكي نقدِّرَ مدى عظمةِ هذه المهمّة، يجبُ أن نعرفَ ما كان يتمتّعُ به المنطِقُ والفلسفةُ من مكانةٍ عاليةٍ في العالم الإسلامي، وما كان لهما من سيطرةٍ على الأفكار والآراء، وفي مثل أيِّ ظرفٍ وبيئةٍ قام شيخُ الإسلامِ بمهمّتهِ هذه؟.

تأثير فلسفةِ اليونان وسيطرتها على العالم الإسلاميِّ:

لا يخفى أنَّ مهمةَ ترجمةِ كُتُبِ الفلسفة والمنطق اليونانيِّ كانت قد بدأت منذُ عهدِ الخليفة (المنصور) عام ١٣٦هـ[١]، وكان المعتزلةُ قد درسوا هذه الكتبَ، واستفادوا منها، ومنذُ ذلك العهدِ، دخلت في كتبهم مصطلحاتُ الفلسفةِ اليونانيّةِ.

إلا أنَّ علومَ اليونانِ ازدهرتْ في الحقيقةِ من عَصْرِ (المأمون) ذلك الذي أشرفَ على حركة الترجمة إشرافاً ملكيّاً، واحتضنَ هذه الحركة، فقد كان من أحرصِ النّاس على هذه العلوم، وأكثرِهم تقديراً لها، فقد ذكر (صاعد الأندلسي)

---

(١) انظر (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام)، للدكتور علي سامي النشار. (الناشر)

في كتابه (طبقات الأمم) أنّه طلبَ من ملوك الروم كُتُبَ حكماءِ اليونانِ، فأرسلوا إليه مؤلّفاتِ أفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس كهدية، وأمر المأمونُ بترجمتها في غاية من الاهتمام، وحثَّ الناس على دراستها، وفي عهدِهِ نالتْ هذه المؤلفاتُ رواجاً عاماً، ونالت الفلسفةُ ازدهاراً كبيراً، وأقبل الشبابُ هم الآخرون على اتقانِ هذه المواد، وجاءَ به كلٌّ كهدية غالية إلى بلاط المأمون السخيِّ، وأُكرِموا بالجوائزِ والصلاتِ والمناصبِ العالية، وهكذا فإنَّ الدولةَ العباسّية أصبحتْ منافسةً للدولةِ الروميّةِ في هذه العلوم[١].

وظلَّ عملُ الترجمةِ هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون، وفي التاريخ ما يدلُّ على أنَّ ذخائرَ كثيرةٍ من علوم اليونان كانت قد انتقلتْ إلى العربيّةِ حتى القرنِ الرابعِ الهجريِّ[٢].

وعلى أنّ هذه الذخيرة العلمية إنما كانت تحتوي على مؤلّفاتِ وتحقيقاتِ أفلاطون وغيرِه من حكماء اليونان، إلا أنَّ كُتُبَ أرسطو نالت القبول والإعجابَ في أوساط العالم الإسلامي العلميّة والمدرسيّة أكثرَ من غيره، ولعلَّ ذلك جاء مِنْ قِبَلِ المترجمين، الذين كانوا في الغالب من النصارى النسطوريين واليعقوبيين، ومن فلاسفة (جُنْدِيْ سَابور) و(حران) إمّا لاتجاهاتهم الشخصيّة، أو لأنَّ عصر أرسطو أقربُ إليهم بالنسبة إلى غيره، وأنَّ كتبَه تحتوي على مباحث الفلاسفة المتقدمين بشكل أكثر تدويناً وترتيباً، حتى أصبحتْ هي الأخرى ممثلة لفلسفة اليونان، والحامية لها، ورمز الفلسفة وآيتها في العالم الإسلامي، ومن سوءِ حظِّ العالم الإسلاميِّ أنَّ لم يحظَ من فلاسفة اليونان إلا بمن كان أبعدَ وأجهلَ من الجميع في تفهُّمِ روح الأديان السماوية ومفاهيمها وحقائقها، وكان أكبرَ داعيةٍ للفكرة المادية، ومن كبار أنصارِها ومؤيديها (وستأتي تفاصيلُ البعضِ منهم في كتابات الإمام ابن تيميّة وانتقاداتِه).

---

(١) طبقات الأمم، ص٤٧.

(٢) وللاطلاع على التفاصيل، راجع (الفهرست) لابن النديم؛ و(طبقات الأطباء) لابن أبي أُصَيْبِعة؛ و(أخبار الحكماء) للقفطي، وما إلى ذلك.

عهد تقليد الفلسفة:

في أول الأمر رفضَ علماء الفلسفة في العالم الإسلامي قبولَ فلسفة أرسطو ومنطقه على علاتهما، وما رأوه فوق النقد والتحقيق، بل تصدى له كثير منهم، وألّفوا كتباً في الرد عليه، وتناولوا بحوثه الفلسفية والمنطقية بالنقد الحرّ، وجهروا بكلِّ ما ظهرَ لهم من ضعفِه وركاكتِه، وكان المعتزلةُ أوّلَ من حملوا لواء ذلك، ويجدرُ بالذكر منهم النَّظّامُ وأبو علي الجُبّائي.

وجاء حسن بن موسى النوبختي في القرن الثالث، فألّفَ كتابَ (الآراء والديانات)، وردَّ على بعض المسائل المنطقية لأرسطو، كما ألّفَ الإمام أبو بكر الباقلاني كتاباً باسم (الدقائق) في القرن الرابع، فنّدَ فيه الفلسفةَ، وأثبتَ فضل منطق العرب على منطق اليونان.

أما في القرن الخامس فنهض العلامةُ عبد الكريم الشَّهْرَستاني صاحب كتاب (الملل والنحل) وألّفَ كتاباً في الردِّ على برقلس وأرسطو، ونقضَ فيه دلائلهما وفقَ قواعد المنطق.

وفي أواخر هذا القرن نفسِه تصدّى الإمامُ الغزاليُّ كمنافس للفلسفة، وألّفَ كتابَه المعروف باسم (تهافت الفلاسفة) ذلك الذي أحدثَ ضجّةً في إيوان الفلسفة بقيت إلى قرن كامل[1].

وقام أبو البركات البغدادي في القرن السادس فواصلَ هذا العمل، وتقدّم به إلى الأمام، وألّف كتاباً باسم (المعتبر) أصبحَ موضعَ البحثِ والنقدِ فيما بعد، أبطلَ فيه أفكار أرسطو في معظم المسائل، وفي هذا القرن برز الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) (كمحامٍ) لمتكلّمي الإسلام والأشاعرة، واستهدفَ الفلسفة بإيراداته.

أمّا الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، التي كانت تعتبَرُ حاملةَ لواء

---

(١) اقرأ التفاصيل في الجزء الأول من هذا الكتاب، ص٢٨٢.

الفلسفة اليونانية في الواقع وترجمانها، فقد ظلّتْ مسحورةً بشخصيّةِ أرسطو وعظمتِه، وكانت تراه فوقَ كلِّ نقدٍ وتحقيق، وكان هذا الهيامُ والإعجابُ بشخصيّة أرسطو يتزايدُ مع مرورِ الأيام لدى علماء الفلسفة، ويكادُ يحتلّ في أوساط الفلسفة محلَّ القدسية والعظمة، فكل خَلَفٍ يفوق سلفُه في تقديسِه وتعظيمِه.

يقول (أبو نصر الفارابي) المتوفّى (٣٣٩هـ ـ ٩٥٠م) عن أفلاطون وأرسطو:

«وكان هذان الحكيمان هما المبدعان للفلسفة، والمنشئان لأوائلها وأصولها، والمتممان لأواخرها وفروعها، وعليهما المعوَّلُ في قليلها وكثيرها»[١].

وهذا (أبو علي ابن سينا) (م ٤٢٨ هـ) أكثرُ اعترافاً بعظمة أرسطو وسلطانه من الفارابي، إنه يقول في كتابه (الشفاء) ما معناه: «إنّ أرسطو مضى عليه أمدٌ طويل إلا أنَّ القضايا والتحقيقاتِ التي أدلى بها لم تحتجْ إلى زيادة»[٢].

ولم تُنجِبْ أوساطُ الفلسفة بعد أبي عليٍّ ابن سينا أي عالم ومحامٍ للفلسفة أكبر من ابنِ رُشدٍ (م ٥٩٥ هـ). إنَّه يتقدّم خطوةً في تقديس وتعظيم أرسطو على أبي علي ابن سينا أيضاً.

واسمحوا لي بهذه المناسبة أن أعبِّرَ عن ذلك بما اعتادَهُ المتصوّفون من كلمة (التفاني في الشيخ) يتحدَّثُ أحد مترجميه عن خصيصته هذه فيقول:

«أما تمجيدُ ابنُ رشدٍ لأرسطو، فلا حدَّ له، فيكادُ يؤلّهه، وقد وضعَ له أوصافاً تجعلُه فوقَ درجاتِ الكمال الإنسانيِّ عقلاً وفضلاً، ولو كان ابنُ رشدٍ يقول بتعدّد الآلهة لجعلَ أرسطو ربَّ الأرباب»[٣].

وفي القرن السابع تبرزُ شخصيّةُ نصيرُ الدين الطُّوسي (م ٦٧٢ هـ) في أوساط

---

(١) الجمع بين رأيي الحكيمين.

(٢) مأخوذٌ من مقال العلاّمة شبلي النعماني: (بين الإسلام وفلسفة اليونان) المنشور في مجلة (الندوة) ج١، روايةً عن كتاب (الشفاء).

(٣) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب، لطفي جمعة، ص١٥٥.

الفلسـفة، ذلك الذي عرفتْه حلقاتُ المدارس الفلسفيّة بالمحقّقِ الطوسيِّ، وكان العالم الإسلاميُّ قد أصابته دهشةُ الفتحِ، وأصيبَ بالذّهول في هذا الزمن بهجوم التتر وسقوط بغداد، وأظلَّ العالمَ الإسلاميَّ كله انحطاطٌ علميٌّ عامٌّ، وقد كان نصيرُ الدين الطوسيّ، هو حاملُ لواءِ العلم والفلسفة اليونانيّة (وهو من مقربي هلاكوخان ومستشاريه) وتولّى تلاميذُه أمورَ التدريس والتأليف، وأخصُّ بالذكر منهم قطبَ الدين الشيرازيَّ وسميَّه قطب الدين الرازي، وعلى يدهم وُجِدَ ذلك المنهج الخاصّ للتعليم السائدِ في إيران، الذي يحلّ فيه المنطقُ والفلسفةُ محلاً رئيسياً، وقد كان نصير الدين الطوسي يتصل بالمدرسةِ التي كانتْ تعتبِرُ أرسطو العقل الكليَّ، وترى في نظراته وتحقيقاته المرجعَ الأخير، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالِفاً الإمام الرازي، وكان قد نفخ في فلسفة أرسطو روحاً جديدة.

المحاسبة العلمية للفلسفة والمنطق ومأثرة ابن تيميّة في هذا المجال:

وُلِدَ شيخُ الإسلام (ابن تيمية) قبل وفاة نصير الدين الطوسي بعشـر سنين، وكـان للفلسفة والمنطق اليونـانيين غلبـةٌ وازدهارٌ عظيمين، بتأثيـر نصير الدين الطوسي وتلاميذِه البارعين، وكان يعتبرُ منتهى الذكاء ومقياسَ الفضل آنذاك أن يَفهَمَ المرءُ مسائلهما وبحوثهما، ولم يكن لأحدٍ أن يتجرّأ على القول بإزائهما أو ضدهما، ولم يكن المحدِّثون والفقهاء فرسانَ هذا الميدانِ، وجُلَّ ما كان يسعهم هو أن يفتوا بحرمتها، إلا أن هذا السيلَ ما كان ليقفَ بهذا ومثله من الأعمال، فقد كان العالم الإسلامي كلُّه يعيش تحت ضغطهما، ولقد كان للتشكيك والارتياب جولةٌ في بعض الأوساط التي كانت تتصل بالفلسفة اليونانية مباشرةً، ويوجد فيها اتجاهٌ نحو إنكار حقائق الأشياء.

أمّا الطبقـة التي ابتعدت عنها، ولم تتصل بها مباشـرةً فقد وقعت فريسـةَ مركّبِ النقص والشعورِ بالعجز.

ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجةُ ماسّةً إلى نقدٍ صريحٍ، واسـتعراضٍ علميٍّ حُرٍّ للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحةِ الستار عن مواضع ضعفها العلمية، وقد أنجزَ حاجة السّاعةِ هذه شيخُ الإسلام ابن تيمية، وقامَ بنقد الفلسفة اليونانية،

ومحاسـبتها العلمية، مؤيِّداً بحوثَه بالدلائل والبراهين، وناظرَ أرسـطو مناظرة علميّةً، وجهاً لوجه[1]، ذلك الذي كان علماءُ الفلسفة يعتبرونَه شخصيّةً فوق مستوى البشر، وغنيّةً عن النقدِ والردِّ.

ولكي ندركَ مكانةَ عمله هذا وطبيعتَه، ونعلمَ معيارَ نقدِه ومحاسبتِه، ووجهة نظره، وأساسَ خلافه معه، نرجع إلى كتبه، ونقتطف فيما يلي ملخّصات من كتاباته بعناوين مختلفةٍ، ومقتطفات من كتبه تبيّنُ وجهةَ نظرِه، وأسلوبَ تفكيرِه.

الاعتراف بالطبعيات والرياضيات:

إنّ رأيه في تلك الذخيرة العلميّة التي تنتمي إلى أرسطو وفلاسفة اليونان متزنٌ معتدِلٌ، إنَّه يفرِّقُ بين الطبعيات والرياضيات والإلـٰهيات، ويعترِفُ بصحّةِ معظم مسائل الطبعيات والرياضيات، وبذكاء علماءِ اليونان في هذا الموضوع، كما فعل ذلك الإمامُ الغزاليُّ، يقول في إحدى المناسبات:

«نعم لهم في الطبعيات كلامٌ غالبه جيّدٌ، وهو كلام كثير واسع، ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم حينَ يقصدون الحقَّ لا يظهر عليهم العناد»[2].

كما يعترف في محلٍّ آخر بوضوحٍ بالغٍ أنَّ الطبعيات والرياضيات وما إلى ذلك موضوعٌ خاصٌّ بفلاسفة اليونان ومجال تفكيرهم ودراستهم، يقول:

«لكن لهم معرفةٌ جيّدةٌ بالأمور الطبعية، وهذا بحرُ علمهم، وله تفرّغوا، وفيه ضيعوا زمانهم»[3].

إنّه يبدي رأيه في العلم الرياضيّ لليونان، يقول في كتابه الشهير (الردّ على المنطقيين):

«فهذه الأمور وأمثالُها مما يتكلّم فيه الحُسّاب أمرٌ معقول، مما يشترِكُ فيه

---

(١) أي مناظرةً صريحة. (الناشر)
(٢) الرد على البكري، ص١٤٣.
(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص٥٧.

ذوو العقول، وما مِنْ أحدٍ مِنَ الناسِ إلا ويعرفُ منه شيئاً، فإنّه ضروري في العلم، ضروري في العمل، ولهذا يمثّلون به في قولهم: الواحدُ نصفُ الاثنين، ولا ريب أن قضاياه كلية واجبة القبول، لا تتنقض البتة»[1].

فلسفة الإلـٰهيات المجال الرئيسي للخلاف:

إنَّ الجانبَ المهم الذي يعارِضُـه ابنُ تيميّة في فلسـفة اليونان هو جانب (الإلـٰهيات) إنّه يؤكِّدُ عجزَ فلسفةِ اليونان عن إدراكِ سِرِّ الإلـٰهيات، وفقرِها وقلة بضاعتها في ذلك، ويثبتُ مرّةً أخرى إخفاقَ فلاسفة اليونان، وخيبتهم وجهلهم بذلك، إنّه يعتقِدُ أنّ هذا الجانب المهمَّ لم يكن مجالاً لفلسفة اليونان ولا مضماراً لتفكيرِ فلاسفتها، وموضِع بحثٍ لدراستهم، وأنّهم بخوضهم في هذا الموضوع إنّما تعدوا حدودَهم، ومهّدوا الطريقَ لتحقيرِ شأنهم والضحك عليهم يقول:

«للمتفلسفة في الطبعيات خوضٌ وتفصيلٌ تميّزوا به بخلاف الإلـٰهيات، فإنّهم أجهل الناس بها، وأبعدُهم عن معرفة الحقّ فيها، وكلامُ أرسطو معلّمهم فيها قليل كثير الخطأ»[2].

وفي موضعٍ آخر حيثُ يعترِفُ باطلاعهم على الطبيعيات، ويذكر إفلاسهم في الإلـٰهيات يقولُ:

«وأمّا معرفـةُ اللهِ تعالى فحظُّهم منها مبخوسٌ جداً، وأما ملائكتـه وكتبـه ورسله فلا يعرفونَ ذلك البتة، ولم يتكلّموا فيه لا بنفي ولا بإثبات، وإنما تكلّم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل»[3].

يقول ابن تيميّة: إنّ أساطين فلسفةِ اليونان وأركانَها يعترفون هم أنفسُهم بأنّهم لا يملكون وسائل ومبادئ اكتساب هذا العلم، وصرّحوا بأنَّ التوصلَ إلى

---

(١) الرد على المنطقيين، ص١٣٤.

(٢) معارج الوصول، ص١٨٦.

(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص٥٧.

اليقينِ في هذا الموضوع يصعبُ عليهم أيّما صعوبة، يقول:

«بل قد صرّحَ أساطينُ الفلسفة بأنَّ العلوم الإلـٰهيّة لا سبيلَ فيها إلى اليقين، إنّما يُتكلّمُ فيها بالأحرى والأخلق، فليسَ لهم فيها إلا الظنّ، و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦][١].

المقارنة بين الإلـٰهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم:

إنّه يتعجّبُ حينما يتناولُ مباحثَ العلوم الإلـٰهيّة لفلسفة اليونان، وأقوالَ فلاسفتهم الذين يقرّنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياءُ عليهم السلام، يقول في حماسٍ زائدٍ وقوّةٍ بالغةٍ:

«إذا نظر في كلام معلِّمهم الأول أرسطو ـ الفاضلُ العاقلُ ـ وتدبّره لم يفده إلا العلم بأنّهم كانـوا من أجهلِ الخلقِ بـربِّ العالمين، وصار يتعجَّـبُ تعجباً لا ينقضي ممن يقرِنُ علمَ هؤلاء بالإلـٰهيّات، بما جاءتْ به الأنبياءُ، ويرى أنَّ هذا من جنس مَنْ يقرنُ الحدّادين بالملائكة، بل من يقرن دهاقين القُرَى بملوكِ العالم، فهو أقـربُ إلى العلم والعدل ممن يقرنُ هـؤلاء بالأنبياء، فـإنّ دهقانَ القريةِ متولٍّ عليها كتولّي الملك على مملكته، فله جزء من المُلك».

«وأما ما جاءتْ به الأنبياءُ فلا يعرفه هؤلاء البتة، وليسوا قريبين منه، بل كفّارُ اليهودِ والنصارى أعلمُ منهم بالأمورِ الإلـٰهيّة، ولستُ أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياءُ بعلمه من الوحي، الذي لا يناله غيرُهم، فإنّ هذا ليس من علمهم، ولا من علم غيرهم، وإنّما أعني العلومَ العقليّة، التي بيّنها الرّسلُ للناس بالبراهين العقلية، في أمر معرفةِ الربِّ وتوحيدِه، ومعرفةِ أسمائه وصفاته، وفي النبوّات والمعادِ، وما جاءوا به مِنْ مصالحِ الأعمال، التي تُورثُ السعادةَ في الآخرة، فإنّ كثيراً من ذلك لم يشمّوا رائحتها، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها.

وأمّا ما اختصَّتِ الرسلُ بمعرفتِه، وأخبرتْ به من الغيبِ، فذلك أمرٌ أعظمُ

---

(١) نقض المنطق، ص١٨٧.

من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة، وإنّما المقصودُ الكلام في العلوم العقلية، دعْ ما جاءت به الأنبياء فإنّه مرتبة عالية»[1].

جهل فلاسفة اليونان وإنكارهم:

ويشرحُ ابن تيميّة الأسبابَ التي دعت فلاسفةَ اليونان إلى الجهل بالعلوم الإلـٰهيّة، وقصر باعهم فيها وفي كثيرٍ من الحقائق الغيبيّة، وإنكار الموجودات، يقول:

«أمّا الغيبُ الذي تخبرُ به الأنبياءُ، والكليّاتُ العقلية التي تعمُّ الموجودات كلها، وتضم الموجودات قسمةً صحيحة، فلا يعرفونها البتة، فإنّ هذا لا يكون ممن أحاط بأنواع الموجودات، وهم لا يعرفونها إلا الحسابَ وبعض لوازمها[2]، وهذا معرفة بقليل الموجودات جداً، فإنّ ما لا يشهدُه الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفةً مما يشهدونه بكثير.

ولهذا كان هؤلاءِ الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة، إذا سمعوا إخبارَ الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسيّ والجنة والنار، وهم يظنون أنْ لا موجودَ إلا ما علموه، وهم والفلاسفةُ يصيرون حائرين متأوّلين لكلام الأنبياء على ما عرفوه، وإنْ كانَ هذا لا دليلَ عليه، وليس لهم بهذا النفي علمٌ، فإنّ عدمَ العلمِ ليس علماً بالعدم، لكنّ نفيهم هذا كنفي الطبيب للجنِّ، لأنه ليس في صناعة الطبِّ ما يدلُّ على ثبوتِ الجنِّ، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجن.

وهكذا تجدُ من عرفَ نوعاً من العلم، وامتاز به على العامة الذين لايعرفونه، فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه، وبنو آدم ضلالُهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثرُ من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩][3].

---

(١) الرد على المنطقيين، ص٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٢) انظر عن ضآلة معرفة اليونان بالحساب، كتاب (العدد) من سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم (٢٥١)، تأليف جون ماكليش، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول. (الناشر)

(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص ٦٠ ـ ٣٥٩.

اليونان عُبّاد الكواكبِ والأوثان:

يتبيّنُ من تاريخ يونان القديم، أنّ يونانَ التي منحت العالم تراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والرياضية، وتولّت قيادةَ الدنيا العقلية والفكرية لآلافٍ من السنين، ظَلّتْ تعبدُ الكواكبَ والأصنام في معظم أجزاءِ تاريخها، وكانت فريسةَ الأوهامِ والخرافات الكثيرة.

إنَّ التـاريخَ الجديدَ قـد أزاح السـتارِ عن وجهِ علم الأصنامِ في اليونان، ووثنيتها القومية، فلم يعد الآن مِنْ شك أنَّ يونانَ القديمةَ كانت ترزحُ تحت نير الآلهة والإلٰهات، ومعابد الكواكب وهياكلها، إنَّ فلسفة اليونان التي وصلت إلى العالم الإسلاميِّ عن طريق الترجمة، ثم انتقلت إلى أوروبة، إنّما هي مصطبغةٌ بصبغة الوثنية وعبادة الكواكب هذه، لقد نقلَ فلاسفةُ اليونان عقائدهم الدينية وأفكارَهم المشركة إلى مصطلحات الفلسفة الهائلة، وتلقّاها علماء الفلسـفة المسلمون ـ الذين لم يكونوا مطلعين على تاريخ اليونان الديني ـ كحقائق علمية، وجعلوها موضع دراستهم وتفكيرهم، وبذلوا جهودَهم لإثباتِها.

ومما يدلُّ على ذكاء ابن تيميّة وألمعيته أنّه كشفَ الستار عن هذه النقطة قبل قرونٍ، يقول:

«أمّا قدماء اليونان فكانوا مشركينَ، من أعظمِ النّاسِ شركاً وسِحْراً، يعبدون الكواكبَ والأصنامَ، ولهذا عظمتْ عناياتُهم بعلمِ الهيئةِ والكواكبِ لأجلِ عبادتها، وكانوا يبنونَ لها الهياكِلَ»[1].

ويقول في موضع آخر:

«ولهذا كان رؤوسهم المتقدّمون والمتأخرون يأمرونَ بالشرك، فالأولون يسمّون الكواكب الآلهة الصغرى، ويعبدونها بأصناف العبادات، كذلك كانوا في مِلّةِ الإسلام لا ينهون عن الشرك، ولايوجبون التوحيدَ، بل يسوّغون الشرك،

---

(١) تفسير سورة الإخلاص، ص٦٠ ـ ٣٥٩.

ويأمرون به، أو لا يوجبون التوحيد»[1].

الفرق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان:

ومما يؤكِّدُ دِقَّةَ الفهم، وحسنَ التوصُّل إلى الحقيقة لدى ابن تيميّة، أنّه قام بالتفريق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان، إنّه يعتقِدُ أنَّ المتقدمين على (أرسطو) كانوا أقربَ إلى فهم الحقائق الغيبية ومعرفة المفاهيم الدينية وأفكارها، إذ لا يتجلّى فيهم ذلك الاتجاه نحو رفض الحقائق الغيبية وإنكارها، الذي يتجلّى في أرسطو بكل وضوح، إنه يقول في موضع:

«هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدّمين، فإنّ أولئك كانوا يقولون بحدوثِ هذا العالم، وكانوا يقولون: إنّ فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبيُّ ﷺ الجنة، وكانو يثبتون معادَ الأبدان، كما يوجَدُ هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرِهما من أساطين الفلاسفة»[2].

أرسطو أبعدُ الفلاسفة عن الحقائق الدينية:

وسبب هذا الفرق الذي يراه ابن تيميّة بين المتقدمين منهم والمتأخرين، هو أنَّ المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقت لهم السياحة في البلدان التي بعث فيها الأنبياء عليهم السلام، فتسنّى لهم الاطلاع على الحقائق الدينية، أمّا أرسطو فلم يتفق له ذلك، إنّه يتحدّثُ عن ذلك روايةً عن بعض المؤرخين:

«وسببُ ذلك ما ذكره طائفة مما جمعَ أخبارَهم أنَّ أساطين الأوائل ـ كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون ـ كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم، ومن بعدِه من أصحاب داود وسليمان، وأنّ أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عندَه من العلم بأثارة الأنبياء ما عند سلفه، وكان عنده قدرٌ يسير من الصابئيّة الصحيحة، فابتدعَ لهم هذه التعاليم القياسية،

---

(١) نقض المنطق، ص١٧٧.

(٢) تفسير سورة الإخلاص، ص٦٧.

وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه»[1].

ومن سوء الحظِّ أنَّ فلسفةَ أرسطو هي التي نالت رواجاً في العالم الإسلامي، وهي التي اشتهرت في العهد الأخير بفلسفة اليونان، يقول ابن تيمية:

«ولكنَّ هذه الفلسفة التي يسلكُها الفارابيُّ وابنُ سينا وابنُ رشدٍ والسَّهْرَوَرْدِيُّ المقتول، ونحوه هي فلسفةُ المشائين، وهي المنقولةُ عن أرسطو الذي يسمّونه المعلم الأول»[2].

مكانة الإلـه في الفلسفة اليونانية:

وفي فلسفة أرسطو هذه لم تعد فكرةُ الإلـهِ وذاتِه إلا وجوداً ذهنياً فقط، يقول:

«فإذا تصوّرَ العاقلُ أقوالَهم حقَّ التصور، تبيّنَ أنَّ هذا الواحدَ الذي أثبتوه لا يُتَصوَّرُ وجوده إلا في الأذهان لا في الأعيان»[3].

إنَّ أسلوبَ المبالغة الذي اتخذه الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإلـه وصفاته، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال، وعن المحاسن والامتيازات التي يتمتّع بها أدنى الخلق، يعتِقدُ ابنُ تيميّة على أساس هذه الاعتقادات الفاسدة أنّه لا يمكنُ إهانة الله أكثر من هذا (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً)، إنّه يتحدث عن هذه الحقيقة ضمن ما ينقل من الأقوال:

«لقد أحسن بعض الفضلاء إذ قال: الصفعُ أحسنُ من توحيدِ الفلاسفةِ، بل قصّرَ فيما قال»[4].

فلاسفة الإسلام مقلِّدونَ تقليداً بحتاً لليونان:

إنّه يرى أنَّ المتأخرين من الفلاسفة، الذين نشؤوا في العهد الإسلامي، إنما

---

(١) نقض المنطق، ص١١٣.

(٢) الرد على البكري، ص٢٠٦.

(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص٣٧.

(٤) الرد على المنطقيين، ص٢٢١.

هم مقلّدون عميان لأرسطو وفلسفته، وبتقيُّدِهم بالتقليد تقعُ منهم أخطاء فاحشة كبيرة، ويوجد في كلامهم تناقُضٌ شديد، يشكو ابن تيميّة تألّمه الشديد، ويبدي عتابه على هؤلاء الفلاسفة المسلمين، الذين جحدوا تلك النعمة التي وصلت إليهم عن طريق رسول الله ﷺ، ولم يستفيدوا من نور الهداية الذي كان بمتناول أيديهم، بل إنهم أرادوا أن يحجبوا ذلك النور، ويحولوا دون ضيائه، يقول:

«إنّ هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام، من أجهل الخلق عند أهل العلم والإيمان، وفيهم من الضلال والتناقض ما لا يخفى على الأذكياء من الصبيان، لأنّهم لما التزموا ألاّ يسلكوا إلا سبيلَ سلفهم الضالين، وألاّ يقرّوا إلا بما يبنونه على تلك القوانين، وقد جاءهم من النور والهدى والبيانِ ما ملأَ القلوب والألسنة والآذان، صاروا بمنزلة من يريدُ أن يُطفِىءَ نورَ الشَّمسِ بالنفخ في الهباء، أو يغطي ضوءها بالعباء»[1].

ابن سينا جاهلٌ بحقيقة النبوّةِ ومنصبها:

إنَّ الفلاسفةَ الذين حاولوا شرحَ الحقائق الغيبيّة والعقائدَ الدينيّة تقليداً للفلسفة، واتباعاً لأرسطو، وأرادوا تفهُّمَ هذه الحقائق والعقائد، وإفهامها في ضوء الفلسفة ومعتمدين عليها، يتناولهم ابن تيميّة بنقدٍ لاذعٍ، ولا يتركُ في ذلك حتى أولئك الفلاسفة الذين يُسَمَّونُ حكماء الإسلام، إذ إنّ هذه الحقائق والعلوم الغيبيّة لا تدرَكُ بمساعدة فلسفة اليونان ومجرد أصولها ومبادئها، إنّه ينتقِدُ قبل كل شيء ابنَ سينا، الذي يعتَبرُ خليفةَ أرسطو الكبير في الشرق الإسلامي، وشارحَ فلسفتِه العظيم، يقول:

«بيّن ابنُ سينا أمرَ النبوّة أنّها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتةٌ، وكلُّ هذا كلامُ مَنْ لا يعرِفُ النبوّةَ، بل هو أجنبيٌّ عنها، وهو أنقصُ ممن أراد أن يقرِّر أنَّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غيرَ الشعراء، فاستدلَّ بوجودِ الشعراء على وجودِ الفقهاءِ والأطباءِ، بل هذا المثالُ أقرب، فإنّ بُعدَ النبوّةِ عن غير الأنبياء

---

(١) الرد على البكري، ص١٦٨.

أعظمُ من بُعدِ الفقيهِ والطبيبِ عن الشاعرِ، ولكنَّ هؤلاءِ من أجهل الناس بالنبوّة، ورأوا ذكر الأنبيـاء قد شاع، فـأرادوا تخريجَ ذلك على أصولِ قومٍ لم يعرفوا الأنبياء»[1].

ويقول في موضع آخر: «وأبعدُ هؤلاء عن النبوّةِ المتفلسفةُ والباطنّيةُ والملاحدةُ، فإنّ هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القَدرِ المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلامٌ في النبوّة، والفارابيُّ جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضِّلُ هو وأمثالُه الفيلسوفَ على النبيِّ، وابنُ سينا عظَّمها أكثر من ذلك فجعلَ للنبيِّ ثلاث خصائص:

إحداها: أن ينالَ العلمَ بلا تعلّم، ويسمّيها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده.

والثاني: أن يتخيّلَ في نفسِه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية، ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلِّمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجودٌفي نفسِه لا في الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميعُ ما يختص به النبيُّ مما يراه، ويسمعه دون الحاضرين، إنّما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرورُ عنَدهم.

والثالث: أن يكون له قوة يتصرّف بها في هيولى العالم، بإحداث أمورٍ غريبـة، وهي عندَهم آيـاتُ الأنبياء، وعندهم: ليـس في العالم حادِثٌ إلا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبعية. . . وهؤلاء عندَهـم جميعُ ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال.

ثم إنّهم لمّـا سمعوا كلام الأنبيـاء أرادوا الجمعَ بينـه وبين أقـوالهم فصاروا يـأخذون ألفاظ الأنبيـاء، فيضعونها على معانيهم، ويسـمّون تلـك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلّمون، ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظنُّ مَنْ لم يعرِف مرادَ الأنبياء ومرادَهم أنّهم عنوا بها

---

(١) النبوات، ص٢٢.

ما عنته الأنبياء، وضلَّ بذلك طوائف، وهذا موجودٌ في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه»[1].

نقض علم الكلام وتردّد المتكلّمين:

لا يكتفي شيخُ الإسلام ابن تيميّة بتوجيه انتقادِه إلى فلاسفة اليونان ومقلديهم من متفلسفي الإسلام فحسب، بل يتعدّاهم إلى أولئك المتكلمين، الذين وإنْ حاولوا الدفاعَ عن الإسلام، إلا أنّهم اتخذوا أساليبَ الفلسفة ومقدماتها ومصطلحاتها الناقصة المحدودة لإحقاق الحقائق الغيبية الدينية، التي كانت تختصُّ بمفاهيمها الخاصة، وكانت ترتبِطُ بها تقاليدُ وانطباعاتٌ خاصة، إنَّه يقول في (كتاب النبوات):

«كلامُهم في الخلق والبعثِ، والمبدأِ والمعادِ، وفي إثباتِ الصّانع ليسَ فيه تحقيقُ العلم لا عقلاً ولا نقلاً، وهم معترفونَ بذلك كما قال الرّازيُّ: لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهجَ الفلسفية فما رأيتُها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرقِ طريقةَ القرآن، اقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠].

واقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك: ١٦]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا، وهو كما قالوا»[2].

ويقول في موضع آخر: «وسببُ ذلك إعراضُهم عن الفطرة العقليّةِ، والشِّرْعَةِ النبوّية، بما ابتدعه المتبدعون، مما أفسدوا به الفطرة والشِّرْعةَ، فصاروا يسفسطونَ في العقليات، ويقرمطون في السمعيات»[3].

---

(١) النبوات، ص١٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ويتحدَّثُ عن مواضع الضعف في المتكلِّمين، فيذكرُ أسئلتهم وشبهاتهم في غاية من القوة غالباً، وأجوبتُها ضعيفةٌ بالنسبة إليها في بعض الأحيان، إنّه يرى أنّ ذلك أحياناً يصيبُ أولئك الذين يعتقدونهم مدافعين عن الإسلام وممثليه بأضرارٍ بالغةٍ، والذين لا يدورون في دراستهم إلا في فلكهم، إنّه يقول:

«لما تكلّموا في إثباتِ النبوّة، صاروا يوردون عليها أسئلةً في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم، فصار طالبُ العلوم والإيمانِ والهدى من عندِهم لا سيّما إذا اعتقدَ أنّهم أنصارُ الله ونظّارُه والقائمون ببراهينه وأدلته، إذا عرفَ حقيقةَ ما عندهم، لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء، بل وجدَه يقدحُ في الأنبياء، ويورثُ الشكَّ فيها، أو الطعنَ، وأنها حجةٌ لمكذِّبِ الأنبياء أعظمُ مما هي حجةٌ لمصدِّقِ الأنبياء، فانسدَّ طريقُ الإيمان والعلم، وانفتحَ طريق النفاقِ والجهلِ، لا سيّما على مَنْ لم يعرف إلا ما قالوه»[1].

الخطأ المشترك بين المتكلّمين والفلاسفة ومواضع ضعفهم:

يعتقد ابن تيميّة أنّ المتكلمين والفلاسفة كلُّهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ، وأنّ خِطّة عملهم واحدةٌ، بالرغم من جميع الخلافات التي توجد بينهم، إنَّ خطأ كلٍّ من هؤلاء وضعفَهم أنّهم حاولوا أن يعتمدوا على الحدس في الحصول على الشيء الذي لا يحصل بالحَدْسِ والتخمين، وصارعوا الفطرةَ والنبوّةَ كلتيهما، ولذلك فإنّ تحقيقاتهم إثمُها أكبرُ من نفعِها.

التكلّف والتطويلُ:

إنّه يرى أنَّ دلائل المتكلّمين والفلاسفةَ وأسلوبَ استدلالهم يتضمَّنُ تطويلاً وتكلُّفاً لا طائلَ تحتهما، فإنّ الحقائقَ والمقاصدَ التي تناولها المتكلّمون، وحاولوا إثباتَها بدلائل ومقدمات طويلة مطوّلة، إنما يمكِنُ إثباتها بغاية من الاختصار، وأسلوب يتفق مع الفطرة.

---

(١) النبوات، ص٢٤٠.

لقد سلك المتكلّمون والفلاسفة لإثبات مقاصدهم طريقاً طويلاً وعراً، إنّه يضرب لذلك مثلاً بقول بعض السلف : سئل رجلٌ، أين أذنك؟ فتكلّف في الجوانب بحيث طافَ بيمينه رأسه وأوصلها إلى أذنه اليسرى ومسكها بها في غايةٍ من العسر، على أنَّه كان يستطيعُ بكلِّ سهولة أن يشير بيده اليمنى أو اليسرى، وتمثّل بالمناسبة ببيت الشاعر :

أقامَ يُعمِلُ أياماً رَوِيَّتَهُ   وشَبَّهَ الماءَ بَعْدَ الجُهْدِ بالماءِ

لا اعتمادَ على دلائل المتكلّمين:

إنّه يعارض المتكلّمين فيما يزعمون من أنّ تحقيقَ هذه المقاصد إنما يحتاج إلى نفس الاستدلالات والمقدمات التي اصطعنها هؤلاء المتكلّمون بدون أن يكون هناك طريق آخر إلى ذلك، وهو يعتقدُ في هذا الخصوص أنّ هذه المقدمات وطريق الاستدلال وإنْ كانت صحيحةً، ولكنّ من الخطأ أن يُزْعَمَ أنَّه ليس هناك أيّ طريقٍ آخر للاستدلال، ولا مقدمات غيرها، وذلك لأنّ الدراسة والتجاربَ تؤكدان «أنَّ المطلوب كلّما كان الناسُ إلى معرفتِه أحوجَ، يسّرَ الله على عقول الناس معرفة أدلته، فأدلة إثباتِ الصانعِ وتوحيدِه وأعلامِه وأدلتِه كثيرةٌ جدّاً، وطرقُ الناس في معرفتها كثيرةٌ، وكثيرٌ من الطرق لا يحتاجُ إليه أكثر الناس، وإنَّما يحتاج إليه مَنْ لم يعرِفْ غيرَه، أو من أعرض عن غيره»[1] .

لا ينتفع بهذا الأسلوب إلا طبقة من الناس:

وبالرغم من ذلك فإنّه يعترفُ أنّ بعض الناس ينتفعون بهذا الأسلوب من الاستدلال والمقدّمات الكلاميّة والمنطقيّة، وذلك بحكم عقليتهم وعادتهم الخاصة، التي يتميّزون بها عن غيرهم، وهم لا يقتنعون بغيره من الأساليب، ولكنّ ذلك لايعني أنَّ العلم واليقين يتوقّفان على هذه الطرق، بل إنّها حالة عقلية تحدُثُ بتأثيرِ بيئةٍ وتربيةٍ خاصة، وظروفٍ نفسيّة خاصة، إنّه يقولُ :

---

(١) الرد على المنطقيين، ص٢٥٥ .

«وبعضُ الناس يكونُ الطريقُ كلّما كان أدقَّ وأخفَى وأكثرَ مقدّمات وأطولَ كان أنفعَ له، لأنَّ نفسَه اعتادتِ النظرَ الطويلَ في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليلُ قليلَ المقدّمات أو كانت جليّةً لم تفرحْ نفسُه به، ومثل هذا قد يُستعمل معه الطريقُ الكلاميـة المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته، لا لكونِ العلم بالمطلـوب متوقّفاً عليها مطلقاً، فإنّ مِنَ الناس من إذا عرفَ ما يعرفه جمهورُ الناس وعمومهم، أو ما يمكِنُ غيرُ الأذكياء معرفتَه، لم يكن عند نفسِه قد امتازَ عنهم بعلم، فيحب معرفة الأمور الخفية الدقيقة، الكثيرة المقدمات، وهذا يُسْلَكُ معه هذه السبيل»[1].

استدلالُ القرآن أبلغُ وأكثرُ تأثيراً في النفس:

إنه يثبتُ في كتاباته بكلِّ تأكيدٍ أنَّ أسلوبَ القرآنِ ومنهجَه في الاستدلال لإثباتِ الحقائق الغيبية، وإبداءِ مقاصدِ الشريعةِ؛ وتحقيقِ الحقائق الدينية أبلغُ من كلِّ أسلوبٍ، وأشدُّ تأثيراً في النفس من أي استدلال آخر، يقول:

«وبينٌ أنَّ ما عندَ أئمةِ النظّار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقليّة على المطالب الإلـٰهيّة، فقد جاء القرآنُ بما فيها من الحقّ وما هو أبلغُ وأكملُ منها على أحسنِ وجهٍ، مع تنزّهه عن الأغاليط الكبيرةِ الموجودةِ عند هؤلاء»[2].

ويقول في موضعٍ آخر:

«ولهذا كانت الأقيسةُ العقلّيةُ البرهانيّة المذكورةُ في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته، وإلـٰهيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وإمكان المعاد، وغير ذلك من المطالب العالية السنية، والمعالم الإلـٰهية التي هي أشرف العلوم، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف»[3].

الفرقُ الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطةٍ علميّةٍ مهمة، وهو يتحدّثُ عن الفرق المبدئي بين القرآن

---

(1) الرد على المنطقيين، ص٢٥٥.
(2) المرجع السابق، ص٣٢١.
(3) المرجع السابق، ص١٥٠.

والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، يقول:

«والقرآنُ أثبتَ الصفات على وجهِ التفصيل، ونفى عنها التمثيلَ، وهي طريقةُ الرّسلِ، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ، ونفيٍ مجمَلٍ، وأعداؤهم جاؤوا بنفيٍ مفصّلٍ وإثباتٍ مجملٍ»[1].

نفي الصفات، وتأثيره على الحياة كلها:

إن مكتبة الفلسفة اليونانية بأسرِها تصدّقُ النقطة التي توصَّلَ إليها ابنُ تيميّة، فإنّ المبالغةَ والاهتمامَ اللذين بذلهما فلاسفةُ اليونان في نفي الصفات، إنما جعل ذلك وجودَ الإلـه فكرةً ذهنيّة، وشخصيّة عقيمةً، مجهولةً عاجزةً.

أمّا عن كيفية الإلـه وحقيقته، فلا يعدو مفهوم ذلك عندهم عدداً من الكلمات ومصطلحات فلسفية، مما أدّى إلى أنّ الأوساط الخاضعة لفلسفة اليونان سواء في داخل يونان أو خارجها ظلّتْ محرومةً من أيِّ صلة حيّة وعلاقة عمليّة بالله تعالى، وذلك لأنَّ هذه العلاقة الحقيقية والعملية، التي تنبعُ من القلب والعاطفة إنما تحتاجُ إلى أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، بينما الفلسفة ملحّةٌ على نفيها.

إنَّ تاريخَ العالم العقلي كلّه شاهدٌ على أنَّ الإنسانَ لم يتصل عاطفياً ولا قلبياً بأيّةِ شخصية مجهولة لا يعرِفُ شيئاً عن صفاتها وأفعالها، ومما لا يخفى أنَّ الحب والخوفَ، والأمل والرجاء، والطلبَ والسؤالَ، كلُّ ذلك يحتاجُ إلى الصفات تلك، التي يتجرّدُ عنها فلسفة اليونان، ومن ثَمَّ اتفق مؤرخو الأخلاق والأديان على أنَّ صلةَ اليونان ليست سطحيةً ضعيفة بالله تعالى فحسب، بل هي صلة ضعيفة بالدين أيضاً، من غير أن تتسمَ بروحٍ أو عمقٍ.

وقد صدق الإمامُ ابن تيميّة إذ قال: «إنّ مئاتِ الآلافِ من النفي لا يقومُ مقامَ إثباتٍ واحدٍ» والحقيقةُ أنَّ النفي المجرّدَ لا يقومُ عليه بناءُ دين وحياة.

---

(١) النبوات، ص١٥٣.

ولعلّ فلسفة اليونان في الغرب، والديانة البوذية في الشرق، أخفقتا في بناء مجتمع إنساني يقومُ على أساس فكرة الإلـه من أجل ذلك، وقد أنتجَ هذا أنَّ الوثنيةَ إذا تسـرّبت في أوسـاط إحدى هاتين الفلسـفتين عمَّ الإلحاد في أوسـاط الأخرى، وذلك لأنَّ الجماهير ـ الذين هم مفطورون على العبادة والإيمان بالله ـ لا يرضون بفلسفةٍ تركز كلَّ التركيز على الرياضة العقلية والأفكار الفلسفية من غيرِ أن تهيىءَ للقلبِ والعقلِ غذاءً من الحبِّ والمعرفةِ.

ميزة الصحابة رضي الله عنهم:

إنّه يرى أنّ ما حصلَ للصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين درجوا في ظلّ النبوّة من معرفةٍ وعلومٍ متكاملةٍ عميقةٍ، دون أن تشوبهم شائبةٌ من التكلّف، كلّ ذلك كان نتيجةَ التربيةِ الصحيحةِ، التي نالوها في رعاية النبيِّ ﷺ.

إنّه يوازِنُ بين الصحابة رضي الله عنهم وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثروا بالفلسفة وعلم الكلام، ويقول:

«وأصحابُ محمّدٍ ﷺ كانوا ـ مع أنّهم أكبرُ الناس علماً نافعاً، وعملاً صالحاً ـ أقل الناس تكلّفاً، تصدرُ عن أحدِهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله به أمة، وهذا من مِنَنِ الله تعالى على هذه الأمة، وتجدُ غيرَهم يحشون الأوراق بالتكلّفـات والشـطحات ما هو من أعظم الفصولِ المبتدَعـةِ والآراء المخترعة»[1].

سِحْرُ المنطق اليوناني، وهيبتُه في العالم الإسلامي:

تناول الإمامُ ابن تيميّة علمَ المنطقِ، الذي كانت تفتخر به اليونان بالنقد اللاذع، بعد ما انتقدَ الفلسفة اليونانية بتفصيلٍ وإجمالٍ، وردَّ كثيراً من بحوثهـا وقضاياها بأسلوب عقليّ واستدلاليّ بحتٍ، وأثبتَ أنها لا تقومُ إلا على أساس متضعضع ضعيف.

---

(١) نقض المنطق، ص١١٤.

ولقد كان علماء الإسلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى الفلسفة، ومتفقين بوجه عام على كونه معقولاً مدلّلاً، ومحكماً مبرهناً.

وكانت كتبُ المنطق نالتْ رواجاً عاماً في القرن الثالث كما ذكره (صاعد القرطبي)، ولمّا جاء (الإمام الغزالي) في القرن الخامس، اهتمَّ بالمنطق، واعتبره مقدمةً للعلوم كلِّها، إنه يقول في مقدّمة كتابه الكبير (المستصفى): «هي مقدمةُ العلوم كلِّها، ومن لا يحيط بها فلا ثقةَ بعلومِه أصلاً»[1].

ويقول في كتابه الآخر (مقاصد الفلاسفة):

«وأما المنطقيات، فأكثرُها على منهج الصواب، والخطأُ نادِرٌ فيها بالاصطلاحات والإيرادات، دون المعاني والمقاصد، إذ غرضها تهذيبُ طرقِ الاستدلالاتِ، وذلك مما يشترك فيه النظار»[2].

وفي القرن السابع ظهر الفيلسوف والحكيم الشهير (ابن رشد) فكان مغالياً في المنطق، واثقاً به إلى حد أنه كان يعتبره منبعَ السعادة البشرية، ومقياسها الأصيل، وكان يرى من المستحيل أن يتوصَّلَ الناسُ إلى الحقيقة بدونه، يتحدَّثُ عنه أحد مترجمي حياته: «كان مهوَّساً بمنطق أرسطو» وقال عنه[3]: إنّه مصدر السعادة للناس، وإن سعادة الإنسان تقاسُ بعمله بالمنطق، والمنطقُ أداةٌ تسهّلُ الطريقَ الشاقّةَ في الوصول إلى الحقيقة، التي لا يصلُ إليها العامة، بل بعض الخاصة إلا بفضل المنطق»[4].

لقد تناول علماء الإسلام سجلّ هذا المنطق اليوناني بيدٍ من الإجلال والاحترام، وكانوا متهيبين لدعاويه ومقدماته، وأصوله وكلّياته، وأما الفلسفة فقد أخذت بالنقد والإيرادات بعد فتراتٍ طويلة إلى حدٍّ ما، ولكنَّ المنطق لم

---

(١) المستصفى: ١/ ١٠.
(٢) مقاصد الفلاسفة، ص٣.
(٣) أي عن المنطق. (الناشر)
(٤) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة، ص١٢٠ ـ ١٢١.

يتناوله أحد ـ فيما نعلم ـ بالمحاسبة العلمية والتشريح، وليس هناك كتاب كبير يتحدّثُ عن هذا الموضوع في تفصيل وتحقيق.

المنطق ليس ميزاناً للعلوم العقلية:

ولكن الإمامَ ابن تيميّة هو أول من ركّزَ اهتمامه على المنطق، وجعله موضوعاً مستقلاً بذاته، وأخذه بالنقد والبحث بكل حرّيةٍ واجتهاد، فله كتاب مجمل ومختصر في هذا الموضوع باسم (نقض المنطق) وآخر مفصل باسم (الرد على المنطقيين)[1]، إنّه يبحثُ في الكتاب الثاني عن قضايا المنطق ودعاويه، وحدوده وكلياته وجزئياته بتفصيل، وأثبتَ أنَّ الأهميةَ التي حصلت للمنطق مِنْ قِبَلِ علماء الإسلام، واعتبارِهم إياه ثابتاً ومحكماً لا يستند إلى صحة، إنه يرفضُ أن يكون المنطق ميزاناً للعلوم العقلية، ويتوقّف عليه الاستدلال والاستنتاج والتوصل إلى علم اليقين.

يقول: «وهؤلاء يقولون: إنّ المنطق ميزان العلوم العقلية» ومراعاتُه «تعصِمُ الذِّهْنَ عن أن يغلطَ في فكرٍ» كما أنَّ العروض ميزان الشعر، والنحو والتصريف ميزان الألفاظ العربية المركبة والمفردة، وآلات المواقيت موازين لها.

ولكن ليس الأمر كذلك، فإنّ العلوم العقلية تعلم بما فطرَ الله عليه بني آدم من أسباب الإدراك، لا تقف على ميزانٍ وضعيٍّ لشخص معيّنٍ، ولا يقلد في العقليات أحدٌ بخلاف العربية، فإنّها عادةٌ لقوم لا تعرفُ إلا بالسماع، وقوانينها لا تُعرفُ إلا بالاستقراء، بخلاف ما يعرف مقادير المكيلات والموزونات، والمذروعات والمعدودات، فإنّها تفتقر إلى ذلك غالباً، لكنْ تعيين ما به يُكالُ ويوزَنُ بقدرٍ مخصوصٍ أمرٌ عاديٌّ.

وقد كانت الأمم قبلهم تعرِفُ حقائقَ الأشياء بدون هذا الوضع، وعامة

---

(١) صدر هذا الكتاب أخيراً عن المطبعة القيمة في بومباي (الهند)، ويتحلّى بمقدمة قيمة للعلامة (السيد سليمان الندوي)، والكتاب يقع في (٥٤٥) صفحة، ينبغي ألاّ تفوت أهل الفن مطالعة هذا الكتاب.

الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم، وجماهيرُ العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلّم منهم بوضع أرسطو، وهم إذا تدبّروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلمُ حقائقَ بدون هذه الصناعة الوضعية»[1].

معظم الحدود المنطقية ضعيفةٌ لا ثباتَ لها:

إنّه لا يعترفُ بأنَّ الحدودَ والتعاريفَ المنطقيّة كلّها كاملةٌ شاملةٌ لا تحتمِلُ أيما اعتراضٍ أو نقضٍ، يقول:

«وصاروا يعظّمون أمرَ الحدود، ويدّعون أنهم هم المحققون لذلك، وأنّ ما يذكره غيرُهم من الحدودِ إنما هي لفظية، لا تفيدُ تعريفَ الماهية والحقيقة، بخلاف حدودهم، ويسلكون الطرقَ الصعبةَ الطويلة، والعبارات المتكلّفة الهائلة، وليس لذلك فائدةٌ إلا تضييعُ الزمانِ، وإتعابُ الأذهانِ، وكثرةُ الهذيانِ، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، وشغلُ النفوس بما لا ينفعها، بل قد يضلُّها عما لا بدَّ لها منه، وإثباتُ الجهلِ الذي هو أصلُ النفاقِ في القلوب، وإن ادّعوا أنّه أصل المعرفة والتحقيق»[2].

لا سهلَ فيُرْتَقَى ولا سمينَ فيُنْتَقَى:

إنَّه يثبتُ في مكانٍ آخر أنَّ المنطقَ في الواقعِ عملٌ يصدُقُ عليه مثل «لا سَهْلَ فَيُرْتَقَى ولا سَمِيْنَ فيُنْتَقَى»[3] فإنّ البحثَ والاجتهادَ كثيران لا نهايةَ لهما، ولكنَّ محصولَهما قليلٌ لا عبرةَ به، يقول في كتابه (نقض المنطق):

«ومن المعلومِ أنَّ القولَ بوجوبِه قولُ غلاتِه، وجهّالُ أصحابه، ونفسُ الحذّاقِ منهم لا يلتزمون قوانينَه في كلِّ علومِهم، بل يعرضون عنها، إمّا لطولِها، وإمّا لعدم فائدتها، وإمّا لفسادِها، وإمّا لعدم تميزِها، وما فيها من الإجمالِ والاشتباهِ، فإنّ فيه مواضع كثيرة «هي لَحْمُ جملٍ غَثٍّ، على رأسِ جَبَلٍ وَعْرٍ،

---

(١) الرد على المنطقيين، ص٢٧ ـ ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣١.

(٣) بل هو من حديث أم زرع، وهو في البخاري. (الناشر)

لا سهلَ فيرتقى، ولا سمينَ فينتقى»[1].

تأثير المنطق على العقل وقوة البيان:

ويرى أنّ المنطق طالما جنى على المرء، فأفقدَه نشاط الطبيعة، وسلاسةَ اللسان والأفكار، ولا شكَّ فإنَّ الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي، يصابون بعجز اللسان، وتعقيد البيان، وتطويل الكلام، وزيغ في التفكير، وأوضح مثال لذلك متونُ المتأخّرين، وكتبُ المناهج الدراسية المتقدّمة، يقول الإمام ابن تيميّة:

«وما زالَ نظّارُ المسلمين يعيبون طُرُقَ أهلِ المنطقِ، ويبينون ما فيها من العَيِّ واللُّكْنَةِ، وقصورِ العقلِ، وعجزِ المنطقِ، ويبيّنونَ أنّها إلى إفسادِ المنطق العقلي واللساني أقربُ منها إلى تقويم ذلك»[2].

ويقول في موضع آخر: «إذا اتّسعت العقولُ وتصوراتُها اتسعت عباراتُها، وإذا ضاقتِ العقولُ والتصوّرات بقي صاحبُها كأنَّه محبوسُ العقلِ واللسانِ، كما يصيبُ أهلَ المنطقِ اليونانيِّ من العيِّ، تجدُه من أضيقِ النّاسِ عِلماً وبياناً، وأعجزهم تصوراً وتعبيراً، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرّفَ في العلوم، وسلكَ مسلكَ أهل المنطق طوّل وضيّق، وتكلّف وتعسّف، وغايتُه بيانُ البيِّنِ، وإيضاحُ الواضحِ، وقد يوقعه ذلك في أنواع من السفسطة، التي عافى الله منها من لم يسلك طريقَهم»[3].

بعض المستثنيات:

لا يُطْبِقُ الإمامُ ابنُ تيميّة عينيه عن بعض أولئك الرجال، الذين بلغوا في العلوم اليونانية إلى درجةِ الإمامةِ، ورغماً عن انهماكهم الشديد، وشغفهم الزائد بهذه العلوم، لم ينقصهم رواء القلم، وطلاوة الكتابة، وذوق الأدب الرفيع، مثلاً

---

(١) نقض المنطق، ص١٥٥. وما بين الأهلة جزء من حديث أم زرع الآنف الذكر.

(٢) الرد على المنطقيين، ص١٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٧.

ابن سينا الذي تعتَبَرُ قصيدتُه في الروح[1] نموذجاً عالياً للروح العربية، وتتّسمُ كتاباته بالحلاوة والبلاغة، خلافاً لأهل الحكمة، يرى ابنُ تيميّة أنَّ ذلك فضلُ الاشتغال بالأدب الإسلاميِّ العربيِّ، وفيضٌ للعلوم الإسلامية، ولا شكَّ فإنَّ حياةَ ابن سينا تصدّقُ ذلك، يقول:

«ومَنْ وُجِدَ في بعضِ كلامِه فصاحةٌ وبلاغةٌ كما يوجَدُ في بعض كلام ابن سينا وغيره، فإنما استفادَه من المسلمين، من عقولهم وألسنتهم، وإلا فلو مشى على طريقة سلفِه، وأعرضَ عما تعلّمه من المسلمين، لكان عقلُه ولسانُه يشبِهُ عقولهم وألسنتهم»[2].

رأي إجمالي عن المنطق:

وبعد هذه الانتقادات، نطلّع على رأيه الإجمالي عن المنطق بلسانِه، يقول: «فحقّـه النافعُ فطريٌّ لا يُحتـاجُ إليه، وما يحتاجُ إليه ليسَ فيه منفعةٌ، إلا معرفـة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم»[3].

ويقول في محلٍّ آخر:

«إني كنتُ دائماً أعلمُ أنَّ المنطق اليونانيَّ لا يحتاج إليه الذكيُّ، ولا ينتفِعُ به البليدُ»[4].

مكانة المنطق الصحيحة وفائدته:

ومهما لمـس القارىءُ نـوعاً من التطرُّف في آراء ابن تيميّـة وأفكارِه عن المنطق اليوناني، ولوناً من المغالاة، إلا أنّ قدسيّة المنطق وعظمتِه التي كانت تسيطِرُ على عقل العالم الإسلامي من بعد القرن الخامس أصيبتْ بصدمةٍ، وكان

---

(١) التي مطلعها:
هبطـتْ إليـكَ مِـنَ المحـلِّ الأرفـعِ ورقـاءُ ذاتُ تـورُّدٍ وتمنُّـعِ
(٢) الرد على المنطقيين، ص١٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص٢٠١.
(٤) المرجع السابق، ص٣.

لا بدَّ من ذلك، فإنَّ أوساطنا الدراسيّة والعلميّة قد أُولِعَتْ بالمنطق، وأُعجبتْ به إلى حدِّ المغالاةِ والمبالغة، ويمكن أن يقدِّر هذا الإعجابَ بالمنطقِ مَنْ لم يكنْ له معرفةٌ بالمنطق، فإنّه يُعتبَرُ أجهلُ شخصٍ وأحمَقُ رجلٍ لدى أهلِها، بالرغم من جميع ما يحمله من علمٍ وفضلٍ وذكاءٍ.

وقد ظلَّ المنطقُ والفلسفةُ يعرفان في الهند إلى مدة طويلة باسم (العقلانية)، كما أنَّ كتبهما كانت تعرَفُ باسم (كتب العقل) وكان من الطبيعيِّ أن يوجَدَ هناك ردُّ فعلٍ عنيفٍ ضدَّ هذا الغلو والولوع، فقد يكونُ سبباً للفكر المتّزنِ في هذا الموضوعِ، وينالُ هذا العلمَ مكانتَه الصحيحةَ من أجلِه.

إنَّ المنطقَ نوعٌ من الرياضة العقليّة والفكريّة، ونستطيعُ أن نستخدمه كأداةٍ لتشحيذِ الذهنِ، فإنْ لم يتجاوز حدَّه هذا لا يعترِضُ عليه أحدٌ، وإنَّ الإمام ابن تيميّة نفسَه يعترِفُ بذلك، ويقول في كتابه (الرد على المنطقين):

«وأيضاً فإنَّ النظرَ في العلوم الدقيقة يفتِّقُ الذِّهنَ، ويدرّبُه، ويقوّيه على العلم، فيصيرُ مثل كثرة رمي النشاب، وركوب الخيل، تعينُ على قوّةِ الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقت قتال، وهذا مقصد حسن»[1].

ولكنَّ كلَّ منصف بالغ النظر يخالِفُ ما قد جعلَه الناسُ غايةً عوضاً عن الوسيلةِ، وأصل العلم بدلاً من المقدمة.

عجز المنطق عن مواجهة الحقائق الدينية والإلـهية:

من قديم وُجِدَتْ مغالطةٌ فيما يتّصلُ بالمنطق والفلسفة، وهي أنَّ أصولَهما وقواعدَهما كما تعتبر عقلاً حاكماً حاسماً في العلوم العقلية كذلك يُستعانُ بها في إثباتِ الحقائقِ الدينيّة والإلـهيّة من غيرِ أيِّ تكلُّفٍ، ويعترَفُ بحكمها في هذه الحقائق.

ولكنَّ ابن تيميّة يؤكّدُ أنَّ المنطقَ إذا نزّل منزلةَ ميزانٍ، فلا بدَّ من أن يدورَ

(١) الرد على المنطقيين، ص٢٥٥.

عملُه في نطاقٍ محدود، أما وزنُ الحقائق الدينية على هذا الميزان فيماثِلُ وزن الذهب والفضة والجواهر في ميزان الحطبِ والحديدِ والرصاصِ والحجارةِ.

يقول في (نقض المنطق): «ومن المعلوم أنَّ موازينَ الأموالِ لا يقصَدُ أن يوزَنَ بها الحطبُ والرصاصُ دونَ الذَّهبِ والفِضّةِ، وأمر النبوّات وما جاءت به الرسلُ أعظمُ في العلوم من الذّهب في الأموال، فإذا لم يكن في منطقكم ميزان له كان الميزان ـ مع أنّه ميزان ـ عائلاً جائراً، وهو أيضاً عاجز، فهو ميزان جاهل ظالم، إذ هو إما أن يردَّ الحقَّ ويدفعه، فيكون ظالماً، أو لا يزنه، ولا يبيّنُ أمرَه، فيكون جاهلاً، أو يجتمعُ فيه الأمران، فيردّ الحقَّ ويدفعُه، وهو الحقّ الذي ليس للنّفوس عنه عِوَضٌ، ولا لها عنه مَنْدُوحةٌ، وليست سعادتها إلا فيه»[1].

وبالمناسبة يحسُنُ بي أن أقتطفَ كلاماً لابن خلدون الذي يعتَبرُ من كبار علماء النقد والتاريخ، وهو يشيرُ إلى نفس المفهوم، الذي يدُلّ على أنَّ عديداً من رجال العالم المتصفين بسلامة الطبع، إنما تعينهم سلامة طبيعتهم على التوصل إلى الحقيقة، وتتماثلُ أفكارهم وآراؤهم في موضوع واحد، إنّه يتحدث عن محدودية العقل، وقصر باعه عن الإحاطة بالحقائق الغيبية والدينية، فيقول:

«بل العقلُ ميزانٌ صحيحٌ، فأحكامُه يقينيّةٌ لا كذبَ فيها، غير أنك لا تطمعُ أن تزن به أمورَ التوحيد والآخرة، وحقيقةَ النبوّة، وحقائقَ الصفات الإلـٰهية، وكل ما وراء طوره، فإنَّ ذلك طمَعٌ في محال، ومثال ذلك مثال رجلٍ رأى الميزانَ، الذي يوزَنُ به الذهب، فطمعَ أن يزن به الجبالَ، وهذا لا يدرك، على أنَّ الميزان في أحكامه غيرُ صادقٍ، لكنَّ العقلَ قد يقفُ عندَه، ولا يتعدّى طورَه، حتى يكونَ له أن يحيطَ باللهِ وصفاتِه، فإنَّه ذرّةٌ من ذرّاتِ الوجودِ»[2].

نقدُ المنطقِ الفنيّ بتفصيلِ واجتهاداتِ ابن تيميّة وزياداتِه:

لم يكتفِ ابن تيميّة بتوجيهِ النقدِ الإجمالي والإيرادات الأساسية إلى فنِّ

---

(١) نقض المنطق، ص١٦٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٣٨٥.

المنطق، بل إنّه تناولَ الفنَّ بأسرِه بالنقد والاجتهاد، والاحتساب العلمي، ورفضَ كثيراً من أصولِه ومسلّماتِه، وانتقدَها من الناحيةِ العقليّة والفنيّة الخالصةِ، وأثبتَ ضعفَ كثيرٍ من حدودهِ ونقصِها، وأوردَ له حدوداً أحسن منها، وخالف عديداً من قضاياه وترتيبها، وأثبتَ ترجيحَ الاستقراءِ بإزاء القياس الذي هو أساس منطق أرسطو، وادّعى أنَّ الاستقراءَ طريقٌ طبعي أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين[١]، كما أنّه قدم عدة نظرات جديدة في المنطق والفلسفة، وزاد إلى هذا الفن. يقول المغفور له العلامة السيد سليمان الندوي في مقدمته على كتاب (الردَّ على المنطقيين) معترفاً بخدمتِه وعظمتِه في هذا المجال، يقول:

«ما قاله المصنّف في حقيقةِ الحدِّ والجنسِ والفَصْلِ واللزوم، وحقيقةِ العلّةِ والقياس والاستقراء، والاستدلالِ بالمشهورات، والاكتفاءِ بمقدّمةٍ واحدةٍ في القياس، وغيرهِ من المباحث العويصة، التي حلَّ المصنّفُ مشكلَها ببيانٍ واضحٍ ودليلٍ راجح، وما قاله في العلّةِ واللزوم هو عينُ ما قال هيوم (Hume) الفيلسوف في كتبه، ومسألة اللزوم والعليّة من المسائل العويصة، التي ضَلّتْ في واديها الأفهامُ، ونبعت من عيونها ضلالات الطبائعيين من أهلِ الإلحاد، وكم لهذا النابغة في هذا الكتاب من نوادرَ لم يسبِقْهُ إليها أحد»[٢].

لا يصح التقليد في العلوم العقلية:

ويخشى ابنُ تيميّة أن يقولَ النّاسُ بعد ما يطّلعون على إيراداتِه وخلافاته هذه التي يوجهها إلى العلوم اليونانيّة: إنّ العلومَ اليونانيّة ذخيرةٌ علميّةٌ قديمةٌ، أسهمت في ترقيتها وتهذيبها عقولُ نخبةٍ من عِدّةِ أجيال، وهي التي تولّت إبلاغها إلى أوجِ الكمالِ والتقدُّمِ، ولذلك فإنّها بنجوةٍ من أيِّ احتمالٍ للخطأ، فإنْ تصدّى أحدٌ من المتقدّمين للانتقادِ والاعتراضِ عليها، فإنّما يرادِفُ ذلك وقاحة، وإضاعة للوقت.

---

(١) انظر منهج البحث العلمي عند مفكري الإسلام، للدكتور علي سامي النشار. (الناشر)
(٢) مقدمة الرد على المنطقيين، ص (ق).

ولكنَّ ابن تيميّة لا يعترِفُ بهذه القضيّةِ، ويقول: إنّ هذه العلوم ما دامتْ عقليّةً مجرّدةً، وهي لا تقومُ إلا على أساس الفكرة والدراسة فأيّ مبررٍ للتقليد البحث فيها، حتى إنّ ناقليها لا يعتبرونها مبنيـة على أي وحي أو إلهام، إنما يبنونها على العقل، ولذلك فأهلُ العقل في كلِّ عصرٍ يحقّ لهم أن يتناولوها بالنقدِ والوَزْنِ في ميزان العقل، ويرفضون كلّ ما يعارِضُ العقل، إنّه ينقلُ قولَ بعض شيوخِ المنطق في كتابه (الردّ على المنطقين): «هذه علوم قد صقلتها الأذهانُ أكثر من ألَف سنة وقَبِلَها الفضلاءُ» ثم يردُّ عليه ويقول:

«هَبْ أنّ الأمرَ كذلك، فهذه العلومُ عقليةٌ محضةٌ، ليس فيها تقليد لقائل، وإنما تُعلَمُ بمجرّدِ العقل، فلا يجوزُ أن تصحّحَ بالنقل، بل ولا يتكلّم فيها إلا بالمعقول المجرّدِ، فإذا دلَّ المعقولُ الصريح على بطلان الباطل منها لم يجز رَدُّه، فإنّ أهلَها لم يدّعوا أنها مأخوذةٌ عمّنْ يجبُ تصديقُه، بل عن عقلٍ محضٍ، فيجبُ التحاكمُ فيها إلى موجبِ العقلِ الصّريحِ»[1].

انحطـاطُ العلوم العقليّـة وجمودهُـا في العصر المتأخـر في العالم الإسلامي، وأهميةُ عملِ ابن تيميّة:

والواقع أنّ المعقول لا بدَّ أن يكونَ معقولاً على الدوام، ولا يتحوّل إلى منقول، ولكنْ لما أظلَّ الانحطاطُ العلميُّ والفكريُّ العالمَ الإسلاميَّ، ورفضت العقول والقوى الفكري أن تقومَ بواجبها في جوٍّ من الحرية، عاد علماء الحكمة والفلسفة أتباعاً لمن سبقَهم، مقتفين آثارهم، واقتنعوا بالنقل والشرح لتحقيقاتهم ومؤلّفاتهم، ولم يعدْ أيُّ فرق بين المنقول والمعقول، وكان أسمى مكانةٍ في العلم أن يتصدّى المتأخّـرون لشـرح كلام المتقدّمين، ويعبروا عن مفاهيمهم بكلمات قليلة.

ذلك هـو عصرُ الانحطاطِ في الشـرق يومَ انغلقَ بابُ الاجتهادِ والتجديدِ، والزيادة والعمل المنتج في العلم والحكمة.

---

(١) الرد على المنطقيين، ص٢٠٨.

أما أوروبة التي كانت قد اكتسبت المنطق والفلسفة عن طريق المسلمين، وتعلّمت أفكار حكماء اليونان وفلسفتهم بواسطة ابن سينا وابن رشد، فإنّها لم تقتنع بهذا التراث العلمي إلا مدّةً يسيرة فقط، ثم نهضت تعيدُ النظرَ والتفكيرَ في هذه العلوم، وقامت بالتحقيق والتجربة بكل حرية، الأمر الذي طوى بساطَ المنطقِ والفلسفةِ اليونانيين، واحتلَّ الاستقراءُ محلَّ القياس في المنطق، ونالت العلومُ الطبيعيّةُ اهتمامَ النّاسِ، بعد ما فقدت العلومُ الإلـهيّةُ وعلومُ ما بعد الطبيعة قيمتَها، تلك التي لم يكن لها أيُّ دور في الحياة العلمية والعملية.

إنّ هذه الثورة الفكرية لم تخلّف تأثيرها في أوروبة فحسب، بل تعدّتها إلى العالم كلّه، بالعكس من ذلك فقد تمسكت أوساطنا العلمية والمدرسية بالعلوم اليونانية، وعضّتْ على كتب علماء الشرق وشروحهم وتعليقاتهم في هذا الفن بالنواجذ، كأنّها هي العروة الوثقى، وسدرة المنتهى للفكر والنظر.

ولا شكَّ فإنَّ العمل الاجتهاديَّ الذي قام به الإمام ابن تيميّة ـ من انتقادِ الفلسفةِ والمنطق ومحاسبتهما العلمية في صحراء التقليد والجمود العقلي ـ كان منارةَ ضوءٍ على الساحلِ، ومعالم واضحة في الطريق، وهو يفتحُ بابَ الاجتهادِ والتفكيرِ من جديدٍ.

* * *

الفصل الثالث

الرّدّ على الفرق والملل

وَمُقاوَمةُ عقائدِها وتقاليدِها وتأثيرها

تمهيد

نقد الدّيانات والنّحل

لا يخفى أنَّ الإمام ابن تيميّةَ قام بدورٍ ممتازٍ في مجالِ انتقادِ بعض الديانات والفِرَقِ، وقضى معظمَ حياته في هذا الجهاد العلمي، وقد لا يخلو مؤلَّفُ من مؤلفاته من البحوث والمناظرات الكلامية، إلا أننا نختارُ من بين هذه الديانات والفرق التي ناقشها ابن تيميّة ديانةَ (المسيحية) ونحلة (الشيعة)، وذلك لأنه اختصَّهما بالنقد والتحقيق، وأفرد لكلٍّ واحدةٍ منهما كتابين مستقلّين، لهما قيمتهما وأهميتهما، وهما (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) و(منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) كما أنَّ بين هذه الديانة وتلك الفرقةِ مناسبةٌ لطيفة يشير إليها الحديث النبوي، الذي خُوطِبَ فيه أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قوله ﷺ: «فيكَ مَثَلٌ مِنْ عيسى، أبغضتْه اليهودُ حتى بهتوا أمَّهُ، وأحبتْه النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به»[1] ولسببٍ آخر، وهو أنَّ المسيحيّة والشيعةَ بمختلف فروعهما وأنواعهما هما اللتان كانتا الفرق والديانات الحيّة النشيطة في العصر الذي عاش فيه ابن تيميّة، ولعلّ ذلك ما بعث ابن تيمية على تركيز اهتمامه عليهما، ووضع كتب مستقلة تتفرّدُ بهما.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ١/ ١٦٠؛ وفي الرواية: «ثم قال علي: يهلك فيَّ رجلان، محبٌّ مفرِطٌ يقرّظني بما ليس فيَّ، ومبغضٌ يحمِلُه شنآني أن يبهتني».

أ- الرّد على المسيحيّة

حركةُ المسيحية الجديدة في العالم الإسلامي:

انتبهت المذاهبُ والديانـات الأخرى في الدول الإسـلامية مع انحطاط المسلمين السياسي، وجدّدَتْ نشاطَها، وكانت المسيحيّةُ هي أنشطُ الديانات من بين هذه الديانات والمذاهب كلّها في إبداءِ الجُرْأةِ، والتغلب على غيرها.

فقد وجد لأتبـاعها عددٌ كبيـر آنذاك في العالم الإسلامي، سيما في مصر وسورية، وبالأخص كانت سلسلةٌ من الدول المسيحية تتصل بأرض الشام وتمسها ثغور المملكة المسيحية الكبرى (مملكة القسطنطينية) المملكة البيزنطية.

ومعلومٌ أنَّ أوروبة بدأت هجمات متتابعة على الشام وفلسطين في أواخر القرن الخامس الهجري، وهي التي تعرف بالحروب الصليبية في التاريخ، وفي خلال ذلك حُرِمَ المسلمون جزءاً كبيراً من الشام، وظلّتِ القدس تحت سيطرة المسيحيين وولايتهم طوال تسعين سنة، وبالرغم من أنَّ السلطان (صلاح الدين الأيوبي) كان قد هزمَ المسيحيين في ساحة حطين هزيمةً منكرةً، واستردَّ القدسَ من أيديهم، إلا أنَّ دولةً مسيحيّةً لم تزل موجودةً على ساحل الشام، وكانت همة المبشّرين المسيحيين وعلمائهم ارتفعت بالفتح الصليبيِّ حتى إنّهم كانوا يحلمون بالاستيلاءِ على الشام، وإقامة دولة مسيحيّة تحت ظلال الصليبية فيها.

إن هجمات التتر المتتالية كانت قد أضعفت المسلمينَ، وبعثت قوّة وهمة في المسيحيين، وقد تحدّثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن التتر عندما دخلوا الشام منتصرين في عام ٦٥٨هـ استقبلهم المسيحيون خارجَ المدينة، وقدّموا لهم الهدايا، وقد كانوا رافعين صلباناً على رؤوسهم، ويقولون: قد غلب الدينُ الحقُّ، دين يسوع المسيح[١].

---

(١) وللاطّلاع على التفصيل راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ص٣٧١.

تاليف (الجواب الصحيح):

كانت المناظرةُ بين علماء المسيحيّة والقسيسين وبين المسلمين تدور من حين لآخر، ويردُّ علماء المسلمين على إيراداتهم، ويفضحون مواضعَ الضعف في الديانة المسيحية، ولكنَّ الذي استرعى انتباه ابن تيميّة إلى هذا الموضوع، وجعلَه موضعَ اهتمامِه الخاص، هو أنَّ مؤلَّفاً جديداً للمسيحيين في المناظرة وصل من قبرص إلى الشام، حاول فيه مؤلِّفه إثباتَ المسيحية، وإثباتَ عقائدِها من طريق العقل والنقل.

كما أنّه بذل قُصارى جهده في إثبات أنَّ بعثةَ الرّسول ﷺ لم تكن عامّةً، وإنما كانت تخصُّ العربَ وحدهم، ولذلك فإنّ المسيحيين لم يكلّفوا الإيمانَ به، ويبدو أنّ هذا الكتابَ نال أهميّة كبرى في أوساط الشام العلمية والدينية.

إنَّ أصلحَ رجلٍ للردِّ على هذا الكتاب هو الذي يتمتّعُ بنظرٍ عميقٍ واسعٍ في الفلسفة وعلم الكلام والعقائد والفرق في جانب، وفي جانبٍ آخر يكون مطّلعاً على صحف العهد القديم والعهد الجديد (Bible) وعلى تاريخ المسيحية اطلاعاً كاملاً، فبالنسبة إلى هذه الناحية، لم يكن هناك أيَّ عالم أصلحُ من ابن تيميّة لهذا العمل في ذلك العصر، فتصدّى للكتابة في هذا الموضوع، وألف كتاباً باسم (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)[1] في أربعة مجلدات، لا يتميّزُ في هذا الموضوع فحسب، بل إنّه يحتلُّ مكانةً ممتازة بين سائر مؤلّفات ابن تيميّة.

يدل هذا الكتاب على سَعةِ نظرِه، وتنوّع دراستِه، واطّلاعِه الواسعِ العميقِ على تاريخ الديانات والصحف السابقة، إنّه لم يكتفِ فيه بأسلوب الدفاع والتزكية، بل إنّه هاجمَ أسسَ المسيحيّةِ، ولم يعتمد في إثبات النبوّة المحمديّةِ على الدلائل القديمة المعروفة، التي تتسمُ بها كتبُ علم الكلام، ومناظرة الفرق، بل إنّه جاء

---

(١) هذا الكتاب يقع في ١٣٩٥ صفحة، طبع في مصر في عام ١٣٢٢هـ ١٩٠٥م باهتمام الشيخ فرج الله زكي الكردي والشيخ مصطفى قباني الدمشقي.

ببراهينَ جديدةٍ، تؤثّر في النفس، وتبعثُ الإيمانَ في القلوب، وتضطر كل رجل منصف عاقل إلى الاعتراف بالحقيقة.

كما أنه شحن هذا الكتاب بمواد غزيرة عن تاريخ المسيحية وعلم اللاهوت المسيحي، وإيرادات علماء المسيحية، ومصطلحاتهم وتأويلاتهم، وبذخيرةٍ كُبرى من بشاراتِ البعثة المحمّدية، ودلائل نبوة النبيِّ ﷺ لا توجد مجتمعةً في أيِّ كتاب آخر، بل يحتاجُ المرء للاطلاع على مثلها إلى عمليةِ تنقيبٍ واسعة في مكتبة كبيرة، ولقد صدق الشيخ (محمد أبو زهرة) عالمُ مصرَ الكبير عندما قال عن هذا الكتاب:

«وإنّ هذا الكتاب أهدأُ ما كتبه ابن تيميّة في الجدال، وهو وحدَه جديرٌ بأن يكتب ابن تيمية في سجلِّ العلماء العاملين، والأئمة المجاهدين، والمفكرين الخالدين»[1].

وفي الصفحات التالية نقوم باستعراضٍ إجماليٍّ لهذا الكتاب، لكي نقدّمَ ملخّصاً منه، تتضحُ به وُجْهَةُ نظرِه، وتتجلّى فيه روح الكتاب:

المسيحيّةُ مزيجٌ من تعاليم سيدنا المسيح والوثنية الرومانية:

إنَّ معظمَ العلماء المسلمين والمؤلّفين الذين تصدوا للردّ على المسيحية ونقدها، وحاولوا الكتابةَ حولها كانوا قليلي المعرفة بتاريخ المسيحية، إنَّهم زعموها مجموعةً لأقوالِ وأحوالِ سيدنا المسيح، وبحثوا فيها كدينٍ سماويٍّ، فأكرموها بما لم تكن جديرة به، أمّا ابنُ تيميّة، فله اطلاعٌ واسعٌ على تاريخ المسيحية ونموِّها التدريجيِّ وتغييراتها، ولا يجهلُ حقيقةَ أنَّ المسيحيّةَ الموجودةَ في عصره إنْ هي إلا مجموعة لتعاليم سيدنا المسيح وعقائد الروم واليونان المشركة وتقاليدهم وعلم الأصنام، ولذلك فإنه لا يقعُ فريسةَ الخطأ التاريخي، الذي يقع فيه العامةُ من النقاد، ويتناول المسيحية الحاضرة بالنقد والردّ عليها بكلِّ جرأةٍ وشجاعةٍ، إنّه يقول:

---

(١) ابن تيمية، لمحمد أبي زهرة، ص٥١٩.

«وكان الروم واليونانُ وغيرهم مشركين، يعبدون الهياكلَ العلويّة، والأصنام الأرضية، فبَعَثَ المسيحُ عليه السلام رسلَه يدعونهم إلى دين الله تعالى، فذهب بعضُهم في حياته في الأرض، وبعضهم بعدَ رفعه إلى السماء، فدعوهم إلى دين الله تعالى، فدخل مَنْ دخلَ في دين الله، وأقاموا على ذلك مدّةً، ثم زيّن الشيطانُ لمن زيّنَ أن يغيِّرَ دينَ المسيح، فابتدعوا ديناً مركّباً من دين الله ورسوله دين المسيح عليه السلام ومن دينِ المشركين»[1].

ويقول في مكان آخر:

«ولكنّ النصارى ركبّوا ديناً من دينين، من دين الأنبياء الموحدين، ودين المشركين، فصار في دينهم قِسْطٌ مما جاءت به الأنبياء، وقِسْطٌ مما ابتدعوا من دين المشركين في أقوالهم وأفعالهم، كما أحدثوا ألفاظَ الأقانيم، وهي ألفاظٌ لا توجَدُ في شيءٍ من كلامِ الأنبياءِ، وكما أحدثوا الأصنامَ المرقومةَ بدل الأصنام المجسّدة، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب بدلَ الصلاةِ إليها، والصيام في وقت الربيع، ليجمعوا بين الدين الشرعي والأمر الطبيعي»[2].

المسيحية الحاضرة من وضع عهد قسطنطين:

ويتقدّمُ خطوةً، ويوضِّحُ أنَّ المسيحيةَ أصيبتْ بتحريفٍ وتغييرٍ أكبر في عهد الملك قسطنطين، الذي كان ملكَ الروم الشهير في القرن الرابع الميلادي، والذي هو مؤسسُ المملكة المسيحيّة الأولى، عدا ذلك التحريف الذي دخل المسيحيّة في بدءِ عهدها أيّامَ بولس[3] يقول:

«النصارى تضعُ لهم عقائدَهم وشرائعَهم أكابرُهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاثمئة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانة التي اتفقوا

---

(١) الجواب الصحيح: ١/١١٩، ١٢٠.

(٢) انظر كتاب تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ: أسبابه ونتائجه، تأليف بسمة أحمد جَسْتَنِيّه، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

(٣) المرجع السابق: ١/١٩٩.

عليها، ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم، وفيها أمورٌ لم ينزلِ الله بها كتاباً، بل تخالِفُ ما أنزله اللهُ من الكُتبِ، مع مخالفتها للعقلِ الصّريحِ»[1].

وفي موضعٍ آخرَ:

«لم يقولوا ما قاله المسيحُ والأنبياء، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجَدُ في كلام الأنبياء، فليس في كلام الأنبياء - لا المسيح ولا غيره - ذكر أقانيم لله، لا ثلاثة، ولا أكثر، ولا إثبات ثلاث صفات، ولا تسمية شيء من صفات الله ابناً لله، ولا رباً، ولا تسمية حياته روحاً، ولا أنَّ لله ابناً هو إلـه حق من إلـه حق من جوهر أبيه، وأنه خالِقٌ، كما أنّ الله خالِقٌ، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمّنةِ لأنواعِ من الكفر، لم تنقل عن نبيٍّ من الأنبياء»[2].

المكانةُ الصحيحةُ للأناجيل:

أخطأَ بعضُ علماء الإسلام، فوضعوا الإنجيلَ في بحوثهم بإزاء القرآنِ والصحفِ السماوية الأخرى، واعترفوا بأنّه كتاب سماوي كسائر الكتب السماوية بتأثير من دعاوى العلماء والمبشّرين المسيحيين، ولقد كان ذلك خطأً أساسياً ناتجاً عن مجرّدِ الجهل بتاريخِ العهدِ الجديد، أمّا الإمام (ابن تيمية) فإنّه يحلُّ الإنجيلَ محلّه الذي يستحقّه، إنَّ قيمةَ الصحف الأربع للإنجيل عنده لا تعدو قيمة كتب السيرة والحديث العامة في أي حالٍ، يقول:

«إنَّ هذه المقالات الأربعة التي يسمّونها (الإنجيل) وقد يسمّونَ كل واحدٍ إنجيلاً إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفعَ المسيحُ، فلم يذكروا فيها أنّها كلام الله، ولا أنَّ المسيحَ بلّغَها عن الله، بل نقلوا فيها أشياءَ من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنّهم لم ينقلوا كلَّ ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهلُ الحديثِ والسير والمغازي عن النبيِّ ﷺ من أقوالِه وأفعالِه التي ليست قرآناً، فالأناجيلُ التي بأيديهم شِبْهُ كتب السيرةِ وكتب الحديث»[3].

---

(١) الجواب الصحيح: ١/ ١١٨.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٣٤.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٠.

ويقول في موضع آخر:

«وأمّا الإنجيل الذي بأيديهم، فإنْهم معترفون بأنّه لم يكتبه المسيح عليه السلام، ولا أملاه على مَنْ كتبه، وإنما أملاه بعد رفع المسيح (متى) و(يوحنا) وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عددَ التواتر، و(مرقس) و(لوقا) وهما لم يريا المسيح عليه السلام، وقد ذكر هؤلاء أنّهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره، وأنّهم لم يستوعبوا ذكرَ أقواله وأفعاله، ونَقلُ اثنين وثلاثة وأربعةٍ يجوزُ عليهم الغلطُ، لا سيّما وقد غلطوا في المسيح نفسه، حتى اشتبهَ عليهم بالمصلوب»[1].

وهو لا يتحدّثُ عن الإنجيل وحدَه، بل يقولُ عن التوراة أيضاً:

«أمّا التوراةُ فإنّ نقلَها انقطعَ لما خربت بيت المقدس أولاً، وأجلي منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أنَّ الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخصٌ واحِدٌ، يقال له عازر، وزعموا أنه نبي، ومن الناس من يقول: إنّه لم يكن نبياً، وإنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقةً، وقيل: إنّه أحضرت نسخةٌ كانت في المغرب، وهذا كله لا يوجب تواترَ جميع ألفاظها، ولا يمنعُ وقوعَ الغلط في بعضها، كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلَي نسخَها ومقابلتها وحفظُها القليلُ الاثنان والثلاثة»[2].

ويستنتج في الأخير بقوله:

«ليس عند النصارى نقلٌ متواترٌ عن المسيح بألفاظِ هذه الأناجيل، ولا نقل متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع.

ولاعندهم ولاعند اليهود نقل متواتر بألفاظِ التوراةِ ونبوّات الأنبياء كما عند المسلمين من نقل متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة»[3]

---

(١) الجواب الصحيح: ١/٣٦٨-٣٦٩.
(٢) المرجع السابق: ١/٣٦٨.
(٣) المرجع السابق: ٣٧٢.

ويتحدّث عن الفرق بين (القرآن) و(التوراة) و(الإنجيل) فيقول: «إنّ المسلمينَ تواترَ عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمَعِ عليها والسنّة المتواترة، وعندهم عن نبيّهم أخبارٌ كثيرةٌ معلومةُ الصدق بطرق متنوعة، كتصديق الأمة المعصومة، ودلالة العادات وغير ذلك، وهم يحفظون القرآن في صدورهم، لا يحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور، فلو عدمت المصاحف من الأرض، لم يقدحْ ذلك فيما حفظوه، بخلاف أهل الكتاب، فإنّه لو عُدِمَتْ نسخُ الكتب لم يكن عندهم بها نقلٌ متواترٌ بألفاظِها، إذ لا يحفظها إلا قليلٌ لا يوثَقُ بحفظهم[1].

فلهذا كان أهلُ الكتابِ بعد انقطاع النبوّةِ عنهم يقعُ منهم من تبديل الكُتُبِ، إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها، وإما تبديلُ بعضِ ألفاظها ما لم يقوموا بتقويمه، ولهذا لا يوجدُ فيهم الإسنادُ الذي للمسلمين، ولا لهم كلامٌ في نقلةِ العلمِ وتعديلهم وجرحِهم ومعرفةِ أحوالِ نقلة العلم ما للمسلمين»[2].

التحريف في الأناجيل:

اشتُهِرَ عن ابن تيميّة بوجهٍ عام أنّه لا يقولُ بالتحريف اللفظيِّ في التوراة والإنجيل، إلا أنَّ دراسة هذا الكتاب تنفي هذا الظنَّ.

أما حقيقةُ ما يقوله ابنُ تيميّة فهي أنّه يؤكِّدُ مراراً وتكراراً أنَّ الناسَ كلَّهم متفقون على وقوع التحريف المعنوي، وبما أنَّ علماءَ اليهود والنصارى يقولون بالتحريف المعنوي، فإنّه يعتمِدُ على ذلك في استدلالاته، ويقدِّمها بإزاء علماء اليهود والنصارى، إنّه يقول في إحدى المناسبات:

«وإذا عُرِفَ أنَّ جميعَ الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدونَ أنّه قد

---

(١) انظر (التوراة والإنجيل والقرآن: دراسات في الكتب المقدّسة) للدكتور موريس بوكاي. (الناشر)

(٢) الجواب الصحيح: ٢/ ١٢، ١٣.

وقعَ في هذه الكتب تحريفٌ، وتبديلٌ في معانيها وتفاسيرها وشرائعها، فهذا القدر كافٍ»[1].

ويقولُ في مناسبةٍ أخرى:

«ولكنَّ علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متّفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفسير»[2].

ولكن هل وقعَ تحريفٌ في ألفاظ التوراة والإنجيل؟

إنّه لا يوافق على أن هذه الكتب محرّفةٌ من أولها إلى آخرها، وليستْ فيها بعض ألفاظها الأصلية، يقول: «ثم زعموا أنَّ المسلمينَ يدّعون أنَّ ألفاظ هذه الكتب حُرِّفتْ كلُّها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد ﷺ، وهذا القولُ لم يقله أحد من المسلمين فيما أعلم»[3].

ولكنّه يقول بالتحريف الجزئيّ في هذه الكتب، بحيث إنّ ألفاظَها قد بُدّلتْ في مواضعَ عديدةٍ، وذلك هو مذهب الجمهور كما يقول:

«فجمهورُ المسلمينَ يمنعون هذا، ويقولون: إنّ بعضَ ألفاظها بُدِّلَ، كما قد بُدِّلَ كثيرٌ من معانيها»[4].

ويقول في محل آخر:

«والصوابُ الذي عليه الجمهورُ أنّه بُدّلَ بعضُ ألفاظِها»[5].

إنّ النصارى لم يفهموا ألفاظَ الأنبياءِ:

إنّه يعتقِدُ أنَّ السببَ الكبير في ضلال النصارى ومنبع الفساد الذي تسرب

---

(١) الجواب الصحيح: ١/ ٣٧٦.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٨٠.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٧٤.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٣٧٣.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٤.

إليهم من التثليث والعقائد المشركة، إنما يرجعُ إلى أنّهم لم يفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء عليهم السلام، ولا أدركوا مفاهيمها، كما قد حرّفوا مفاهيمَ ألفاظٍ كثيرة، إنّه يقولُ: «وإنَّ القومَ عندَهم من ألفاظِ الأنبياءِ ما لم يفهموا كثيراً منه، وما حرّفوا كثيراً منه، وعندَهم من المعقولِ في ذلك ما يفضُلُهُم اليهودُ فيه، لكنّ اليهودَ، وإن كانوا أعظمَ منهم فهماً، فهم أعظمُ عناداً وكِبْراً وجَحْداً للحق»[1].

إنّه يؤكد على أنَّ فهم هذه الكتب السماوية والاستفادةِ منها بطريقٍ صحيحٍ يتطلّبُ فهمَ لغاتِ الأنبياءِ ومصطلحاتهم، يقول:

«إنّ معرفةَ اللغةِ التي خاطبنا بها الأنبياء، وحمل كلامهم عليها أمرٌ واجبٌ متعيِّنٌ، ومن سلك غير هذا المسلك، فقد حرّفَ كلامهم عن مواضعِه، وكذب عليهم وافترى»[2].

ونتيجة لذلك وقعَ خطأٌ عظيمٌ في فهم معاني (ابن) و(روح القدس) وظهرت عقيدةُ التثليثِ.

المفهوم الصحيح للألفاظ:

إنَّه يقولُ: «فأهلُ الكتابِ نقلوا عن الأنبياءِ أنّهم تكلّموا بلفظ (الأب) و(الابن) ومرادهم عندهم بالأب الرب، وبالابن المصطفى المختار المحبوب، ولم ينقلْ أحدٌ منهم عن الأنبياء أنّهم سمّوا شيئاً من صفاتِ الله ابناً، ولا قالوا عن شيءٍ من صفاتِه إنّه تولّدَ عنه، ولا إنَّه مولودٌ له، فإذا وُجِدَ في كلام المسيح عليه السلام أنّه قال: عمّدوا الناسَ باسم (الأب والابن وروح القدس) ثم فسّروا الابن بصفةِ الله القديمة الأزلية، كان هذا كذباً بيّناً على المسيح، حيث لم يكن في لغته أنَّ لفظَ الابنِ يُرادُ به صفة الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياءِ أنَّ حياة الله تسمّى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدسِ ما ينزّله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحينَ ويؤيّدهم»[3].

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/ ١٠٩.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٨١.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٨١، ١٨٢.

ويقول في موضع آخر حيث يخاطِبُ النصارى:

«إنّكم إنما ضللتم بِعُدُوْلِكُم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التي لا يدلُّ عليها لفظُه، لا نصّاً ولا ظاهراً، فعدلتم عن المُحكَمِ، واتبعتم المتشابَه ابتغاءَ الفتنةِ، وابتغاءَ تأويله، فلو تمسّكتم بظاهِر هذا الكلام لم تضلّوا، فإنّ (الابنَ) ظاهرُه في كلام الأنبياء لا يُرادُ به شيءٌ من صفات الله، بل يرادُ به وليُّه وحبيبُه ونحو ذلك، و(روحُ القدس) لا يرادُ به صفتُه، بل يراد به وحيُه وملكه ونحو ذلك، فعدلتم عن ظاهر اللفظِ ومفهومِه إلى معنًى لا يدلُّ عليه اللفظُ البتةَ»[1].

كلمتا (الابن) و(روح القدس) مشتركتان عامتان:

ثم إنّه يثبتُ من عبارات (التوراة) و(الإنجيل) والنصوص أنَّ كلمتي (الابن) (وروح القدس) لا تختصّان بسيّدنا المسيح، بل طالما استُعْمِلتَا في حق غيره يقول:

«لفظُ (الابن) و(روح القدس) قد جاء في حقِّ غير المسيح عندكم، حتّى الحواريين عندكم يقولون: «إنّ المسيحَ قال لهم: إنّ الله أبي وأبوكم، وإلٰهي وإلٰهكم»، ويقولون: «إنّ روح القدس تحِلُّ فيهم».

وفيما عندكم من التوراة أنَّ الربَّ قال لموسى: «اذهب إلى فرعون فقل له: يقول لك الربُّ: ابني بكري أرسلُه يعبدُني، فإنْ أبيتَ أن ترسل ابني بكري قتلتُ ابنَك بكرك» فلما لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله قتلَ الله أبكارَ فرعون وقومَه من بكرِ فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولادِ الآدميين إلى ولدِ الحيوان البهيم».

فهذه التوراة تسمّي بني إسرائيلَ كلّهم أبناءَ الله وأبكارَه، وتسمّي أبناءَ أهل مصر أبناء فرعون، وتتوسّعُ فتسمّي سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان.

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/ ١٥٥.

وفي (مزامير داود) يقول: «أنتَ ابني سلني أُعطِكْ».

وفي (الإنجيل) يقول عن المسيح: «أنا ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم، وإلـٰهي وإلـٰهكم».

وقال: «إذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذي في السّماءِ قدوسٌ اسمُك افعلْ بنا كذا وكذا».

ويقولون عن القديسين: «إنّ روحَ القدس يحلُّ فيهم»[1].

وهكذا فإنّه أثبتَ بالدلائل أنَّ الألفاظَ التي يستدِلُّ بها النصارى على بنوّة سيدنا المسيح، وعلى الحلول والاتحاد والألوهيّة، إنما جاءت في التوراة والإنجيل مراراً وتكراراً لغير سيدنا المسيح، وأنّ كلَّ هذه الكلمات كناياتٌ ومجازاتٌ وتعبيراتٌ، وفي الأخير يستنتج بقوله:

«وجماعُ هذا أن النبوّات المتقدّمة والكتب الإلـٰهيّة كالتوارة والإنجيل والزبور، وسائر نبوّات الأنبياءِ لم تخصّ المسيحَ بشيءٍ يقتضي اختصاصَه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه كما يقوله النصارى، بل لم تخصُّه إلا بما خَصّه به الله عزَّ وجلَّ، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

«فكتُبُ الأنبياءِ المتقدّمة، وسائرُ النبوّاتِ موافقةٌ لما أخبرَ به محمّد ﷺ، يصدِّقُ بعضُهم بعضاً.

وسائرُ ما تستدلُّ به النصارى على إلـٰهيته من كلام الأنبياء، قد يوجدُ مثلُ تلك الكلمات في حقِّ غيرِ المسيح، فتخصيصُ المسيح بالإلـٰهيّة دون غيرِه باطلٌ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح، ومثل حلول روح القدس فيه، ومثل تسميته إلـٰهاً، ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه، أو سكونه فيه، أو في مكانه، فهذه

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/ ١٨٥، ١٨٦:

الكلماتُ وما أشبهها موجودةٌ في حقِّ غير المسيح عندهم، ولم يكونوا بذلك آلهة»[1].

وقد يعرِضُ المسيحيُّ عن هذه المقولات، ويبحثُ في الأقانيم والحلول والاتحاد عن طريق العقل، بحيث يحوِّلُه إلى بحث فلسفيٍّ أو صوفيٍّ، ولكنَّ ابن تيميّة تناولَ هذا الموضوع، وأشبعَه بحثاً من وجهة النظر الفلسفيّةِ، وبما أنّ هذا الموضوعَ مما يخصّه، وقد بحثه غيرَ مرّةٍ بصددِ الكلامِ حولَ العقائدِ ووحدة الوجودِ وعلمِ الكلام، ينصرفُ إلى البحثِ فيه بكامل الانشراح والاهتمام، ويثبت أنّه ليس كلاماً معقولاً، بل إنّه فلسفةٌ مزعومةٌ، لا تمتُّ إلى الحقائقِ والمعلوماتِ بِصِلَةٍ ما»[2].

أمور تنافي العقلَ:

وعندما يوردُ على المسيحيين من الناحية العقلية إيرادات حولَ عقيدةِ التثليثِ، ويثبت أنَّ هذه العقيدةَ ليست مما يقبلهُ العقلُ، بل إنّها تعارِضُ العقلَ الإنسانيَّ العامَّ، سرعان ما يلجؤون إلى المنقولات، ويقولون: هكذا تتحدّثُ لنا الكتب السماوية، وأنَّ هذه الأمور والعقائد هي حقائقُ وراء طَوْرِ العقل والقياس، فلامناصَ من تصديقها والإيمان بها، من غيرِ أن نحاوِلَ الاعتمادَ على العقل فيها.

أما الإمامُ ابن تيميّة، فإنّه يرفُضُ قبلَ كلِّ شيء أنَّ هذه العقائد والتعاليم توجد في الكتب السماوية، بل الحقُّ أنَّ الكتب السماوية تحتوي على عكس هذه التعاليم والعقائد.

ثم إنّه هناك شيئين مختلفين:

الأول: ما هو باطلٌ ومستحيلٌ عقلاً، والكلُّ يعلمُ أنَّ ذلك محالٌ.

والثاني: ما يتقاصَرُ عنه العقل، ولا يستطيعُ أن يتوصّلَ إلى حقيقتِه،

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/١٨٩، ١٩٠.

(٢) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى (الجواب الصحيح): ٣/١١٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٥.

ولا أن يحكمَ فيه بنفي أو إيجابٍ، إنّه يعتقِدُ أنَّ تعاليمَ الأنبياءِ إنّما هي من النوعِ الثاني، ومعنى ذلك أنَّ كلامَهم ليس فيه ما يعارِضُ العقلَ، بل فيه ما وراءَ العقلِ، والفرقُ بين ما يعارِضُ العقلَ وبين ما هو وراءَ العقلِ كبيرٌ، إنَّه يقولُ:

«لا يميّزونَ بين ما يُحيلُه العقلُ، ويبطِلهُ، ويعلم أنَّه ممتنعٌ، وبين ما يعجَزُ عنه العقلُ، فلا يعرِفُه، ولا يعلمُ فيه بنفي ولا إثبات، وأنَّ الرسلَ أخبرتْ بالنوّعِ الثاني، ولا يجوز أن تخبرَ بالنوع الأول، فلم يفرّقوا بين محالاتِ العقلِ ومحاراتِ العقولِ، وقد ضاهوا في ذلك مَنْ قبلَهم من المشركين، الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً»(١).

إنّه يثبتُ بكلِّ قوّةٍ وتأكيدٍ ـ وكتبه كلُّها مليئةٌ ببيانِ أنَّ الدين الصحيحَ لا يضادّ العقلَ الصريحَ ـ يقول:

«وهذا الموضوعُ غَلِطَت فيه طائفتان من النّاس:

غاليةٌ غالتْ في المعقولات، حتى جعلت ما ليسَ معقولاً من المعقولِ، وقدّمته على الحسِّ ونصوصِ الرّسولِ ﷺ.

وطائفة جَفَتْ عنه، فردّتْ المعقولات الصريحة، وقدّمتْ عليها ما ظنَّتْه من السمعيات والحسيات.

وهكذا الناس في السمعيات نوعان، وكذلك هم في الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان، فيجبُ أن يُعلَمَ أنَّ الحقَّ لا ينقض بعضه بعضاً، بل يصدِّقُ بعضُه بعضاً، بخلاف الباطل، فإنّه مختلِفٌ متناقضٌ، كما قال الله تعالى في المخالفين للرسل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٧ـ٩].

وإنّ ما علمُ بمعقولٍ صريحٍ لا يخالِفُه قط لا خبرٌ صريحٌ ولا حِسٌ صحيحٌ، وكذلك ما عُلِمَ بالسّمع الصحيح لا يعارِضُه عقلٌ، ولا حِسٌّ، وكذلك ما عُلِمَ

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/ ٨٩؛ [وانظر كتاب (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) لمحمد طاهر التنير (الناشر)].

بالحسِّ الصحيحِ لا يناقِضُه خبرٌ ولا معقولٌ[1] .

وذلك هو الفرق بين المسيحية والإسلام، ففي الإسلام اتحادٌ تامٌّ بين العقل والنقلِ، اللهمَّ إلا الحقائق الغيبية التي هي وراء العقل، ولكنّها لا تعارِضُ العقلَ، خلافاً للمسيحية التي تحتوي على كثير من المسائل والعقائد المخالفةِ للعقل، ويعتبرُها كثيرٌ من علمائها معارِضاً للعقلِ أيضاً، إلا أنَّهم يقولون: إنّ هذه الأمورَ إنّما هي وراء مرتبةِ العقلِ، ولا مناصَ من اعتقادِها والإيمان بها.

علماء النصارى القائلون بالتوحيد وعبديّة المسيح عليه السلام:

وقد أحسنَ (ابنُ تيميّة) في كتابه (الجواب الصحيح) وأوسعَه علماً مفيداً، وهو أنّه نقلَ فيه آراءَ علماءِ المسيحيّة وأئمتها وأقوالهم، الذين كانوا يعتقدون بعبدية المسيح عليه السلام، ويقولون بالتوحيد، إلا أنَّهم لم ينالوا أيَّ قبولٍ في العالم المسيحيِّ لأسبابٍ عدّة، وقد تناولَ بالمناسبةِ فِرَقَ النصارى والمذهب الغالب عندَهم بنوعٍ من التفصيلِ والشَّرْحِ، الأمر الذي يدل على اطلاعِه العميقِ، ومعلوماتِه الواسعةِ، ودقَّةِ النظرِ؛ كما نقل بصدد الموضوع رسالةً طويلةً لعالمٍ حديثِ العهدِ بالإسلام اسمه (حسن بن أيوب) بسطَ فيها الأسبابَ التي دفعته إلى قبولِ الإسلامِ، والدلائل التي رجَّحَ بها الإسلامَ على الديانات الأخرى، وهذه الرسالةُ تحتوي على معلوماتٍ قيّمةٍ[2] .

بشائر عن النبي ﷺ في التوراة والصحف السماوية:

وبعد انتهائه من ذلك نقل (ابن تيميّة) تلك البشائر والنبوءات، التي تخبر بنبوة النبي ﷺ وبعثته، وقد سار في ذكر هذه البشارات والنبوءات منهجَ الاستقصاءِ والاستيعابِ، ولم يألُ جهداً في نقل كلامِ وعبارةِ (أشعياء النبي) و(حبقوق) و(دانيال) و(سيدنا المسيح) عليه السلام، مما يتعلّقُ بالنبي ﷺ.

---

(١) الجواب الصحيح: ٣/ ١٢٦؛ [وانظر كتاب (درء العقل عن مناقضة النقل)، لشيخ الإسلام ابن تيميّة (الناشر)].

(٢) راجع الجواب الصحيح: ٣/ ٣١٢، و٣/ ٣.

وقد اجتمع في هذا الموضوع من المعلومات في هذا الكتاب ما يتعذّرُ وجودُه في أيِّ كتابٍ آخر، إنّه تناولَ هذه النبوءات بالشرحِ، وأثبتَ أنّها لا تنطبقُ إلا على النبيِّ ﷺ.

ومن بين هذه النبوءات بنوءةٌ من إنجيل (يوحنا) بأنّ سيدنا المسيح عليه السلام قال: «إنّ أركون العالم سيأتي وليس لي شيء»، ومعنى (أركون) في العبرانية جليلُ القدرِ والشأنِ، ويُقال للعظماء والكبار: أراكِنَةٌ، يقول ابن تيمية: وهو يثبت أنَّ مصداق هذه النبوة إنّما هو النبيُّ ﷺ[1].

«فمعلومٌ باتفاق أهلِ الأرضِ والاضطرار أنَّه لم يأتِ بعدَ المسيح من سادَ العالم باطناً وظاهراً، وانقادَتْ له القلوبُ والأجسادُ، وأُطيعَ في السّرِّ والعلانيةِ في محيّاه وبعدَ مماته في جميع الأعصارِ، وفي كل الأقاليم شرقاً وغرباً أحدٌ غير محمد ﷺ، فإنّ الملوك يطاعون ظاهراً وباطناً، ولا يطاعون بعدَ موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعةً يرجون بها ثوابَ الله في الدار الآخرة، ويخافونَ عقابَ الله في الدار الآخرة بخلافِ الأنبياء.

ومحمّدٌ أظهرَ دينَ الرسل مثل (موسى) و(المسيح) وغيرهما في أمم عظيمة، لولا محمد ﷺ لم يؤمنوا بهم، ومَنْ كان يعرِفُ هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيه، كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقولون في داود وسليمان وغيرِهما ما هو معروف عندهم، وأيضاً فإنّه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم»[2].

المعجزات ودلائل النبوّة:

وبعد الانتهاء من هذا الموضوع انتقل ابنُ تيميّة إلى بيانِ معجزات النبيِّ ﷺ، ويرى أنّها إذا سميت (آيات الأنبياء) كانت أدلَّ على المقصود من لفظ (المعجزات) وقد جمعَ من ذخائرِ المعلوماتِ ـ شأنه في هذا الصدد ـ ما لا يوجد مجتمعاً في

---

(١) الجواب الصحيح: ٢/ ٣١٢، و٣/ ٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٦.

كتابٍ واحدٍ[1]، وقد احتوى هذا البحثُ على تعريفِ المعجزات، وطريقِ إثباتها، وعلى كثيرٍ من البحوث الكلاميّةِ والموضوعيّةِ والنكت اللطيفة.

ولم يكتفِ ابنُ تيميّة في هذا البحث ببيانِ تلك المعجزات الشهيرة، التي تتحدّث عنها كتبُ السيرةِ والكلامِ، بل إنّه وسّعَ نطاقَ الآياتِ ودلائل النبوة إلى أن تضمّنَ جميعَ سيرته وشمائِله التي هي أكبر حجة على النبوّة، وأسطع برهان على النبوّة المحمدية لدى المنصفين وأصحاب النظر والبصيرة، كأنّه يلتقي مع الشيخ جلال الدين الرومي على هذه النقطة، الذي يقول ما معناه:

«كلُّ قلبٍ يتمتّعُ بلذّةِ العلمِ ويتحلّى بالبصيرةِ يدرِكُ ما في وَجْهِ النبيِّ ﷺ وصوتِه من معجزةٍ».

وقد عرضَ في هذه المناسبة خلاصةً جيّدةً لسيرتِه ﷺ وشمائِله، إنّه يوسّعُ هذا النطاق ويقول:

«وسيرةُ الرسول ﷺ من آياتِه، وأخلاقُه، وأقوالُه، وأفعالُه، وشريعتُه من آيـاتِه، وأمتُـه من آياتِه، وعلمُ أمتِـه ودينُهم من آيـاتِه، وكراماتُ صالحِ أمتِه من آياتِه»[2].

ثورة الإسلام والأمّةِ المحمديّةِ معجزةٌ بذاتِها:

وبعد بيانِ خلاصة السيرة الطيّبةِ التي تبعثُ قراءتها إيماناً بأنّه ﷺ نبيٌّ صادِقٌ مؤيّدٌ مِنَ اللهِ ورسولٌ حقٌّ، يقول:

«حتى ظهرتِ الدعوةُ في جميع أرض العرب، التي كانت مملوءةً بعبادة الأوثان، وأخبار الكهان، وطاعة المخلوق والكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمـة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفـون آخرة ولا معاداً، فصـاروا أعلمَ أهـلِ الأرض، وأدينهم، وأعدلهم، وأفضلهم، حتى إنّ النصارى لما رأوهم حين قدمـوا الشام قالوا: ما كان الذين صَحِبُوا المسـيحَ بأفضل من هؤلاء، وهذه آثـارُ

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/٦٦ ـ ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/٧٨.

علمهم في الأرض، وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ـ ﷺ مع ظهورِ أمرِه وطاعةِ الخلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ ماتَ ولم يخلِّفْ درهماً ولا ديناراً، ولا شاة ولا بعيراً، إلا بغلتَه وسلاحَه، ودِرْعَه مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين وِسْقاً من شعيرٍ، ابتاعها لأهلِه، وكان بيده عقار ينفِقُ منه على أهلِه، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكمَ بأنَّه لا يُورَثُ، ولا يأخذ ورثتُه شيئاً من ذلك.

وهو في كلِّ وقتٍ يظهر على يديه من عجائب الآيات، وفنون الكراماتِ، ما يطولُ وصفُه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، يأمرُهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات، ويحرّمُ عليهم الخبائث، ويشرع الشريعةَ شيئاً بعد شيءٍ، حتى أكملَ الله دينَه الذي بُعِثَ به»[1].

«وأُمَّتُه أكملُ الأممِ في كلِّ فضيلةٍ، فإذا قيسَ علمُهم بعلمِ سائر الأمم ظهرَ فضلُ علمهم.

وإنْ قيسَ دينُهم وعبادتُهم وطاعتُهم للهِ بغيرِهم ظهرَ أنَّهم أدينُ مِنْ غيرهم.

وإذا قيسَت شجاعتُهم وجهادُهم في سبيل الله، وصبرُهم على المكاره في ذات الله، ظهرَ أنّهم أعظمُ جهاداً وأشجعُ قلوباً.

وإذا قيسَ سخاؤهم وبذلُهم وسماحةُ أنفسِهم بغيرهم يتبيّنُ أنّهم أسخى وأكرمُ من غيرِهم.

وهذه الفضائلُ به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرَهم بها، لم يكونوا قبلَه متّبعين لكتابٍ جاء هو بتكميله، كما جاءَ المسيحُ بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائلُ أتباع المسيح وعلومِهم بعضها من التوراة، وبعضُها من الزبور، وبعضُها من النبوات، وبعضُها من المسيح، وبعضُها ممن بعده كالحواريين، ومن بَعْدِ الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرِهم، حتى أدخلوا لما غيّروا دينَ المسيح في دينِ المسيحِ أموراً من أمورِ الكفّارِ المناقضةِ لدين المسيحِ.

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ٨١.

وأمّـا أمةُ محمّدٍ ﷺ فلم يكونـوا يقرؤون قبلَه كتابـاً، بل عامتُهم ما آمنوا بموسـى وعيسى وداود والتـوراة والإنجيل والزبـور إلا من جهته، فهو الذي أمـرَهم أن يؤمنوا بجميع الأنبيـاء، ويقرّوا بجميعِ الكتبِ المنزلـة من عند الله، ونهاهم أن يفرّقوا بين أحدٍ من الرُّسل»[١].

إعجازُ الشريعة المحمدية:

ويتحدّثُ عن كمالِ الشريعةِ المحمديّةِ فيقول:

«وجاءت شريعتُه أكمل شريعة، لم يبقَ معروفٌ تعرِفُ العقولُ أنّه معروفٌ إلا أمرَ به، ولا منكرٌ تعرِفُ العقولُ أنّه منكَرٌ إلا نهى عنه، لم يأمر بشيءٍ فقيل ليتَه لم يأمر بهِ، ولا نهى عن شيءٍ فقيلَ ليتَه لم ينَه عنه.

وأحلَّ الطيبـات، لم يحرِّمْ شـيئاً منها، كما حُـرِّمَ في شـرعِ غيره، وحرَّمَ الخبائثَ، لم يحلّ منها شيئاً كما استحلّه غيره.

وجمعَ محاسِنَ ما عليه الأمم، فلا يذكرُ في التوراة والإنجيل والزبور نوعُ من الخبرِ عن اللهِ وعن ملائكتهِ وعن اليوم الآخرِ إلا قد جاء به على أكملِ وَجْهٍ.

وأخبرَ بأشياءَ ليست في هذه الكتب، فليس في تلك إيجابٌ لعدلٍ وقضاءٌ بفصل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات، إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيبُ في العبادات التي شرعها، وعباداتِ غيره من الأمم، ظهر فضلُها ورجحانُها، وكذلك في الحدود والأحكامِ وسائرِ الشرائع»[٢].

وبعد ما ذكـر بصدد الموضوع غايـةَ العباداتِ، وتحدّثَ عـن مختلـف المذاهـب، ووجهات النظـر عنها، تنـاوَل العبادات الإسـلامية، وبحـث عـن مقاصدها وأسرارها وفوائدها في غاية من الحكمة.

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٨١.

كما أثبت أنَّ النبيَّ ﷺ كان نموذجاً كاملاً للصدق والعدل، وقد تجلّى هذا الصدقُ والعدلُ في خلفائه الراشدين، وأصحابه الكرام في حياتهم وحكومتهم وخلافتهم ومعاملتهم وسياستهم، وعاشوا حياةً كلّها ورعٌ وزهادةٌ لا يوجَدُ لها نظيرٌ في تاريخ العالم(١).

الاعتقاد بالنبوّة المحمديّـةِ واجبٌ على كل مقر بالنبوة:

ويثبتُ الإمامُ ابنُ تيميّة بكلامٍ واضحٍ مؤيَّدٍ بالدلائل أنَّ كلَّ عارفٍ بمفهومِ النبـوّةِ وقائل بها ومؤمنٍ بـأيٍّ من الأنبياءِ لا يسعُه إنكارُ النبـوّةِ المحمديّـة، فإنَّ الدلائلَ التي تعلمُ بها نبوّة الأنبياء الآخرين تُعلمُ بها نبوّةُ محمَّدٍ ﷺ بطريقِ الأولى.

فإن قال قائل: (إنّ نبوّةَ الأنبياءِ تثبُتُ بالمعجزاتِ) فإنّ معجزاتِ النبيِّ ﷺ أعظمُ، وتواترها أبلغُ، والكتابُ الذي جاء به أكمل، وأمتُه أفضلُ، وشرائعُ دينِه أحسنُ، فَيبطُلُ بتكذيبِ نبوَّته جميعُ ما مع النّاس مِنَ النبوّاتِ(٢).

ويرى أنَّ الإصرارَ على إثباتِ نبوّاتِ الأنبياءِ الآخرين، وإنكارِ نبوّةِ محمد ﷺ مثلُه كمَثَلِ الذي يقـرُّ بعظمةِ علماءِ الفنِّ وإمامتِهم، وينكِـرُ زعيمَ ذلـك الفنِّ وأستاذَه الأوّلَ، إنَّه يضربُ لذلك أمثلةً عديدةً طريفةً، يقول:

«وصار هذا كما لو قال قائلٌ: إنّ زُفَرَ وابنَ القاسِم والمُزَنيَّ والأثرم كانوا فقهاءَ وأبا حنيفة ومالكاً والشافعيَّ وأحمدَ لم يكونوا فقهاء.

أو قال: إنّ الأخفشَ وابنَ الأنباريِّ والمبرّدَ كانوا نحاةً، والخليلَ وسيبويه والفراءَ لم يكونوا نحاةً.

أو قال: إنّ صاحبَ الملكي والمسيحي ونحوِهما من كُتُبِ الطّبِّ كانوا أطباء، وأبقراط وجالينوس ونحوِهما لم يكونوا أطباء.

أو قال: إنّ كوشيار والخرقي ونحوِهما كانوا يعرفون علمَ الهيئةِ، وبطليموس ونحوِه لم يكن له علمٌ بالهيئةِ.

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ١٠٤-١١٩.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٨٠.

ومن قال: إنّ داود وسليمانَ ومليخا وعاموص ودنيال كانوا أنبياء، ومحمد ابن عبد الله لم يكن نبياً، فتناقضه أظهرُ، وفسادُ قولِه أبينُ من هذا جميعه، بل وكذلك من قال: إنّ موسى وعيسى رسولان، والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمّد ﷺ ليس برسولٍ، والقرآنُ لم ينزَلْ من عند الله، فبطلانُ قولِه في غايةِ الظّهور والبيانِ لمن تدّبرَ ما جاءَ به محمّد ﷺ، وما جاءَ به من قبلَهُ، وتدبّرَ كتابَه والكتبَ التي قبلَه، وآيات نبوّتِه وآيات نبوّةِ هؤلاء، وشرائعِ دينهِ وشرائع دينِ هؤلاء»[1].

البعثة العامة لرسول الله ﷺ:

ومن الأفضلِ أنْ أختمَ هذا البحثَ بذكر دعوى النصارى التي ذكرها ابنُ تيميّة في أول كتابه، وهي «أنَّ النبيَّ ﷺ إنما كان قد بُعِثَ خصيصاً إلى العرب الجاهلين، وهم الذين كانوا مطالَبين بالإيمان به، وأنّ النصارى غير مضطرين إلى الإيمان به، فإنْ لم يؤمنوا به لا يؤاخذون على ذلك».

وهذه العقيدةُ شائعةٌ بين النصارى العرب وعلمائهم اليوم أيضاً، كما أنَّ في بلادنا الهند وُجِدَتْ في بعض الأوساط فكرةٌ أنّ الاتّباعَ الكامِلَ للأديانِ السابقةِ يتكفّلُ النجاة من النار، ولا حاجةَ لمسيحي أو يهوديٍ صادقٍ أو رجلٍ من غيرِ المسلمينَ أن يؤمنَ بالنبوّةِ المحمديةِ.

وبما أنَّ هذا الاعتقاد الفاسِدَ يقضي على جذورِ الدّعوةِ الإسلاميّة، وبعثةِ الرّسولِ العامةِ، وينسدُّ به بابُ الدعوةِ والتبليغِ للإسلام، وتذهبُ الجهودُ التي بُذِلَتْ في نشر الإسلام سدًى تصدّى الإمامُ ابن تيميّة لردِّ هذا الاعتقاد الفاسد، وركّزَ كتابتَه في دحضِ هذا الباطل، وتحدّثَ في هذا الموضوع في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّلَ دينَ المسيح) في الجزء الأول الصفحة ٢٨ إلى الصفحة ٢٣٠، وتناولَه من الناحيتين العلميّة والاستدلالية بأكملِ وجهٍ وأوسعِ طريقٍ، وهو ومما يدلُّ على قوّةِ عارضتِه وتعمُّق علمه، وقد جمعَ في هذا البحث جميعَ نصوصِ

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ١٨٠ ـ ١٨١.

الكتاب والسنّةِ التي تقضي على كلِّ شبهةٍ تتطرّقُ إلى بعثةِ النبيِّ ﷺ بأنّها كانت تخصُّ العربَ وحدَهم، أو أنَّ النجاةَ مأمولةٌ من غيرِ الإيمانِ بنبوّتِه، يقول في موضع:

«وقال ﷺ: «كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى النّاس عامّةً».

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي القرآن من دعوةِ أهلِ الكتابِ من اليهود والنصارى، ومن دعوةِ المشركينَ وعُبّادِ الأوثان، وجميع الإنس والجن، ما لا يحصى إلا بكلفةٍ، وهذا كلُّه معلومٌ بالاضطرارِ من دينِ الإسلام، فكيف يقال: إنّه لم يذكر أنّه بُعِثَ إلا إلى العربِ خاصة؟ وهذه دعوتُه ورسلُه وجهادُه لليهودِ والنصارى والمجوسِ بعدَ المشركينَ، وهذه سيرتُه ﷺ فيهم، وأيضاً فالكتابُ المتواترُ عنه ـ وهو القرآن ـ يذكرُ فيه دعاءَه لأهلِ الكتاب إلى الإيمانِ به»[1].

ويقول في مكان آخر:

«فهذه الدلائلُ وأضعافُها مما تبيّن أنّه نفسَه ﷺ أخبرَ أنَّه رسولُ الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب، وأنّه دعاهم، وجاهدَهم، وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلتْهُ أمتُه بعدَه بدعةً ابتدعوها، كما فعلت النصارى بعدَ المسيح عليه السلام، **فإنَّ المسلمينَ لا يجوّزون لأحدٍ بعدَ محمّدٍ ﷺ أن يغيّرَ شيئاً من شريعتِه، فلا يحلِّلُ ما حرّمَ، ولا يحرِّمُ ما حلّل، ولا يوجِبُ ما أسقطَ، ولا يسقِطُ ما أوجبَ، بل الحلالُ عندَهم ما حلله اللهُ ورسولُه ﷺ، والحرامُ ما حرّمَه اللهُ ورسولهُ ﷺ، والدينُ ما شرعَه اللهُ ورسولهُ ﷺ**»[2].

* * *

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ١١٥ ـ ١١٦.
(٢) المرجع السابق: ١١٧/١١٨.

ب ـ نقد الشيعة وآرائها

كتاب (منهاج السنة):

لقد قام الإمام ابن تيميّة بالرد على (الشيعة) في غير موضع من مؤلفاته، وأدّى حقَّ الدفاع القويّ عن السنة، وعقائدِ أهل السنّة، وعن الخلفاءِ الرّاشدين، والصحابة الكرام رضي الله عنهم، إلا أنّه أفردَ في موضوعِ الردِّ على الشيعة كتاباً مستقلاً سماه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقَدرية).

أمّا الباعثُ على هذا التأليف، فهو أنَّ العالم الشيعيَّ المعاصرَ الكبير (ابن المطهر الحِلّي) ألّفَ كتاباً ضخماً لولي نعمته ومخدومه الملك التتري (أولغ خر بنده خان) الذي كان قد تشيّع بفضل جهودِه التي بذلها في دعوته إلى التشيّع، وقد سمّى هذا الكتاب باسم (منهاج الكرامة في معرفة الإمامة) لإثباتِ التشيّع والإمامةِ والردِّ على السنيّة والخلافة.

وقد وصل هذا الكتاب إلى الشام، حيث اطلعَ عليه شيخُ الإسلام، وكان الشيعةُ يعتزّون بهذا الكتاب، ويظنّون أنَّ الردَّ عليه مستحيلٌ، ومعظَمُ ما كان يحتوي عليه هذا الكتاب هو إثباتُ الإمامة لسيدنا (علي كرم الله وجهه) وعصمة أهلْ البيت رضي الله عنهم، وعلى ردِّ الخلفاء الثلاثة، والطعن عليهم، وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كما بُذِلَتْ فيه محاولةٌ لتفضيلِ سيدّنا علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء، وذكر فضائل (الأئمة الاثني عشر) وإمامتهم وعصمتهم، مؤيّداً كل ذلك بنصوص الكتاب والسنة، مع توجيه المطاعنِ إلى الخلفاء الثلاثة والصحابة رضي الله عنهم، مبرهناً عليها بالآيات والأحاديث والتاريخ والسير، وقد تجلّى في كلِّ ذلك ذكاءُ المؤلف، وقوة استدلاله، وتبحره العلمي بغاية من الوضوح والقوة، واقتنعَ بأنّه أقام بذلك الحُجّةَ على أهل السنة.

وبما أنَّ المؤلف معتزليُّ العقيدة في الأصول والعقائد، كعامة المتأخرين من الشيعة، تصدّى للبحث في الذات والصفات، وفي عقائد أهل السنة وأصولهم بحثاً كلامياً فلسفياً.

وقد ألحَّ أهلُ السنَّةِ على ابن تيميّة بأنْ يؤلّفَ ردّاً على هذا الكتاب، ومعلومٌ أنَّ هذا الكتاب يشمَل أبحاثاً كثيرةً في علم الكلام والعقائد والفلسفة والتفسير والحديث والتاريخ والآثار، فكان من المناسبِ جدّاً أن يقومَ للردِّ عليه رجلٌ يجمَعُ بين النظرةِ العميقةِ الواسعةِ في جميع هذه العلوم والمواضيع، وبين النقدِ والمعرفة لها.

وممّا لا يخفى أنَّ للمؤلفين من الشيعة جرأة ومهارة في وضع الأحاديث واختراع الرواية، وكان علمُ الحديثِ قد توسّعَ آنذاك، ووُضِعتْ له مجموعاتٌ ودواوينُ كثيرة، كان من الصعبِ أن يمّيزَ الموضوعُ فيها من الصَّحيح، وأنّ تنقد الرواياتُ في ضوءِ مبادئ الجرح والتعديل، وتوزن في ميزان فنِّ الرِّجالِ بغايةٍ من الدقّةِ والإتقان، لذلك فكانت الحاجةُ ماسةً إلى رجل نابغة في علم الحديث، متبحّرٍ في أسماء الرجال، مطّلعٍ على جميع ذخائر الحديث، عارفٍ بأحوال الروايات والرواة، بحيث لا يمكنُ لبسها عليه.

كما يكونُ ذا اطلاعٍ واسعٍ على التاريخ الإسلاميِّ حتى يستطيعَ أن يضعَ أصبعَه على موطنِ كلِّ خطأ تاريخيٍّ، ولا يفوتُه أيُّ افتراضٍ أو اختلاقٍ في الرّواية.

ومن المسلَّمِ المعلومِ أنَّ توجيه الاعتراضِ والنقدِ إلى شخصيةٍ تاريخيةٍ عملٌ سهلٌ جدّاً من بين ذخائر التاريخ الواسعة، أما تزكيتُها والدفاعُ عنها فأمرٌ صعبٌ، وكان من المواضعِ المعجب بها لدى الشيعة هو الطعنُ في الصحابة رضي الله عنهم الذي كانوا يتخذونه مجالاً واسعاً لصبِّ غيظِهم وحقدِهم الدفين ضدَّ أصحابِ الرّسول ﷺ.

ومن حُسْنِ حظِّ المسلمين أنَّ الله تعالى قيّضَ في نفسِ ذلك الزّمن الذي أُلّف فيه هذا الكتاب عالماً من علماء أهل السنة كان يعتبرُ أميرَ المؤمنين في الحديث في

عصره، وقد عُني بالرّدِّ عليه ـ وكانت مكتبةُ الحديثِ والرّجال ككتابٍ مفتوحٍ أمامَ عينيه ـ ذلك الرجلُ الذي قيل عنه في معرفته بالحديث: «إنّ الحديث الذي لا يعرفُه هو ليس بحديثٍ»، والحقيقةُ أنّ (ابن تيميّة) أدى فرضَ الكفاية عن الأمة في الردِّ على مطاعن الصّحابةِ، وقام بعمل تعذَّر على غيره من العلماء بعده، ولا شكَّ أنَّ علماء الإسلامِ بعدَه إنما يستفيدونَ منه في هذا الموضوع.

إنَّ كتابَه (منهاجَ السنّةِ)[1] الّذي ألّفه ردّاً على كتاب (منهاج الكرامة) لابن المطهّر الحلّي، إنما يمتازُ عن سائر مؤلّفاته بميزةٍ خاصّةٍ، فمن أرادَ أن يطلعَ على تبحّره العلمي، وسَعةِ نظره، وحضور بديهته، وقوّة حفظِه، واستحضاره للمسائل، ونضجه وإتقانِه وذكائِه وألمعيتِه، فليقرأ هذا الكتاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

العاملُ في هذا الكتاب والباعث عليه:

إنَّ العامِلَ الرئيسيَّ في تأليف هذا الكتاب عندَ ابن تيميّة، والباعثَ عليه في الحقيقة هو أنّ صاحب (منهاج الكرامة) أطلقَ لسانَ الطعنِ بأسلوبٍ شائنٍ في الخلفاء الراشدين، والسابقين الأولين، الذين يعتقدُهم الإمامُ ابن تيميّة ـ كسائر أهل السنة ـ أفضل الخلق بعد الأنبياء، وأصلح أفراد النوع البشري، ولكنّ صاحب (المنهاج) أثبتهم شرارَ الخلقِ وأرذلَ الكائنات، الأمر الذي أزعج ابن تيميّة، وجعلَه يعلِنُ بصراحةٍ أنّ مثل هذا الاعتقاد يرادِفُ تقويضَ أركان الإسلام، ويفتحُ بابَ الطعنِ والاعتراض على النبوّة المحمديّةِ، ويؤدّي إلى الإلحاد والزندقة، يقول في موضع ما معناه:

---

(١) يقع هذا الكتاب في أربعة مجلّدات من القطع الكبير، ويقع في ١٢١٤ صفحة، طبع في المطبعة الأميرية في مصر، باهتمام الشيخ مصطفى البابي الحلبي (ثم أُعيد طبعه في جامعة محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى).
وقد لخّصه العلامةُ الذهبيُّ باسم (المنتقى من منهاج الاعتدال في الرد على أهل الرفض والاعتزال) الذي صدر حديثاً من مصر بعناية الشيخ محمد نصيف واهتمام الأستاذ محب الدين الخطيب.

«لولا أنّ هذا الرجلَ الجائرَ المتعدي حدودَ الأخلاق والحشمة لم يتناول الصحابة الكرام رضي الله عنهم بالنقد اللاذع، أولئك الذين هم الرعيل الأول لأولياءِ الله وأئمة أهل الأرض، وأفضل الخلق بعد الأنبياء، ولولا أن انتقاده سبَّبَ الفتنـةَ في الدّين، ووقّـرَ الحجةَ للكفّـارِ والمنافقين، وأحدثَ الشكوكَ في قلوبِ كثيـرٍ من المؤمنين، لم نرَ حاجةً إلى كشف القناع عن نقد هذا الرجل، أنصف الله من هذا الرجل وأتباعِه في العقيدة».

الشيعةُ يرون أنَّ اليهودَ والنصارى أفضل من خير الأمم:

وفي مناسبةٍ أخرى يتحدّثُ عن مطاعن الشيعة، ونيلهم من مكانة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فيقول: «وهذه الأمةُ خيرُ الأمم، وخيرُها القرن الأول، كان القرنُ الأول أكملَ الناس في العلم النافع والعملِ الصالح.

وهؤلاء المفترون وصفوهم بنقيض ذلك، بأنّهم لم يكونوا يعلمون الحقَّ ويتبعونه، بل كان أكثرهم عندهم يعلمـون الحقَّ ويخالفونه، كما يزعمونـه في الخلفاء الثلاثـة وجمهور الصحابة والأمة، وكثيرٌ منهم عندَهم لا يعلم الحق، بل اتبع الظالمين تقليداً، لعدم نظرهم المفضي إلى العلم، والذي لم ينظر قد يكون تركه النظر لأجل الهوى وطلب الدنيا، وقد يكون لقصوره، ونقص إدراكه.

وادّعى أن منهم من طلب الأمر لنفسـه بحق يعني علياً، وهذا مما علمنـا بالاضطرار أنّه لم يكن.

فلزم من ذلك على قولِ هؤلاءِ أن تكونَ الأمةُ كلُّها كانت ضالةً بعد نبيها، ليس فيها مهتدٍ.

فيكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً منهم، لأنهم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ اليهود والنصارى افترقت على أكثر من سبعين فرقة، فيها واحدة ناجية، وهذه الأمةُ على موجب ما ذكروا لم يكن فيهم بعدَ موت النبيِّ ﷺ أمة تقوم بالحقّ ولا تعدِلُ به، وإذا لم يكن ذلك في خيار قرونهم ففيما

بعدَ ذلك أولى، فيلزمُ من ذلك أنْ يكونَ اليهودَ والنصارى بعد النسخِ والتبديلِ خيراً من خيرِ أمة أخرجت للنّاسِ»[1].

خيارُ الأمّـةِ شرارُها عند الشيعة:

ويقول في موضع آخر:

«فإنّهم عمدوا إلى خيـار أهل الأرض من الأولين والآخريـن، بعد النبيين والمرسـلين، وإلى خيارِ أمـةٍ أخرجت للناس، فجعلوهم شرارَ الناس، وافتروا عليهم العظائم، وجعلوا حسناتهم سيئاتهم.

وجاؤوا إلى شرٍّ من انتسب إلى الإسلام من أهل الأهواء، وهم الرافضة بأصنافها، غاليها، وإماميّها وزيديّها[2] ـ والله يعلم، وكفى بالله عليماً، أن ليس في جميع الطوائفِ المنتسبة إلى الإسلام مع بدعةٍ وضلالةٍ شرٌّ منهم، لا أجهل، ولا أكذب، ولا أظلم، ولا أقرب إلى الكفر والفسوق والعصيان، وأبعد عن حقائق الإيمان منهم ـ فزعموا أنَّ هؤلاءِ هم صفوةُ اللهِ من عبادِه.

فإنَّ ما سوى أمة محمد كفار، وهؤلاء كفّروا الأمّةَ كلّها أو ضللوها، سوى طائفتهم، التي يزعمـون أنَّها الطائفـة المحقة، وأنّها لا تجتمِعُ على ضلالـةٍ، فجعلوهم صفوة بني آدم، فكان مثلهم كمن جاء إلى صاحب غنم كثيرةٍ، فقيل له: أعطنا خيرَ هذه الغنم لنضحِّي بها، فعمد إلى شرِّ تلك الغنم، إلى شاةٍ عوراء عجفاء عرجاء مهزولة لا نقيَّ لها، فقال: هذه خيار هذه الغنم، لا تجوز الأضحيـة إلا بها، وسـائر هذه الغنم ليست غنماً، وإنما هي خنازيرُ يجبُ قتلها، ولا تجوز الأضحية بها»[3].

الإمام الشعبي يقول:

يُروى عن الشعبيِّ أنَّ اليهودَ والنصارى أعرفُ بمنزلة الأنبياء بالنسـبة إلى

---

(١) منهاج السنة: ١/ ١٥٢.

(٢) انظر كتاب: (صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية) للمؤلف، ط. دار البشير ـ جدة. (الناشر)

(٣) منهاج السنة: ٣/ ٤٠.

الرافضة: «سئلتِ اليهودُ: مَنْ خيرُ أهلِ ملّتكم؟ قالوا: أصحابُ موسى، وسئلتِ النصارى: مَنْ خيرُ أهلِ ملّتكم؟ قالوا: حواريو عيسى، وسئلتِ الرافضةُ: من شرُّ أهل ملّتِكم؟ قالوا: أصحابُ محمد، أُمروا بالاستغفارِ لهم فسبّوهم»[1].

المعاداة للسابقين الأولين والموالاة للكفار:

«وهذا دأبُ الشيعةِ دائماً، يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلى اليهود والنصارى والمشركين في الأقوال والموالاة والمعاونة والقتال وغير ذلك، ومن أضل من قوم يعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويوالون المنافقين والكفار»؟!![2].

ثم يقول بعد ما ذكر مناصرةَ الشيعةِ للكفّارِ، ومساعدتهم إياهم:

«وكثيرٌ منهم يوادّ الكفار من وسط قلبه أكثر من موادّتِه للمسلمين، ولهذا لما خرجَ التتر الكفّارُ من جهة الشرق، وقتلوا المسلمين، وسفكوا دماءَهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها، كانت الرافضةُ معاوِنةً لهم على المسلمين.

وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة، كانوا من أشدّ الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.

وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضةُ من أعظمِ المعاونين لهم.

وكذلك إذا صارَ لليهود دولة بالعراق وغيرِه تكونُ الرافضةُ من أعظمِ أعوانهم فهم دائماً يوالون الكفّار من المشركين واليهود والنصارى، ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم»[3].

---

(١) منهاج السنة: ١/ ٦.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٨٣.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٨٤.

العصبية والانحراف:

يـذكر (ابن المطهر الحلي) في إحدى المناسـبات في كتـابه (خواجه نصير الدين الطوسي) فيبالغ في تقديسه وتعظيمه، ويضفِي عليه الألقابَ العظيمةَ فيقول: «شيخنا الإمام الأعظم خواجه نصير الملة والحق والدين محمد بن الحسن الطوسي قدس الله روحه» وهنالك جاشت في ابن تيميّة حميته الدينية، فلم يلبث أن تناول خواجه نصير الدين الطوسي وفضائحه ومؤامراته على قتل الخليفة العباسي[1]، وصنيعتـه في مجزرة بغداد، وأفكـاره وعقائده الملحدة، ويقـول في غايـة من الاستغراب:

«ومـن العجبِ أنَّ هذا المصنِّفَ الـرافضيَّ الكذَّابَ المفترِي يذكـرُ أبا بكـر وعمر وعثمان وسائر السابقين والتابعين، وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين ـ بالعظائم التي يفتريها عليهم هو وإخوانه، ويجيءُ إلى مَن قد اشتهر عند المسلمين بمحاربته لله ورسوله ﷺ فيقول عنه: «قال شيخنا الأعظم» ويقول: «قدّس الله روحه» مع شهادته عليه بالكفرِ وعلى أمثالِه ومع لعنه طائفة خيار المؤمنين من الأولين والآخرين، وهؤلاء داخلون في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢]»[2].

تناقضات الشيعة:

يقول الإمام ابن تيمية: «ثم من جهلِ الرافضةِ أنّهم يعظّمون أنساب الأنبياء، آبائهم وأبنائهم، ويقدحون في أزواجهم، كلُّ ذلك عصبيةٌ واتباعٌ للهوى، حتى يعظمون فاطمة والحسن والحسين، ويقدحون في عائشة أم المؤمنين»[3].

---

(١) حيث كان وزيراً لهولاكو.

(٢) منهاج السنة: ١/ ١٠٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٩٣.

ومن تناقض الشيعة أنهم يبالغون في تعظيم محمد بن أبي بكر، ويقدحون في شأن والده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يقول ابن تيمية:

«والرافضةُ تغلو في تعظيمِه على عادتهم الفاسدة في أنّهم يمدحون رجال الفتنة، الذين قاموا على عثمان، ويبالغون في مدح من قاتَلَ مع علي، حتى يفضلون محمد بن أبي بكر على أبيه أبي بكر، فيلعنون أفضل الأمة بعد نبيها، ويمدحون ابنه، الذي ليس له صحبة، ولا سابقة، ولا فضيلة، ويتناقضون في ذلك في تعظيم الأنساب»[1].

البغض للصحابة الكرام دليل على ما في القلب من غلٍّ وخبث:

إنّـه يقول ما معنـاه: «أكبر خبث للقلوب ومرضها أن تنطـوي على بغض أولئك الرجـال العظام، الذين كانـوا خيار المؤمنين، ورعيل أولياء الله الأوائل، وتاج مفرقهم.

ولذلك فإنّ في الفيءِ سهماً لأولئك الذين ليس في قلوبهم غلٌّ للمهاجرين والأنصار والسابقين الأولين، بل يدعون ويستغفرون لهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

الطاعن في الشيخين إما جاهل أو زنديق:

لا يجترىءُ على الطعن على أبي بكـر وعمر رضي الله عنهما إلا نـوعان من الرجال:

إما منافق زنديق، عدوٌّ للإسلام، الذي يتخذُ الطعنَ عليهما ذريعةً للطعن على شخصية رسول الله ﷺ في الإسلام، وفي هذه الحال عاش المعلّم الأول[2] للرافضة، وتلك هي معاملةُ أئمة الباطنية.

---

(١) منهاج السنة: ١/ ٢٠٠ـ٢٠١.

(٢) عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء. (الناشر)

وإما جاهلٌ غالٍ في اتباع هواه وجهله، وهذه هي حالُ العامّةِ من الشيعةِ، إذا كانوا مسلمين في باطنهم، يقول في (منهاج السنة):

«قد عُرِفَ بالتواتر، الذي لا يخفى على العامة والخاصة، أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كان لهم بالنبيِّ ﷺ اختصاصٌ عظيم، وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به، وصحبة له، وقرباً إليه، واتصالاً به، وقد صاهرهم كلهم، وما عُرِفَ عنه أنَّه كان يذمهم، ولا يلعنهم، بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثني عليهم، وحينئذٍ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً في حياته وبعد موته.

وإما أن يكونوا بخلاف ذلك في حياته أو بعد موته، فإنْ كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرّب، فأحد الأمرين، إما عدم علمه بأحوالهم، أو مداهنته لهم، وأيهما كان فهو من أعظم القدح في الرسول ﷺ، كما قيل:

فإنْ كنتَ لا تدرِي فتلكَ مصيبةٌ … وإن كنتَ تدرِي فالمصيبةُ أعظَمُ

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة، فهذا خذلانٌ من اللهِ للرسول ﷺ في خواص أمته، وأكابر أصحابه، ومن قد أخبر بما سيكون بعد ذلك أين كان عن علم ذلك، وأين الاحتياط للأمة، حتى لا يولّى مثل هذا أمرها، ومن وعد أن يظهرَ دينُه على الدين كله، فكيف يكون أكابر خواصه مرتدين، فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرافضةُ في الرسول ﷺ، كما قال مالك وغيره:

(إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن في الرسول ﷺ ليقول القائل: رجل سوء، كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين».

ولهذا قال أهلُ العلمِ: «إنّ الرافضةَ دسيسةُ الزندقةِ»)[1].

فضائل الصحابة ومناقبهم متواترة قطعية:

يعتقد الإمامُ ابن تيميّة أنّ عدالةَ الصحابةِ الكرام أساسٌ مهمٌّ للإسلام، إنّه يؤمن بصدقهم وثقتهم، ويراهم أصدق مثالٍ وأروعَ نموذجٍ لتعاليم الإسلام وتربية

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٢٣.

الرسول عليه الصلاة والسلام، وأطيب ثمرة لصحبته ﷺ.

وإنّ فضلَ الصحابةِ لثابت عنده بالقطعيّة والتواتر، وبنصوص الكتاب وآياتِه وصحيحِ الأحاديث والروايات، بحيث لا يتطرّقُ إليه شكٌّ بأيِّ رواية تاريخية، أو حديثٍ غريب شاذٍّ، إنّه يقول:

«وإذا كان كذلك ما علم بالكتاب والسنة والنقل المتواتر من محاسن الصحابة وفضائلهم، لا يجوزُ أن يدفعَ بنقولٍ بعضُها منقطع، وبعضها محرَّف، وبعضها لا يقدح فيما علم، فإنّ اليقينَ لا يزول بالشكّ، **ونحن قد تيقنّا ما دلَّ عليه** الكتاب والسنة وإجماعُ السلفِ قبلَنا، وما يصدقُ ذلك من المنقولات المتواترة. **عن أدلة العقل** من أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم أفضلُ الخلقِ بعد الأنبياء، فلا يقدحُ في هذا أمور مشكوك فيها، فكيف إذا عُلِمَ بطلانُها»[(١)].

الصحابة الكرام ليسوا معصومين عن الخطأ:

إنّه يعتقِدُ أنَّ الصحابة الكرام لم يكونوا معصومين عن الخطأ كالرسول ﷺ، كأنْ يستحيلَ صدورُ الذنوب منهم، ولكنّه يعتقِدُ أنّهم كانوا أعدلَ الأمة وأتقاها، وأصدق الناس وأشدهم أمانةً، فإنْ صدرتْ منهم أخطاء أو ذنوب فقد تبعها حسنات وأعمال ترضي الله ورسوله ﷺ، كفّرت عنهم سيئاتهم، وعلى كلٍّ فإنَّ كفّةَ حسناتِهم وأعمالِهم الصالحة راجحةٌ على تقصيراتهم وأخطائهم، يقول: «وقد قدّمنا أنا لا ندعي عصمةً في أحدٍ بعد رسولِ الله ﷺ من الذّنبِ، فضلاً عن الخطأ في الاجتهاد، وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ـ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٢٠٩.

ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]»[1].

الصحابة الكرام لا نظير لهم في التاريخ:

إنّه يصرِّحُ بأنَّه ليس هناك جيلٌ في التاريخ البشري من حيث المجموع أجملَ سيرةً وأروعَ سلوكاً من الصحابة الكرام رضي الله عنهم عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، على رغم جميع الزَّلاتِ والتقصيرات، التي هي من خواصّ البشرِ، فإن وجد في حياتهم آثار من الأخطاء والزلاّت، فمثلها كمثل الثوب الأبيض، يخالِطُه شيءٌ من السواد في بعضِ أجزائِه، والذنبُ في الحقيقة يرجِعُ إلى أولئك المنتقدين، الذين يدرِكُونَ النقط السوداء في الثوب الأبيض، ولا يدركون بياضَه.

أمّا حياة الطوائف الأخرى، فكلّها سوداء، ويخالِطُها نقط بيضاء في بعض جوانبها، إنّه يقول:

«وخيـارُ هذه الأمةِ هم الصحابـةُ، فلم يكنْ في الأمّةِ أعظمُ اجتماعاً على الهدى ودين الحق، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم، وكلّ ما يذكرُ عنهم مما فيه نقص، فهذا إذا قيسَ إلى ما يوجَدُ في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير، وإذا قيسَ ما يوجَدُ في الأمة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثير.

وإنما يغلَطُ من يغلَطُ أنه ينظر إلى السواد القليلِ في الثوبِ الأبيضِ، ولا ينظرُ إلى الثوب الأسودِ الذي فيه بياضٌ، وهذا من الجهل والظلم، بل يوزَنُ هؤلاء بنظرائهم، فيظهر الفضل والرجحان.

وأمّا ما يقترِحُه كلُّ أحدٍ في نفسه، مما لم يخلق، فهذا لا اعتبارَ به، فهذا يقترح معصوماً من الأئمة، وهذا يقترح ما هو كالمعصوم، وإنْ لم يسمِّه معصوماً، فيقترح في العالِم، والشيخِ، والأميرِ، والملِكِ، ونحـوِ ذلك مع كثرة علمه، ودينه، ومحاسنه، وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير، يقترح مع ذلك ألاّ يكون قد خفيَ عليه شيءٌ، ولا يخطىءَ في مسألةٍ، وأن يخرجَ من حدِّ البشريةِ، فلا

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٢٤٢.

يغضب، بل كثيرٌ من هؤلاء يقترحُ فيهم ما لا يقترح في الأولياء»[1].

ويشدد ابن تيميّة على نقطة مهمّة، وهي أنَّ من يكونُ مطلعاً على التاريخ، وتكونُ قد مرّتْ عليه أحوالُ أممٍ وشعوبٍ ومللٍ مختلفةٍ، وتجاربُ جماعاتٍ بشريّة متعدّدة يتقينُ أنّه لا جماعةَ أكثر اتحاداً واتباعاً للحق، وأبعد عن الفرقة والفتن، وأشد نفوراً من الأنانية وحب الدنيا من جماعة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، يقول:

«فمنِ استقرأَ أخبارَ العالَمِ في جميع الفِرَقِ تبيّنَ له أنّه لم يكنْ قطُّ طائفة أعظم اتفاقاً على الهدَىَ والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين هم خيرُ الخلقِ بشهادةِ الله لهم بذلك، إذ يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]»[2].

كلُّ خير يوجَدُ لدى المسلمين إنّما هو بفضلِ الصّحابةِ الكرام:

وقد أصابَ الإمامُ (ابن تيميّة) حينما قال: كلُّ خيرٍ فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإسلام، والإيمان، والقرآن، والعلم، والمعرفة، والعبادات، وعوامل الخير والتوفيق إنّما هو ببركةِ ما قامَ به الصحابةُ رضوانُ الله عليهم من الجهاد، والعمل، والإخلاص، وعلوّ الهمة، ونتيجة لتضحياتهم، وإيثارهم، وقدسيتهم، يقول في غاية من الحماس:

«وأمّا الخلفاءُ والصحابةُ فكلُّ خيرٍ فيه المسلمونَ إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف، والعبادات ودخول الجنة، والنجاة من النار، وانتصارهم على الكفار، وعلو كلمة الله، فإنما هو ببركةِ ما فعلَه الصحابةُ، الذين بلّغوا الدين، وجاهدوا في سبيل الله، وكلُّ مؤمنٍ آمنْ باللهِ فللصحابةِ رضي الله عنهم عليه فضلٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ خيرٍ فيه الشيعةُ وغيرهم فهو ببركةِ الصحابةِ، وخير

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٢٤٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٤١.

الصحابة تبعٌ لخير الخلفاء الراشدين، فهم كانوا أقومَ بكلِّ خيرٍ في الدين والدنيا من سائرِ الصحابة»[1].

خلافة سيدنا أبي بكر الصديق دليلٌ على النبوّةِ والصّدقِ:

وقد صدق الإمامُ (ابن تيمية) عندما قال: إنّ خلافةَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه دليلٌ على كمال النبوّة، وشهادة على صدق النبوّة أيضاً، فقد كانت طبيعتُه ﷺ طبيعةَ النبوّة، لا طبيعة السياسة، ولا شبه بينه وبين ملوك العالم وسلاطينه، الذين يختارونَ أولادَهم أو أفرادَ أُسَرهم خلفاءَهم وأولياء عهدهم، فلو كانت عندَه شائبةٌ من الملوكية أو إيثارٌ لقرابةٍ لوجد هناك أفراد كثيرون من بني هاشم - عدا علي بن أبي طالب وعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما - يستخلِفُهم رسولُ الله ﷺ وأسس ملوكية خاصة بأسرته، وحصرَ تلك الغلبة والعزة التي أكرمه الله بها في قبيلته وأسرته، إنه يقول:

«ثم خلافةُ أبي بكر وعمر هي من كمالِ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ ورسالتِه، ومما يظهرُ أنّه رسولٌ حقٌّ، ليس ملكاً من الملوك، فإنّ عادةَ الملوكِ إيثارُ أقاربهم والموالاةُ بالولايات أكثر من غيرهم، وكان ذلك مما يقيمون به مُلْكَهم.

وكذلك ملوك الطوائف، كبني بويه، وبني سلجوق، وسائر الملوك بالشرق والغرب والشام واليمن وغير ذلك.

وهكذا ملوكُ الكفّارِ من أهل الكتاب والمشركين كما يوجد في ملوك الفرنج وغيرهم، وكما يوجد في آل جنكيزخان بأنّ الملوك تبقى في أقارب الملك. ويقولون: هذا من العظم، وهذا ليس من العظم، أي من أقاربِ الملك.

وإذا كان كذلك فتوليةُ أبي بكر وعمر بعد النبيِّ ﷺ دون عمه العباس وبني عمه علي، وعقيل، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وغيرهم، ودون سائرِ بني عبد مناف، كعثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد بن العاص، وغيرِهم من بني عبد مناف، الذين

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٢٤٥.

كانوا أجلَّ قريشٍ قَدْراً، وأقرب نسباً إلى النبيِّ ﷺ، من أعظم الأدلّةِ على أنَّ محمداً عبدُ اللهِ ورسولُه، وأنّه ليس ملكاً، حيث لم يقدّم في خلافتِه أحداً لا بقرب نسب منه، ولا بشرف بيته، بل إنّما قدم بالإيمان والتقوى.

ودلَّ ذلك على أنَّ محمّداً ﷺ وأمتَه من بعدِه إنما يعبدون الله، ويطيعون أمرَه، لا يريدونَ ما يريدُه غيرُهم من العلوِّ في الأرضِ، ولا يريدون أيضاً ما أبيحَ لبعضِ الأنبياء من المُلكِ، فإنّ الله خيَّر محمداً ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً، وبين أن يكونَ نبيّاً، فاختارَ أن يكون عبداً رسولاً.

وتولية أبي بكر وعمر بعدَه من تمام ذلك، فإنّه لو أقامَ أحداً من أهل بيته لكانت شبهة لمن يظنُّ أنّه جمعَ المال لورثته»[1].

عصبية النسب الجاهلية:

الواقع أنَّ الفِرَقَ التي تدّعي وصايةَ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي لا تستسيغُ أن ينالَ الخلافةَ أحدٌ آخر بالرغم من وجودِ ابن عمّه الحقيقي وصهره إنما يتغلّب عليها لونُ الجاهلية بأوسع معناه، وهي تعيشُ في عصبيّةٍ جاهليةٍ للنسب والقرابة، وتتقاصرُ عن إدارك أنَّ المناصبَ والمنازلَ لا تعطَى على أساس النسب والقرابة، بل على أساسِ الكفاءةِ والفضائلِ والجدارةِ التي توجد في الإنسان.

وكانت الأممُ كلُّها سواء في الهند أو العرب أو الفرس تصطبغُ بهذه الصبغة الخاصة، ولذلك فإنّ الذين حكموا بقطعية أنَّ الخليفةَ لا بدَّ أن يكون هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما فعلوا ذلك بحكم عادتهم القومية، وطبائعهم الجاهلية، من غير أن يدرِكُوا مكانة الأنبياءِ عليهم السلام وطبيعتَهم وسماحتَهم وهمتَهم العالية، التي يعيشون فيها، يقول الإمام ابن تيميّة:

«كلامُ الرّافضةِ من جنسِ كلام المشركين الجاهلّية يتعصّبون للنسب والآباء لا للدين، ويعيبون الإنسان بما لا ينقِصُ إيمانه وتقواه، وكلّ هذا من فعل الجاهلية»[2].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٢٥ـ١٢٦.

(٢) منهاج السنة: ٣/ ٢٨٧.

انتساب الرافضةِ إلى ولد الحسين ومدحهم لهم مصيبة عليهم:

يرى ابن تيميّة أنّ الرافضةَ أصدقاء حمقى لأهل البيت، فإنّ مبالغتهم في أمرِ أهلِ البيتِ وغلوّهم، ونسبة الأحداثِ والرواياتِ المزوّرة إليهم تنالُ من سمعتِهم، وتحطُّ من شأنِهم، يقول:

«مِنَ المصائب التي ابتُلِيَ بها ولد الحسين انتسابُ الرافضةِ إليهم وتعظيمهم، ومدحِهم لهم، فإنّهم يمدحونهم بما ليس بمدح، ويدَّعون لهم دعاوى لا حجةَ لها، ويذكرون من الكلامِ ما لو لم يعرف فضلهم من كلامِ غيرِ الرّافضةِ لكان ما تذكرُه الرافضةُ بالقدحِ أشبهُ منه بالمدح»[1].

ويقول في موضع آخر:

«ولكنَّ القومَ جهّالٌ بحقيقةِ المناقبِ والمثالبِ والطرقِ التي يُعْلَمُ بها ذلك»[2].

نتائج العصبيّة:

استطاع مؤلِّفُ (منهاج الكرامة) أن يجمعَ قَدْراً كبيراً من الآيات والأحاديث والروايات، كدليلٍ على إمامةِ سيّدنا علي رضي الله عنه، وفي مناقب أئمة أهل البيت رضي الله عنهم، إنّ نظرةً عابرةً في هذه الآيات والأحاديث والروايات تبيّنُ مدى أضرارِ العصبيّة التي تنحرفُ بالمرءِ عن الجادّةِ الصحيحة إلى ضلالٍ وجهلٍ، إنَّ معظمَ هذه الروايات إمّا لا علاقةَ لها بأهلِ البيتِ بتاتاً، أو أنّها تتناقَضُ مع المعاني التي يريدُ أن يثبتَها منها، كما أنَّ أكثرَها ضعيفة وموضوعة، وقد وصفها ابن تيميّة بأنها «الروايات المسيَّبة التي لا زمامَ لها ولا خطامَ».

وقد بلغَ مؤلِّف (منهاج الكرامة) في ذلك من الوقاحةِ والجُرأةِ مبلغاً لا يتصوّره العقل، فقد نسب كثيراً من هذه الروايات إلى (الصحيحين) وكثيراً منها

---

(١) منهاج السنة: ٢/ ١٢٥.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٢٦.

إلى (مسند) أحمد بن حنبل، وجاء ابن تيميّة فكشفَ عنها القناع، وأثبتَ أنّها لا توجَدُ لا في (الصحيحين) ولا في (المسند)، وأثبتَ أنَّ بعضاً منها موضوعة لا توجد في أية مجموعة من الأحاديث ولا في دواوين السنة.

وبما أنَّ هذه الفرقة أجهلُ الناسِ بالكتاب والسنّةِ، فإنّها لا تستطيعُ أن تفهم مصطلحات عادية، فلا تتردد أبداً في الكذب والتزوير في بعض الأحيان.

أما بخصوص الآيات، فقد جاءَ المؤلِّفُ في تفسيرها بما لا يقل عن الملح الخرافيّةِ، وما إن يقرأ أحدٌ تفسيرَه للآيات إلا ويتذكّر الملحة المعروفة التي تدور حول: ساغبٍ سُئِل عن اثنين كم يكون بعد الضرب في اثنين، فقال: أربعةُ أرغفةٍ، وقد أدرجَ المؤلِّفُ في كتابه أربعينَ آيةً، يعتقدُ أنّها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه، نذكرُ منها بعضاً:

١ـ آية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. يذكر المؤلِّف في تفسيرَ هذه الآية حديثاً لأبي نُعيم يفيدُ أنّها نزلتْ بعد خطبة (غدير خُمّ) وقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر على إكمالِ الدِّين، وإتمام النعمةِ، ورضا الرب برسالتي وبالولاية لعليٍّ من بعدي».

يثبتُ ابنُ تيميّة على طريقة المحدّثين أنَّ هذا موضوعٌ بإجماع أهل الفن، ولا يوجَدُ في أيِّ كتابٍ من كتب الحديث الموثوقِ بها.

ثم يثبتُ عن طريق التاريخ والتفسير، ويقول: «إنّ كتبَ الصحاح والمسانيد والتفسير تؤكّد أنَّ هذه الآية إنّما نزلت في عرفة، وهو واقف بها، وقال رجلٌ من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين! آيةٌ في كتابكم تقرؤونها لو علينا ـ معشر اليهود ـ نزلت لاتخذنا ذلك عيداً، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أية آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: إنّي لأعلمُ أي يوم نزلت، وفي أيِّ مكان، نزلت يومَ عرفة بعرفة، ورسولُ الله ﷺ واقفٌ بعرفة، يقول ابن تيميّة: وهذا مستفيضٌ من وجوهٍ أخرى، وهو منقول في كتب المسلمين الصحاح والمسانيد والجوامع والسير والتفسير وغير ذلك، وهذا اليوم كان قبلَ يوم غدير

خم بتسعة أيام، فإنّه كان يومَ الجمعة تاسع ذي الحجة، فكيفَ يقال: إنّها نزلت يومَ الغدير».

وأما ما جاء في هذه الرواية من هذا اللفظ وهو قوله: «اللهم والِ مَنْ والاه، وعادِ من عاداه، وانصرْ من نصرَه، واخذل من خذلَه» فكذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث» ويقولُ: إنّ دعاءَ النبي ﷺ مجابٌ، وهذا الدعاء ليس بمجاب، فعلمَ أنّه ليس من دعاء النبي ﷺ.

٢ ـ وقال مؤلف (منهاج الكرامة) إنّ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠] علي وفاطمة بينهما برزخ لا يبغيان النبي ﷺ، وأوّلَ (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين.

يقول ابن تيميّة رداً على هذا الكلام:

«إنّ هذا وأمثاله يقولُ من لا يعقل ما يقول، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن، بل هو شرٌّ من كثير منه».

وقد ذكر بعد ذلك ستة وجوه تكذّبُ هذا الرأي:

«**أحدُها**: أنّ هذا في سورة الرحمن، وهي مكيّةٌ بإجماعِ المسلمين، والحسن والحسين إنما ولدا في المدينة.

والثاني: أن الله ذكر أنّه مرَج البحرين هذا في آية أخرى فقال في الفرقان: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]. فلو أراد ذلك علياً وفاطمة لكان ذلك ذماً لأحدهما بإجماع أهل السنة والشيعة.

والثالث: أنّه لو أريدَ بذلك علي وفاطمة، لكان البرزخُ هو النبيّ ﷺ بزعمهم أو غيره هو المانع لأحدهما أن يبغي على الآخر وهذا بالذم أشبه منه بالمدح»[1].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٦٧، ٦٨.

وهكذا فإنّ هذا الجزء من كتاب (منهاج الكرامة) مليٌ بالغرائب والعجائب، وقد تصدّى ابن تيميّة للردّ عليه في ضوء الحديث والفقه والتاريخ والنقد، بما يتبين به مدى ذكائه، ووفرة علمه، وغزارة مادته، وقوّة مناظرته، إنّه يقول وهو ينتقد دلائل المؤلف: (فضل علي وولايته لله وعلو منزلته عند الله معلومٌ عند الناس ـ ولله الحمد ـ من طرق ثابتةٍ أفادتنا العلمَ اليقينيَّ لا يُحتاجُ معها إلى كذب، ولا إلى ما لا يُعلم صدقه»[1].

والجزء المهمّ الآخر من كتاب (ابن تيميّة) هو ما يبحث فيه عن (منهاج الكرامة) ويردّ على المطاعن التي يتناول بها الصحابة الكرام رضي الله عنهم بوجه عام، ويطعن بها في الشيخين بوجه خاص، وفي أبي بكر الصديق رضي الله عنه بوجه أخص، وهذه المطاعن والإيرادات على شخصية الصحابة والشيخين مأخوذةٌ من القرآن أيضاً كما يزعم المؤلِّفِ الشيعيُّ، ومن الأحاديث وكتب السير والتاريخ أيضاً، وهي دليلٌ على أنَّ العداوةَ لا تتركُ أيَّ إنسانٍ مهما كان عاقلاً ومتعلّماً إلا وتعميه، ونوردُ فيما يلي نموذجين لهذه المطاعن:

«إنّ الآية الشهيرةَ في القرآنِ التي تعتبَرُ أكبرُ دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنزلته السامية، الي يتفرّدُ بها لا يعادِلُه فيها أيّ فرد من أفراد الأمة، وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول صاحب (منهاج الكرامة): إنّه لا فضلَ له في الغار لجواز أن يستصحبه حذراً منه، لئلا يفشي سرّه، وأيضاً فإنّ الآية تدلُّ على نقيضِه لقوله: (لا تحزن) فإنّه يدلُّ على خوفِه وقلّة صبرِه، وعدم يقينِه بالله تعالى، وعدم رضاه بمساواته النبي ﷺ، وبقضاء الله وقدره، . . . وأيضاً فإنّ القرآنَ حيث ذكرَ إنزالَ السكينةِ على رسول الله ﷺ أشركَ معه المؤمنينَ إلا في هذا الموضع، ولا نقيضَ أعظم منه»[2].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٧٦.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٣٩.

وقد أجابَ عنه ابن تيميّة أولاً بإثبات المناقب والفضائل الكثيرة التي جمعها الله تعالى في هذه الآية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبأنَّ هذه المعية التي أكرمَ الله بها أبا بكر الصديق رضي الله عنه إنّما كانت خاصّةً به:

«وأما قول ابن المطهر الحلي: «لجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يظهر أمره» يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ يثِقُ به، ولا كان مطمئناً من قِبلِه (فمعلوم أنَّ أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يصحبه في مثل هذا السفر، الذي يعاديه فيه الملأ الذين هو بين أظهرهم، ويطلبون قتلَه، وأولياؤه هناك، لا يستطيعون نصره، فكيف يصحب واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره، وقد أظهر له هذا حزنه، وهو مع ذلك عدو له في الباطن، والمصحوب يعتقِدُ أنه وليه وهذا لا يفعله إلا أحمق الناس وأجهلهم، فقبحَ الله من نسبَ رسولَه ﷺ الذي هو أكمل الخلق عقلاً وعلماً وخبرة إلى مثل هذه الجهالةِ والغباوةِ»[1].

ويقول ابن تيميّة:

«ولقد بلغني عن ملك المغول (خربنداه) الذي صَنَّفَ له هذا الرافضيُّ كتابه هذا في الإمامة أنَّ الرافضةَ لما صارتْ تقولُ له مثل هذا الكلام: إنّ أبا بكر كان يبغض النبيَّ ﷺ وكان عدوّه، ويقولون مع هذا: إنّه صحبَه في سفر الهجرة، الذي هو أعظمُ الأسفارِ خوفاً قال كلمةَ تلزَمُ عن قولهم الخبيث (وقد برّأ اللهُ رسولَه منها): كان قليلَ العقلِ.

ولا ريبَ أنَّ من فعل ما قالته الرافضة فهو قليل العقل، وقد برأ الله رسولَه وصدّيقه من كذبهم»[2].

ثم تناول ابنُ تيميّة كتاب (منهاج الكرامة) جزءاً جزءاً، ردَّ عليه بتفصيل، وذكرَ المواضعَ التي جاء فيها ذِكرُ الحزن والخوف في القرآن الكريم، وأنَّ الحزنَ والخوفَ إنّما ثبتا لأولي العزم من الرُّسلِ والأنبياءِ، وكبارِ الأولياء والصلحاء،

(١) منهاج السنة: ٤/ ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٥٦.

وأفرادِ أهل البيت.

أما قول الحلي: «إنّ القرآن حيثُ ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشركَ معه المؤمنين» يوهمُ أنّه ذكر ذلك في مواضعَ متعددة، وليس كذلك، بل لم يذكر ذلك إلا في قِصّةِ حنين كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦][(١)]

وقد ذكرَ إنزالَ السكينة على المؤمنين وحدَهم في مواضعَ عديدة من القرآن، وتناول ذلك بالبحث والتفصيل.

والنموذج الثاني لهذا التعصب والجهل الأعمى لما جاء في كتب السير أنّ النبيَّ ﷺ عندما كان في العريشِ يومَ بدرٍ كان أبو بكر رضي الله عنه أنيسَه، يقول الحلّي:

«وأما كونه أنيسه في العريش يوم بدر، فلا فضلَ فيه، لأنَّ النبي ﷺ كان أنسه بالله مغنياً له عن كل أنيس، لكن لما عرف النبيّ ﷺ أنَّ أمره لأبي بكر بالقتال يؤدِّي إلى فسادِ الحالِ، حيث هرب عدة مرار في غزواته»[(٢)].

وقد حرّكت ابن تيمية هذه التهمة فثارت فيه حماسةُ الإيمان والصدق، وردَّ عليه بقوله: «الجواب أنْ يقالَ لهذا المفتري الكذّاب ما ذكرتَه مِنْ أظهرِ الباطلِ بوجوهٍ:

أحدها: أنه قوله: «هرب عدة مرار في غزواته» يقال له: هذا الكلام يدلُّ على أنَّ قائله من أجهلِ الناسِ بمغازي رسول الله ﷺ وأحواله، والجهلُ بذلك غيرُ منكرٍ من الرافضةِ، فإنّهم من أجهلِ النّاسِ بأحوال الرسول ﷺ، وأعظمهم تصديقاً بالكذب فيها، وتكذيباً بالصدق منها، وذلك أنّ غزوةَ بدرٍ هي أولى مغازي القتال، لم يكن قبلَها لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر رضي الله عنه غزاةٌ مع الكفار أصلاً،

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٨٤.

وغزواتُ القتالِ التي قاتل فيها النبيُّ ﷺ تسع غزوات. . . وأما الغزوات التي لم يقاتِلْ فهي نحو بضع عشرة.

وأما السرايا فمنها ما كان فيه قتال، ومنها ما لم يكن فيه قتال، وبكل حال، فبدرٌ أول مغازي القتال باتفاقِ النّاسِ. . وليس قبلَها غزوةٌ ولا سرية كان فيها قتال، إلا قصة (ابن الحضرمي) ولم يكن فيها أبو بكر، فكيف يقال: إنّه هربَ قبل ذلك عدة مرات في مغازيه.

الثاني: أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يهربْ قط، حتى يومَ أحد لم ينهزم، لا هو ولا عمر. . . فمن أثبتَ ذلك عليهما هو المدعي لذلك، فلا بدَّ من إثباتِ ذلك بنقلٍ يصدقِ.

الثالث: أنه لو كان في الجبن بهذه الحالة لم يخصّه النبي ﷺ دون أصحابه بأن يكون معه في العريـش، بل لا يجوزُ اسـتصحابُ مثل هذا في الغزو، فـإنّه لا ينبغي للإمامِ أن يقدّمه على سائر أصحابِه، ويجعله معه في عريشه»[١].

تناقض الشيعة في سيدنا علي رضي الله عنه:

يتحدّثُ ابن تيمية عن سيدنا علي رضي الله عنه، ويشبه الرافضةَ بالنصارى، فكما أنَّ النصارى اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، واتخذوا المسيح ابنَ اللهِ، ثم صوّروا حادثَ صلبه، بحيث إنه إنما يبدو إنساناً عاجزاً، لا يملك من أمره شيئاً، ويستهدِفُ لكلِّ إهانةٍ وذلٍ، واستهزاءٍ وسخريةٍ.

كذلك الرافضة الذين خلعوا على سيدنا علي رضي الله عنه صفات تثبِتُ أنَّ مكانتَه أرفع من مكانة النبيِّ ﷺ، ولولاه لم يزدهرِ الإسلام، ولم ينتشر في الآفاق، ولم ينهزمِ الكفرُ، ثم أثبتوا عجزه وضعفَه بإزاء الخلفاء الثلاثة، إلى أنه لم يستطع أن يستنكِرَ ما قد كان يراه خلافاً لضميره وعقيدته، ويحتمِلُ كلَّ إهانةٍ وذلة لنفسه ولأهل البيت من غير أن يحارب ذلك، أو يدافعَ عنه، فهذا تناقض صريحٌ، يعرفه كلُّ ذي عقل.

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٢٨٤ـ ٢٨٥.

يقول ابن تيمية:

«وهؤلاء الرافضة يجمعون بين النقيضين لفرط جهلهم وظلمهم، يجعلون علياً أكملَ الناس قدرةً وشجاعةً، حتى يجعلوه هو الذي أقامَ دين الرسول ﷺ، وأن الرسول ﷺ كان محتاجاً إليه، ويقولون مثل هذا الكفرَ، إذ يجعلونَه شريكاً لله في إقامة دين محمد ﷺ، ثم يصفونه بغايةِ العجزِ، والضعفِ، والجزعِ، والتقية، بعد ظهور الإسلام وقوته، ودخول الناس فيه.

ومن المعلوم قطعاً أنَّ الناسَ بعد دخولهم في دين الإسلام أتبعُ للحقِّ منهم قبل دخولهم فيه، فمن كان مشارِكاً لله في إقامة دين محمد ﷺ حتى قهر الكفار، وأسلم الناس، كيف لا يفعلُ هذا في قهر طائفة بغوا عليه، هم أقل من الكفار الموجودين عند بعثة الرسول ﷺ، وأقل منهم شوكة، وأقرب إلى الحقِّ منهم»[1].

مبحث الإمامة:

تناول ابنُ تيميّة مبحثَ الإمامةِ بغايةٍ من التفصيل، وأنكرَ بقوّةٍ ما يقوله الإماميّةُ في تعريف معنى الإمامة، واعتبارِها ركناً من أركان الدين، وردَّ على جميع الدلائل التي يستدلّون بها على إثباتِ الإمامة عقلاً ونقلاً، ولا سيّما عقيدة الإمام الغائب، فقد استهزأ بها، وأثبتَ أنَّ هذه العقيدة لا تثمِرُ سوى الفساد، والخلاف، والبطالة، والتعطل[2].

الشيعة لا تعتني بالكتاب والسنّة:

يقول ابن تيميّة: «والرافضةُ لا تعتني بحفظ القرآن، ومعرفة معانيه، وتفسيره، وطلب الأدلّةِ الدالّةِ على معانيه، ولا تعتني بآثار الصحابة والتابعين، حتى تعرِفَ مآخذهم ومسالكهم، بل عمدتها آثارٌ تنقَلُ عن بعضِ أهل البيت، فيها

---

(١) منهاج السنة: ٤/٥٦.

(٢) المرجع السابق: ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ [انظر نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية للدكتور محمود صبحي. ط. دار المعارف بمصر (الناشر)].

صدق وكذب»[1].

تعطيل الشيعة المساجد ورفضهم الجمعة والجماعة:

ويقول: «وكذلك الرافضةُ، غلوا في الرسل، بل في الأئمة، حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله، فتركوا عبادةَ الله وحده لا شريك له، التي أمرهم بها الرسل، فتجدهم يعطّلون المساجدَ، التي أمرَ الله أن ترفع ويذكَرَ فيها اسمُه، فلا يصلّون فيها جمعة ولا جماعة، وليس لها عندهم كبير حرمةٍ، وإن صلّوا فيها صلّوا فيها وحداناً، ويعظِّمون المشاهد المبنية على القبور، فيعكفون عليها مشابهةً للمشركين، ويحجون إليها كما يُحَجُّ إلى البيت العتيق»[2].

متأخرو الشيعة أتباعٌ للمعتزلة:

ويقول شيخ الإسلام: «وهم في دينهم لهم عقليات وشرعيات، فالعقليّاتُ متأخروهم فيها أتباعُ المعتزلة، إلا من تفلسفَ منهم، فيكون إمّا فيلسوفاً، وإما ممتزجاً من فلسفة واعتزال، ويضمُّ إلى ذلك الرفضَ، مثل مصنف هذا الكتاب»[3].

فإن مؤلف كتاب (منهاج الكرامة) قد أثار في هذا الموضوع بحوثاً للعقائد والكلام، يتجلّى فيها لونُ الاعتزالِ والفلسفةِ بوضوح.

وقد ردَّ عليها جميعاً ابنُ تيميّة بغاية من التفصيل، ويتضمّنُ كلامُه هذا بحوثاً فلسفية وكلامية عميقة، وبما أنَّ شيخَ الإسلام غوّاصٌ في بحور المعقول والمنقول كليهما، تناول الموضوع كعادته بشرح وافٍ وإيضاح كافٍ[4]، ولم يغادِرْ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وتوصّلَ إلى نتيجةٍ أنَّ اطلاع هذه الفرقةِ على العلوم العقليّة عابرٌ سطحيٌّ، حتى إنّ علماءهم لا يعدون تلاميذ الابتدائية في هذا العلم.

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٤٠.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٣١.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤٠.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٠، ١٢٩.

التاريخ الماضي:

لقد أشار ابن تيميّة في مواضعَ متعددةٍ من مؤلفاته إلى أنَّ الشيعةَ في كلِّ دورٍ من أدوار التاريخ «يوالون أعداءَ الدين، الذين يعرف كلُّ أحدٍ معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين، وليسَ لهم سعيٌ إلا في هدم الإسلام، ونقضِ عراه، وإفساد قواعده»، حتى اضطر أخيراً إلى أن يصرّحَ فيقول: «فأيامهم في الإسلام كلُّها سودٌ»[1].

أهل السنة على طريق عادل:

يعتقِدُ ابنُ تيميّة أنَّ أهل السنَّةِ وحدَهم الذين يأخذون بالقصد والعدل في طريقهم من بين جميع فرق المسلمين، وهم الذين يُعتبَرونَ بمعزلٍ عن كل إفراطٍ وتفريط، لا تعارُضَ عندهم بين حُبِّ أهل البيت، وتعظيمِ الصحابة الكرام رضي الله عنهم، إنّهم يجمعون بين هاتين النعمتين، وكلتا الحسنيين، وذلك هو الإسلامُ الصحيحُ، إنّه يقول:

«وأما أهلُ السنّةِ فيتولون جميعَ المؤمنين، ويتكلّمون بعلم وعدل، ليسوا من أهل الجهل، ولا من أهل الأهواء، ويتبرَّؤون من طريقةِ الروافض والنواصب جميعاً، ويتولون السابقين الأولين كلهم، ويعرفون قدرَ الصحابةِ وفضلَهم ومناقبَهم، ويرعونَ حقوقَ أهلِ البيتِ التي شرعها الله لهم»[2].

* * *

(١) منهاج السنة: ٤/ ١١١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٦٥.

الفصل الرّابع

تجديد علوم الشريعة
وتنشيط الفكر الإسلامي

أ - تجديد علوم الشريعة

العصر الذي عاش فيه ابن تيمية:

كانت العلوم الشرعيّة والدينيّة قد توسّعَ نطاقُها في العصر الذي وُلِدَ فيه ابنُ تيميّة، سيّما علوم التفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، فقد تكوَّنت لها مكتبةٌ واسعة، إذا اطلع أحد على علم من هذه العلوم، وعثر على الذخائر العلمية الموجودة آنذاك ـ ولو بإجمالٍ ـ كان يعتبر ذلك مأثرة علمية كبرى لرجل متوسط.

أما عصرُ ابن تيميّة، فقد امتاز بوجود عدد عظيم من علماء ومدرسين، كان كلٌّ منهم مطلعاً على هذه المكتبة الواسعة، كما وجد من بينهم عددٌ أتقنَ جزءاً كبيراً من هذه المكتبة، وحفظها في الصدور، نظراً إلى ما كان يتمتّعُ به من قوة الذاكرة، والاشتغال بالعلم، وكثرة المطالعة والدراسة والتدريس، وكان يتمكن من إعادة ما كان يحفظه من العلم والاستفادة منه بدون تكلف، كلّما ألجأتهم الضرورة إلى المناظرة والتدريس، فمثلاً (العلامة كمال الدين بن الزملكاني) (تقي الدين علي ابن السبكي) (شمس الدين الذهبي) (أبو الحجاج المزي) كلُّهم نماذج لذلك.

إنّ دراسة كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) تفيدُ تقديرَ المدى الذي بلغَ إليه هؤلاء العلماء من استحضار العلم والتبحّر فيه، وكثرة المحفوظات، والتفنن في العلم، وقد كان عديدٌ من رجالِ العلم في ذلك العصر، ممن استحقوا أن يُسَمَّوْا دائرةَ معارف العلوم الشرعية بكلِّ جدارة.

إن هؤلاء الرجال، وإن كانوا متوسّعين في العلم والمعلومات، إلا أنَّ النقلَ كان غالباً فيهم على العقل والتفكير، فكانت الحاجة ماسةً إلى رجال لهم نظرة ناقدة، وخبرة تامة بهذه الذخائر العلمية كلها، يحملون قوّة الموازنة بين آراء المتقدمين وأفكارهم، كما يتفرّدون بآرائهم ونظرياتهم الخاصة في المسائل والمشكلات.

لقد كان المتأخرون من العلماء في ذلك العصر يكتفون بالتبحر في التراث العلمي الذي كان قد خلّفه المتقدّمون، والاشتغال بشرحه وتوضيحه واختصاره وتلخيصه، فكان العمل العلمي راكداً، لم يكن ينال من زيادة قيمة، ولا كانت تتوسع آفاقه، وكانت المكتبة العلمية تشكو فقدان الكتب التي تتسم بالأصالة والاجتهاد.

أما الكتب التي كانت تعتبَرُ منعدمةَ النظير في ذلك العصر فلم تكن لها ميزةٌ سوى أنَّ مؤلفيها كانوا قد جمعوا فيها المواد المبعثرة، ورتبوا المعلومات المتفرقة السابقة بتنسيق جيد، أو أنّها كانت شرحاً جيداً لمتن فقهي سابق.

خصائص ابن تيميّة العلميّة والتأليفيّة:

تبحّرَ ابنُ تيميّة ـ بفضل ذكائه، وقوة ذاكرتِه الموهوبة ـ في هذه الذخائر العلمية بأكملها، واستساغها فكرياً، واستفادَ منها في مؤلفاته استفادةً كاملة، إلا أن نفسَه الطموح الثائرة، وعقلَه النادِرَ الكبير، وقلمَه السيّالَ البليغ، لم يكن كلُّ ذلك يقنِعُه بأن يكتفيَ بالنقل والروايةِ والشرحِ والتلخيصِ أو الاختبارِ، فما كاد يفارِقُه علمُه العميق بكتاب الله تعالى، واطّلاعه الواسع الصحيح على مقاصدِ الشريعةِ، وملكته الراسخة في أصولِ الفقهِ وأصولِ التشريعِ في أيِّ مرحلةٍ من مراحل تأليفه، وكلُّ موضوعٍ يريدُ أن يؤلِّفَ فيه ينفخ فيه روحاً جديدة بعلمه الناضج الأصيل، ولذلك لا تجدُ أيَّ كتاب من كتبه يخلو من حقائق علمية جديدة، وبحوث ناقدة، ومباحث أصولية جديدة، بل إنَّ مؤلفاته تشقُّ طريقاً جديداً لفهم الكتاب، وتفتحُ باباً جديداً إلى إدراك مقاصد الشريعة.

وقد سبق أن تناولنا كتابين ضخمين من كتبه بالنقد والتلخيص في تفصيلٍ، وهما (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) و(منهاج السنة) وله عدا هذين الكتابين عِدّةُ مؤلفاتٍ تشهَدُ لأفكاره، وآرائه الاجتهادية، وذكائه الخارق، وقوة نقده، وتهيّيءُ للعقولِ في كل عصرٍ غذاءً دسماً صالحاً من العلم والفكر، ويجد فيها أهلُ العلمِ في كلِّ زمانٍ بغيتَهم من المعلومات الجديدة، والدلائل الطريفة، والتحقيقات الحديثة، فمثلاً (كتاب النبوات) و(الرد على المنطقيين) و(اقتضاء الصراط المستقيم)[1]، ليست من المؤلفات العلمية القيمة ذات المستوى العالي والمتفردة في مواضيعها فحسب، بل إنّها كتبٌ تفتَحُ آفاق الفكر، وتعد العقول للتفكير، وتَعْرِضُ عليها مجالات جديدة للمسائل العلمية والقضايا الفكرية.

التفسير:

خصَّ ابن تيميّة التفسيرَ بتأليفه وتفكيره، كموضوعٍ مفضَّلٍ، وقد غلب عليه ذوقُ التفسيرِ إلى حدٍّ لا يخلو أيُّ كتابٍ من كتبه من موادّ التفسير، والاستدلال بالآيات، وشرحها وتفسيرها، إنّه لا يمرُّ بآيةٍ إلا ويتناولها بالشرح والتفسير، ولذلك فإنّ الذخائرَ التفسيريّة التي تركها تربو على ثلاثين مجلداً، كما يقول تلاميذه، ولا شكَّ فإنّها إذا جُمِعَتْ لتكوّنت منها ذخيرة تفسيريّة لها قيمتها واعتبارها، ولكانَ تفسيرُ ابن تيميّة من أجودِ التفاسيرِ وأجمعِها، لما قد رزقه الله تعالى من نعمةِ التعمُّقِ في الفكر والنظر وسلامةِ الذوق، والتبحُّرِ الكامل في الروايات والاستشهاد بها، وتطبيق الآيات على الحياة، والاطلاعِ على المجتمع الذي عاش فيه، وروح الدعوة، ودوافعِ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وحميّةِ الدين.

---

(١) إن هذا الكتاب وإنْ كان يدورُ حول عدم التمسك بتقاليد غير المسلمين وشعائرهم والامتناع عن الاشتراك في مناسباتهم وأعيادهم الدينية، إلا أنّ الكتاب يحتوي ـ كما هو المألوف من المؤلف ـ على مباحث وعلوم نفيسة، ويصلحُ أن يحتلَّ محلاً عالياً بين مؤلفات شيخ الإسلام، أصدرت إحدى طبعاته جمعية أنصار السنة في القاهرة.

ولو أنَّ تفسيرَه الكامل المتصل مفقودٌ، ولكنَّ تفسيرَه لسورٍ عديدة مطبوع موجود، وهو يكفي لتقديرِ خصائصِه التفسيرية، وقد صدر تفسير (سورة الإخلاص) و(تفسير المعوذتين) و(تفسير سورة النور) منذ زمن طويل في مصر، كما صدرت مجموعة من التفسير مأخوذة من كتبه المختلفة، منذ زمن قريب[1].

لقد عرفت صلتُه بالتفسير واشتغالُه به في حياته أيضاً، وكانت تعتبر ميزته العلمية، ولما نُوْدِيَ للصلاة عليه بعد وفاتِه سُمِّيَ بهذا الاسم (الصلاة على ترجمان القرآن)، وله رسالةٌ وجيزةٌ في (أصول التفسير) هي الأولى الخاصة بأصول التفسير فيما نعلم.

الحديث:

كان هذا الفن قد بلغَ ذروة الاتساع والكمال في القرنين السابع والثامن، بحيث لم تعد هناك حاجة إلى تأليفٍ أو شرحٍ للحديثِ، وابن تيمية وإن لم يكن له كتاب مستقل في فن الحديث وشرحه، إلا أنَّ مؤلفاته تحوي موادَّ غزيرة لأصول الحديث، وأسماء الرجال، والجرح والتعديل، ونقد الحديث، وفقه الحديث، حتى إذا جُمِعَتْ في كتاب مستقل، تكوّنت منها ذخيرة قيمة، وكانت تأليفاً ضخماً، وبالأخص فإنّ آراءه فيما يتصل بالأحاديث الموضوعة تبلغُ من الصراحة والتحقيق إلى حدٍّ يصعبُ العثورُ عليها في مكان آخر، والمواد التي نطلعُ عليها حول هذا الموضوع في كتابه (منهاج السنة) وما بحثه هو عن عشرات من الأحاديث المشهورة والمتداولة كلُّ ذلك ذخيرةٌ نادرةٌ قيّمةٌ.

أصول الفقه:

كان هذا الموضوع مما يرغب فيه ويتذوّقه، وقد حصلت له فيه ملكة راسخة ومكانة اجتهادية، ولذلك نرى أنَّ مؤلفاتِه كلَّها تحتوي على هذه المباحث الأصولية ولا سيّما كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) ومجموع فتاواه ينطويان على أكبر مقدار

---

(١) صدر هذا التفسير باسم (تفسير ابن تيمية) من المطبعة القيمة في بمباي.

من المباحث الأصولية، كما أنَّ له رسائل مستقلة في هذا الموضوع، كـ(رسالة القياس) و(منهاج الوصول إلى علم الأصول) وما إلى ذلك[١].

علم الكلام:

لو ذهبنا نحلِّلُ مؤلفات ابن تيمية لوجدنا علمَ الكلام والعقائد يشغَلُ نصف كتاباته أو ثلثيها، ورسائِلُه التي ألّفها في هذا الموضوع وعزاها إلى مدن أو أمكنة مختلفة كـ(شرح الأصفهانية) و(الرسالة الحموية) و(التدمرية) و(الواسطية) و(الكيلانية) و(البغدادية) و(الأزهرية)[٢] وما إلى ذلك خيرُ دليلٍ على معرفة أفكاره الأصيلة، وقوّة استدلالِه، وحميّته الدينية، ومرآةٍ لعلمه وذكائه.

الفقه:

أما فقهُ كلٍّ مذهبٍ فكان قد تناوله المدوِّنون في عصرِه بما لم يترك أيَّ مجالٍ للزيادة فيه، إلا أنَّ ابن تيميّة درسَ كثيراً من المسائل والأحكام في ضوء الكتاب والسنة، والإجماع، والقياس، وأصول الفقه، وقام بالاستنباط، والاجتهاد فيها، وحاول التوفيقَ بين الفقه والسنّةِ، وجعلَ الفروعَ والآراءَ الفقهيّةَ تابعةً للأحاديث الصحيحة، واجتهد في المسائل المستحدثة، والأحوال والمقتضيات الجديدة، واستنبطَ أحكامها من الكتاب والسنة، شأن الفقهاءِ والقضاةِ في كلِّ عصرٍ، الذين يجتهدون في المشكلات والمسائل المعاصرة، وقد كانت شروطُ الاجتهادِ تتوفّرُ فيه، كما يقول بعضُ أهلِ البصيرةِ من العلماءِ، وخلّفَ ذخيرةً واسعةً من فتاواه واختياراته، وهذه الفتاوى تحفظها أربعة مجلدات كبار، وهي ليست مجموعةً من المسائل والأحكام الفقهية فحسب، بل إنها ذخيرة قيمة من المباحث الأصولية والمسائل العلمية[٣].

---

(١) شارك أيضاً مع أبيه وجده في تأليف كتاب (المسودة في أصول الفقه). (الناشر)

(٢) سمى رسائله باسم المدينة التي ورد منها الاستفتاء بوجه عام.

(٣) صدرت مجموعة فتاوى شيخ الإسلام في أربعة مجلدات عام ١٣٢٦هـ في مصر، واهتمّ بطبعها الشيخ فرج الله الكردي، وهي تقع في ١٥٨٦ صفحة، وفي آخر المجلد الرابع منها ملحق باسم (الاختيارات العلمية)، وهو يحتوي على اختياراته وترجيحاته، =

تأثير ابن تيميّـة في القرون المتأخرة:

قـام ابن تيميّـة بتجديدِ علومِ الشـريعةِ إلى جانـب ما أن أنجـزَ من جلائل الأعمال العلميـة، التي كانت تتسـم بالسعةِ والعمقِ، وبـالامتزاجِ بين العقلِ والنقلِ، إنّه قضى على ذلك الجمود والاضمحلال اللذين كانا قد تسربا إلى الفكر الإسـلامي، وفتـح أبوابـاً جديـدة للفكـر، وخلّفَ وراءَه ذخائـرَ مـن العلـوم والمؤلفات، التي توسّعُ آفاق الذهن، وتنشِّطُ العقلَ، وتحرِّكُ القلب، والتي مثّلت دوراً رائعاً في إيجاد طبقة عاليـة من المؤلِّفين والمفكّرين، والدعاة والمصلحين، في كلِّ دور من أدوار التاريخ، ففي الحركة الفكرية والإصلاحية التي نشطت منذ القرن الثامن الهجري يرجع الفضل الأكبر إلى شيخ الإسلام ابن تيميّة، وله الحظُّ الأوفر فيها.

إنه يسـتحق بكلِّ جدارةٍ أن يعتبـر في أعلام المجدديـن للعلوم والأفكـار الإسلامية، وبالأخص فإنَّ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيميّة عامل قوي من بين العوامل الأخرى للحركات الإصلاحية العلمية والفكرية، التي نشأت في أرجاء العالم الإسلامي المختلفة منذ القرن الثاني عشر الهجري.

* * *

= والجزء الخامس من الفتاوى يتعلّقُ بمسائل علم الكلام والعقائد ورسائلهما، أما مجموعة فتاوى شيخ الإسلام التي أصدرتها المملكة العربية السعودية والتي تحتوي على ٣٧ مجلداً فهي بمثابة مكتبة بأسرها ودائرة معارف مستقلة.

ب ـ بعث الفكر الإسلامي

١ ـ مصدر العقائد كلها الكتابُ والسُّنّة

مصدر العقائد والحقائق الدينية الصحيح:

ومن مآثر ابن تيمية التجديدية المستقلة أنّه قام ببعث الفكر الإسلامي، ولعلّ **هذه المأثرة من أجلِّ أعمالِه الفكريّة، التي تميَّزَ بها في حياته.**

ومما لا يخفى أن الإسلامَ يمتازُ بالنسبة إلى النظم الفكريّةِ الأخرى، بأنّه يقومُ على أساس الوحي والنبوة المحمدية، وأنّ عقائده وحقائقه لا تنبني على القياس والتجارب، والظن والتخمين، والذكاء الإنساني، والبحث والجدال، بل تنبني على تعليم الله تعالى، وتبليغ رسوله ﷺ، والذي قاله ﷺ وشرحه حول ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وعن بدءِ العالم ومنتهاه ومبدئه ومصيره، وعن المعاد والآخرة، وخواص الأعمال ونتائجها، وعن الأمور مما وراء الطبيعة[1] التي لها علاقة بالدين.

إنما هي العقائد والحقائق، ولا سبيلَ إلى معرفتها والإيمانِ بها في الحقيقة سوى الوحي والنبوة، وذلك لأنّ الطريقَ إلى التوصل إلى المعلومات والحقائق كلُّها هي المبادئ الأولية، وهذه المبادئ الأولية ـ لهذه الحقائق الدينية والغيبية ـ لا يطلع عليها أحد.

إنّ الوسيلة الوحيدة للاطلاع على أمرٍ جديدٍ هي أن نرتب المعلومات، بحيث يتيسّرُ الوصولُ إلى المجهول، إلا أننا لسنا مطلعين على المبادئ الأولية

---

(١) أي عالم الغيب. (الناشر)

لهذه الحقائق الغيبية والدينية كما نحن مطَّلِعون على المعلوماتِ الأوليّة عن الطبعيات والماديات.

إنّ ذات الله تعالى وصفاتِه وراء الحواس والعقل الإنساني، يعجزُ الإنسان عن أيّةٍ تجربةٍ أو مشاهدة عنها، ولا أساسَ هناك للقياس فيها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولذلك فلا مناصَ في ذلك من الاعتماد على تلك الطائفة من البشر، التي أكرمها الله تعالى بعلم ذاته وصفاتِه، ونوّرَ قلوبها بنور الهداية والإيمان، كما لا يسعنا الإنكار والبحث بإزائها في أي شيء منها، وتلك هي الحقيقة التي تحدَّث عنها القرآن بلسان أحد الرسل، فقال: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

عجزُ الفلسفة واندحارُها:

عبثاً حاولتِ الفلسفةُ البحثَ في ذات الله تعالى وصفاته، ورغم وجودِ هذه الحقيقة الواضحة، فقد واصلت الفلسفةُ جهودَها في هذا المضمار إلى عدة آلاف من السنين، وركزت طاقتها وذكاءَها على موضوع لم تكن تعرِفُ مبادئه ومقدماته، ولم تكن عندها ذريعة للإيمان به، وأخذ فكرة حتمية عنه.

ولكنّها رغماً من ذلك قامت بالتحقيق والتدقيق في هذا الموضوع، من غير تلكؤٍ ولا ترددٍ، كما يفعل علماء اللغة والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها، وعلماء النحو والتصريف في الإعراب والتصريف، بل كما يفعلُ علماء الكيمياء في الأدوية والعقاقير، وجمعت ركاماً من المباحث والتفاصيل والتحقيق والتقعير، حتى ظنَّ القارىءُ أنَّ البحثَ كلّه يدور حول شخصية عادية هي في تصرف الإنسان ومتناول يده، وهذا حادث غريب في تاريخ العلم الإنساني.

تفلسف المتكلّمين:

وأغرب من هذا كلّه أنَّ متكلّمي الإسلام، الذين كانوا يهدفون إلى نقض الفلسفة، والدفاع عن الإسلام، أخذوا مصطلحات الفلسفة وافتراضاتها ذاتها، وبدؤوا يبحثون عن ذات الله تعالى وصفاته، في اعتمادٍ وتفصيلٍ، كأنهم

يتحدثون عن شخصية مشاهدة ملموسة، وعن مسألة طبيعية.

لقد كان هؤلاء المتكلّمون قد تصدّوا للردّ على الفلسفة، ونقض نظراتها وآرائها، ولكنّهم تاهوا في غابة الفلسفة وافتراضاتها، ومصطلحاتها الخاطئة.

إنهم نسوا في سَوْرَةِ الجدال والنقاش أنْ يلوموا الفلسفة على أخطائها الأساسية، وأن يَحُوْلوا دونَ بحثها حول مسألة ليس من شأنها، ولا تجدرُ بأن تكونَ مركز نظرِها وبحثها في حالٍ من الأحوال.

إنّهم نسوا أن يوصوا الفلسفة بتحديد مضمارِها في الجدال والنقاش حول الرياضيات والطبعيات، أمّا التدخلُ في موضوعِ الإلـٰهياتِ، فخروجٌ عن مركزها، وتعدٍ عن حدها، وتدخل غير معقول، وأن يخاطبوا الفلاسفةَ بخطابِ القرآنِ البليغ الحكيم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

انحطاط الفكر الإسلامي في القرون المتاخرة:

بلغ انحطاط الفكر الإسلامي في القرون المتأخرة إلى حدٍّ اعتبرت فيه نفس الدلائل وترتيب المقدمات التي كان المتكلّمون قد رتبوها، والتي قامتْ على أساسِ الفلسفة أصلاً لإثبات ذات الله، وحدوث العالم، والتوحيد، والمعاد، وجمع العقائد الأساسية.

فقد كان المتكلِّمون والنظّار كلُّهم يعتبرون العقلَ مقياساً أصيلاً، سوى طائفةٍ قليلةٍ من المحدّثين والفقهاء، ويجعلون كتبَ المتكلِّمين مصدراً للعقائد والأحكام عوضاً عن الكتاب والسنة، وكانوا يؤوِّلون الآيات والأحاديث تفادياً من إيرادات الفلسفة، أو إبقاءً على بعض أصول الفلسفة الثابتة، ومطبقين الفلسفة على الدين، وقد بلغ إعجابُهم بالفلسفةِ مبلغاً؛ كانوا يتناولون فيه الآيات والأحاديث بالتأويل والتوجيه، بدلاً من إنكارِ الفلسفةِ والتغيير في علم الكلام.

يتحدث الإمام ابن تيمية مشيراً إلى هذه العقلية:

«ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء، يضع كلُّ فريق لأنفسهم قانوناً فيما

جاءت به الأنبياء عن الله، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنّوا أنَّ عقولَهم عرفتْه، ويجعلونَ ما جاءت به الأنبياء تبعاً، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه»[1].

وبعد اعتبارِ هذه العقائدِ والمباحثِ الكلامية مقياساً وأصلاً، والاعتقادِ بأنَّ هذه المباحثِ تحمِلُ في جنبها علوماً عاليةً جمّةً، وحكماً ومعارف عميقة، كان يحدث هناك صراع، وهو أنَّ هذه العلوم والمعارف إذا كانت أصيلةً لا ينبغي أن يخلو عنها كلامُ النبيِّ ﷺ وأصحابِه الكرامِ رضي الله عنهم بل يجبُ أن تحتوي عليها وعلى جميع هذه التحقيقات والتدقيقات.

والذين كانوا معجَبينَ بالفلسفة وعلم الكلام، وكانت عقولُهم مسحورةً بهم يقولون بصراحة حيناً، وبكناية حيناً آخر:

إنّ ذلك العصر كان عصراً بدائياً، وكان الناسُ في ذلك العصر بسطاءَ، لم يكن لديهم اطلاعٌ على هذه الحقائق والعلوم العميقة والدقيقة.

أمّا المعترفون بقيمة الفلسفة وعظمة الصحابة رضي الله عنهم فكانوا يعيشونَ في اضطرابٍ وحَيْرَةٍ من غير أن يقطعوا في ذلك رأياً.

يشير ابن تيميّة إلى الحالة النفسيّة لهذه الطوائف ويقول:

«من اعتقدَ أنَّ ذلك من أصول الدين، وأنّه يشتمل على العلوم الكلية، والمعارف الإلـٰهية، والحكمة الحقيقية، أو الفلسفة الأولية، صار كثيرٌ منهم يقول: إنّ الرسول ﷺ لم يكن يعرف أصول الدين، أو لم يبين أصول الدين، ومنهم من هاب النبيَّ ﷺ ولكنه يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك. ومن عظّمَ الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوالِ هؤلاء يبقى حائراً كيف لم يتكلّم أولئك الأفاضل في هذه الأمور التي هي أفضل العلوم؟!.

ومن هو مؤمن بالرسول ﷺ معظم له يستشكل كيف لم يبيّن أصولَ الدين؛

---

(١) صريح المعقول: ١/ ٣.

مع أن الناس إليها أحوج منهم إلى غيرها؟»[1].

ويتقدّم فيقول عنهم: «وهو أنّهم جعلوا قول الله ورسوله ﷺ من المجمل الذي لا يستفادُ منه علمٌ ولا هدًى، فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكمُ، والمحكمُ من كلامِ الله ورسوله هو المتشابه»[2].

الغلوُّ في تعظيم العقل وتقديسه:

لقد قام الفلاسفة والمتكلّمون كلُّهم بتقديسِ العقل، ورفع قيمته، واعتبارِه ميزاناً وحكماً في مسائل الذات والصفات حتى كان يبدو أنَّ العقلَ له الخبرة الكاملة للحكم في هذه المسائل، شأن الحواس الخمس في حكمها في المحسوسات، وشأن التجربة والاستقراء في الأمور العلمية، وقد أنتجَ هذا الوضعُ أنَّ العقل صار أساساً لإثبات الشريعة، سواء في الأمور الشرعية أو الفقهية، ولكن لم يقم هناك خلال القرون الستة الإسلامية أي عالم أو مفكر يحارِبُ هذا الوضع، ويرفعُ لواء الثورة على هذا العقل صاحب الحكم والنفوذ اللامحدود.

تصدّى حجةُ الإسلام(الإمام الغزالي) ـ رحمه الله ـ للجهادِ ضد تدخل الفلسفة في الإلهيات، وجعلَها هدفاً لكتاباته، التي نالت من شأن الفلسفة، واستهانت بها، إلا أنّه لم يرفع صوتاً عالياً ضد تقديس العقل، وحكومته المطلقة، وضد تدخله في أمور ليست من شأنه.

إنَّ الإمامَ ابن تيميّة هو أول رجل ـ فيما نعلم ـ ثار على هذا الوضع الشائن، واحتجَّ عليه في غاية من الاستنكار، وحاربه بكلِّ جرأة وشجاعة، وأثبتَ أنَّ مصدرَ العقائد والحقائق إنّما هو الوحي والنبوة، والكتاب والسنة، أما العقل فليسَ إلا مؤيداً لها، وليس أساساً في أيِّ حال.

يقولُ في بعض كتاباته: «إنَّ العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه،

---

(١) صريح المعقول: ١/ ١٢.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٦٤.

ولا معطياً له صفةً لم تكن له، ولا مفيداً له صفةَ كمالٍ»[1].

منصب العقل ومكانته:

إنّه يعتقِدُ أنّ «العقل مولٍ ولّى الرسولَ ﷺ، ثم عزل نفسه، لأنّ العقل دلّ على أنَّ الرسول ﷺ يجبُ تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والعقل يدلُّ على صدق الرسول ﷺ دلالة عامة مطلقة، وهذا كالعاميِّ إذا علم عين المفتي، ودلَّ غيره عليه، وبيّنَ له أنّه عالم مفتٍ، ثم اختلف العاميُّ الدال والمفتي، وجب على المستفتي أن يقدِّمَ قولَ المفتي.

فإذا قال له العاميُّ: أنا الأصلُ الذي أعلمك أنّه مفتٍ، فإذا قدمتَ قولَه على قولي عند التعارض قدحتَ في الأصل الذي به علمتَ أنه مفتٍ.

قال له المستفتي: أنتَ لمّا شهدتَ أنه مفتٍ، ودللتَ على ذلك، شهدتَ بوجوب تقليدِك له»[2].

إنه يعتقد أيضاً أنَّ العقل لايسعه إلا الاعتماد على الرسول ﷺ وطاعته، بعد ما اعترف بالرسالة.

كما أنّه يجبُ تقليدُ صاحب الصناعة في كلِّ صناعة، وقبول كلامه من غير تردد، مع الاعتقادِ بأنّ ما يقوله هو القول الفصل في ذلك، كذلك الرسول ﷺ هو سندٌ في الأمور الغيبية والأحكام والشرائع، وكلامُه فصلٌ في كل ذلك، يقول:

«فإذا علم الرجل بالعقل أنَّ هذا رسول الله، وعلم أنّه أخبرَ بشيءٍ، ووجدَ في عقلِه ما ينازعه في خبره، كان عقلُه يوجِبُ عليه أن يسلّم مواردَ النزاع إلى مَنْ هو أعلم به منه، وألا يقدِّمَ رأيه على قوله، ويعلم أنَّ عقلَه قاصرٌ بالنسبة إليه، وأنّه أعلمُ باللهِ تعالى وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأنَّ التفاوتَ الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب.

---

(١) صريح المعقول: ١/ ٤٦.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٧.

فإذا كان عقله يوجِبُ أن ينقادَ لطبيبٍ يهوديٍّ فيما أخبره به من مُقدّرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات، واستعمالها على وجه مخصوص، مع ما في ذلك من الكلفة والألم، لظنّه أنَّ هذا أعلم بهذا مني، وأنّي إذا صدقتُه كان ذلك أقرب إلى حصولِ الشفاء لي، مع علمه بأنَّ الطبيبَ يخطئ كثيراً، وأنَّ كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سبباً في هلاكه، ومع هذا يقبلُ قولَه، ويقلِّده، وإن كان ظنه واجتهاده يخالِفُ وصفه، فكيف حالُ الخلقِ مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم، والرسل صادقون مصدَّقون، لا يجوز أن يكون خبرُهم على خلافِ ما أخبروا به قط، وأنَّ الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال»[1].

الإيمان بالرسول ﷺ واجبٌ من غير شرط:

إنَّ المعجبين بالفلسفة والعقلانية تكوّنت لهم عقليّةٌ خاصّةٌ في قبول أمور الشريعة ورفضها، فالأمورُ الشرعيّةُ التي كانت توافِقُ عقولَهم وفلسفتَهم قبلوها، وترددوا في قبول ما كان يصادِمُ عقولَهم أو مسلّمات الفلسفة، ورأوا فيه تعقدات كثيرة، والذين كانوا متجرئين، ولا يبالون بالحيطة، يرفضون كل ما لا تستسيغه عقليتهم الخاصة، ويقولون: إنّه لا بدَّ من الانسجام بين العقل والشريعة، وبما أن هذا الأمر يضاد العقل لا يجدر بالقبول.

أما مَنْ كانوا يأخذون بشيءٍ من الحيطة في ذلك، فيلجؤون إلى التأويل والتوجيه، مهما كان ذلك مستحيلاً وبعيداً عن القياس.

لقد أثبتَ ابن تيميّة في مواضع كثيرة أنَّ الإيمانَ بالرسول ﷺ واجبٌ لا محالةَ، من غير قيدٍ ولا شرط، وأنَّ مكانةَ الرسول ﷺ الصحيحة ومنصبه الذي يتبوّؤه ليوجبان ذلك، وذلك هو الإيمان في الحقيقة.

أما الاشتراط في تصديق الرسول ﷺ والإيمان به، فليس من الإيمان في شيء، يقول:

---

(١) صريح المعقول: ١/ ٧٩.

«ففي الجملةِ لا يكونُ الرّجلُ مؤمناً حتى يؤمنَ بالرسول ﷺ إيماناً جازماً ليس مشروطاً بعدم معارض، فمتى قال: أومن بخبرِه إلا أن يظهرَ له معارض يدفع خبرَه لم يكن مؤمناً به، فهذا أصل عظيم تجبُ معرفتُه»[1].

ويقول في مكان آخر:

«كان من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنَّه يجبُ على الخلق الإيمانُ بالرسولِ ﷺ إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه في كل ما أخبرَ به، وطاعتِه في كلِّ أمرٍ، وأنَّ كلَّ ما عارضَ ذلك فهو باطلٌ، إنَّ من قال: يجبُ تصديقُ ما أدركتُه بعقلي، وردُّ ما جاءَ به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديمُ عقلي على ما أخبرَ به الرسول مع تصديقي بأنَّ الرسولَ صادقٌ فيما أخبرَ به فهو متناقِضٌ، فاسدُ العقلِ، ملحدٌ في الشرعِ.

وأما من قال: لا أصدّقُ ما أخبرَ به حتى أعلمَه بعقلي فكفرُه ظاهرٌ»[2].

أوهامُ العقلِ:

ثم يستعرِضُ ابن تيميّة دعوى هؤلاء العقلاء، التي تقول بالتعارض بين العقل والنقل في أكثر الأحيان، وأنَّ الأمورَ التي جاء بها الأنبياءُ والرّسلُ كعقائد وحقائق دينية قد تتعارض مع العقل الصريح والهداية، وتتصادم مع تلك الحقائق والمسلمات التي أنتجَتْها الفلسفةُ بعد دراساتٍ طويلةِ الأمدِ، والتي تعتبَرُ أساسَ الفلسفةِ، يثبتُ الإمام ابن تيميّة أنَّ هذه العقليات، التي تتعارَضُ مع أخبار الرسل، ونصوص الكتاب والسنة، لا تعدو إلا أوهاماً وأباطيل، اخترعها العقل بحيث إنَّها إذا تولَّت بالنقد العلمي والمحاسبة الدقيقة ظهرَ أنّها ليست إلا مجموعةً من الألفاظ والتوهّمات، التي لا تستندُ إلى أساسٍ من العلم، يقول:

«على أنَّ ما يدَّعونه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقيقةَ لها عند

(١) صريح المعقول: ١/ ١٠١.
(٢) المصدر السابق: ١/ ١٠٨.

الاعتبار الصحيح، وإنّما هي من باب القعقعة بالشنان لمن يُفْزِعُه ذلك من الصبيان، ومن هو شبيهٌ بالصبيان وإذا أعطى النظر في المعقولات حقَّه من التمام، وجدَها براهينَ ناطقةً بصدق ما أخبر به الرسولُ ﷺ، وأنَّ لوازمَ ما أخبرَ به لازمٌ صحيحٌ، وأنَّ من نفاه نفاه لجهله بحقيقةِ الأمرِ، وفزع فزعاً باطناً وظاهراً كالذي يفزع من الآلهة المعبودة دونَ الله أن تضرّه، ويفزع من عدو الإسلام لما عندَه من ضعفِ الإيمان»[1].

ويقول في موضع آخر: «وما أشبه هؤلاء في رعبهم من الألفاظ الهائلة التي لم يعلموا حقيقتها بمن رأى العدوَّ المخذول، فلما رأى لباسهم رعب منهم قبل تحقق حالهم، ومن كشف حالهم وجدهم في غاية الضعف والعجز، ولكن قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]»[2].

جهل العقلاء:

إذا نظر المنصف في هذه الأقوال والتدقيقات، التي يفتخِرُ بها الفلاسفة ويسمّونها الإلهيات، والتي يقدّمها أتباعهم بإزاء كلام الأنبياء وأقوالهم، سوف لا يجدُ فرقاً بينها وبين كلام المجانين، يقول:

«ليتأمَّلِ اللبيبُ كلامَ هؤلاء الذين يدّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل كيف يتكلّمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين، ويجعلون الحق المعلوم بالضرروة مردوداً، وللباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلامٍ فيه تلبيس وتدليس»[3].

لا تعارضُ بين صريحِ العقلِ وصحيحِ النقلِ:

ولكنّه يلاحِظُ حرمةَ العقل وقيمتَه، فإنَّ القرآن قد أشار في آيات كثيرة إلى

---

(١) صريح المعقول: ٤/ ١٥٣.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ١٥٤.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٢٧٢.

استخدام العقل والتفكير به، إنَّه لا يرى أيَّ تعارضٍ في أيِّ حالٍ بين صريح العقل وصحيح النقل، لأنَّـه لم يعثر على أيِّ تعارضٍ بين العقلِ والنقلِ خلال دراسـته الطويلة الواسعة، بشرط أن يكونَ العقلُ سليماً، والنقلُ صحيحاً ومحفوظاً، فقد ألَّف في هذا الموضوع كتاباً ضخماً باسم (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)[1]، أثبتَ فيه بالدلائل وبكلّ تفصيلٍ ألا تعارض بين المعقول والمنقول، فإنَّ الأمور التي ثبتت صحتُها بالكتاب والسنّة والوحي والنبوّة يصدِّقُها العقلُ الكاملُ الصحيحُ، وظلَّ العقلُ يؤيّد النصوص والمنقولات على الدوام، وكلُّ مَنْ يستخدم العقل بالدقة والإمعان يجدُ أنَّه يصدق هذه المنقولات ويؤيّدها، يقول:

«إنَّ الأدلةَ العقلية الصحيحة البيّنة، التي لا ريب فيها، بل العلوم الفطرية الضرورية توافقُ ما أخبرتْ به الرسل، ولا تخالفه، وإنَّ الأدلّة العقلية الصحيحة جميعَها موافقةٌ للسمعِ، لا تخالِفُ شيئاً من السمع، وهذا ولله الحمدُ قد اعتبرتُه فيما ذكرتْهُ عامة الطوائف»[2].

ويقول في مناسبة أخرى:

«المنقول الصحيح لا يعارِضُه معقولٌ صريحٌ قطّ، وقد تأمّلتُ ذلك في عامّة ما تنازعَ الناسُ فيه، فوجدتُ ما خالف النصوصَ الصحيحةَ الصريحةَ شـبهاتٌ فاسـدةٌ، يعلم بالعقل بطلانُها، بل يعلم بالعقل ثبوتُ نقيضِها الموافق للشـرع، وهذا تأملتُه في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات، ومسـائل القدر، والنبوءات والمعاد، وغير ذلك.

ووجدتُ ما يُعْلَمُ بصريحِ العقلِ لم يخالِفْهُ السـمعُ قطّ، بل السـمع الذي يقال: إنـه يخالفه: إما حديثٌ موضوع، أو دِلالـةٌ ضعيفة، فلا يصلح أن يكـونَ

---

(١) ظهر هذا الكتاب على هامش (منهاج السنة) في أربعة مجلدات. (ثم أعيد طبعه في (١٢) مجلداً في جامعة محمد بن مسعود الإسلامية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم بعنوان (درء العقل عن مناقضة النقل).

(٢) صريح المعقول: ١/ ٨٣.

دليلاً لو تجرّدَ عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول.

ونحن نعلمُ أنَّ الرسلَ لا يخبِرُونَ بمحالاتِ العقول، بل بمحارات العقولِ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته»[1].

إنَّه يدّعي ـ ولِما يدّعيه أهمية ووزن كبير ـ أنَّه لا يوجد حديثٌ واحدٌ، أو نقلٌ واحدٌ معارضٌ للعقل، فإن كان هناك حديثٌ يعارِضُ العقلَ السليمَ فهو موضوعٌ أو ضعيفٌ لدى أصحاب الفن.

القرآن يحتوي على دلالة عقلية جيدة:

إنَّه يرفضُ دعوى هؤلاء المتكلّمين والفلاسفة أنَّ القرآن الكريم صحيفـةٌ تقوم على أساس النقليات والسـمعيات، فقد أثبـتَ في مواضعَ كثيـرةٍ **أنَّ القرآن يحتوي على دلائل عقلية جيدة**، تبلغُ من الإحكام والقوّة والوضوح مبلغاً لا تستقرّ أمامـه دلائل المتكلّميـن والفلاسفة، التي لا تعدو بيتَ العنكبـوتِ بعدَ البحثِ والنقدِ، إنه يقول:

«إنَّ الله سبحانه وتعالى بيّنَ الأدلةَ العقليّةَ، التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدّرُ أحـدٌ مِنْ هؤلاء قدره، ونهايـةُ ما يذكرونـه جاءَ القرآنُ بخلاصته على أحسنِ وجهٍ»[2].

ويقول في موضع آخر:

«إن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق لصريح المعقول، وإنّ ما بيّنه من الآيات والدلائل والبراهين العقلية في إثباتِ الصانع سبحانه، ومعرفة صفاتِه وأفعالِـه هو فوق نهايـة العقول، وإنّ خيـارَ ما عندَ حُذّاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلّمين هو بعض ما فيه، لكنّهم يلبسون الحق بالباطل، فلا يأتونَ به على وجهه»[3].

---

(١) صحيح المعقول: ١/ ٨٣.
(٢) المصدر السابق: ١ / ١٤.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٦٨.

لا لبس في تعاليم الرسول ﷺ:

إنّ كثيراً من الفلاسفة والمتكلّمين وأنصارِهم كانوا يعتقدون أنَّ الرسول ﷺ لم يتناولْ ذات الله تعالى وصفاتِه بالشرح والتفصيل، بل إنّه أجمل هذا الموضوعَ، مما تركَ فيه إيهاماً وغموضاً، كما أنَّ جُزءاً كبيراً من القرآن يحتاج إلى شرح، وقد وفق الله المتكلّمين فيما تقدّمَ من الزمان أن يشرحوه ويفصّلوه، ويعرضوا العقائد والحقائق الدينية أمام الأمة بتفصيل مؤيّدٍ بالدلائل.

يقول ابن تيمية: إنّ الرسول ﷺ كان مأموراً بالبلاغ المبين، فقام بتفصيلِ وشرحِ كلِّ شيءٍ كانَ الدينُ بحاجةٍ إليه، فهل كان من الممكن أن يتركَ العقائدَ وأصولَ الدينِ وأساسَه. وذات اللهِ تعالى وصفاتِه؛ التي يتوقّف على علمها معرفةُ الدين، وسعادةُ الإنسان ونجاته؟!.

وكيف يتركُ كلَّ ذلك مجمَلاً من غير شرحٍ وتفصيلٍ؟.

وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذي دعا الناس إلى تفهُّمه والتدبر فيه مبهماً مجملاً؟ يقول:

«إنّ الرسول ﷺ بلّغ البلاغ المبين، وبين مراده، وأنّ كلّ ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه: إنّه يحتاجُ إلى التأويل الإصلاحي الخاص[1]، الذي هو صرف اللفظ عن ظاهرِه، فلا بدَّ أن يكون الرسول ﷺ قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر، لا يجوز عليه أن يتكلّم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوزُ أن يريدَ من الخلق أن يفهموا من كلامه تعالى ما لم يبينه لهم، ويدلهم عليه، لإمكان معرفة ذلك بعقولهم، وأنّ هذا قدحٌ

(١) لقد أثبت ابن تيميّة في مؤلفاته المختلفة بغايةٍ من التفصيل أنّ التأويلَ له ثلاثة معانٍ:
أولاً: المصطلح القرآني الذي يرادُ به الحقيقة والمآل.
ثانياً: مصطلح المتقدمين، الذي يعني التفسير.
وثالثاً: مصطلح المتأخرين والمتكلمين، الذي يُرادُ به مدلولُ اللفظِ الخفيِّ، ولا يُرادُ به مدلوله الظاهر لسبب خاص.

في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين»[1] .

ويقول في موضع آخر :

«إن الله تعالى أمر الرسول ﷺ بالبلاغ المبين ، وهو أطوع الناس لربه ، فلا بد أن يكون قد بلّغ البلاغ المبين ، مع أنَّ البلاغ المبين لا يكونُ بيانه ملتبِساً مدلّساً ، والآيات التي ذكر الله فيها أنّها متشابهات لا يعلمُ تأويلَها إلا الله إنما نفى عن غيرِه علمَ تأويلها ، لا علم تفسيرها ومعناها»[2] .

دعوة ابن تيمية ومأثرته:

ركّز ابن تيميّة كلَّ جهوده على إثباتِ أنَّ مصدرَ العقائـدِ إنَّما هو الكتـاب والسنة ، والوحي والنبوة ، وأنّ نصوصَ الكتاب والسنة هي المقياسُ الأصيلُ في هذا الموضوع ، إنه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره ، وقد لا يخلو أيُّ كتابٍ من مؤلفاته من هذه الدعوة .

وهكذا استطاع ابن تيميّة أن ينشِّطَ الفكر الإسلاميَّ ـ الذي كان قد جمد واضمحل بتأثير الفلسفة وعلم الكلام والروح العجمية في ذلك الحين ـ ويبعثه من جديد .

* * *

(1) صحيح المعقول : ١/ ١٠ .

(2) المصدر السابق : ١/ ١٦٧ .

٢ـ مصدر الفقه الكتاب والسنة

قبل عهد التقليد:

يؤكّد لنا التاريخُ أنّ تقليدَ إمامٍ من أئمة الفقه أو اتِّباعِ مذهبٍ من المذاهب الفقهية لم يُعْرَفْ قبل القرن الرابع الهجري، فكانَ الناسُ يعملون في قضايا الحياة من غيرِ تقليدٍ والتزامٍ، واثقينَ بأنَّ عملَهم هذا لا يعدو روحَ الشريعة، بل إنّهم يتبعون سنّةَ الرسول ﷺ مباشرةً، وكلّما اعترتهم حاجةٌ إلى السؤال عن مسألة فقهية راجعوا مَنْ شاؤوا من العلماء، وعملوا بها.

وفي القرن الرابع أيضاً لم يعمّ التقليدُ الخالص لمذهبٍ، ولا جرتْ العادةُ بدراسة الفقهِ والافتاءِ وفقَ مذهبٍ خاص، يقول شيخُ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة):

«إنّ أهلَ المئة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد، والتفقه له، والحكاية لقوله، كما يظهر من التتبع، بل كان فيهم العلماء والعامة.

وكان مِنْ خبرِ **العامة** أنّهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلافَ فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلّدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلّمون صفة الوضوءِ والغسلِ والصلاةِ والزكاةِ، ونحو ذلك من آبائِهم، أو معلّمي بلدانهم، فيمشون حسب ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أيّ مفتٍ وجدوا، من غير تعيينِ مذهب.

وكان من خبر **الخاصةِ** أنّه كان أهلُ الحديثِ منهم يشتغلون بالحديث، فيخلصُ إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثارِ الصحابة ما لا يحتاجونَ معه إلى شيء

آخـر؛ فالمسـألةُ من حديثٍ مستفيضٍ أو صحيحٍ قـد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذرَ لتـاركِ العمل به، أو أقـوال متظاهرة لجمهـور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها، فإن لم يجد في المسألةِ ما يطمئنُّ به قلبُه، لتعارض النقل، وعدم وضوح الترجيح، ونحو ذلك رجعَ إلى كلام بعض مَنْ مضى من الفقهاء، فإن وجدَ قولين اختارَ أوثقهما، سواء كان من أهلِ المدينةِ أو من أهلِ الكوفةِ.

وكان أهل التخريج منهم يخرّجون فيما لا يجدونه مصرحاً، ويجتهدون في المذهب، وكان هؤلاء يُنْسَبُون إلى مذهب أصحابهم، فيقال: فلان شافعي، وفـلان حنفي، وكـان صاحب الحديث أيضاً قد ينسـب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقتِـه له، كالنسـائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي، فكان لا يتولّى القضاءَ ولا الإفتاءَ إلا مجتهد، ولا يسمّى الفقيهُ إلا مجتهداً»[1].

بدء التقليد وأسبابه:

وظهرت حاجةُ التقليدِ بعد القرن الرابع لأسبابٍ عِدّةٍ ترجعُ إلى خلافات بين العلماء، وفشـوّ الجدال والمناظـرة، وانخفاض مسـتواهم الديني والخلقـي، والانحطاط العلميّ، وقصر الهمة، وقلّة الاجتهاد.

فمراعاة للمصالح الدينية رأى الناس تقليدَ الأئمةِ المجتهدين الذين سبقوا، واتباع المذاهب الفقهية المدوّنة، والعمل بفتاوى المتقدمين بدلاً من المعاصرين.

إلا أنّ هذا التقليد لم يكن يتقيّدُ إلى مدة طويلة بالالتزام والتعيين والتقليد الشخصي، الذي شاع في القرون المتأخرة، ولكنَّ الناس تعوّدوا هذا النوع من التقليد تدريجياً، وكان شيئاً يقومُ على رعاية المصلحة، وتوخّي السهولة، وتفادي الفوضى، والتقاط الرخص، واتبـاع الهوى، لا أنه كان شيئاً تشريعياً لا يجـوزُ العدولُ عنه، وكان ذلك طبيعياً، وأمراً وفق الأحداث تماماً، وسـيّما ما أصاب العالم الإسـلامي من انحطاطٍ فكري، وتخلف علمي عـام، بعد هجـوم التتر، وما واجه العالم الإسلاميَّ من فقدانِ الشخصيّاتِ الكبيرةِ في ذلك الحين، التي

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ١٢٢.

تتمتّعُ بكفاءةِ الاجتهاد، وما شاهده العالم الإسلامي في تلك الفترة من كَثْرةِ الفِرَقِ، وتطلّع الفِتَنِ.

رأى الناسُ العافيةَ في أن يعملوا بالمذاهب الفقهية التي ثبتت صحتها بالكتاب والسنة، والتي مرّتْ بمراحل البحث والنقد، وتمّ تدوينُها، وتلك ميزةٌ استوفتها المذاهب الفقهية الأربعة، فكان إقبالُ الناسِ عليها بوجهٍ عام.

مكانةُ التقليد ووضعيتها:

لم تكن وضعيّةُ هذا التقليد إلا أنّ المرءَ عند ما كان يقلّدُ مذهباً من هذه المذاهب كان يرتاحُ إلى أنّه يعمل بالكتاب والسنة، ويتبع سنّةَ صاحب الشريعة ﷺ، أما إمامُ ذلك المذهب الذي يقلّده، فليس إلا واسطةً بينه وبين الرسول ﷺ، ومكانتُه في ذلك كمكانة شيخ معاصر، فهو ليس إلا ترجماناً وشارحاً، لا مطاعاً وشارعاً، يقول شيخ الإسلام (ولي الله الدهلوي):

«لا يدينُ إلا بقول النبيِّ ﷺ، ولا يعتقدُ حلالاً إلا ما أحلّه الله ورسولُه ﷺ، ولا حراماً إلا ماحرمه الله ورسولهﷺ، ولكن لما لم يكنْ له علمٌ بما قاله النبيُّ ﷺ، ولا بطريق الجمع بين المختلِفَاتِ من كلامه، ولا بطريق الاستنباط من كلامه، اتبع عالماً راشداً، على أنّه مصيبٌ فيما يقول، ويفتي ظاهراً، متبع سنة رسول الله ﷺ، فإن خالفَ ما يظنّه، أقلعَ من ساعتِه من غيرِ جدالٍ ولا إصرارٍ»[1].

وقد وُجِدَ هذا النوعُ من التقليد، وعادةُ الرجوع إلى فقيهٍ معيّنٍ أو غير معين، والاستفتاء منه في المسائل الفقهية في كل زمان، وسواء كان هذا الرجوع في فتراتٍ مختلفةٍ، أو بصفةٍ دائمةٍ، لا يسوغ الاعتراض عليه، يقول شيخ الإسلام الدهلوي:

«إنّ الاستفتاءَ والإفتاءَ لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً، أو يستفتي هذا حيناً، وذلك بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه، كيف لا، ولم نؤمن بفقيه أياً كان أنّه أوحَى الله إليه الفقهَ، وفرضَ علينا طاعتَه، وأنّه معصومٌ، فإن اقتدينا بواحدٍ منهم، فذلك لعلمنا بأنّه عالم بكتاب الله

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ١٢٤.

وسنّة رسوله ﷺ، فلا يخلو قولُه إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة، أو مستنبطاً منهما بنحوٍ من الاستنباط، أو عرف بالقرائن أنّ الحكمَ في صورةٍ ما منوطة بعلّةِ كذا، واطمأنّ قلبُه بتلك المعرفة، فقاس غيرَ المنصوصِ على المنصوصِ، فكأنّه يقولُ: ظننتُ أنّ رسول الله ﷺ قال: كلّما وُجِدَتْ هذه العلةُ فالحكم ثمة هكذا، والمقيس مندرجٌ في هذا العموم، فهذا أيضاً مُعْزوٌّ إلى النبيِّ ﷺ، ولكنْ في طريقةِ ظنونٍ، ولولا ذلك لما قلّدَ مؤمنٌ مجتهداً.

فإن بلغنا حديثٌ من الرسول المعصوم ﷺ الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح، يدل على خلافِ مذهبه، وتركنا حديثَه، واتبعنا ذلك التخمين، فَمَنْ أظلمُ منا؟ وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين؟»[1].

انحراف القرون المتأخرة وغلوها:

وظل الجهلُ يؤثّر في الجماهيرِ من النّاسِ، حتّى أحلوا هؤلاء الأئمة في بعض المناطق محلّ المعصوم، وجعلوهم كالشارع والمطاع عوضاً عن الوسائط والوسائل، وقد تعصّبَ الناس لهذه المذاهب، ونالت منهم إعجاباً لم يسمح لهم بالتنازل عن أيِّ جزءٍ منها في أيِّ حال.

ولكنّ الذنبَ في هذا لا يرجِعُ إلى العامة كثيراً، لأنّهم قلدوا هذه المذاهب اتباعاً للسنة، ولم يكن من السهل الميسور لهم أن يتتبعوا أسباب الترجيح، فيتركوا التقليد، أو ينتقلوا من مذهب إلى آخر.

بل قد كان هناك عددٌ كبير من العلماء ممن إذا ثبتَ لديهم في مسألة فقهية أنَّ مذهبَ إمامهم لايوافِقُ فيها الكتاب والسنة، وعلموا بالقطعيّة أنّ ذلك المذهب مرجوحٌ في تلك المسألة، ومذهب غيره راجحٌ يتفق مع الكتاب والسنة، وبالرغم من توافر الأحاديث الصريحة الصحيحة خلاف تلك المسألة، لا يجدون في نفوسهم مندوحةً لترك تلك المسألة، والعمل بالأحاديث الصحيحة الواردة خلافها.

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ١٢٥.

ولعلَّ (شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام) العالم الشافعي الشهير في القرن السابع يتحدّثُ عن أمثالِ هؤلاء فيقول:

«ومن العجب العجيب أنّ الفقهاءَ المقلِّدين يقفُ أحدُهم على ضعفِ مأخذِ إمامه، بحيثُ لا يجدُ لضعفِه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلِّده فيه، ويترك مَنْ شهد الكتابُ والسنةُ والأقيسةُ الصحيحةُ لمذهبهم، جموداً على تقليد إمامه، بل يتحيَّلُ لدفع ظاهر الكتاب والسنة، ويتأوّلها بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالاً عن مقلَّده»[1].

كما كانت هناك جماعةٌ من العامّةِ، تظنُّ في إمامِها العصمةَ، وقد رسخَ في نفسِها أنَّه لا يجوزُ تركُ التقليدِ لإمامهِ في أيِّ حال، يتحدَّثُ شيخ الإسلام (ولي الله الدهلوي) عن مثل هؤلاء العامة فيقول:

«وفي من يكون عامياً، ويقلِّدُ رجلاً من الفقهاء بعينه، يرى أنه يمتنع من مثله الخطأ، وأنَّ ما قاله هو الصواب البتة، وأضمر في قلبه ألاَّ يترك تقليدَه، وإنْ ظهر الدليلُ على خلافه، وذلك ما رواه الترمذيُّ عن عديٍّ بن حاتم أنه قال: سمعته (يعني رسول الله ﷺ) يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: «إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»[2].

التقليد والاجتهاد كما يراهما ابن تيميّة:

لقد أنكر المحققون من العلماء الراسخين في كلِّ عصر مثل هذا التقليدَ المطلقَ، الذي يوازي اتباع الرسول ﷺ وطاعته، إنّهم لايحرّمون التقليدَ كابن حزم وغيره من غلاةِ العلماءِ، ولا يجيزون التقليد المطلق، الذي لا يفرّقُ بين الرسول والإمام في الاتباع والطاعة.

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ١٢٤.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٢٤.

فمن العلماء الذين يحملون رأياً متزناً جداً في هذا الموضوع شيخ الإسلام ابنُ تيميّة في المتقدمين، وشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في المتأخرين، ويعترِفُ ابنُ تيميّة بواقع أنَّ العامة وغير المجتهدين من العلماء لا بدَّ لهم من الرجوع إلى الفقهاء والمجتهدين وتقليدِهم، وأنَّ الأئمة كالوسائل والوسائط، وأنَّ تقليدَ المذاهبِ حاجةٌ عملية، وأمرٌ طبيعي، يقول في موضع:

«فطاعةُ الله ورسولِه ﷺ، وتحليلُ ما أحلّه الله ورسولُه ﷺ، وتحريمُ ما حرّمه الله ورسولُه ﷺ، وإيجابُ ما أوجبه الله ورسولُه ﷺ، واجبٌ على جميع الثقلين الإنس والجن، واجبٌ على كلِّ أحدٍ، في كلِّ حال، سراً وعلانية.

لكن لمّا كان من الأحكام ما لا يعرفه كثيرٌ من الناس، رجع الناسُ في ذلك إلى من يعلِّمهم ذلك، لأنه أعلم بما قاله الرسول ﷺ، وأعلم بمراده، فأئمةُ المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق، وأدلة بين الناس وبين الرسول ﷺ، يبلغونهم بما قاله، ويفهّمونهم مرادَه بحسب اجتهادهم واستطاعتهم، وقد يخصّ الله هذا العالم من العلم والفهم بما ليس عند الآخر، وقد يكون عند ذلك في مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا، وقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء ٧٨ ـ ٧٩]. فهذان نبيان كريمان حكما في قضية واحدة، فخص الله أحدهما بالفهم، وأثنى على كلٍّ منهما، والعلماء ورثة الأنبياء، واجتهادُ العلماء في الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة ـ فإذا كان أربع أنفس يصلِّي كل واحد بطائفة إلى أربع جهات، لاعتقادهم أنَّ الكعبة هناك، فإنّ صلاة الأربعة صحيحة، والذي صلّى إلى جهة الكعبة واحدٌ، وهو المصيبُ الذي له أجران كما في (الصحيح) عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهدَ الحاكِمُ فأصابَ فله أجران، وإن اجتهدَ فأخطأَ فله أجرٌ»[1].

ويتقدَّمُ فيعترف ابن تيمية بأنَّ نشأةَ المرءِ على مذهب فقهي خاص، وقيامه

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ٢/ ٢٠١، ٢٠٢.

بأداء العبادات والأحكام وفقَ مذهب خاص أمر طبيعي، تعوَّدَهُ الناس من قديم، ولكنَّ شأنَ المؤمنِ أن يعتقدَ نفسَه متبعاً لله والرسول ﷺ في الحقيقة، يتهيأ دائماً لاتباع ما يثبتُ من الكتاب والسنة من غير تلكؤٍ، ولا ترددٍ، يقول:

«إنّ الإنسانَ ينشأ على دين أبيه أو سيّدِه، أو أهلِ بلدِه، كما يتبعُ الطفلُ في الدين أبويه وسادته، وأهل بلده، ثم إذا بلغَ الرجلُ فعليه أن يلتزمَ طاعةَ اللهِ ورسولِه ﷺ حيث كانت، لا يكون ممن إذا قيل لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فكلُّ من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسـوله ﷺ إلى عادته وعادة أبيه وقومه، فهو من أهل الجاهلية المسـتحقين للوعيد، وكذلك من تبين له في مسألةٍ من المسائلِ الحقَّ الذي بعثَ الله به رسولَهُ ﷺ، ثم عدلَ عنه إلى عادتِه، فهو من أهل الذمِّ والعقابِ»[1].

والعالم الذي يصلحُ للتحقيقِ والاستدلالِ ويسـتطيعُ أن يتبيّنَ أسـبابَ الترجيح في المسائل فيتحدّث عنه ويقول:

«أمّا القادر على الاستدلال فقيلَ: يحرُم عليه التقليدُ مطلقاً، وقيل: يجوزُ مطلقاً، وقيل: يجوزُ عند الحاجـة، كما إذا ضاق الوقتُ عن الاسـتدلالِ، وهذا القولُ أعدلُ»[2].

وأمّـا من يقدر على الاجتهاد قـدرةً تـامّةً، فيُحْكَمُ فيـه أنه إذا اطلع على النصوص في جانبٍ، ولم يجد في جانبٍ آخر ما يقاوِمُ به النصوصَ ويدفعُها يلزمُه اتباعُ تلك النصوص، يقول:

«أمّا إذا قدرَ على الاجتهادِ التامّ، الذي يعتقد معه أنّ القولَ الآخر ليس معه ما يدفعُ به النصَّ، فهذا يجبُ عليه اتباعُ النصوصِ، وإنْ لم يفعلْ، كان متبعاً للظنِّ وما تهوَى الأنفسُ، وكان أكبرَ العصاةِ للهِ ولرسولِه ﷺ»[3].

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام: ٢/ ٢٠٢.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٨٤.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٨٥.

عمل ابن تيمية ومكانته الفقهية:

أمّا تعاملُه في المسائل الفقهية، فإنّه أفتى في معظمِ المسائلِ على مذهب الإمام (أحمد بن حنبل) وأصولِه، وإنّ فتاواه وآراءه الفقهية في أكثر المسائل تتفق مع فتاوى ومذاهب الأئمة الأربعة، أو مذهب إمامٍ من أئمة المسلمين واجتهادِه، كما قامَ بالاجتهادِ في بعض المسائل، وأفتى فيها في ضوء الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وبالنظر إلى جميع هذه الوجوه، والموازنة بينها، يصحُّ أن يقال: إنّه كان مجتهداً منتسباً[1] للمذهب الحنبلي»[2].

دعوة ابن تيميّـة وتاثيرها:

ومن مآثر ابن تيميّة التجديدية، أنّه عندما دعا الناسَ بقوّةٍ إلى اعتبارِ الكتابِ والسنّة مصدراً للعقائد، وعمل بها نفسُه في غايةٍ من الاهتمام، دعاهم كذلك بقوّةٍ بالغةٍ إلى اتخاذ الكتاب والسنة مصدراً للفقهيات والأحكام، ومقياساً للحق، وقدّمَ نموذجاً عالياً للعمل بهذه الدعوة بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

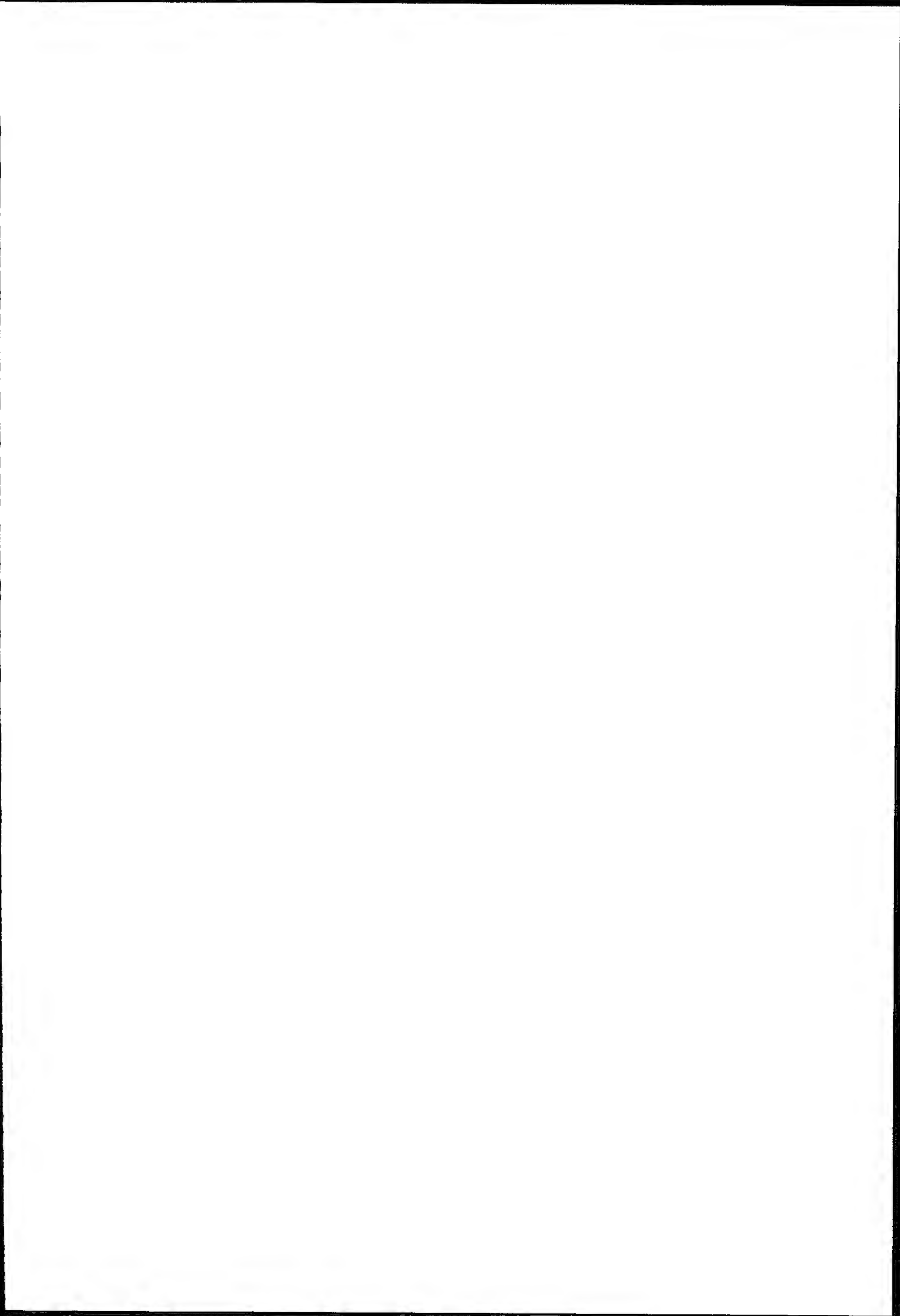
إنّ دعـوةَ ابن تيميّة هذه، أثارت روحاً ونشاطاً من جديد في أوساط الأمـة الفقهيـة والعلميـة، التي كـانت قد تـوقّفت منذ مـدة بعيدة عن دراسـة الأحكـام والمسائل، والتفكير فيها، ومقابلتها مع الكتاب والسنة، وكان بابُ الاجتهاد والاستنباط مغلقاً منذ زمن طويل، وهكذا فإنّه قام ببعث الفكر الإسلامي الصحيح، الذي وجد في القرون الأولى، وقامت عليه حياةُ المسلمين، وهو على أساس هذه المآثر العلمية والعملية كلها يُعْتبَرُ من شخصيات التاريخ الإسلامي المصطفاة، التي اختارَها الله لتجديد هذا الدين، وبعثِه من جديد.

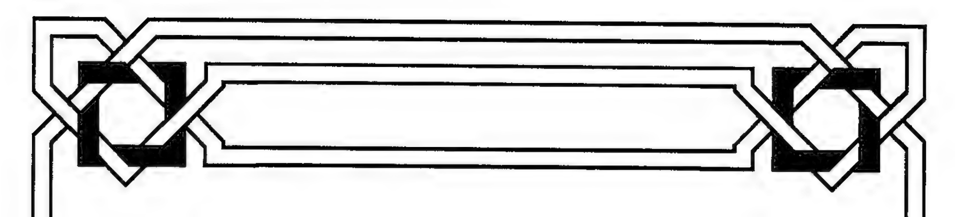
﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) المجتهد المنتسبُ هو الذي يكونُ مجتهداً في الفروع والأصول، ولكنّه يتفِقُ مع أي إمام في طريق استدلاله واستنباطه، ولا يتجاوز نطاقه بوجه عام.

(٢) وللاطلاع على فقه ابن تيمية ومكانته، والتفاصيل عن مكانته الاجتهادية راجع كتاب (ابن تيمية) للشيخ أبو زهرة، ص٣٥٠ ـ ٤٥٢.





الباب الثالث

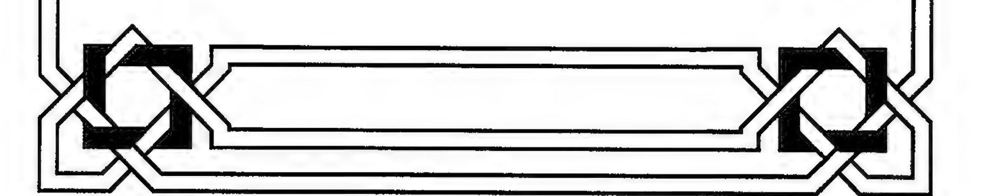
تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء

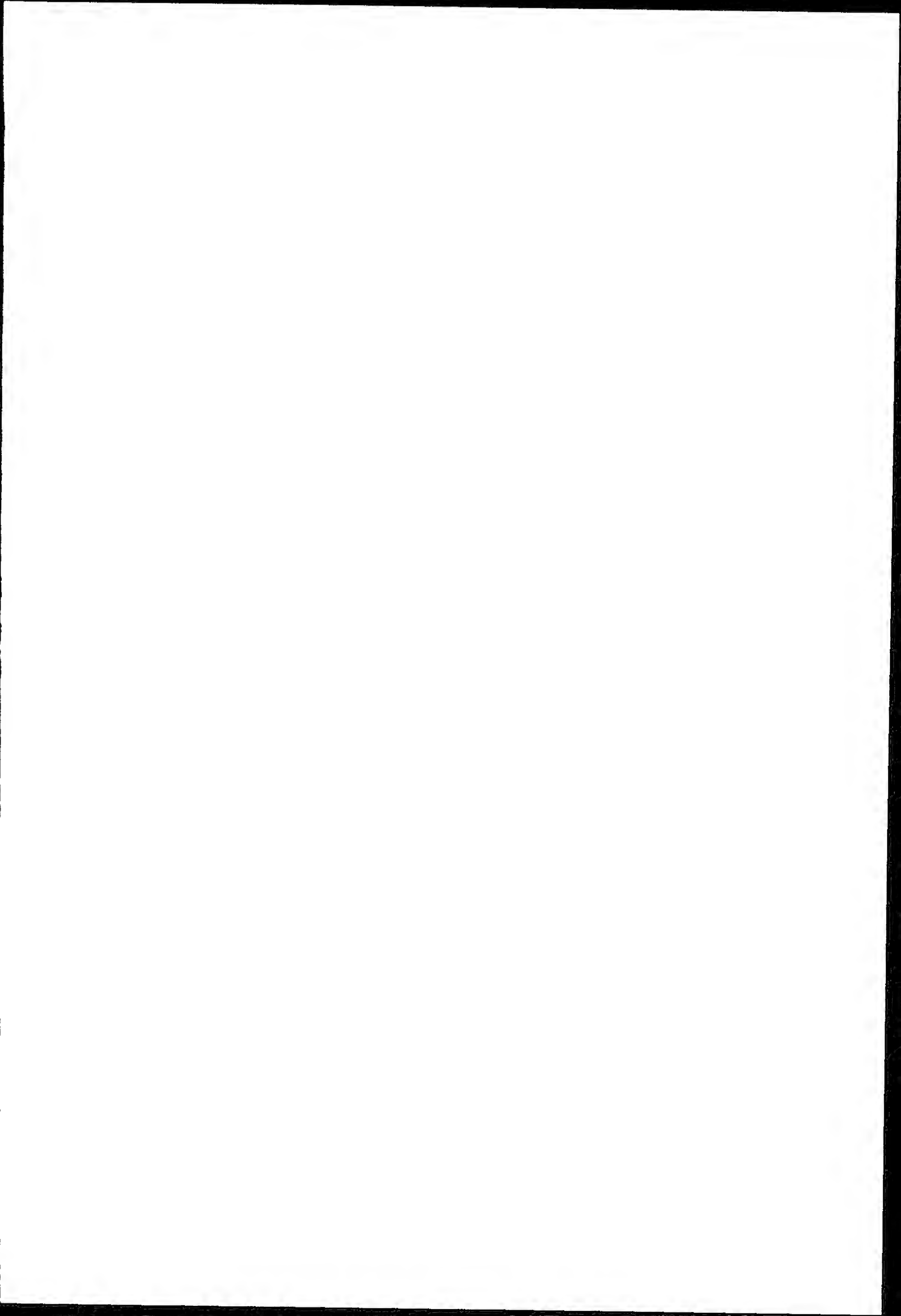
الفصل الأول ـ شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

الفصل الثاني ـ عماد الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي.

الفصل الثالث ـ عماد الدين إسماعيل بن كثير.

الفصل الرابع ـ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.





الفصل الأول

الحافظ ابن قيّم الجوزية

تلميذ ابن تيمية وخليفته

عُرِفَ شيخ الإسلام ابن تيميّة بكثرة تلاميذه والمستفيدين منه، وكان من الطبيعي أن يكون له نفوذ قوي في عصره الذي عاش فيه، بما قد رزقه الله من حياةٍ مشغولةٍ بالعمل الإسلامي العظيم، ومن شخصيّةٍ عملاقة جبّارة، ولا غَرْوَ أن يتجمع حوله حشدٌ كبير من تلاميذِه والمعجبين به.

وقد تميّزَ مِنْ بين هؤلاء التلاميذ تلميذُه النجيبُ الحافظ (ابن قيم الجوزية) الذي يعتَبرُ خليفتَه الراشدَ، ومدون علومه من بعده، إنّه تفرّدَ بخصائص ومزايا لم تتوفر في غيره من تلاميذه، فقد ظل يشارِكُ أستاذَه في أحواله وأعماله طول حياته، ولم يفارِقهُ حتى آخر لمحة من حياته، وثبتَ على جادّته بعد وفاته، من غير أن يفترَ حبُّه له، وإعجابه به.

إنّ خدماتِه العلمية، وجلالة قدره، وفضائله، لجديرةٌ بتأليفِ كتابٍ مستقلٍّ عنه[١]، يبحث عن مؤلفاته ودراساته العلمية بغاية من التفصيل، وممّا يبعثُ على الدهشة والاستغراب أنَّ التاريخ لا يتحدّثُ عن سيرته إلا بإيجاز. والمعتَمدُ في ذلك هو ما ذكره تلميذُه النابغةُ الشهير الحافظ (ابن رجب الحنبلي) عن سيرته في (ذيل طبقات الحنابلة).

---

(١) كتبت في سيرته عدة كتب مستقلة منها (ابن قيم الجوزية) للشيخ مسلم الغنيمي الدمشقي؛ و(ابن قيم الجوزية) لعبد العظيم شرف الدين؛ و(ابن قيم الجوزية وآراؤه التربوية) للأستاذ عبد الرحمن النحلاوي رحمه الله؛ و(ابن قيم سيرته ومؤلفاته) للشيخ بكر أبو زيد. (الناشر)

والحقيقة أنه أذاب شخصيتَه في حياةِ شيخِه وأستاذِه، بحيث لم يعد له وجودٌ مستقلّ، ولا شخصية متميزة، وإلى القارئ نبذة من سيرته التي اطلعنا عليها وظفرنا بها.

اسمه ونسبه:

هو محمد الملقب بشمس الدين، ويكنى أبا عبد الله، وهو في النسبة زَرْعِيٌّ[1]، واسم والده أبو بكر بن أيوب.

ولد في دمشق عام ٦٩١هـ ـ على ما قاله ابن رجب الحنبلي ـ حيث قضى حياته، وتوفي هناك، ودفن فيها، وكان والدُه قيِّمَ المدرسةِ الجوزية، فقيل له: ابن قيم الجوزية، نسبة إلى منصب والده، ويؤثر بعض الناس الإيجاز فيقولون: ابن القيم.

سمع الحديث من الشهاب النابلسي، والقاضي تقي الدين أبي الفضل سليمان بن حمزة، وفاطمة بنت جوهر، وعيسى بن المطعم الحجار، وأبي بكر ابن عبد الدائم وغيرِهم من شيوخِ عصرِه.

برع في الفقه على المذهب الحنبلي وأفتى، ولازم ابن تيميّة حتى آخر لحظة من حياته، يقول العلامة ابن كثير: «لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علماً جماً»[2].

مكانته العلمية:

شارك في جميع العلوم الإسلامية، ولكنّه تفرد بالتفسير ـ كما يقول الحافظ ابن رجب ـ ونبغ في أصول الدين، وبلغ فيها إلى القمة، ولم يوجد له نظيرٌ في الحديث وفقه الحديث، ودقائق الاستنباط.

كما برع في الفقه، وأصول الفقه، والعربية، وعلم الكلام، وحصلَ له اطلاعٌ

---

(١) نسبة إلى بلدة (إزرع) في حوران. (الناشر)

(٢) البداية والنهاية: ١٤/ ٢٣٤.

واسع على إشارات أهل القلوب، ودقائق أصحاب المعرفة والتصوف.

يقـول ابن رجب: «لم أجـد عالماً أكبـر منه في معاني الكتـاب والسـنة، والحقائق الإيمانية، إنّه لم يكن معصوماً عن الخطأ، إلا أنني لم أر أحداً يحمِلُ هذه الصفات مثله».

ويقول العلامة الذهبي: «كانت له عناية فائقة بمتونِ الحديث ورجالِه، إنّه كان يشـتغِلُ بدراسة الفقه، ويكتب مسـائله في غاية من التفصيل، كما كانت له براعة في تدريس النحو وأصول الفقه وأصول الحديث».

زهده وعبادته:

كان كثيرَ العبادةِ، كثيرَ إحياءِ الليالي، يطيلُ الصلاةَ، ويخشَعُ فيها، يداوم على ذكر الله، ويغلب عليه، ويأخذ بمجامع قلبه حُبُّ اللهِ وحالة خاصة من الإنابة إليه، يعلو وجْهَهُ نورٌ من التواضع والافتقار إلى الله، حجَّ مرّاتٍ عديدة، وأقام بمكة المكرمة مدةً طويلةً.

يحكي أهلُ مكةَ حكاياتٍ عن كثرة عبادته وطوافه مما يبعث على الاستغراب والدهشة.

تحدّثَ عنه العلامة ابنُ كثير في تاريخه فقال: «كان كثيرَ التودُّدِ، لا يحسدُ أحداً، ولا يؤذيه، ولا يستغيبه، ولا يحقِدُ على أحدٍ، وكنتُ من أصحبِ الناس له، وأحبِّ الناس إليه، ولا أعرفُ في هذا العالم في زماننا أكثرَ عبادةً منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمدُّ ركوعَها وسجودَها، ويلومُهُ كثيرٌ من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع، ولا ينزع عن ذلك ـ رحمه الله ـ . . .

وبالجملة كان قليلَ النظيرِ في أمورِه وأحوالِه»[1].

محنته:

مرَّ بمراحل المحنة والمجاهدات الشاقة كأستاذه وشيخه، عندما حُبسَ

---

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٧٣٥.

شيخُه ابن تيمية في القلعة في المرّة الأخيرة حُبسَ هو معه أيضاً، ولكنْ فُرّقَ بينهما في السجن، وأفرجَ عنه بعدَ وفاةِ شيخه، وقد ظلَّ طوال هذه المدة مشغولاً بتلاوة القرآن، ودراسة معانيه، والتدبّر فيها.

يقول عنه ابن رجب: «ففُتح عليه من ذلك خيرٌ كثيرٌ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلّطَ بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفُه ممتلئةٌ بذلك.

تلاميذه ومعاصروه يعترفون بفضله:

تلّقى عنه العلمَ جماعةٌ كبيرة من العلماء في حياة شيخه ابن تيمية وبعد وفاته، واستفادوا من مناهل علمه، وكان علماؤه المعاصرون يبجلونه كثيراً، ويرون التلمذة عليه شرفاً كبيراً، فمن تلاميذه ابنُ عبد الهادي، وابنُ رجب، ولقد قال عنه القاضي برهان الدين الزرعي: «لا يوجدُ الآن رجلٌ أوسعُ علماً منه تحت هذه السماء».

التدريس والتأليف:

قام ابن القيم بتدريس العلوم الشرعية في المدرسة الصدرية، وتولى إمامةَ المدرسة الجوزية مدة طويلة، وقد ألّف بقلمه كتباً كثيرةً، يشهدُ ابنُ رجب بشغفه الزائد بالكتابة، والمطالعة، والتأليف، واقتناء الكتب، ونتيجة لهذا الشوق تألفتْ لديه مكتبة واسعة، كانت تحتوي على كثير من الكتب الخطية التي انتسخها بيده.

بماذا تمتاز مؤلفاته؟

تمتازُ مؤلّفاته بحسن الترتيب، وجودة التأليف، وهي تفوقُ في هذا المجال مؤلفاتِ شيخِه ابن تيمية أيضاً، وهي بجانبِ ذلك تتميزُ برقة الأسلوب، وسلاسة العبارة وتأثيرها، ولعلَّ ذلك جاء من قِبَلِ نفسِه، التي تحلّت بالجمال أكثر منها بالجلال.

أهم مؤلفاته:

لمؤلفاته قائمة طويلة[1]، ندرج فيمايلي ما له أهمية كبيرة:

١ ـ تهذيب سنن أبي داود.

٢ ـ مدارج السالكين إلى منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

هذا الكتابُ شرحٌ لكتاب (منازل السائرين) لشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي، ويعتبر من أجودِ كتب التصوّف والمعرفة.

٣ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد.

٤ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.

٥ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين، وهذا الكتاب مرجعٌ كبير للمشتغلين بالفتاوى والحديث، ومن أجود تصانيفه.

٦ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

٧ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٨ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، في وصف الجنة وأحوالها، وهذا الكتاب مطبوع على هامش (أعلام الموقعين).

٩ ـ كتاب الداء والدواء.

١٠ ـ مفتاح دار السعادة.

١١ ـ اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

١٢ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

١٣ ـ بدائع الفوائد.

١٤ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح.

١٥ ـ تحفة الودود بأحكام المولود.

١٦ ـ كتاب الروح.

---

(١) انظرها في كتاب (ابن قيم سيرته ومؤلفاته) للشيخ بكر أبو زيد. (الناشر)

١٧ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

١٨ ـ الفروسية .

١٩ ـ الفوائد .

٢٠ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية .

٢١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي[١] .

٢٢ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

٢٣ ـ إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان .

٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين .

كتاب (زاد المعاد) :

وأما كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد) فإنّه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته، ويحتوي في الوقت نفسه على مواضيع مختلفة من السيرة والسنة والفقه وعلم الكلام والتزكية والإحسان، وأعتقدُ أنّه ليس هناك كتابٌ جامعٌ أُلِّفَ للعمل والإصلاح بعد كتاب (إحياء العلوم) للإمام الغزالي، بل قد يفوقه من ناحية التحقيق والاستناد والتطبيق بين الكتاب والسنة .

ويبدو أنه أراد أن يؤلِّفَ كتاباً ينوب عن المكتبة الدينية إلى حدٍّ كبير، ويقوم مقام مُرَبٍّ ومُرشدٍ، وفقيهٍ ومُحدثٍ، ولقد شُغفَ بهذا الكتاب وأُولعَ به مَنْ يتذوَّقون الحديث، ويحرصون على اتباع السنة والآداب النبوية، وكانوا يهتمون بها[٢] .

وقد تحلى هذا الكتاب بالطبع لأول مرة في الهند سنة ١٢٩٨هـ وفي مصر

---

(١) هو نفسه (الداء والدواء) المذكور برقم (٩) . (الناشر)

(٢) وقد جاء في ترجمة العالم المتورع، الزاهد الإمام عبد الله الغزنوي أنّه كان شديد الشغف بهذا الكتاب، ويدعو الله تعالى ويقول: يا أرحم الراحمين يسر لي وجود هذا الكتاب، واجعله خيرَ زادٍ لمعادي، وكان عزيزَ الوجودِ في زمانه وبلاده (أفغانستان)، اقرأ ترجمته الحافلة في كتاب (نزهة الخواطر) ج٨ .

١٣٢٤هـ، وتقع الطبعة الهندية في ٩٣٧ صفحة بالقطع الكبير، ولكن الطبعة المصرية بالحروف الحديدية تقع في ٩٢٦ صفحة[١].

وقد تحدَّثَ المؤلف عن الكتاب في أوله فقال: «وهذه كلماتٌ يسيرةٌ لا يستغني عن معرفتها مَنْ له همَّةٍ إلى معرفة نبيه ﷺ، وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطِرُ المكدودُ على عُجْرِه وبُجْره، مع البضاعةِ المزجاةِ. . . مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلبُ بكلِّ وادٍ منه شُعبة، والهمة قد تفَّرقت شَذَرَ مَذَرَ، والكتاب مفقود[٢]، ومن يفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غير موجود»[٣].

إذا كان بيانُ المؤلِّفُ هذا يتعلّق بأول الكتاب وببعض الفصول والأبواب فلا يبعث على الاستغراب الكثير، ولكنّه إذا كان عن الكتاب كلِّه، فلا شكَّ أنه مبعثُ دهشةٍ وغرابةٍ، وذلك لأنَّ البحوث المفصلة الدقيقة لمتون السنة، والأسانيد والرجال، والدقائق من السيرة، والتاريخ، والأحكام، التي يشتمل عليها هذا الكتاب يؤكّدُ للقارئ أنَّ هذا الكتاب لم يؤلَّف إلا في مكتبةٍ واسعةٍ كبيرةٍ، فإنْ صحَّ أن هذا الكتاب كلّه إنما أُلِّف في حال السفر، فلا بُدَّ من الاعترافِ بأنَّ مؤلِّفه كان متبحراً في العلوم الإسلامية كلها، وخاصة في الفقه والسنة، وأنَّ مكتبة العلوم الدينية كانت تموجُ في صدره، وكان خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ من المحدثين المتقدمين في قوّة الذاكرة، واستحضارِ العلوم، وخليفةَ صدقٍ لأستاذه العظيم.

لقد شرح ابن القيم في أول هذا الكتاب موضوعَ البعثة المحمدية، ومراتب الوحي، إنه استوعبَ في بيان مراتب الوحي وأنواع الوحي ما لا يوَجُد له نظير في كتب السيرة العامة[٤].

ثم ذكر تلك المدارج التي مَرّتْ بها الدعوة الإسلامية، كما تناول الأسماء

---

(١) وقد طبع مؤخراً بتحقيق الأستاذين الكريمين عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط في (٦) مجلدات. (الناشر)

(٢) أي لا توجد مراجع ومصادر بين يديه. (الناشر)

(٣) زاد المعاد: ١/ ١٥.

(٤) اقرأ: ١/ ١٨ للمطبعة النظامية.

المباركة ومعانيها ودقائقها ببحث لطيف، ولم يترك في هذا البحث مسائل ونكتاً من النحو والفقه، وما يتعلّقُ بالذوق والوجدان إلا وقد ذكرها كلها، كعادته وعادة شيخه في ذلك.

وبهذه المناسبة جمع كل ما يتصل بالسيرة وشخصية النبيِّ ﷺ من التفاصيل، حتى تكوّنتْ ذخيرةٌ قيّمةٌ للأخلاق والشمائل والعادات النبوية[١].

ثم إنه تناول عبادات النبيِّ ﷺ وهيئةِ صلواتِه، وسننها، وعاداته، بتفصيلٍ دقيق، يعتبَرُ عصارةَ دراستِه للحديث والعلوم الدينية، وهو يتجلّى في ذلك بلون المحدث، وأسلوبه المحقق، وقد تضمَّنَ هذا البحث كلاماً دقيقاً بأصول الحديث والفقه[٢]، ومعلوماتٍ مهمة بفنّ الرجال[٣].

إنّ أبواب الكتاب التي تشمل بيان العبادات والأركان الأربعة ليست مجّردَ كتابٍ للأحكام والخلافيات الفقهية، بل إنّها تتضمَّنُ نكتاً علمية لطيفة، ومعاني غزيرة للذوق والوجدان، تبعث الإيمان من جديد.

وقد ذكر في بيان الزكاة والصدقة: «كان ﷺ أشرح الخلق صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، فإنّ للصدقة وفعلِ المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلى ما خصّه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة، وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حساً، وأخرج حظ الشيطان منه»[٤].

واهتمَّ المؤلف ببيانِ حِكْمَةِ العبادات والأركان، والأحكامِ وأسرارها، وفوائدها، قبل أن يتحدّثَ عنها، وقد تصدّى بعرضٍ تاريخيٍّ للتشريعِ وحكمتِه في هذه العبادات والأركان وفوائدها، بأسلوبٍ شيق جذاب.

أما الجزء المهم لهذا الكتاب، الذي يشهدُ على علوِّ كعب المؤلف، وسَعةِ

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٢٥ـ٤٩.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٦٩ـ١٠٥.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٧٣ـ٩٩.
(٤) المرجع السابق: ١/ ١٥٨.

اطلاعه، واستحضاره للعلم هو باب **الحج**، فإنني لم أطلعْ في أيِّ كتابٍ على مثل هذه الذخيرة العلمية، والتحقيق الجامع، والبحث الدقيق عن الحج ومناسكه، وحجة النبي ﷺ وأحكامها، ويمتدُّ هذا البحث في الطبعة المصرية من ص ١٨٠ إلى ص ٣٤٩، يعني في ١٦٩ صفحة[١]، تناول المؤلِّفُ بيانَ حجة النبي ﷺ بغايةٍ من التفصيل، من خروجه من المدينة، إلى عودته إليها، وهو ملخص لذخائر مختلفة للحديث، ومجموعة للروايات الصحيحة والجزئيات الكثيرة[٢].

إنَّه في ضمن هذا البحث يلقِي ضوءاً على كثير من مباحث الحج الخلافية، والمسائل المختلف فيها، ذكر حكمها في ضوء الحديث باجتهاده وبرأيه، ويبدو أنه لا يتقيّدُ في ذلك بمذهب معين، فرغم أنّه حنبلي، يثبت بالدلائل أن النبيَّ ﷺ لم يكن مفرداً، بل قارناً.

ثم إنّه يضعُ الأصبع على مواضع الخطأ والخلافات التي ترجع إلى المتقدمين والمتأخرين في بيان كيفية حج القران للنبي ﷺ، ويشيرُ إلى مصدرها، وعذرهم فيها[٣].

كما أوضحَ الأوهام التي عرضت لكبار العلماء والمحققين في حجة النبي ﷺ قديماً وجديداً، وذكر القولَ الفصلَ في ذلك، فمن التابعين طاوس، ومن المتقدمين الطبري، ومن المتأخرين القاضي عياض، والعلامة ابن حزم وأمثالهم من أساطين العلم والرجال، وقعوا في بعض الأخطاء والأوهام في تفاصيل حجة النبيِّ ﷺ، التي صَحّحَها المؤلف[٤]، وبذلك نستطيع أن نقدِّرَ مدى رسوخه وتبحره في العلم.

والحقيقة أنَّ مجردَ باب الحج في هذا الكتاب يكفي لمعرفة قيمة الكتاب، وإمامة مؤلفه، وجلالة قدره.

---

(١) وقد أفرد بالنشر بعنوان (مناسك الحج والعمرة). (الناشر)

(٢) وللاطلاع على التفاصيل والجزئيات راجع كتاب الفقه.

(٣) زاد المعاد الطبعة النظامية: ١/ ١٨٥ ـ ١٩٠.

(٤) انظر (فصل في الأوهام): ١/٢٤٩ ـ ٢٥١.

وقد جاء المؤلف في ثنايا الكتاب بمباحث كلامية وعقائدية تشهد بعلوّ مكانته، وسعة نظره وتحقيقه، وحاول التعبيرَ الصحيحَ عن روح الشريعة، متبعاً في ذلك ذوقه وذوق شيخه.

ومما يجدرُ بالدراسة والاستفادة في هذا الموضوع هو ما بحث فيه عن حقيقة التوكل والتوسل بالأسباب في تحقيق دقيق[1].

وقبل أن يبدأ الكلام عن الغزوات بحَثَ عن حقيقة الجهاد ومراتبه في غاية من التحقيق والمعرفة كعادته، وذكر بدءَ دعوة الإسلام، وأحوال مكة آنذاك، والهجرة إلى المدينة، وفرضيّة الجهاد، والغنيمة، والصلح، والأمان، والجزية، والمعاملة مع أهل الكتاب، وأحكام المنافقين بتفصيل كبير.

وهو بمناسبة ذكر فرضية الجهاد ومشروعيتهِ تحدّثَ عن قيمة النفس، وضآلتها بإزاء حقيقة الجنة ونعيمها بحماس وقوة وأسلوب يستهوي القلوبَ، وهو نموذجٌ رائعٌ لقوة كتابته وإيمانه.

ثم تعرّضَ لذكر مغازي النبيِّ ﷺ وبعوثهِ ومهماته بترتيب، وبما أنّ له اطلاعاً واسعاً على الحديث والسيرة معاً - وهو نقّاد ومحدّث أكثر من مؤرخ - يتميّزُ هذا الجزءُ من كتابه أيضاً بالنسبة إلى كتب السيرة الأخرى، وأن قوله فصلٌ في الأمور الخلافية، وهو عندما يتحدّثُ عن الوقائع والأحداث يأتي بتفسير الآياتِ ولطائِفها وأسرارِها في أسلوبه الخاص به.

ومن دأبه في بيانِ الغزواتِ أنّه يتناول كلَّ ما يتعلّقُ بها من الأحكام الفقهية، أو ما يستنبط بها من المسائل والأحكام، فمثلاً بعد ذكر غزوة خيبر عقَد فصلاً مستقلاً «فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية»[2] وبعد غزوة الفتح «فصل في إشارة إلى ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف»[3]، وكذلك بعد غزوة حنين

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٢٦٤-٢٦٦.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٩٣.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٠٠.

وأوطاس «فصل إلى إشارة ما تضمنت هذه الغزوةُ من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة»[1]، وما إلى ذلك مما يشحنه بمواد قيمة ومعلومات مهمة.

وهو في هذه الغزوات والوقائع ليس مقلِّداً أو ناقلاً لأقوال المتقدمين من أهل السير والمغازي، فإنَّه عارضهم في بعض المناسبات في أمورٍ اشتهرت بين الناس، وقدّمَ فيها تحقيقاً خاصاً بدراسته الشخصية، وفهمه العميق، فمثلاً: يُعْرَفُ بوجه عام؛ وَتَذْكُرُ كتبُ السير والتاريخ، أنَّ نسوةَ الأنصارِ وبناتِهم أنشدنَ هذه الأبيات:

طَلَــعَ البــدرُ علينــا ... مـــن ثَنِيّـــاتِ الـــوداع
وَجَــبَ الشّكــرُ علينــا ... مَــــا دَعـــــا للهِ دَاع
أَيُّهـــا المبعــوثُ فينــا ... جِئْــتَ بــالأمــرِ المُطَــاع

عندما كان النبيُّ ﷺ يدخلُ المدينةَ مهاجراً من مكة، ولكنَّه يعارضُ هذا الرأي، ويرى أنَّ هذه الأبيات إنّما أُنشِدَتْ لدى عودته ﷺ من غزوة تبوك، التي هي في جهة الشام كما يقول:

«وبعضُ الرواةِ يهمُ في هذا، ويقول: إنّما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهمٌ ظاهِرٌ، فإنَّ ثنيات الوداع إنّما هي من ناحية الشام، لا يراها القادِمُ من مكة إلى المدينة، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجّهَ إلى الشام»[2].

وبعد ذكر غزوة تبوك أيضاً، تصدّى لذكر أحكامِها[3] وفوائدِها، بتفصيل يتضمّنُ فوائدَ مهمة، ومعلومات فقهية، واستنباطاتٍ لطيفة، وأحكام اجتماعية ومدنية.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٤٣٩.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٤٦٦؛ [وانظر ما قاله المؤلف في كتابه (السيرة النبوية)، ص١٩٤ وما بعدها من طبعة دار القلم بدمشق. (الناشر)].
(٣) اقرأ (فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد): ١/ ٤٦٩ ـ ٤٨٢.

ولما فـرغ من بيان الغزوات والبعـوث بدأ بذكـر قدومِ وفـودِ العربِ في تفصيلٍ[1]، وذكر وفودَ النبيِّ ﷺ ومكاتيبه التي وجهها إلى ملوك العالم وأُمراء القبائل[2].

أما الجزء الثاني من الكتاب فمعظمُه يختصُّ بالطبِّ النبويِّ، ذكر فيه أسرار الطبِّ النبويِّ وحكمه وتوجيهاته الطبية، وجمَع في هذا البحث الأحكام الطبية مع الأحكام الفقهية والمباحث الحديثية[3]، وقـد بذلَ جهداً في جمع تلك الأدويـة والأغذية والمفردات في مكان واحد، بترتيب حروف الهجاء، التي يتصلُ بها حديـثٌ صحيح أو ضعيف أو مـوضوع، وما أخذَ عليها من الناحيـة الطبية وبيّنَ خـواصّها[4]، ويمكن تقديـرُ مدى دراسـتِه الواسعة للحياة، وأمراض القلب، واطلاعه الواسع على نفسيّة الإنسان، بما قد ذكره في باب الأمراض والمعالجات من مرض العشـق والحب، وعلاجه، وحقيقـة المحبة، وأسـبابها الطبيعيـة، وأقسامها ودرجاتها، ثم علاجها والتدبير لها[5].

ولا شكّ أنّ الحقيقةَ هي ما ذكرها شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) عن هذا الطبّ النبوي من أنّ مكانة هذا الطب ليست تبليغيّةً، ولا تشريعيّةً، إنّما يبنى على تجاربه ﷺ وعاداته، وتجارب العرب وعاداتهم[6].

وعلى كلٍّ فإنّ لِمُعَظِّمي أقوالِ النبيِّ ﷺ، والمعجبين بتوجيهاته في كلِّ فنٍ عن إيمانٍ ويقين معلوماتٌ قيمة في هذا الجزء من الكتاب.

ولمّا فرغَ من بيانِ ذلك، التفتَ إلى أحكام النبيِّ ﷺ في القضايا، واستطاعَ أن يجمعَ ذخيرةً غاليةً واسعةً لأبواب الفقه المختلفة، وكأنه ألّفَ كتاباً بالفقه،

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٤٨٣ـ ٥١٨.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٥١٨ و٢/ ١٤١.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٤١.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٩٨.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٩٢ ـ ٩٧.
(٦) حجة الله البالغة باب (بيان أقسام علوم النبي ﷺ): ١/ ١٠٢ طبعة مصرية.

يبنى على الأحاديث والأحكام والأقضية[1].

وإنّ هذا الكتاب يتضمّنُ عدا هذه الفصول والأبواب تحقيقاتٍ ولطائفَ تفسيرية ونحوية وتاريخية وكلامية قيمة، تتفرّقُ في ثنايا ألف صفحة من الكتاب.

ومما ينتقَدُ على هذا الكتاب أنّه خليطٌ للعلوم الإسلامية كلِّها من السيرة، والحديث، والفقه، والتاريخ، والكلام، والنحو، والصرف، ولعل نفسية أستاذه وشيخه كانت تعمَلُ فيه لدى تأليف هذا الكتاب، فإنّه لا يلبثُ إلا وينتهز أضعفَ مناسبةٍ للتعرّضِ لمسألةٍ كلاميةٍ أو نحويةٍ، ثم يتفرّغُ للكلامِ عنها بغاية من الشرح والتفصيل.

فإنْ أُفْرِزَ من هذا الكتاب كلُّ موضوعٍ على حدة، تسنّت الاستفادة منه[2]، ولكنّـه رغماً من ذلك كلّـه يعتَبَرُ من أهم كتُب الإسـلام، الذي يقوم مقامَ مكتبة بأسرها، وإنّ وجودَه كوجود عالِمٍ كثيرِ الفنونِ، متبحر، ومحقق في العلوم، نال به آلاف مؤلفة من طلاب الحق ومتبعي السنة هداية دينية، وغذاء روحياً وحلاوة إيمانية.

وفاته:

توفي في عام ٢٣ رجب ٧٥١هـ يوم الأربعاء ليلاً، وصُلّي عليه في اليوم الثاني بعد صلاة الظهر في المسجد الجامع[3]، ودفن في مقبرة (الباب الصغير)[4]، رحمه الله ورفع درجاته.

* * *

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٤٢ إلى آخر الكتاب.

(٢) وقد قام بهذا العمل الأستاذ صالح الشامي حفظه الله. (الناشر)

(٣) أي الجامع الأموي. (الناشر)

(٤) وقبره إلى يسار الداخل، معروف إلى الآن. (الناشر)

الفصل الثاني

الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي

ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذين حصل لهم تبحر في علم الحديث والسنة، وقضوا جُلَّ حياتهم في خدمة السنة ونشرِها، وفي الإصلاح والدعوة. والذين حازوا قصب السبق والميزة والشهرة عدا الحافظ (ابن القيم) هم:

(ابن عبد الهادي)، و(ابن كثير)، و(ابن رجب) بوجه خاص.

عاش ابن عبد الهادي أقل من ٤٠ سنة، ويقدِّرُ مؤلفو السير والتاريخ أنه لو امتدت به الحياةُ لكان من كبارِ علماءِ عصره، وفاقَ كثيراً من العظماء، وقد شهدَ بذلك الصفديُّ بقوله: «لو عاش لكان آيةً».

وذكره العلامة الذهبي في (معجمه) فقال:

«هو الفقيهُ البارع المقرىءُ المجوِّدُ المحدثُ الحافظ النحوي الحاذق، ذو الفنون، كتب عنّي، واستفدتُ منه»[١].

ويقول عنه العلامة أبو الحجاج المزي اعترافاً بفضله: «ما التقيتُ به إلا واستفدتُ منه»[٢].

ونفس هذا الاعتراف مرويٌّ عن العلامة الذهبي أيضاً[٣].

ويقول الصفدي:

---

(١) الدرر الكامنة: ٣/ ٣٢٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٣٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

«كنتُ إذا لقيتُه سألتُه عن مسائلَ أدبيةٍ وفوائدَ عربيّةٍ، فينحدِرُ كالسيلِ»[١].

ويتحدّث عنه الحافظ ابن كثير (صاحب التاريخ والتفسير) فيقول:

«حصّل من العلوم ما لا يبلغُه الشيوخ الكبار، وتفنّنَ في الحديث، والنحو، والتصريف، والفقه، والتفسير، والأصلين[٢]، والتاريخ، والقراءات.

وله مجاميع وتآليف مفيدة كثيرة.

وكان حافظاً جيّداً لأسماءِ الرجال، وطرق الحديث، عارفاً بالجرح والتعديل، بصيراً بعلل الحديث، حسنَ الفهم له، جيّدَ المذاكرة، صحيحَ الذهنِ، مستقيماً على طريقة السلف، واتباع الكتاب والسنة، مثابراً على فعل الخيرات»[٣].

حياته بإيجاز:

هو شمس الدين محمد الملقب بالعماد، يكنّى أبا عبد الله، وأبا العباس، عُرِفَ بوجهٍ عام بابن عبد الهادي ونسبه هكذا:

محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف ابن محمد بن قدامة، والموطن الأصلي لأسرته هو بيتُ المقدس، ولكنّها انتقلت إلى دمشق، وسكنت في (الصالحية) بدمشق، حيث ولد ابن عبد الهادي عام ٧٠٤هـ[٤].

قرأ القرآن بقراءات مختلفة، وقرأ الحديث، ومعظم كتب الدرس، على القاضي أبي الفضل سليمان بن حمزة، وأبي بكر بن عبد الدائم، وعيسى بن المطعم الحجار. وزينب بنت الكمال. وغيرِهم من الشيوخ الكبار وأساتذةِ الفن.

واشتغل بالحديث وفنونه، وبرعَ في الرجال وعلل الحديث بصفة خاصة، وتفقّه في المذاهب.

---

(١) الدرر الكامنة: ٣/ ٣٣٢.

(٢) أصول الدين وأصول الفقه. (الناشر)

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٢١٠.

(٤) ابن رجب، ولكن عند ابن كثير ٧٠٥هـ.

كما كانت له براعة كاملة في الأصلين وعلوم العربية، يقول ابن رجب:

«ولازم الشيخ تقيَّ الدين ابنَ تيميَّة مدةً، وقرأ عليه قطعة من (الأربعين في أصول الدين) للرازي»[1].

أما شيخُه في الفقه فهو الشيخ (نجم الدين الحراني) ولازم المحدث الشهير والعالم الكبير الحافظ أبا الحجاج المزي عشر سنين، وتلقّى العلمَ من العلامة الذهبي أيضاً، وقد اعترف الذهبي بتفوّقه في الرجال والعلل والعلوم الأخرى، وتولّى رئاسة التدريس في (المدرسة الصدرية) و(الضيائية) لمدة طويلة، كما ذكره الحسيني.

تحدّث ابن كثير عن وفاته، فذكر أنّه بقي مصاباً بجرح، وحمى السل نحو ثلاثة أشهر، ثم اشتدَّ هذا المرض، وكثُر الإسهالُ حتى توفّيَ يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى عام ٧٤٤هـ، قبل أذان العصر.

وقال ابن كثير: أخبرني والده بالكلمات الأخيرة التي انطلق بها لسانه، فكانت «أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين».

وصلي عليه في اليوم التالي في(الجامع المظفري)[2] وحضر صلاته جميعُ أعيان البلد من القضاة والعلماء والحكام والتجار والعامة من الناس، يقول ابن كثير:

«وكانت جنازتُه حافلةً مليحةً عليها ضَوءٌ ونورٌ، ودُفِنَ في (الروضة)[3] بجوار السيف بن المجد»[4].

مؤلفاته:

خلّف ابنُ عبد الهادي عدداً كبيراً من المؤلفات، بالرغم من قصر عمره،

---

(١) فخر الدين الرازي. (الناشر)

(٢) في الصالحية، ويعرف الآن بجامع الحنابلة. (الناشر)

(٣) في سفح قاسيون وفيها قبر ابن مالك النحوي صاحب الألفية. (الناشر)

(٤) البداية والنهاية: ١٤/ ٢١٠.

وهي تحتلُّ أهميةً كبرى، لغزارة موادها، وجَوْدَةِ تأليفها، وعدد صفحاتها[1]، ويحتوي عددٌ منها على عِدّةِ مجلدات.

ونذكر أهم مؤلفاته من بين ما ذكره الحافظ ابن رجب في (ذيل طبقات الحنابلة):

١ ـ الأحكام الكبرى (٧ مجلدات).

٢ ـ المحرر في الأحكام (مجلد واحد)[2].

٣ ـ كتاب العمدة في الحفاظ (مجلدان).

٤ ـ تعليقة للثقات (مجلدان).

٥ ـ أحاديث الصلاة على النبيِّ ﷺ (مجلد واحد).

٦ ـ الإعلام في ذكر مشايخ الأئمة الأعلام، أصحاب الكتب الستة (أجزاء متعددة).

٧ ـ كتاب ضخم في مولد النبي ﷺ.

٨ ـ تعليقة على سنن البيهقي (مجلدان).

٩ ـ ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية (مجلد واحد)[3].

١٠ ـ منتقى من تهذيب الكمال للمزي (٥ مجلدات).

١١ ـ منتخب من مسند الإمام أحمد، (مجلدان).

١٢ ـ منتخب من البيهقي.

١٣ ـ منتخب من سنن أبي داود.

---

(١) ويشبه في ذلك عالم الهند الكبير الشيخ العلامة عبد الحي عبد الحليم الأنصاري اللكنوي المتوفى سنة ١٣٠٤هـ الذي عاش ٣٩ سنة فقط، ولكن خلف ذخيرة كبيرة ومفيدة جداً من مؤلفاته.

(٢) وهو مطبوع.

(٣) واسمه (العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، وقد طبع بعناية الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله. (الناشر)

١٤ ـ شرح الألفية لابن مالك، (مجلد واحد).

١٥ ـ نقده لمؤلفات الذهبي والتعقيب عليه (في أجزاء متعددة).

١٦ ـ الرد على أبي حيان النحوي.

عدا ما له من رسائلَ مستقلةٍ تطولُ قائمتُها.

ولمّا ألف العلامةُ تقيُّ الدين ابن السبكي في الردِّ على مسألة الزيارة لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب (شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام) تناوله العلاّمة ابن عبد الهادي بالنقد والتحقيق في ضوء الحديث، وألف كتاباً باسم (الصارم المنكي في الرد على السبكي) وهو خير دليلٍ على براعتهِ العلمية، وسعة اطلاعِه على السنة ورجال الحديث[1].

* * *

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٣١٩هـ في المطبعة الخيرية بمصر.

الفصل الثالث

الحافظ ابن كثير[1]

اسمه ونسبته ومكانته العلمية:

هو عماد الدين إسماعيل بن عمر، يُكنّى أبا الفداء، ويعرف بابن كثير، كان قيسيّ الأصل، ولد في عام ٧٠١هـ بقرية (مجيدل) في نواحي بصرى الشام، حيث كان والدُه خطيباً، وانتقل إلى دمشق في عام ٧٠٦هـ مع والدِه، وقرأ الفقه على الشيخ (برهان الدين الفزاري) وغيره من الفقهاء، وسمع الحديث، ورواه عن ابن السويدي، والقاسم ابن عساكر، وغيرهما من شيوخ الحديث، وهو من أخصِّ تلاميذِ العلامة (المزي) وكان صهرَه أيضاً، وأكثر رواية عنه، اشتغل بالفتاوى والتدريس والمناظرة، وبرعَ في الفقه والتفسير والنحو، توسّعَ في فن الرجال، وعللِ الحديث، واشتهر فيها بدقة نظره، وسعة اطلاعه، دَرَس في مدرسة (أم الصالح)، كما درس في (المدرسة التنكزية) بعد وفاة العلامة الذهبي، وكان الذهبيُّ يعترِفُ بفضله وعلمه، يقول:

«هو فقيهٌ متقِنٌ، ومحدِّثٌ محقِّقٌ، ومفسِّرٌ نقّادٌ، وله تصانيف مفيدة».

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني فكان معجباً به، يقول:

«كان كثير الاستحضار، وسارت تصانيفُه في البلادِ في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته».

وبالرغم من أنّه شافعيُّ المذهب، كان شديد الإعجابِ بشيخ الإسلام ابنِ تيميّة، ومعترفاً بإمامته وعظمته، وقد تلمذَ عليه، يقول عنه ابن حجر: «أخذَ عن ابن تيمية، ففُتِنَ بحبّه، وامتُحِنَ بسببه»، وقد اهتمَّ بذكر سيرته بغاية من التفصيل والشغف، ودافع عنه دفاعاً كاملاً في كتابه (البداية والنهاية) الذي استفدنا منه في

أكثرِ المواضعِ من كتابنا هذا، الذي يحتوي على حياة شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومن مؤلفات ابن كثير[1] :

١ ـ (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) في خمسة مجلدات .

٢ ـ (الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن) .

٣ ـ (تخريج أدلة التنبيه) .

٤ ـ (مسند الشيخين) .

٥ ـ (علوم الحديث) .

٦ ـ (طبقات الشافعية) .

وكان قد بدأ بتأليف كتاب مبسوط مفصل في الأحكام، ولكنّه ما تم، وقد دون مسند الإمام أحمد بترتيب الحروف وضمَّنه زوائد الطبراني وابن أبي يعلى .

إلا أن مأثرته التأليفية تتلخَّصُ في كتابين اثنين نالا حظوةً وقبولاً، ولا تزالُ الأوساطُ العلميّةُ تستفيدُ منهما إلى الآن .

١ ـ تفسير القرآن العظيم :

فله كتابٌ في تفسير القرآن أسسه على المنقولات والروايات، يعتبر أكثر قبولاً وثقة بالنسبة إلى مؤلفاته الأخرى، يقول عنه العلامة السيوطي : «له التفسير، الذي لم يؤلَّفْ مثله» إذ إنّ الكتبَ التي ألفها الناس في التفسير قبل ذلك كانت تنقصُها الأمانةُ العلميّةُ والاختيارُ الصحيحُ للأحاديث، وكانت تزخَرُ بالأحاديث الضعيفة والإسرائيليات، ولكنَّ الحافظ ابن كثير كان محدِّثاً ناضجاً، فألَّفَ تفسيرَه على طريقة المحدثين، وإن لم يستطع أن يراعي فيه المستوى الرفيع في إدراج الروايات كما كان يُرْجَى منه، وتوسّعَ في ذلك بعضَ الشيء وأورد فيه جزءاً من الإسرائيليات، ولكن والحق يقال، إن تفسيرَه هذا ـ على رغم كل ذلك ـ أكثر التفاسير ثقة وإفادةً من

---

(١) وهذه قد طبعت جميعها. (الناشر)

وجهة نظر التحديث، وقد أصدرَ منذ مدةٍ أحد علماء مصر الأفاضل المعاصرين الأستاذ أحمد محمد شاكر ملخّصاً لتفسير ابن كثير باسم (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير)[1] الذي حذف فيه الأحاديث الضعيفة، والإسرائيليات غير الموثوق بها، والأقوال المكررة، والأسانيد والمباحث الكلامية الطويلة، والفروع الفقهية، والمناقشات اللغوية واللفظية، وكل ذلك مع الإبقاءِ على محاسن الكتاب، ومواضعِ الجمال فيه.

٢ ـ البداية والنهاية:

وثاني كتبه المهمة الذي نال قبولاً وإعجاباً لدى الأوساط العلمية كلِّها (البداية والنهاية) الذي صدر من مصر عام ١٣٥١هـ في أربعة عشر مجلداً، وهو يحتوي ـ على عادة المؤرخين العرب ـ على التاريخ، من أحداث بدءِ الخليقة إلى أحداثِ عام ٧٦٧هـ.

والمعلومُ أنّ تاريخ العلامة (ابن الأثير) المعروف (بالكامل) ينتهي بأحداث عام ٦٢٨هـ فكان كتابُ (البداية والنهاية) زيادةً عليه بأحداث وتاريخ قرن واحد وتسع وثلاثين سنة، وإنَّ هذا العصر ذو أهمية بالغة من ناحية الأحداث التاريخية من جرّاءِ الهجوم التتري، وخطورة القرن الثامن الهجري، فكان هذا الكتابُ لأجلِ ذلك، ولثقتِه وتفاصيلِه التاريخية مرجعَ أكثرِ المؤرّخين.

توفي الحافظ ابن كثير في شعبان عام ٧٧٤هـ ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق[2].

* * *

---

(١) صدرت منه (٥) أجزاء فقط.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين أبي المحاسن الحسيني؛ وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي.

الفصل الرّابع

الحافظ ابن رجب الحنبلي[1]
وترجمته باختصار

هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ونسبه هكذا: عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي، وكان موطنُه الأصلي في (بغداد) حيث ولد في ربيع الأول سنة ٧٣٦هـ، وفي عام ٧٤٤هـ سافر وهو صغير إلى دمشق مع والده، وسمع الحديث عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز، وعن إبراهيم بن العطار وغيرهما من شيوخ الحديث. وروى الحديث في مصر عن أبي الفتح الميدومي، وأبي الحرم محمد بن القلانسي وغيرهما، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنّه اشتغل بالحديث، وأكثرَ روايته، حتى برعَ في فن الحديث.

وقد تحدّثَ عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين ابن فهد المكي المتوفى سنة ٨٧١هـ، وقال في (لحظ الألحاظ) هامش (تذكرة الحفاظ): «الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين»[2]، وهو يشيدُ به عندما يذكر ترجمته، ويقول: «كان إماماً ورعاً زاهداً، وضعَ اللهُ حبَّه في القلوبِ، أجمعَ النَّاسُ كلُّهم على صلاحِه وفضله، مجالس وعظه عامة، وذات فائدة وتأثير كبيرين»[3].

---

(١) على أنّ الحافظَ ابنَ رجب ليس تلميذ شيخ الإسلام عن طريق مباشر، فقد ولد بعد وفاته بثماني سنوات، ولكنّه تلميذُ تلميذِه النابغة الحافظ ابن القيم، ومعجَبٌ بهما جميعاً، وهو يُعتبَرُ من رجالِ شيخ الإسلام، ومقلّداً له في كلِّ شيءٍ سوى عدة مسائل.

(٢) لحظ الألحاظ، ص١٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٨١.

ويقول الشهاب ابن الحجي عن فضله العلمي: كان محقِّقاً ذا بصيرة فائقة في فنِّ الحديث، وكان أكثرَ معاصريه اطّلاعاً على علل الحديث وطرقه، وإنّ أكثرَ علماء الحنابلة في عصرنا من تلاميذه.

توفي في رجب سنة ٧٩٥هـ، ودُفِنَ في مقبرة الباب الصغير بدمشق[١]، ويقال: إنّه جاء إلى الحفار فقال لـه: احفر لي هنا لحداً، وأشـار إلى بقعة، قال الحفار: فحفرتُ له، فنزلَ فيه، فأعجبَه واضطجَع، وقال: هذا جيّدٌ، فماتَ بعد أيامٍ، فدفن فيه[٢].

مؤلفاته:

ومن مؤلفاته[٣]:

١ ـ (شرح لجامع الترمذي) في نحو عشرين مجلداً.

٢ ـ شرح (جزء من صحيح البخاري) وكان قد سمّى شرحه للبخاري (فتح الباري) ولكنّه لم يكتمل، وصل فيه إلى كتاب الجنائز.

٣ ـ ذَيَّلَ على (طبقات الحنابلة) لابن أبي يعلى[٤].

٤ ـ كتاب باسم (لطائف المعارف في مواسم العام من الوظائف) بأسلوب الوعظ، ويشتمل على الفوائد.

٥ ـ (القواعد الفقهية)، ويسمى: تحرير الفوائد وتقرير القواعد.

٦ ـ شرح (الأربعين للإمام النووي)، وكان يضم (٤٢) حديثاً فزاد إليها

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) الدرر الكامنة: ٢/ ٣٢٢.

(٣) وقد أحصى منها الأستاذ ياسين السواس (٧٣) مؤلفاً ذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب (لطائف المعارف) لابن رجب، ص١٣ ـ ١٩. (الناشر)

(٤) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب في مكتبة ندوة العلماء بالهند، وقد صدر الجزء الأول مطبوعاً في دمشق منذ سنوات. [ثم طبع تاماً في جزءين بعناية الشيخ محمد الفقي بمصر سنة ١٣٧٢هـ. (الناشر)].

ثمانية أحاديث، وقد صدَّرَ هذا الشرح باسم (جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) وقد طبع في عام ١٣٤٦هـ من مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٧ـ شرح مستقل آخر لحديث (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم . . . إلخ)[١].

٨ ـ (رسالة فضل علم السلف على الخلف)، وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة، ونالت رواجاً.

وتتجلى في مؤلفاته روح الحافظ ابن القيم الإسلامية والدعوية، وحلاوة أسلوبه وطلاوته.

* * *

وهناك عددٌ كبير من العلماء في القرن الثامن والتاسع عدا تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذ تلاميذه المذكورين ممن لا يصرِّحُ التاريخُ بأنهم تلاميذ مدرسة شيخ الإسلام، إلا أنَّ مؤلفاتهم تنطِقُ بأفكارِ شيخ الإسلام وروحِه وعلمِه، ودعوتِه، وسواه استفاد هؤلاء العلماء من تلاميذِ شيخ الإسلام ومؤلفاتِه أم لم يستفيدوا، ولكنّهم لاتحادِ ذوقِهم وفكرِهم جديرون بالاعتبار في وصف تلاميذه والمتخرجين من مدرسته.

وأخصُّ بالذكر من بين هذه الشخصيات مؤلِّفَ كتاب (الموافقات) العلامة البارع أبا إسحاق الشاطبي (المتوفي ٧٩٠هـ) الذي يبدو كتابه (الاعتصام) حلقةً من هذه السلسلة الإصلاحية، التي كان قد بدأها شيخُ الإسلام في عصره، وهو كتاب جيّدٌ في موضوع السنة والبدعة، ويمتازُ بمواده الغزيرة، وبحوثه الأصولية.

* * *

---

(١) واسمه (ذم المال والجاه)، وقد نُشرت معظم مؤلفاته محققةً. (الناشر)

الفهرس

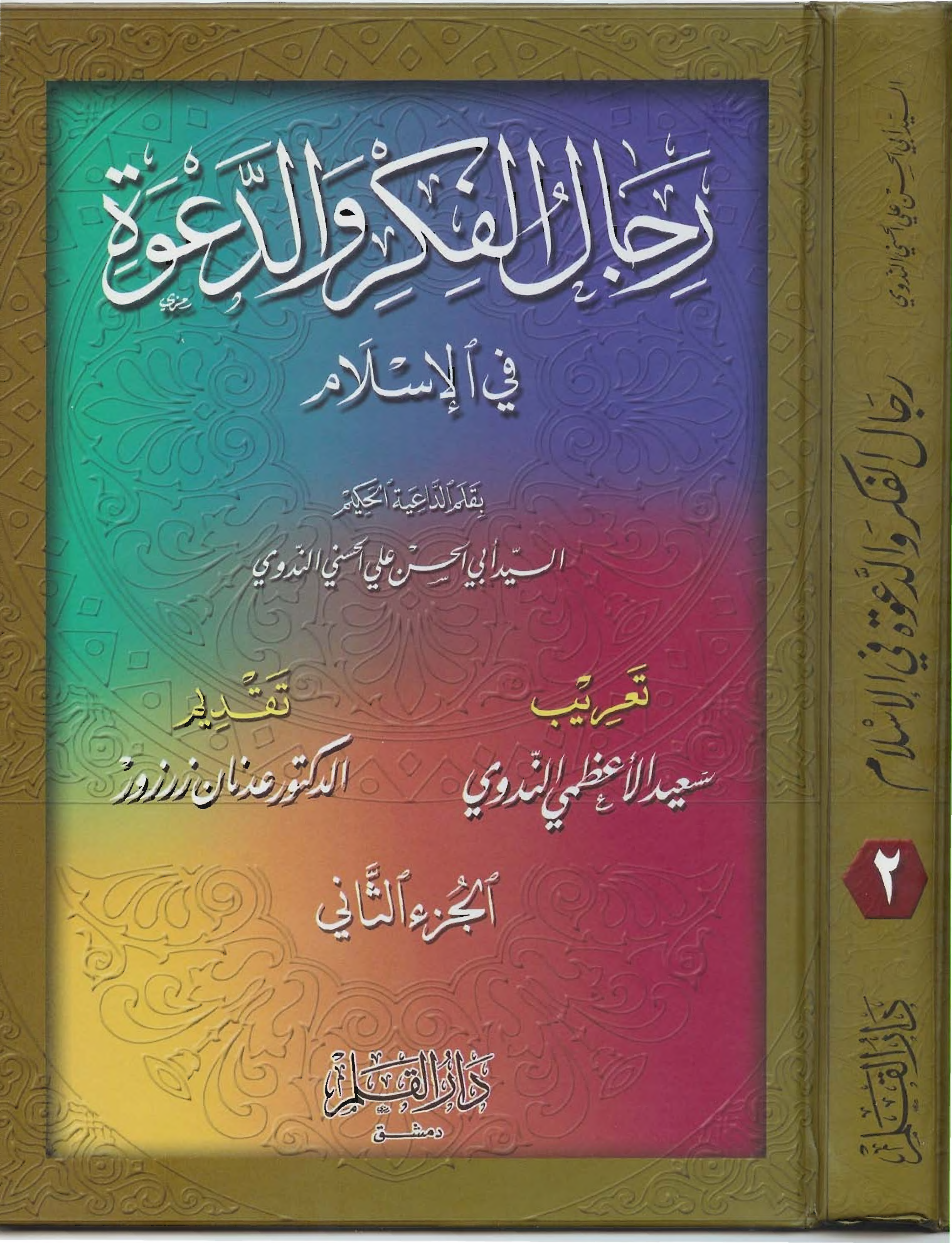
الموضوع | الصفحة

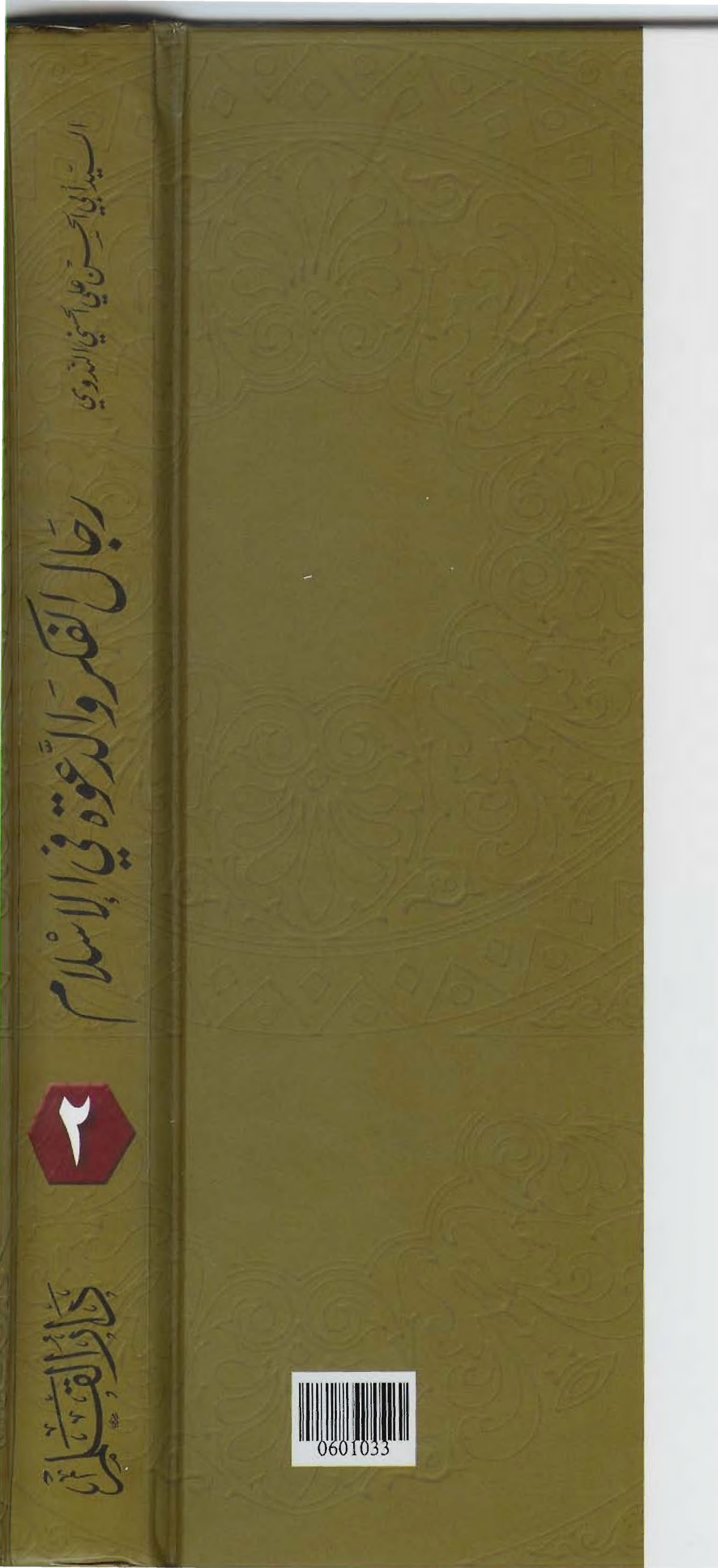
الباب الثاني
الدور الإصلاحي والتجديدي لشيخ الإسلام ابن تيمية

الباب الثالث

تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء

* * *


رجال الفكر والدعوة
في الإسلام
بقلم الداعية الحكيم
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
تعريب
سعيد الأعظمي الندوي
تقديم
الدكتور عدنان زرزور
الجزء الثاني
دار القلم
دمشق
رجال الفكر والدعوة في الإسلام
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
٢
دار القلم



تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَار القلَم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق

دَار البَشير ـ جدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١